الباحث

مجلة دولية أكاديمية محكمة، تعنى بالتعليميات و العلوم الإنسانية

تصدر عن المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة _ الجزائر–

العدد السابع عشر

جويلية ـ ديسمبر 2017

رقم الإيداع القانوني: 1134–2009

رقم الإيداع الدولي: 1112 – 9557

هيئة التحرير

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور لعموري عليش

مدير التحرير: د/محمد غازي

الهيئة العلمية

أ/د محمود يعقوبي	أد/ عبد القادر بليمان
أ/د عبد الله قلي	أ/د أحمد بلحوت
أ/ د محمد الهادي بوطارن	أ/د نادية تيحال
ا/ د بلقاسم بن طيفور	أ/د ياسمين عتيقة قارة
أ/د علال خالد كبير	أ/د عبد العزيز شهبي
أ.د/أحمد مريوش	أ/د بشير متيجة
أ.د/عبد الله كمال	أ.د/ مسعود طيبي
د/بركاهم العلوي	د/جيلالي عطاطفة
أ.د/عمر نقيب	أ.د/مزيان سعيدي
د/مليكة ساحل	د. مراد بوعباش

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبد الكريم قريشي(الجزائر)	أ.د. محمد بن فاطمة (تونس)
أ.د. لحسن مادي	أ.د. محمود بوسنة (الجزائر)
أ.د. أحمد بن دانية(السعودية)	أ.د. منجي مديني(فرنسا)

الإشراف التقني

د/.عبد الحكيم بوزايدي *مليكة بلقاضي*

المراسلات: مجلة الباحث: المدرسة العليا للأساتذة 93 شارع علي رملي–بوزريعة– الجزائر

الهاتف: 021941867 الفاكس: 021941865 البريد الإلكتروني enslsh@ensb.dz

قواعد النشر في المجلة

تعنى مجلة الباحث الأكاديمية المحكمة بالأبحاث والدراسات التي تهتم بالتعليميات والعلوم الإنسانية، المكتوبة باللغة العربية والفرنسية أو الانجليزية شرط الالتزام بالقواعد الآتية :

1 - ألا يكون المقال قد سبق نشره.

2 - أن يتصدر المقال العنوان بخط بارز وأسفله على اليسار من الصفحة اسم المؤلف -درجته العلمية ومؤسسة الانتماء إضافة إلى البريد الإلكتروني.

3 - أن يرفق المقال بملخص في حدود 150 كلمة باللغة الفرنسية أو الانجليزية بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغة العربية، أما بالنسبة للمقالات المكتوبة باللغة الفرنسية أو الانجليزية، فيكتب ملخصها باللغة العربية، وأن يتبع بالكلمات المفتاحية (Mots clés) ، وأن يكون حجم الخط بالمقياس 10.

4 -أن يكون المقال مكتوبا على ورقA4 مع ترك هوامش من الجهات الأربع للصفحة، ومراعاة الأبعاد اللازمة بين العناوين والنصوص التي تليها.

5 -أن يكون المقال مكتوبا وفق خط (Simplified Arabic)مقياس 14 بالنسبة للنص، ومقياس 16 بالنسبة للعنوان، وتكتب المقالات باللغات الأجنبية وفق خط (TIMES NEW ROMAN) مقياس 14.

6 -أن تكون الهوامش في قائمة موحدة في آخر البحث.

7 - يجب ألا يتجاوز عدد صفحات المقال 20 صفحة، وألا يقل عن 10 صفحات بما فيها الصفحة المخصصة للهوامش، وألا يزيد عدد الأشكال التوضيحية والخرائط عن 15%من حجم البحث.

8 - لا ترد المقالات المرسلة إلى المجلة لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

9 - يخضع ترتيب المقالات لاعتبارات تقنية.

10 - توجه جميع البحوث والمقالات باسم رئيس تحرير مجلة» الباحث» إلى العنوان الآتي: السيد رئيس تحرير «مجلة الباحث». عبر البوابة الإلكترونية: www.asjp.cerist.dz

المدرسة العليا للأساتذة :93 شارع علي رملي–بوزريعة–

الهاتف: 021941867 الفاكس: 021941865

البريد الإلكتروني : .enslsh@ensb

تطالعون في هذا العدد

الموضوع	بقلم	ص
افتتاحية العدد	محمد غازي	
العوامل الخمس للشخصية وعلاقتها بالتفاؤل والتشاؤم لدى الطلبة المقبلين على التخرج. دراسة ميدانية على مستوى جامعة أكلي محند اولحاج –البويرة–	د/ نبيل منصوري أستاذ محاضر قسم أ جامعة البويرة، الجزائر د/ لوناس عبد الله أستاذ محاضر، قسم أ جامعة البويرة، الجزائر أ/ لوناس أحمد أستاذ مساعد المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة	
تمثّل الطلبة الجامعيين في الجزائر لقيم المواطنة (دراسة ميدانية)	د/ سهيلة بوجلال أستاذة مساعدة، قسم أ جامعة حسيبة بن بوعلي (الشلف)	
آداب طلب العلم (العالم والمتعلّم – الأستاذ والطّالب) من خلال قصة موسى والخضر عليهما السّلام	د.يوسف نواسة أستاذ محاضر أ – المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة.	
المكوّن التداولي في نحو الخطاب الوظيفي	الأستاذ: بن عياش نجيب جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية	
أسلبة اللغة في الخطاب الشعري العربي المعاصر (مقاربة لبعض الظواهر الأسلوبية و الجمالية)	بوعيشة بوعمارة. أستاذ محاضر، قسم أ جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر.	
عتبات المناص في ثلاثية الطاهر وطار بين الوظيفة البنائية والوظيفة الدلالية	عفاف صيفي أستاذة مساعدة، قسم أ المدرسة العليا للأساتذة–بوزريعة	
قراءة جديدة في مطريَّة السيَّاب»	أحمد محمد مشرف الحراحشة أستاذ مشارك جامعة آل البيت / الأردن	
عتبة الغلاف الروائي، صورة للجسد الأنثوي في رواية «شهقة الفرس» للروائية «سارة حيدر»	وفنارة مفيدة, أستاذة مساعدة، قسم أ جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1,	
الرواية: اللعبة الزمنية ومنطق السرد	د.عمر عاشور أستاذ محاضر، قسم أ المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة	
دور الرياضيات في التصور العقلي للطبيعة	بطاش منانة أستاذة مساعدة «أ» المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة	
الألعاب الرومانية في المغرب القديم دراسة تحليلية للمصادر	الدكتور رضا بن علال قسم التاريخ والجغرافيا المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة–الجزائر)	

	اد جميلة بن موسى **أستاذة و باحثة في التاريخ الإسلامي** **بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة**	**دراسات تاريخية** **في ضوء نصوص أوراق البردي العربية**
	د/عبد الرحمان أولاد سيدي الشيخ **أستاذ محاضر، قسم أ** **جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله**	**الموريسكيون ونكبة سقوط الأندلس**
	د. مراد بوعباش **أستاذ محاضر– أ –** **المدرسة العليا للأساتذة . بوزريعة**	تجارب الائتلاف السياسي في الحركة الوطنية الجزائرية 1954 - 1919
	أحمد بن جابو (محاضر أ) **المدرسة العليا للأساتذة**	سي امحمد بوقرة في قيادة الولاية الرابعة ما بين 1959 - 1956
	علوات محمد **أستاذ محاضر (أ)** **المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة،** **رزاز محمد عبد الصمد** **أستاذ محاضر (ب) جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا– الجزائر** **خرور الوردي** **أستاذ محاضر (أ)** **جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا– الجزائر**	أهمية الدراسة السكانية والاجتماعية في التخطيط السياحي دراسة حالة سكان ولاية باتنة – شرق الجزائر
	د. بن قداح وسيلة **أستاذة محاضرة، قسم ب** **المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة–**	إستراتيجية تهيئة المجال الحضري بالجزائر: الأسس والرهانات
	أ.د نضيرة عطاءالله: **أستاذة محاضرة «ب»** **المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة ، الجزائر العاصمة**	**الجهود المبذولة في الجزائر لتطوير القطاع الفلاحي وتحقيق تنمية فلاحية مستدامة.** **دراسة نموذجية:الشريط الساحلي لإقليم ولايات الوسط (الجزائر، تيبازة، بومرداس، تيزي وزو)**
03	Ouahiba Bouchama, Maitre de conférence/B ENS Bouzareah , Alger	Les enjeux de délimitation de l'aire urbaine de la ville de Bejaia
19	CHAIBI Hassiba Maitre de conférences, Classe A E.N.S Bouzaréah	Dire et décrire la honte sociale
34	1. Amel Khireddine PhD student M'Hamed Bougara University, Boumerdes 2. Dr. Lynda Chouiten Maitre de Conferénces A M'Hamed Bougara University, Boumerdes	Deconstructing Marriage and Motherhood in Chaos of the Senses and In the Eye of the Sun

افتتاحيـــة العـــدد

البحث التربوي جهد متواصل لبلوغ ما هو أفضل سواء من حيث المعلومات، أو طرائق تبليغها لأن التطوُّر العلمي يُطَالعُنَا في كل لحظة بالمزيد من الكشوفات التي يجب أن تُوَاكبَها العملية التعليمية، والمعلومات الجديدة ـ في حد ذاتها ـ تحتاج إلى مناهج جديدة. كما أن تعاقب الأجيال المُسْتَهْدَفَة من هذه العملية يقتضي مزيدا من الابتكار في هذا المجال لأن متطلبات الجيل الحاضر تختلف عن متطلبات الجيل السابق، ومتطلبات جيل المستقبل مختلفة عن مثيلاتها في الجيلين، وبما أن التربية تعمل على إعداد أجيال المستقبل يَتَعَيَّنُ عليها أن تساير متطلبات هذه الأجيال. لذا ينكب العلماء والباحثون في هذا الميدان باستمرار على مراجعة المناهج التربوية وإثرائها بأفكار جديدة.

من هدا المنطلق جاء العدد السادس عشر من مجلة الباحث ليسد جزءا من النقص المُسَجَّل في مجال البحث التربوي، حيث تناولت بعض مواضيعه المشكلة التربوية في الجزائر بأطوارها المختلفة وقَدَّمَ أصحابها البدائل التي يرونها فَعَّالَةً للنهوض بهذا القطاع الحَسَّاس، وقد استمدَّت هذه البدائل فعاليتها من دراسات ميدانية قائمة على أُسُس كمية.

بالإضافة إلى هذا تَضَمَّنَ العدد مجموعة أخرى من المقالات المتخصصة في مجال اللغة والأدب العربي، الفلسفة، التاريخ، الجغرافيا، اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية تناولت كلها قضايا خاصة، وهذا ما يجعل الطالب الأستاذ الذي ينتمي إلى المدرسة العليا للأساتذة يتبين بعض الصعوبات التي تواجهه في الميدان سواء أثناء قيامه بالتدريبات الميدانية، أو أثناء قيامه بعملية التدريس بعد التخرج.

لكي يكون الطلبة والأساتذة والباحثون على اطلاع بالمقالات التي تنشر في مختلف المجلات العلمية، ومنها مجلة الباحث عملت مديرية البحث العلمي والتطوير التكنولوجي على مستوى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي على إنشاء بوابة إلكترونية للمجلات العلمية الجزائرية لتُيَسّرَ على الباحثين عملية النشر، ولتُمَكّنَ الدارسين من الوصول إلى مصادر المعلومة.

أملنا أن يجد قراؤنا الأعزاء في هذا العدد ما يُشْبعُ فضولهم المعرفي، وهذا ما يُحَفّزُنا لبذل المزيد من الجهد لتحقيق ما هو أفضل خدْمَةً للعلم والفكر.

مديـــر التحريـــر
محمد غازي

العوامل الخمس للشخصية وعلاقتها بالتفاؤل والتشاؤم لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

دراسة ميدانية على مستوى جامعة أكلي محند اولحاج –البويرة–

د/ نبيل منصوري
أستاذ محاضر قسم أ
جامعة البويرة، الجزائر

د/ لوناس عبد الله
أستاذ محاضر، قسم أ
جامعة البويرة، الجزائر

أ/ لوناس أحمد
أستاذ مساعد
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

Abstract:

This study aimed at investigate the relationship between the five factors of personality and optimism and pessimism at graduating students, To achieve this, the researchers used descriptive analytical method to suit the nature of the study on a sample of 380 from graduating students (second year master) in each of the 60 colleges and institutes at the University of Bouira were chosen in a manner intended and applied for this purpose measures of **Costa** and **MaC-crae** 1992 and the **Silkman** scale of optimism and pessimism prepared by MOAWAD and ABDUL-AZIM, and the results reached:

1. There is a statistically significant correlation between pessimism and neuroticism.

2 - There is a negative relationship between pessimism and after extinction at graduating students .

3 - There is a negative relationship between pessimism and openness to the experience at graduating students .

4 - There is a negative relationship between pessimism and the admissibility at graduating students .

5 - There is a negative relationship between pessimism and the wakefulness of the conscience at graduating students .

6. There is a statistically significant correlation between pessimism and neuroticism at graduating students.

7 - There is a positive relationship between pessimism and after extinction at graduating students .

8. There is a positive relationship between pessimism and openness to the experience of students who are graduating.
9. There is a positive relationship between pessimism and admissibility at graduating students.
10 - There is a positive relationship between pessimism and the wakefulness of the conscience at graduating students .

In light of the result, the researchers recommended:
1 - Design of guidance programs to develop the optimism of students who are coming to graduate to adapt to the working life.
2 - Building a measure aimed at identifying the various types of optimism and pessimism and the dimensions of the major factors of personality.
3 - Open centers in the universities and activate their role more, in order to accompany the student in the course of the school in order to meet the requirements of work.

Key words: optimism - pessimism - major factors of personality - students coming to graduate

الكلمات الدالة: التفاؤل–التشاؤم – العوامل الكبرى للشخصية– الطلبة المقبلين على التخرج.

مقدمة الدراسة وأهميتها:

ولم يعد موضوع دراسة الشخصية موضوعاً حديثاً ، وربما كان الإنسان القديم قد فكر بصورة جدية في مسألة التنبؤ بسلوك الآخرين ولكن دون أن يكون هناك اتجاه علمي واضح في تفسير السلوك(غنيم ، 1983 ، ص 502)

أن دراسة الشخصية تحتل المصدر الرئيس لمعر ف ة مظاهر السلوك البشري وأنها تحتل جوهر الإنسان وترتبط ارتباطاً وثيقاً بأستجابة الآخرين كما تمثل تألقاً ونظاماً لجميع الأشكال المختلفة من السلوك الذي يمارسه الفرد ولا يقتصر موضوع الشخصية على الباحث فيما نحن عليه وإنما فيما يجب أن يكون عليه الإنسان وهي تتكون في نهاية الأمر من أكثر الأشياء تمثيلاً و أعمقها تمييزاً للشخص ، ويتفق اغلب العلماء على أن الشخصية من اعقد الظواهر التي يتعرض لدراستها علم النفس حتى الآن (طه1987 ،ص91)

كما تعد الصحة النفسية من المتطلبات الرئيسة للنجاح في مختلف المجالات، وعلى وجه الخصوص في ظل التسارع في مختلف المجالات في العصر الحديث، ذلك أن احد مسمياته عصر العولمة، وعصر التكنولوجيا وعصر السرعة، مما أضفى على الافراد التوتر، والقلق، وزيادة الحاجة للتكيف مع المواقف المتغيرة، ويظهر ذلك في تعريف فهمي (1979) للصحة النفسية أنها» :علم التكيف أو التوافق النفسي الذي يهدف إلى تماسك الشخصية ووحدتها، وتقبل الفرد لذاته، وتقبل الآخرين له، بحيث يترتب على ذلك شعوره بالسعادة والراحة النفسية«.

وتستحوذ دراسة التفاؤل والتشاؤم على اهتمام بالغ من قبل الباحثين في مختلف المجالات النفسية وذلك

نظرا لارتباط هاتين السمتين بالصحة النفسية للفرد ، فقد أكدت معظم النظريات ارتباط التفاؤل بالسعادة والصحة والمثابرة والانجاز والنظرة الايجابية للحياة، في حين يرتبط التشاؤم باليأس والفشل والمرض والنظرة السلبية للحياة. (الانصاري،وكاضم،2007،ص113)

وفي هذا السياق تشير منظمة الصحة النفسية (2004) إلى أن التفاؤل هو عملية نفسية إرادية تولد أفكارا ومشاعر للرضا والتحمل والثقة بالنفس، وهو عكس التشاؤم الذي يميز الجوانب السلبية للأحداث فقط مما يستنزف طاقة المرء ويشعره بالضعف والنقص في نشاطه، ويضيف "هشام مخيمر و محمد عبد المعطي" (1999) على أن المتفائلين تكون لديهم مشاعر قوية بالبهجة، و شعور بالرضا عن الذات و عن الحياة بوجه عام، فالتفاؤل يرتبط بالمشاعر الإيجابية أكثر من ارتباطه بالمشاعر السلبية، كما أن المتفائل في إدراكه للأحداث والمواقف ينصب على الجوانب الإيجابية أكثر من السلبية، والعكس صحيح بالنسبة للمتشائم، الذي يغلب عليه المبالغة في إدراك جوانب الضعف و القصور و التهوين من المزايا و الإيجابيات و النجاح، فما يصيبنا من نجاح وما نضطلع به من مهام يعتمد على مدى إحساسنا بالتفاؤل، ويتم ذلك من خلال الاستبشار بالنجاح شرط التوافق والتوازن بين المطالب، والتأكد من القدرة على إنجاز الأعمال المسطرة ، فالمتفائل يأخذ من تفاؤله نقطة انطلاقة إلى مستقبل أكثر نجاحا وإشراقا.(مخيمر و عبد المعطي 2002،ص41)

ومما لاشك فيه أن التفاؤل أحد السمات النفسية المهمة إذ يلعب دوراً هاماً في حياتنا اليومية وفي تصرفاتنا وفي علاقتنا بغيرنا ، وعلى الرغم من أهمية التفاؤل في الحياة الانسانية بشكل عام والحياة النفسية بشكل خاص فان تاريخ الاهتمام به حديث نسبياً فقد احتل مركز الصدارة في عدد من الدراسات الشخصية وعلم النفس الأكلينكي وعلم نفس الصحة العامة ، وسجل هذا الاهتمام لدى المدربين بوصفه من المواضيع التي تعطي انطباع حول شخصية الفرد سيحتاج ان يملأ نفسه بعواطف النجاح التي تحرره من البقاء عالقا في الفشل الذي قد يتعرض له ويمكنه من ان يصبح مليئاً بالحماس والطاقة لتقديم افضل انجاز ممكن ، ومن هنا ندرك أهمية التفاؤل والتفكير الإيجابي بالأحداث فالإنسان يستطيع أن يقرر طريقة تفكيره فإذا اخترت أن تفكر بإيجابية تستطيع أن تزيل الكثير من المشاعر غير المرغوب بها والتي ربما تعيقك من تحقيق الأفضل لنفسك، ويرتبط الاتجاه العقلي الإيجابي ارتباطًا وثيقًا بالنجاح في كل مجال من مجالات الحياة، والتفكير الايجابي هو التفاؤل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى والنظر إلى الجميل للتفكير الايجابي اثر في نفسيتنا وأمور حياتنا اليومية و المستقبلية (الرقيب،2008،ص07)

و يعد مفهوم التشاؤم المفهوم المقابل للتفاؤل من المفاهيم النفسية الحديثة نسبياً التي دخلت إطار البحث للمكثف في مجال علم نفس الصحة Health Psy-chologyوالتخصصات النفسية الأخرى. و ينظر إليها اليوم على أنها من متغيرات الشخصية ذات الأهمية التي تتمتع بثبات نسبي (بدر الأنصاري، 1998ص 11). وقد عرفها شاير وكارفيرScheier and) Carver, 1992)بأنها التوقعات المعممة للنتيجة، أي التوقعات للعلاقات المدركة بين التصرف ونتيجته. وقد تكون هذه التوقعات إيجابية (تفاؤل) أو سلبية غير ملائمة (تشاؤم). ويعرفه أحمد عبد الخالق (1996 ج: 6) بأنه التوقع السلبي للأحداث القادمة، يجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ، ويتوقع الشر والفشل وخيبة الأمل ويستبعد ما عدا ذلك إلى حد بعيد.

مشكلة الدراسة:

اهتم علماء نفس الشخصية بتحديد المكونات الاساسية للشخصية ومع ذلكلم يتوصل الباحثون في هذا المجال الى اتفاق في اللغة والمنهج لقياس العوامل الاساسية في الشخصية، أي ان المشكلة تدور حول التسميات التي وضعها كل باحث بحسب قناعاته للسمات المدروسة ،ومنذ سنوات طويلة كثر النقاش والجدل بين علماء النفس في محاولات للتعرف على اهم العوامل التي لها اكبر الأثر في تطوير شخصية الفرد.

وقد اختار الباحثين عينة من طلبة الجامعة المقبلين على التخرج لتطبيق نموذج العوامل الخمسة الكبرى في تصنيف الشخصية عليهم إذ ان عملية الكشف عن المستويات التي تحملها العينة لتلك السمات ربما تفيدنا في معالجة الكثير من المشكلات المرتبطة بالصحة النفسية والتواصل مع الاخرين والنجاح في مجال المهن التي يتلقونها بعد التخرج سواء كان في البيئة الجامعية ام خارجها.

وهناك مشكلات مرتبطة بعوامل الشخصية يمكن ملاحظتها عندما ترتفع او تنخفض معالم العامل: فعندما تكون العصابية عالية فانها تحمل في ثناياهامظاهر تكمن في التوتر والتهيج والانفعال والقلق وفقدان الامل في حين تكون ملامح العصابية الواطئة من خلال النقص في في الاستقرار الانفعالي والتوافق الاجتماعي، في حين تكون معالم الانبساطية العالية واضحة من خلال الافراط في الكلام الذي بدوره يؤدي الى كشف غير مناسب للذات سيما في مواقف غير مناسبة وعدم القدرة على قضاء الوقت وحيدًا، اما الانبساطية الواطئة تكون واضحة في العزلة الاجتماعية وفي ضعف العلاقات الشخصية في حين يتميز صاحب الانفتاح العالي على الخبرة بالانشغال بالخيال واحلام اليقظة ونقص في الجانب العملي ، الحساسية وسرعة التأثر ،اما صاحب الانفتاح الواطئ على الخبرة يواجه صعوبات في التكيف للتغيير الاجتماعي والشخصي وضعف في فهم وجهات النظر المختلفة وأساليب الحياة المتنوعة، اما القدرة العالية على الانسجام فيتميز صاحبها بالسذاجة او سهولة الانخداع والكرم الزائد في حين يكون صاحب القدرة المنخفضة على الانسجام ساخر ولديه تفكير اضطهادي وليس لديه القدرة في الثقة بالاخرين حتى الاصدقاء والعائلة(صالح والطارق، 1998،ص706).

إن تمتع الطالب الجامعي بالصحة النفسية السوية والتي تتحدد من خلال خلوه من صفة التشاؤم ولديه قدرة على التفاؤل طابع مرضي بالإضافة إلى أن عوامل الشخصية تلعب دورا هاماً في قدرة الفرد على التكيف مع الظروف والأحداث الضاغطة، ومن هنا نبعت فكرة هذه الدراسة، محاولة للتعرف على العلاقة بين العوامل الخمسة الكبرى للشخصية وصفة التشاؤم والتفاؤل، مما قد يسهم في فهم متكامل لشخصية طلبة الجامعات، ويعطي مؤشرات للعديد من سلوكياتهم ومخاوفهم واستثمار إمكاناتهم على النحو الأفضل.

إشكالية الدراسة:

ما العلاقة بين العوامل الخمس للشخصية بكل من التفاؤل والتشاؤم لدى الطلبة المقبلين على التخرج؟

أهداف الدراسة: تسعى الدراسة الى تحقيق الدراسات التالية:

1- معرفة العلاقة بين التشاؤم والعصابية لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

2- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد الانبساط لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

3- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد الانفتاح على الخبرة لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

4- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد المقبولية لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

5- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد يقظة الضمير لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

6- معرفة العلاقة بين إحصائياً بين التشاؤم والعصابية .

7- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد الانبساط لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

8- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد الانفتاح على الخبرة لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

9- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد المقبولية لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

10- معرفة العلاقة بين التشاؤم وبعد يقظة الضمير لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

تحديد المفاهيم والمصطلحات:

العوامل الخمسة الكبرى للشخصية: يعرف ماكري وجون (McCrae & John, 1992) 176 نموذج العوامل الخمسة الكبرى للشخصية بأنه» نموذج يقوم على تصور مؤداه أنه يمكن وصف الشخصية وصفاً إقتصادياً كاملاً من خلال خمسة عوامل أساسية هي: الانبساطية و العصابية ، والمقبولية ، والانفتاح على الخبرة ويقظة الضمير"

ويتكون كل عامل من هذه العوامل من مجموعة من السمات، وفيما يلي تعريف لكل عامل:

1-العصابية: وتعني الميل إلى الأفكار والمشاعر السلبية أو الحزينة، فالدرجة المرتفعة تدل على أن الأفراد يتميزون بالعصابية أكثر عرضة لعدم الأمان، والاحزان، بينما تدل الدرجة المنخفضة على أن الأفراد يتميزون بالاستقرار الانفعالي، وأكثر مرونة، وأقل عرضه للأحزان (أبو هاشم،2010 ،ص 279)

2-الانبساط: ويشمل التفضيل للمواقف الاجتماعية والتعامل معها، والاستقلالية والتفتح الذهني، فالدرجة المرتفعة تدل على أن الأفراد مرتفعي الانبساطية يكونون نشطينوي بحثون عن الجماعة، بينما تدل الدرجة المنخفضة على الانطواء، والهدوء والتحفظ(أبو هاشم2010 ،ص 280)

3-الانفتاح على الخبرة: ويعني النضج العقلي والاهتمام بالثقافة، والتفوق وحب الاستطلاع، وسرعة البديهة، والسيطرة والطموح، والمنافسة والدرجة المرتفعة تدل على أن الافراد خياليون، ابتكاريون، يبحثون عن المعلومات بأنفسهم، بينما تدل الدرجة المنخفضة على أن الافراد يولون اهتماما أقل بالفن، وأنهم عمليون بالطبيعة(أبو هاشم،2010 ،ص 279)

4-المقبولية: يعكس هذا العامل كيفية التفاعل مع الآخرين، فالدرجة المرتفعة تدل على أن الافراد يكونون أهل ثقة ويتميزون بالود والتعاون والإيثار والتعاطف والتواضع والحرص والمحافظة، ويحترمون مشاعر وعادات الآخرين، بينما تدل الدرجة المنخفضة على العدوانية وعدم التعاون (أبو هاشم،2010 ،ص 279)

5-يقظة الضمير: ويشمل المثابرة والتنظيم لتحقيق الأهداف المرجوة، فالدرجة المرتفعة تدل على أن الفرد منظم ويؤدي واجباته باستمرار وبإخلاص، بينما الدرجة المنخفضة تدل على أن الفرد أقل حذرا وأقل تركيزا أثناء أدائه للمهام المختلفة(أبو هاشم، 2010،ص 278)

التعريف الإجرائي للعوامل الخمسة الكبرى للشخصية: الدرجة الكلية التي يسجلها المستجيب على كل عامل من العوامل الخمسة حسب قائمة كوستا وماكري 1992 للعوامل الخمسة الكبرى للشخصية.

التفاؤل

لغة: هو قول أو فعل يستبشر به ، وتفاءل بالشيء تيمن به ، والتشاؤم: من باب شؤم، وشؤم الرجل قومه

أي جر عليهم الشؤم، فهو شائم، وتشاءم بالأمر تطير به وعده شؤما، وترقب الشر.(ابن منظور،د.ت).

اصطلاحي:التفاؤل: يعرفcarver Scheier التفاؤل بأنه: لنظرة الإيجابية والإقبال على الحياة، والاعتقاد بإمكانية تحقيق الرغبات في المستقبل، فضلا على الاعتقاد باحتمال حدوث الخير أو الجانب الجيد من الأشياء، بدلا من حدوث الشر أو الجانب السيئ(محمد شكري،1999،ص21)

اجرائي: يعرف الباحثون التفاؤل نظريا بأنه توقع الفرد بأن أمورا إيجابية سوف تحدث له، و يستبعد الأمور السلبية، أنه بذل قصارى جهده في سبيل تحقيقه، أما إجرائيا فهو الدرجة التي يحصل عليها اللاعب على مقياس التفاؤل و التشاؤم المستخدم في الدراسة الحالية.

التشاؤم

اصطلاحي: يعرفه'' بدر محمد الأنصاري بأنه : '' توقع سلبي للأحداث القادمة , تجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ ويتوقع الشر و الفشل و خيبة الأمل و يستبعد ما خلا ذلك إلى حد بعيد.(الانصاري،1998،ص37)

اجرائي : ويعرفه الباحثون نظريا بأنه توقع الفرد العام لوقوع أحداث سلبية في المستقبل بدل حدوث أحداث إيجابية وهو لا يقوم ببذل الجهود في سبيل تحقيق أهدافه لاعتقاده بأن الفشل سيكون حليفه كا يعرفونه إجرائيا بالدرجة التي يحصل عليها اللاعب على مقياس التفاؤل و التشاؤم المستخدم في الدراسة الحالية.

مجالات الدراسة:

المجال البشري: الطلبة الجامعيين بجامعة البويرة .

المجال المكاني : تم تطبيق الدارسة على مستوى 06 كليات ومعهدين بجامعة البويرة

المجال الزماني : تم تطبيق الدراسة مع بداية الموسم الجامعي 2018/2017

الخلفية النظرية:

1- العوامل الخمسة الكبرى للشخصية:

يعد نموذج العوامل الخمسة الكبرى للشخصية بمثابة هيكل هرمي من سمات الشخصية، تمثل العوامل الخمسة قمة الترتيب، وتمثل الشخصية على مستوى أعلى من التجريد، كما أن كل عامل ثنائي القطب مثل » الانبساط مقابل الانطواء» ، ويندرج تحت كل عامل مجموعة من السمات الأكثرتحديدا (50 Gosling, et al., 2003). وفيما يلي تعريف هذه العوامل:

العصابية:

هو عكس الاستقرار العاطفي، ويعكس هذا العامل إلى أن الأفراد يميلون بصورة كبيرة إلى عدم الاستقرار العاطفي، وعدم الرضا عن النفس، وصعوبة التكيف مع متطلبات الحياة، كما يرتبط هذا العامل بالقلق والإحراج والشعور بالذنب والتشاؤم والحزن وانخفاض احترام الذات.(De Read,2000:96; Zang, 2006: 1179)

وترتبط العصابية سلباً بالرضا عن الحياة، وايجابياً بالتعبير الذاتي عن الإجهاد؛ كما أن الأشخاص العصابيين أقل قدرة على التعامل مع الضغوط المرهقة في البيت والعمل، كما أنهم أقل تحكماً في اندفاعاتهم (Bruk & Alleen, 2003: 461)

الانبساط:

يعد هذا العامل ثنائي القطب حيث يمكن تسميته (الانبساط – الانطواء)

يتسم الشخص الانبساطي بأنه شخص اجتماعي محب للاختلاط، يتوافق مع المعايير الخارجية، يوجه اهتماماته إلى خارج الذات، ويحب العمل مع الآخرين

ويحترم التقاليد والسلطة، وعلى مستوى التفكير يميل الشخص الانبساطي إلى تفسير جوانب العالم الخارجي باستخدام المنطق، والميل إلى العيش وفق قواعد ثابتة، قد تكون عملية أو موضوعية أو عقائدية، بينما يتسم الشخص الانطوائي بأنه يوجه اهتماماته من أفكار ومشاعر إلى داخل الذات، وليس تجاه العالم الخارجي، شديد الحساسية مع أن يكتم أحاسيسه، وعلى مستوى التفكير يميل الشخص الانطوائي إلى تفسير أفكار خاصة تستند إلى قواعد تخصه، كما أن لديه حاجة كبيرة للسرية » الخصوصية «يميل لأن يكون نظري فكري (De Read,2000:89; Zang, 2006:. 1179)

الانفتاح على الخبرة:

يعكس هذا العامل مدى تقبل الفرد لقيم ومعتقدات الآخرين والاهتمام بالأفكار الجديدة غير التقليدية، ويتضمن هذا العامل العديد من السمات كالخيال والتفتح الذهني وقوة البصيرة وكثرة الاهتمامات والتسامح (Zang,2006: 118)

والأشخاص ذوي الدرجات العليا على هذا البعد يظهرون فضولاً للعالم الخارجي والداخلي، وهم على استعداد للنظر في أفكار وقيم أصيلة مبتكرة.(Bruk & Allen, 2003: 462)

الطيبة» المقبولية:

يعد هذا العامل الأكثر ارتباطاً بالعلاقات الشخصية وبحسب هوجان 1983 المقبولية تجعل الفرد قادرا على مواجهة مشاكل وضغوط الحياة العامة، وتعكس هذه السمة الفروق الفردية في الاهتمام العام لتحقيق الوئام الاجتماعي، ويتسم الذين يتصفون بهذه السمات بالتسامح والثقة، وحسن الطباع، والتعاون والقبول بحيث يحترمون ويقدرون الآخرين.(Zang, 2006: 1179; DeRead, 2000: 91)

يقظة الضمير:

يتضمن هذا العامل الفروق الفردية في التخطيط والتنظيم وتنفيذ المهام وثبات الأداء (Bruk & Alleen, 2000: 460)

وهي عبارة عن ملامح مشتركة تشمل مستويات عالية من التفكير، مع التحكم في الانفعالات؛ وتشير هذه السمة إلى تميز الفرد بقوة الإرادة والكفاح والسعي نحو الإنجاز وضبط الذات، والالتزام بالواجبات والإحساس بالمسؤولية، كما بعكس هذا العامل المثابرة. والتنظيم لتحقيق الأهداف.(Zang, 2006: 1179)

2- التفاؤل والتشاؤم

تشير أهمية مفهومي التفاؤل والتشاؤم في الحياة الإنسانية بشكل عام, وفي الدراسات النفسية بشكل خاص، فان تاريخ الاهتمام بهذين المفهومين لم يتجاوز العقدين الأخيرين, حيث استقطبا اهتمام كثير من الباحثين في مجالات الشخصية وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس الإكلينيكي وعلم الصحة(شكري، 1999)

وقد عرف Scheier & Carver 1983 التفاؤل، بأنه النظرة الإيجابية و الإقبال على الحياة, والاعتقاد باحتمال حدوث الخير أو الجانب الجيد من الأشياء، بدلاً من حدوث الجانب السيئ. وأضافا في نص أكثر حداثة عام(1987) أن التفاؤل استعداد يكمن داخل الفرد الواحد، يتركز في التوقع العام لحدوث الأشياء الجيدة أو الإيجابية، أي توقع النتائج الإيجابية للأحداث القادمة (عبد الخالق، والأنصاري، 1995)

و يعرف عبد الخالق (2000)التفاؤل بأنه: نظرة استبشار نحو المستقبل، تجعل الفرد يتوقع الأفضل، و ينتظر حدوث الخير، و يرنو إلى النجاح, أما التشاؤم

بأنه: توقع سلبي للأحداث القادمة يجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ، ويتوقع الشر والفشل وخيبة الأمل، و لا شك أن الخلاف كبير بين الباحثين في النظر إلى العلاقة بين مفهومي التفاؤل و التشاؤم, و يمكن أن نشير على الأقل – إلى منحيين في هذه العلاقة:

أولهما: أن التفاؤل والتشاؤم سمتان مستقلتان, و لكنهما مرتبطتان، أي أن لكل سمة متصل مستقل استقلالاً نسبياً يجمع بين مختلف الدرجات على السمة الواحدة، و لكل فرد موقع على متصل التفاؤل مستقل عن مركزه على متصل التشاؤم، وكل سمة هنا تعد – بشكل مستقل – أحادية القطب، تبدأ من أقل درجة على التفاؤل إلى أقصى درجة. و يتكرر الأمر ذاته – مستقلاً – بالنسبة للتشاؤم (الأنصاري، 2003، ص19)

ثانيهما: أن التفاؤل و التشاؤم سمة واحدة, لكنها ثنائية القطب أي أن متصل هذه السمة له قطبان متقابلان متضادان، لكل فرد مركز واحد عليه، بحيث يقع بين التفاؤل المتطرف و التشاؤم الشديد، و يتضمن ذلك أن الفرد الواحد – بصورة عامة – لا يمكن أن يكون مثلاً متفائلاً جداً أو متشائماً جداً، حيث أن له درجة واحدة على المتصل (وهو الأمر ذاته في سمة الانبساط – الانطواء(الأنصاري، 2003)

ويشير كل من (1974)(Kelly (1974 Nunnaly (Thorndike 1998إلى انه يمكن أن تمثل السمة بخط متصل من السلوك نحاول عن طريق عمليات القياس أن نحدد موقع الفرد عليه في سمة معينة لديه ، ويقصد بالمتصل خط مستقيم يتكون من عدد لا نهائي من النقاط الممكنة التي تحدد مواقع مختلفة للسمة المقاسة. (علام، 2002م، ص22-23)

و اعتماداً على هذا المنحى، فإن قياس هاتين السمتين يمكن أن يتم بمقياس التفاؤل وحده أو بمقياس التشاؤم فقط، إذ أن السمتين متضادتان، و تعد درجة أحدهما مقلوباً للآخر، فدرجة التفاؤل المرتفعة تعني درجة تشاؤم منخفضة والعكس صحيح، (الأنصاري، 2003, ص19)

وقد تبنى الباحثين هذا التوجه لكون مضمون مفهومي التفاؤل والتشاؤم كل منهما يعكس الآخر و من ثم فان تأثيريهما على سلوك الفرد في الحياة يسير في الاتجاه نفسه، و يبدو هذا مقبولاً من الناحيتين النظرية والإجرائية، إذ أن فقرات المقياس المعد لقياس التشاؤم لا يختلف في مضمون فقراته عن المقياس المعد لقياس التفاؤل سوى في اتجاه الفقرات بالسلب أو الإيجاب و من خلال تطبيق هذا المقياس يمكن الحصول على نتائج يسهل تفسيرها.

وتكمن أهمية دراسة سمة التفاؤل- التشاؤم في أهمية علاقتها بمختلف جوانب شخصية الإنسان السوية واللاسوية فقد أكدت نظرية سيلكمان في الغزو أن الطريقة التي نفسر بوساطتها الأشياء أو الأحداث هي الأكثر تأثيرا على سلوكنا الحالي و المستقبلي أكثر من وقوعها. وقد يكون لها مضامين سيئة أو جيدة على صحتنا النفسية والجسدية (الحجار، 1989، ص95)

منهج البحث وإجراءاته الميدانية :

اعتمد الباحثون على المنهج الوصفي التحليلي لملائمته طبيعة الدراسة والذي تحاول من خلاله وصف الظاهرة موضوع الدراسة (العوامل الخمس الكبرى للشخصية وعلاقتها بالتفاؤل والتشاؤم) وتحليل بياناتها وبيان العلاقة بين مكوناتها والآراء التي تطرح حولها، والعمليات التي تتضمنها والآثار التي تحدثها، وهو أحد أشكال التفسير العلمي المنظم لوصف ظاهرة أو مشكلة محددة وتصويرها كمياً عن طريق جمع البيانات والمعلومات المقننة و لا يتوقف عند جمع المعلومات الخاصة بالظاهرة للاستقصاء مظاهرها وعلاقاتها المختلفة، بل يمتد ليشمل التحليل والربط والتفسير للوصول إلى استنتاجات يبنى عليها التصور المقترح(العساف1995،:186).

مجتمع الدراسة:

يتكون مجتمع الدراسة على جميع طلبة السنة الثانية ماستر المقبلين على التخرج، للموسم الجامعي(**2017/2018**)

عينة البحث:

العينة في معناها هي مجتمع الدراسة الذي يجمع منه البيانات الميدانية وهي جزء من الكل وتعني بذلك عدد الأفراد المستخرج من المجتمع المراد دراسته ، وتستخدم للدلالة على جزء من مفردات المجتمع التي تم اختيارها في الدراسة في أغلب الأحيان و تطبق نتائجها على المجتمع . وفي عينة دراستنا تكونت من 380 طالبا وطالبة من 06كليات ومعهدين على مستوى جامعة اكلي محند اولحاج بالبويرة.

أداة الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على العلاقة بين العلاقة بين العوامل الخمسة وبعدي التفاؤل و التشاؤم ، وتماشيا مع أهداف الدراسة المسطرة ولأجل التحقق من فرضياتها المسطرة في الجانب النظري وما تتطلبه بيانات ونتائج يستند إليها الباحث في تحقيق أهداف الدراسة فقد اختار الباحثون :

قائمة العوامل الخمسة الكبرى للشخصية:

أعدها كوستا وماكري 1992 وتعتبر أول أداة موضوعية تهدف إلى قياس الأبعاد الأساسية للشخصية بواسطة مجموعة من البنود(60بندا) تم استخراجها عن طريق التحليل العاملي لعدد كبير من بنود مشتقة من عديد من اختبارات الشخصية، وتشتمل على خمس مقاييس فرعية وهي: العصابية، الانبساط، الانفتاح على الخبرة المقبولية، يقظة الضمير(الانصاري،2002 :720)

حيث قام الأنصاري (1997) بترجمة بنود القائمة من الانجليزية إلى العربية الفصحى السهلة، ثم خضعت الترجمة لدورات عديدة من المراجعة من قبل المتخصصين في علم النفس وفي اللغة الانجليزية ممنيتقنون اللغة العربية أيضاً، و لم يقم الباحث بأي تعديل بالنسبة لعدد البنود أومضمونها، وتتكون قائمة العوامل الخمسة في صورتها الأولية من (60) فقرة موزعة على خمسة عوامل، هي:

– العصابية :وهو مكون من 12 فقرة– الانبساط: وهو مكون من 12 فقرة

–الانفتاح على الخبرة :وهو مكون من 12 فقرة– المقبولية: وهو مكون من 12 فقرة

–يقظة الضمير :وهو مكون من 12 فقرة ،

وقد وزعت درجات الإجابة على فقرات المقياس بطريقة ليكرت حيث يحصل المستجيب على 5 درجات عندما يجيب موافق جداً، 4 درجات عندما يجيب موافق، 3 درجات عندما يجيب محايد درجتان عندما يجيب غير موافق، ودرجة واحدة عندما يجيب غير موافق على الإطلاق، وذلك في الفقرات الإيجابية، في حين يتم احتساب الدرجات بطريقة عكسية في الفقرات السلبية .(أحمد محمود جبر،2012،:78-79)

مقياس التفاؤل والتشاؤم:

أعده Dember et al. (1989) لقياس التفاؤل والتشاؤم، وقد قام بترجمته و تقنينه على البيئة العربية "مجدي محمد الدسوقي" (2001) ويتكون المقياس من (56) عبارة تشمل (18) عبارة لقياس التفاؤل، ومثلها لقياس التشاؤم إلى جانب (20) عبارة مكررة بصيغ أخرى لكي يتم إخفاء الغرض من المقياس، ولإعداد المقياس في صورته العربية قام "مجدي محمد الدسوقي" (2002) بترجمة عباراته وقد كان حريصا على أن تتم الترجمة إلى اللغة العربية بأكبر

درجة من درجات الحياد والموضوعية بحيث لا يتغير المعنى بأي حال من الأحوال، وكما ذكرنا سابقا أن المقياس يحتوي على مقياسين لقياس التفاؤل و التشاؤم ولذلك فإن هناك عبارات تدل على التفاؤل وأخرى على التشاؤم و هي

العبارات التي تمثل المقياس الفرعي للتفاؤل هي :7- 11 – 12 – 15– 17- 19 –21– 23 – 28 – 29 – 33 – 37 – 43 – 46 – 47 – 52 – 56 .

العبارات التي تمثل المقياس الفرعي للتشاؤم هي : 2- 4 – 5 – 8 –10 – 14 – 20 – 26 – 31 – 34 – 36 – 39 – 42 – 44 – 49 – 51 – 54 ، ووضعت لهذه الاستجابات أوزان متدرجة كالآتي أوافق تماما (4)، أوافق (3)، لا أوافق (2)، لا أوافق مطلقا (1)، ويستخدم الجمع الجبري في حساب الدرجة الكلية التي يحصل عليها المفحوص على كل مقياس فرعي على حدة، وحيث إن عبارات كل مقياس (18)، والاختيارات هي أربعة اختيارات فتكون الدرجة الدنيا (18)، والدرجة العليا (72).

صدق المقياسين: إن المستوى الذي يبلغه البحث من الجودة لا يتوقف على الاختبار الصحيح للعينة أو الاختبار الرشيد لأنسب مناهج البحث مع كل ذلك على كفاءة الأدوات التي يستخدمها الباحث لجمع البيانات، وتعتبر مقاييس الصدق من أهم المقاييس التي يحرص البحث على مراعاتها عند القيام بالبحث ضمانا لعامل الموضوعية حتى يمكن التحكم في الجوانب الذاتية.

صدق المحكمين: تم عرض المقياسين في صورتهما الأولية على مجموعة من أساتذة جامعيين من المتخصصين في علوم وتقنيان النشاطات البدنية والرياضية وعلم النفس حيث قاموا بإبداء آرائهم وملاحظاتهم حول مناسبة فقرات المقياسين، ومدى ملائمة الفقرات إلى كل مجال من مجالات المقياسين، وكذلك وضوحها .

عرض وتحليل النتائج:

لاختبار صحة الفرضية » توجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين العوامل الخمسة الكبرى للشخصية وبعدي التفاؤل والتشاؤم لدى طلبة الجامعة المقبلين على التخرج.

أ–العلاقة بين العوامل الكبرى للشخصية وبعد التشاؤم

	التشاؤم	مستوى الدلالة	القرار
العصابية	0.487	0.01	دال
الانبساطية	0.341–	0.01	دال
الانفتاح على الخبرة	0.617–	0.01	دال
المقبولية	0.51–	0.01	دال
يقظة الضمير	0.732–	0.01	دال
العوامل الخمس للشخصية	0.431–	0.01	دال

من خلال الجدول رقم:01 نلا حظ مايلي:

–وجود علاقة ارتباط موجبة بين بعد العصابية والتشاؤم .

–وجود علاقة سالبة بين باقي العوامل (الانيساطية–الانفتاح على الخبرة–المقبولية–يقضة الضمير) والتشاؤم لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

ويفسر الباحثون هذه النتيجة بأن هناك علاقة ارتباط موجبة بين التشاؤم و بعد العصابية فارتفاع التشاؤم أدى إلى ارتفاع العصابية لدى الطلبة ، فتوقع الصعاب وعدم وجود أفق لديهم اتجاه المستقبل وعدم الصبر وعدم إشباعهم لحاجاتهم النفسية ، جعلهم قلقين على مستقبلهم محبطين غير راضين عن حياتهم منفعلين عصبيين

وتتفق هذه النتيجة الدراسة الحالية مع ما ورد في الإطار النظري حيث يتضمن عامل العصابية بحسب كوستا وماكري (1992) سمات سلبية مثل القلق والخوف والهم والانشغال والانفعالية الدائمة الحالة المزاجية القابلة للتغير والقلق الاجتماعي والعصاب والقابلية للإنجراح، عدم قدرة الفرد على تحمل الضغوط، وبالتالي يشعر الفرد بالعجز واليأس والاتكال وعدم القدرة على اتخاذ القرارات في المواقف الضاغطة، وتبرز العصابية توجهاً سلبياً لدى الطالب نحو الحياة، وتشير إلى نقص مقدرته على توكيد ذاته، وإلى نقص في حيويته ونشاطه، الأمر الذي ينعكس سلباً على صحته النفسية(Ang et al,2006, 106)

وتؤكد هذه النتيجة ما ذهب اليه الانصاري يؤدي الفشل المستمر في التعامل مع البيئة الاجتماعية إلى شعور دائم بالتشاؤم واليأس واختفاء التوقعات الإيجابية في التغيير وإدراك الإنسان أنه نتاج سلبي للبيئة (الانصاري،1998،ص18)

اما العلاقة السالبة لبعد الانبساطية والتشاؤم فيمكن تفسيره ان التشاؤم صفة غير اجتماعية، ويذكر أراجيل (1993 ، ص45) بأن العلاقات الاجتماعية تزيد من السعادة بتوليد البهجة وتوفير المساعدة من خلال الأنشطة المشتركة والفاعلة، وهي تحمي من تأثير المشقة بزيادة تقدير الذات وكف الانفعالات السلبية في حين التشاؤم توقع سلبي للأحداث القادمة ، تجعل الفرد ينتظر حدوث الأسوأ ويتوقع الشر و الفشل و خيبة الأمل و يستبعد ما خلا ذلك إلى حد بعيد. (الانصاري،1998،ص37)

اما العلاقة السالبة لبعد الانفتاح عن الخبرة والتشاؤم ويمكن تفسير ارتباط السلبي أن الانفتاح على الخبرة بالسلوكيات المرتبطة بالإبداع الجمالي والفني، حيث يبحث هؤلاء الأفراد على نحو غير مألوف عن الجديد من المعلومات والمهارات والمكتسبات، كما أنهم محبون للتعلم والتكيف والتطلع ولديهم فضول وحب استطلاع ، وأكثر مغامرة وإبداعا (Harvery: 2)5 et al, 199

اما العلاقة السالبة لبعد المقبولية والتشاؤم وتفسر النتيجة أن المقبولية بصفة عامة إلى السلوك الودود والتواضع والتسامح والثقة وحسن الطباع والقبول وغيرها من سمات الطيبة التي تبدو مستقلة نسبيا عن القلق، فجل هذه الصفات قد يشترك فيها الشخص القلق وغير القلق.

والعلاقة السالبة لبعد يقظة الضمير والتشاؤم تبدو هذه النتيجة منطقية حسب الباحثين إلى حد كبير حيث يتضمن هذا العامل وفق(Ang et al, 2006:) العديد من الصفات الإيجابية التي تشكل سمات الشخص المتزن انفعاليا حيث تشير إلى تميز الفرد بقوة الإرادة والسعي الدءوب لتحقيق الأهداف، كما أن لديهم استعداداً لإتخاذ المبادرة في حل المشاكل التي يواجهونها، يؤدون أعمالهم بمستوى عال من الدقة، ويميلون إلى وضع أهداف غالباً ما تكون صعبة، و لديهم إحساس عال بالمسؤولية ما يفسر العلاقة السلبية بين يقظة الضمير والتشاؤم.

ب– العلاقة بين العوامل الكبرى للشخصية وبعد التفاؤل.

	التفاؤل	مستوى الدلالة	القرار
العصابية	0.417–	0.01	دال
الانبساطية	0.461	0.01	دال
الانفتاح على الخبرة	0.526	0.01	دال
المقبولية	0.483	0.01	دال
يقظة الضمير	0.691	0.01	دال
العوامل الخمس للشخصية	0.523	0.01	دال

من خلال الجدول رقم:02 نلا حظ مايلي:

–وجود علاقة ارتباط سالبة بين بعد العصابية والتفاؤل .

–وجود علاقة موجبة بين باقي العوامل (الانيساطية–الانفتاح على الخبرة–المقبولية–يقضة الضمير) والتفاؤل لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

ويمكن تفسير هذه النتيجة أن التفاؤل يلعب دوراً مهما في حياتنا النفسية وفي سلوكياتنا و في علاقاتنا بغيرنا وفيما نقوم به من خطط للاضطلاع بها في المستقبل القريب والبعيد.ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المناشط الايجابية في حياتنا سواء كانت فكراً أم عاطفة أم عملاً ،إنما ترتبط (بشكل أو بآخر) بما يعمل في جهازنا النفسي من تفاؤل ، وما يدور في خلدنا من أفكار وما يشيع في قلوبنا من مشاعر ، إنما يؤثر الى أبعد حد في إدراكنا للواقع الخارجي. (اسعد،1986،ص 32).

وهذا ما ذهب اليه **Weinstein** أن معظم الناس يتقدون أن التفاؤل يتضمن توقعاتهم المستقبلية للأحداث ، ويعتمد على ذلك ويرتبط به ، ان الناظر الى الأحداث الراهنة يتفاءل إذا كانت الأحداث سعيدة ويتشاءم إذا كانت الأحداث تعيسة ، ولعل بعض الناس يزعمون أنهم يتشاءمون لأمور لا يستبعد وقوعها ، فما إن تمر ساعة أو يوم أو أسبوع حتى يتحقق شعورهم وتقع كارثة والعكس صحيح ، ويفسر الناس ذلك بالرؤية السابقة أو استشراف المستقبل وتوقعه وهكذا نجد الفرد قد اخذ يدرك المستقبل بما يتضمنه من خير وشر، حيث يتجاوب وجدانيا بالاستبشار في حالة الأحداث السارة والخيرة (Weinstein,1980P 806)

فالتفاؤل هو عبارة عن ميل وبناء معرفي يتكون من اعتقاد عام في نتائج إيجابية تعتمد على تقديرات عقلانية لترجيح الشخص لاحتمالية النجاح واعتقاد وإيمان بالكفاءة الشخصية والتفاؤل ليس أملاً حيث أنه توقع بأن نتيجة معينة ستحدث لشخص سيتعافى من مرض فالتعريف القاموسي له « أنه ميل لتوقع أفضل لنتيجة محتملة أهمية التفاؤل يحتل التفاؤل مكانة مهمة في بعض مناحي الحياة

ولا يعد التفاؤل دواء يستخدم ليشفى من جميع الأمراض . ولكنه يمكن أن يحمى من الأمراض النفسية كالاكتئاب ، والقلق ، واليأس والتشاؤم وتكوين ابعاد قوية لجوانب الشخصية المتكاملة كما أنه يزيد من مستوى التحصيل. ويعتبر التفاؤل حالة ذهنية مبهجة إلى حد بعيد تعترى الشخص المتفائل ، وتنطلق أهمية

التفاؤل من أن الدين الإسلامي يدعو إليه كما أنه ينبذ التشاؤم . حيث يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري (تفاءلوا بالخير تجدوه)

كما أن التفاؤل عامل منشط مهم في حياة الفرد حيث أنه يجعل صاحبه متقبلاً للحياة ومجاهداً فيها ومتمتعاً بصحة نفسية وجسمية وعقلية ويكون شخصية سوية وقادراً على تخطى أية ضغوط أو مشكلات .

الاستنتاج العام: من خلال تحليل نتائج الدراسة الميدانية نستنتج مايلي :

1- وجود ارتباط إيجابي دال إحصائياً بين التشاؤم والعصابية .

2- توجد علاقة سالبة بين التشاؤم وبعد الانبساط لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

3- توجد علاقة سالبة بين التشاؤم وبعد الانفتاح على الخبرة لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

4- توجد علاقة سالبة بين التشاؤم وبعد المقبولية لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

5- توجد علاقة سالبة بين التشاؤم وبعد يقظة الضمير لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

6- وجود ارتباط سلبي دال إحصائياً بين التشاؤم والعصابية .

7- توجد علاقة موجبة بين التشاؤم وبعد الانبساط لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

8- توجد علاقة موجبة بين التشاؤم وبعد الانفتاح على الخبرة لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

9- توجد علاقة موجبة بين التشاؤم وبعد المقبولية لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

10-توجد علاقة موجبة بين التشاؤم وبعد يقظة الضمير لدى الطلبة المقبلين على التخرج.

التوصيات: في ضوء نتائج الدراسة، يوصي الباحثون ب:

1- توعية الطلاب الجامعيين بأساليب بناء الشخصية وبناء الاهداف من اجل تعزيز سمات الشخصية والتفاؤل والابتعاد عن التشاؤم.

2- التركيز على البرامج الإرشادية والوقائية التي تهدف إلى تربية التفكير المنطقي والواقعي بين الطلبة الجامعيين خاصة المقلين على التخرج، كجزء من برامج تنمية الشخصية لإرساء الصحة النفسية (بناء وتطوير عوامل الشخصية) والتوافق النفسي.

3- تبني الجامعات لعدد من البرامج الإرشادية الوقائية والقائمة على تعزيز الشخصية ومجالاتها وتعزيز الصحة النفسية.

4-تصميم برامج إرشادية لتنمية التفاؤل لدى الطلبة المقبلين على التخرج من اجل التكيف مع الحياة العملية.

5-بناء مقياس يستهدف التعرف على مختلف أنواع التفاؤل و التشاؤم وأبعاد العوامل الكبرى للشخصية.

6-فتح مراكز إرشادية في الجامعات وتفعيل دورها أكثر، من أجل مرافقة الطالب في مساره الدراسي من اجل مواجهة متطلبات العمل.

المراجع:

1- ناهد شريف ناهد (2005) : قلق المستقبل وعلاقته بسمتي التفاؤل و التشاؤم، رسالة دكتوراه كلية التربية. جامعة دمشق، سوريا.

2-فاروق السيد عثمان (2001): سلسلة المراجع العربية في التربية وعلم النفس.الكتاب دار الفكر العربي ط 1 القاهرة، مصر.

3- الشميري، صادق حسن غالب :(2003) المظاهر النفسية للتحديث وعلاقتها بالصحة النفسية لدى طلبة جامعة تعز، رسالة ماجستير ، كلية الآداب، جامعة بغداد.

04- فاضل كردي الشمري (2013) الصحة النفسية وعلاقتها بالتكيف الدراسي لدى طلاب كلية التربية الرياضية

مجلة علوم التربية الرياضية العدد الرابع المجلد السادس بغداد .

05- عاهد حسني 2001. النفس في الصحة والتربية والعلاج ، مطبعة الأصدقاء ، بغداد ، العراق

06- ثائر عباس (1992)، السمات الشخصية للاعبي التنس وعلاقتها بالانجاز الرياضي ، رسالة ماجستير كلية التربية الرياضية ،جامعة بغداد ،

07- نزار الطالب وكامل لويس (1979)،علم النفس الرياضي ط4، القاهرة ،دار المعارف ،

08-سيد عبد الحميد مرسي(1985)،الشخصية المنتجة ، مصر ، دار التوفيق النموذجية للطباعة .

09- معيوف ذنون، (1987)علم النفس الرياضي ، الموصل ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر

10- الأنصاري بدر(2003) التفاؤل والتشاؤم قياسهما وعلاقتهما ببعض متغيرات الشخصية لدى طلاب جامعة الكويت الرسالة 192 ، الحولية الثالثة والعشرون ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت .الكويت.

11- هشام مخيمر و محمد السيد عبد المعطي (2002) التفاؤل والتشاؤم وعلاقتها ببعد من المتغيرات النفسية لدى عينة من طلاب الجامعة. مجلة دراسات تربوية واجتماعية، كلية التربية جامعة حلوان، العدد(03).

12- نزار الطالب وكامل لويس (2002) علم النفس الرياضي ، ط 2 بغداد دار الحكمة لمطباعة والنشر .

13- بدر محمد الأنصاري (1998) التفاؤل والتشاؤم، المفهوم، القياس، المتعلقات. جامعة الكويت، الكويت.

14- مايسة محمد شكري (1999) التفاؤل والتشاؤم وعلاقتهما بأساليب مواجهة المشقة، مجلة دراسات نفسية، تصدر عن رابطة الأخصائيين النفسيين(رانم) بمصر، العدد(3).

15- إسماعيل أحمد السيد محمد (2001) التفاؤل والتشاؤم وبعض المتغيرات النفسية لدى عينة من طلبة جامعة أم القوى. المجلة التربوية، العدد(60)،

16- أحمد حسين الشافعي(2008) التفاؤل والتشاؤم واستخدامات الدعابة، دراسة عبر ثقافية لطلبة الجامعة المصريين والإماراتيين، المجلة المصرية للدراسات النفسية، المجلد(18)، العدد(61).

17- هشام مخيمر و محمد السيد عبد المعطي (2002) التفاؤل والتشاؤم وعلاقتها ببعد من المتغيرات النفسية لدى عينة من طلاب الجامعة. مجلة دراسات تربوية واجتماعية، كلية التربية جامعة حلوان، العدد(03).

18- شكري مايسة محمد (1999) التفاؤل والتشاؤم وعلاقتهما بأساليب مواجهة المشقة. في دراسات نفسية، مج9،ع34، ص ص387-416، رابطة الأخصائيين النفسيين، مصر.

باللغة الاجنبية:

01- Ang, S. & Dyne, L. & Koh, C. (2006). Personality correlates of the fourfactor

model of cultural intelligence. Group and Organizational

Management. 31(1), 100-123.

02-Harvey, R. & Murry, W. & Markam, S (1995). «Big five» Scoring Sestem Four the Myers- Briggs Type Indicator, Society for Industrial and

Organizational Psychology, Orlando.

03-Zhao, H. & Seibert, S.(2006) The Big Five personality Dimensions and Entrepreneurial Status: A Meta- Analytical Review, Journal of Applied

psychology. 91(2), 259-271.

04-Zhang, L. (2006). Thinking Styles and the Big Five Personality Traits Revisited. Personality and Individual Differences. 40, 1177–1187.

05-Bruck, C.S. & Allen D.T. (2003). The Relationship Between Big Five Personality Traits, Negative Affectivity, Type A Behavior, and Work– Family Conflict. Journal of Vocational Behavior. 63, 457–472.

6-De Raad, B. (2000). The Big Five Personality Factor: The Psycholexiical Approach

07 -Scheier and Carver, 1992 Optimism and Pessimism as Predictors of Change in Health After Death or Onset of Severe Illness in Family.

08-Wallston,K.A.(1994) cautious optimism vs. cockeyed optimism psychology and health, vol 9(03).

تمثّل الطلبة الجامعيين في الجزائر لقيم المواطنة

(دراسة ميدانية)

د/ سهيلة بوجلال
أستاذة مساعدة، قسم أ
جامعة حسيبة بن بوعلي (الشلف)

Abstract

Abstract:

The present study aimed to identify the degree of university students' representation of the citizenship values in the light of some variables. .After The adoption of the analytical descriptive approach and the questionnaire of the citizenship values on a random sample consisted of (200) students from the universities of Algiers - 2- and Algiers -3-. **The results showed the following:**

1 - High score representive citizenship values on the sample of the study with a percentage of (78.67%).

2 - The Existence of statistically significant differences in the degree of students' representation of the citizenship values due to the gender variable in favor of females, and at the educational level in favor of third year students, while these differences were not statistically significant according to the variable of specialization.

The results were interpreted in the light of previous studies, and the study was culminated in a series of suggestions.

Keywords : Representation, Citizenship Values, University Student.

الكلمات المفتاحية : التمثّل ، قيم المواطنة ، الطالب الجامعي .

مقدمة :

تواجه المجتمعات المتقدمة والنّامية على حد سواء في بداية الألفية الثالثة كثيرا من التحديات أخطرها ظاهرة العولمة وما يصاحبها من تداعيات سواء على صعيد التنمية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية، أو على صعيد ترسيخ قيم المواطنة، والتي يأتي على رأسها تعزيز قيم الانتماء، والولاء، والهوية الوطنية للمجتمع والتسامح، والمشاركة في الحياة السياسية. (مرتجى و الرنتيسي، 2011، ص 162)

فالمواطنة صفة تطلق على كل مواطن يتمتع بجنسية الوطن ويرتبط بدستوره، وهي تعكس نوعا من العلاقة بين المواطن والدولة أساسها الانتماء والولاء والتكافل الاجتماعي اقتصاديا وسياسيا وتلزم المواطنة الفرد بسلوكه وتصرفاته في ميادين العمل الوطني، كما تلزم الدولة بتوفير الحماية والاستقرار وتطبيق الدستور. وتعتبر المواطنة الشرط الأساسي للوطنية فهي تغذي العواطف النبيلة للوطن.

(أبو سنينة، 2010، ص 339)

ونتيجة التّغيرات التي شهدها العالم في العقود الأخير تزايد الاهتمام بتنمية قيم المواطنة لدى الأفراد باعتبارها صمّام أمان لتماسك الشعوب والدول، وفي هذا الصدد يذكر (الخوالدة، 2013، ص 160) أن تنمية قيم المواطنة تؤدي إلى تعزيز شعور الفرد بالانتماء إلى مجتمعه وقيمه ونظامه وبيئته وثقافته، ويتمثل ذلك في سلوكه، وفي دفاعه عن قيّم وطنه ومكتسباته، كما تتضمن التربية من أجل المواطنة تنمية معرفة الفرد بمجتمعه، و تفاعله إيجابيا مع أفراده بشكل يسهم في تكوين مواطنين صالحين متمكنين من الحكم على ما يعترضهم داخل مجتمعهم وخارجه. وتهدف تنمية المواطنة إلى تطوير معارف الناشئ العامة المتعلقة بالأمور الاجتماعية والسياسية، وتنمية الإحساس بالواجب نحو المجتمع المحلي والدولي .

ويعد مجتمع الجامعة بمثابة البيئة الملائمة والحاضن النّشط لتنمية قيم الانتماء الوطني من خلال ما يوفره للطلبة من ثقافة واعية وصحيحة حول مفاهيم الديمقراطية، والعدالة والمساواة، و الاطلاع على تجارب الأمم التي قطعت شوطا كبيرا في الرقي والتقدم.(داود، 2011، ص 253) ونتيجة لهذه التحديات التي عصفت بالمجتمعات العربية حاول عدد من الباحثين دراسة قيّم المواطنة وسبل تنميتها لدى أفراد المجتمع عامة والطلبة الجامعيين على وجه التخصيص، ومنها دراسة «الهاجري» (2007) ودراسة « أبو سنينة « (2010) و دراسة «داود» 2011)) والتي أكدت نتائجها على ضرورة إحداث نقلة نوعية في أساليب التدريس والمناهج التربوية لترسيخ وتنمية قيّم المواطنة، و تزويد الشباب بالمعارف والقيّم والاتجاهات التي تساعدهم على التكيف مع هذه التغيرات، ومواجهة تحدياتها في ضوء الخصوصية المجتمعية لكل دولة وشعب.

1- مشكلة الدراسة وتساؤلاتها :

إن المجتمع الجزائري كغيره من الشعوب العربية لم يكن بمنأى عن تحديات العولمة التي أرخت بظلالها على الشباب، وأدت بالكثير منهم إلى الابتعاد والانسلاخ عن تراثهم وقيمهم الدينية والوطنية وعلى رأسها قيم المواطنة، ومن هنا تبلورت لدى الباحثة الفكرة لإجراء هذه الدراسة والوقوف على درجة تمثل عينة من طلبة الجامعة لقيم المواطنة باعتبارهم شريحة مهمة في المجتمع، وعليهم تبنى الآمال في التقدم والرقي واللحاق بركب الدول المتقدمة. وتأسيسا على ما سبق فقد تمحورت إشكالية الدراسة الحالية حول التساؤلات التالية :

- ما درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة ؟
- هل يوجد اختلاف في درجة تمثل طلبة الجامعة

الجزائرية لقيم المواطنة يعزى لمتغير الجنس ؟

– هل يوجد اختلاف في درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة يعزى لمتغير التخصص الدراسي ؟

– هل يوجد اختلاف في درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة يعزى لمتغير المستوى الدراسي؟

2– فرضيات الدراسة:

للإجابة عن التساؤلات السابقة صيغت الفرضيات التالية :

1– ترتفع درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة .

2– لا توجد فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة تعزى لمتغير الجنس.

3– لا توجد فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة تعزى لمتغير التخصص الدراسي.

4– لا توجد فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة تعزى لمتغير المستوى الدراسي .

3– أهداف الدراسة:

تتجلى أهداف الدراسة الحالية من خلال تحقيق الآتي :

– الكشف عن درجة تمثل عينة من طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة.

– فحص دلالة الفروق في درجة تمثل قيم المواطنة لدى عينة من طلبة الجامعة الجزائرية وفق متغيرات الجنس والتخصص الدراسي، والمستوى الدراسي .

4 – أهمية الدراسة :

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تحاول تسليط الضوء على قيم المواطنة لدى طلبة الجامعة، فهي تعمل وبأسلوب علمي على توعية الطلبة بأهمية تمثّل و تجسيد هذه القيّم في سلوكهم اليومي، كما يمكن الاستفادة من نتائج الدراسة في تخطيط وتنفيذ البرامج التربوية من أجل الوصول إلى رؤية متكاملة للتربية وغرس روح المواطنة وقيمها لدى الطلبة في جميع المراحل الدراسية .

5– تحديد المفاهيم :

– **التمثّل** : هو استيعاب المعارف والخبرات الجديدة وتصنيفها وتوزيعها على تراكيب فكرية منظمة سابقا بطريقة متكاملة. (الهاجري، 2007، ص10) .

– **درجة التمثّل** : تعرف إجرائيا في هذه الدراسة بأنها الدرجة التي يحصل عليها طلبة وطالبات جامعة الجزائر2 و الجزائر 3 عند استجاباتهم على استبانة تمثل قيم المواطنة المطبقة في الدراسة الحالية.

– **القيّم** : هي مجموعة أحكام يصدرها الفرد على العالم الإنساني والاجتماعي والمادي الذي يحيط به. (أحمد، 2001، ص 187) .

– **المواطنة** : مفهوم مرتبط بالممارسة الديمقراطية وهي صفة للمواطن الذي يتمتع بسائر حقوقه ويلتزم بواجباته التي تفرضها طبيعة انتمائه إلى وطن . (شقير و فراوس، 2014، ص 14)

– **قيّم المواطنة** : هي المعتقدات التي تحدد سلوك الفرد نحو الدولة التي يعيش فيها، وقد حددت في هذه الدراسة بالقيم التالية : الانتماء، الولاء، الديمقراطية.

6– الطالب الجامعي : يعرف إجرائيا في هذه الدراسة بأنه الطالب المسجل بالسنة الأولى والسنة الثالثة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجزائر 2، وكلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير بجامعة الجزائر3 خلال الموسم الجامعي 2014– 2013 .

6– الدراسات السابقة :

دراسة الخوالدة (2013):

هدفت الدراسة إلى التعرف على مستوى دور عضو هيئة التدريس في الجامعات الأردنية في تنمية قيم المواطنة من وجهة نظر الطلبة، وباستخدام المنهج الوصفي على عينة متكونة من 928 طالبا وطالبة وتطبيق استبانة مكونة من 48 فقرة، أظهرت النتائج أن دور عضو هيئة التدريس في تنمية قيم المواطنة كان في المستوى المتوسط بصفة عامة، بالإضافة إلى وجود فروق دالة إحصائيا تعزى لمتغير الجنس لصالح الذكور، ولمتغير نوع الجامعة لصالح الجامعات الخاصة، ولمتغير الكلية لصالح الكليات الإنسانية، ولمتغير مستوى الدراسة لصالح طلبة السنة الأولى.

دراسة داود (2011):

حاولت الدراسة التعرف على مفهوم المواطنة والمكونات الأساسية لها والوقوف على دور جامعة كفر الشيخ في تنمية قيم المواطنة، وباستخدام المنهج الوصفي و تطبيق استبانة مكونة من37 فقرة على عينة من 2000 طالبا وطالبة، تم التوصل إلى عدم وجود فروق دالة بين متوسطات عينة الدراسة في استجاباتهم لدور الجامعة في تنمية قيم المواطنة تعزى لمتغير الجنس على جميع المحاور وفي الدرجة الكلية، بالإضافة إلى عدم وجود فروق دالة حسب متغير اختلاف الكلية، ماعدا في المحور المتعلق بالمناهج الدراسية، حيث كانت الفروق دالة لصالح الكليات الإنسانية.

دراسة أبو سنينة (2010) :

سعت الدراسة إلى الكشف عن درجة تمثل طلبة كلية العلوم التربوية (الأونروا) للمفاهيم الوطنية في الأردن، وباستخدام أداة مكونة من 69 فقرة على عينة بلغت 227 طالبا وطالبة، توصلت الدراسة إلى وجود درجة تمثل كبيرة جدا لعينة الدراسة على جميع مجالاتها، وعدم وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل العينة للمفاهيم الوطنية تعزى لمتغيرات الجنس، ودراسة مساق التربية الوطنية، ومكان السكن، وعدد أفراد الأسرة، والدخل الشهري، في حين كانت الفروق دالة حسب متغير المعدل التراكمي لصالح فئة المعدل 84 فما فوق .

دراسة الهاجري (2007):

هدفت الدراسة إلى معرفة درجة تمثل طلبة جامعة الكويت لقيم المواطنة وعلاقتها ببعض المتغيرات، و بيان دور الجامعة في تنمية قيم المواطنة لدى طلبتها، وبتطبيق استبانة اشتملت على 30 فقرة وزعت عينة متكونة من 711 طالبا وطالبة تقيس درجة تمثل الطلبة لقيم المواطنة و30 فقرة أخرى تقيس دور الجامعة في تنمية قيم المواطنة، أظهرت النتائج وجود درجة تمثل مرتفعة لقيم المواطنة لدى عينة الدراسة على جميع أبعاد الاستبانة، وعدم وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل قيم المواطنة تعزى لمتغيرات الجنس،السنة الدراسية، الجنسية، في حين كانت الفروق دالة حسب متغير الكلية لصالح طلبة الكليات الإنسانية.

تعقيب على الدراسات السابقة :

جاء الاتفاق بين الدراسات السابقة والدراسة الحالية في الاهتمام بدراسة قيم المواطنة لدى شريحة مهمة في المجتمع وهم طلبة الجامعة، وفي إتباع المنهج الوصفي، كما اتفقت مع دراسة «الهاجري» (2007) في محاولة التعرف على درجة تمثل الطلبة لقيم المواطنة. وتمت الاستفادة من الدراسات السابقة في تحديد الاستراتيجية العامة للدراسة الحالية، وفي الحصول على أداة القياس وتطبيقها بعد التأكد من صدقها وثباتها في البيئة المحلية، وفي إثراء الجانب النظري و تحليل النتائج ومناقشتها .

أولا/ الإطار النظري

1- مفهوم المواطنة :

تعرف دائرة المعارف البريطانية المواطنة بأنها «علاقة بين فرد ودولة كما حددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقات من واجبات وحقوق في تلك الدولة، فهي مرتبطة بالحرية وما يصاحبها من مسؤوليات، كما تسبغ عليه حقوقا سياسية مثل حقوق الانتخاب وتولي المناصب العامة» . (محمد آل عبود، 2011، ص 74)

كما تعرف المواطنة بأنها « تمتع الشخص بحقوق وواجبات وممارستها في بقعة جغرافية معينة لها حدود محددة، تعرف في الوقت الراهن بالدولة القومية الحديثة التي تستند إلى حكم القانون» .

(فوزي، 2007، ص 07)

فمفهوم المواطنة يختلف حسب المناحي التي يتم تناوله منها وأهمها :

– من الناحية القانونية: وتعني أن تكون عضوا في مجتمع سياسي أو دولة بعينها. القانون يؤسس الدولة ويخلق المساواة بين مواطنيها، ويرسي نظاما عاما من حقوق وواجبات تسري على الجميع دون تفرقة، وعادة ما تكون رابطة الجنسية معيارا أساسيا في تحديد المواطن .(فوزي، 2007، ص 9)

وتأتي في صدارة هذه الحقوق، الحقوق السياسية والمدنية والحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، أما الواجبات فهي نتاج طبيعي للحقوق ومنها على سبيل المثال لا الحصر واجب الولاء للوطن والدفاع عنه، وواجب أداء العمل وإتقانه...(شقير و فراوس، 2014، ص 14)

– من الناحية السياسية: وتعني العضوية في مجتمع سياسي، وهو ما يعادل الانتماء إلى دولة أو كيان سياسي بعينه يمس ذلك قضية سيكولوجية هامة جدا وهي الانتماء للوطن وليس مجرد الإقامة فيه.

– من الناحية الاجتماعية : ويشمل حق كل مواطن في الحصول على فرص متساوية لتطوير جودة الحياة التي يعيشها. ويتطلب ذلك توفير الخدمات العامة للمواطنين وبخاصة الفقراء والمهمشين، وإيجاد شبكة أمان اجتماعي لحماية الفئات المستضعفة في المجتمع وأن يظل لها صوت في التأثير على السياسات العامة. (فوزي، 2007، ص 15- 19)

2- قيم المواطنة:

تقوم المواطنة على مبادئ وقيم أساسية أهمها:

– **المساواة** : تمثل القيمة الأساسية للمواطنة من حيث أنه لا يمكن أن يتمتع الشخص بالمواطنة إذا لم نعترف له بالمساواة مع غيره، وإذا تعرض للتمييز أو الإقصاء. فالمساواة قيمة ومبدأ يتم على أساسه الاعتراف بالحقوق والحريات للأفراد، وهي معيار لتطبيق جميع الحقوق والحريات، وبها تتحقق الكرامة الإنسانية. (شقير و فراوس، 2014، ص 15)

– **الانتماء**: هو تعبير عن رابطة معنوية بين الفرد ودوائر مجتمعه المختلفة كونها تقوم على أساس حاجة الفرد لتأكيد ذاته ضمن كيان أكبر يمنحه الأمن والحماية. (محمد آل عبود، 2011، ص 88)

فإذا شعر المواطن بالانتماء إلى مجتمع سياسي معين كان سباقا بالضرورة إلى المشاركة في تقرير شؤونه، والعمل على تطوير جودة الحياة فيه والعكس صحيح.(فوزي، 2007، ص 24)

– **الولاء**: هو الأساس الأول الذي يخول للفرد المطالبة بحقوقه ومن ثم تأدية واجباته ضمن إطار قيم المواطنة . (محمد آل عبود، 2011، ص 88)

– **الديمقراطية** : وهي حكم يقيمه الشعب، وتكون فيه السلطة مناطة بالشعب يمارسها مباشرة

أو بواسطة وكلاء عنه ينتخبهم في نظام انتخابي حر، وترتكز الديمقراطية على مبدأ سيادة الشعب، والحرية والمساواة، ورضا المحكومين، وضمان حقوق الأقلية، والمشاركة السياسية من خلال الانتخاب الحر. (الهاجري، 2007، ص 10، 11)

- **الالتزام** : ويعني التمسّك بالمعايير والقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع بصورة فاعلة تحقق المصلحة العامة.

- **التوازن** : ويقصد به التوازن المسؤول الذي يحقق المصلحة الخاصة في ظل تحقيق المصلحة العامة، أو عدم معارضتهما بصورة مباشرة أو غير مباشرة. (محمد آل عبود، 2011، ص 84- 87)

3- أهمية قيم المواطنة:

إن مفهوم المواطنة يؤكد بصورة أساسية أهمية مشاركة المواطنين في الحياة العامة وتحمل المسؤوليات الوطنية التي تخدم الصالح العام، ولعل هذا الأمر هو مضمون الفكر المعاصر حول الأسلوب الأمثل لضمان تحقيق علاقة ترابط وتعاون بصورة متوازنة بين الفرد ووطنه ومجتمعه، وذلك أثناء ممارسته لأنشطته الحياتية. لذلك يرى الاجتماعيون أن المجتمع القوي هو من يقوم على العلاقة المتبادلة بين الدولة والمواطن على أساس من التضامن والتعاون والقيم المشتركة، وهذا يعني بأنه مجتمع غني بالمواطنة التي تؤدي إلى رقي الشعوب وازدهارها، فإذا ضعفت هذه العلاقة فستبرز الفردية والمصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة، وانتشار ظاهرة المادية المفرطة، وضعف الولاء والانتماء للوطن ومن ثم تقلص وتراجع المواطنة الفعلية. (محمد آل عبود، 2011، ص 72، 73)

4- دور الجامعة في ترسيخ قيم المواطنة:

تساهم الجامعة في رفع مستوى الوعي الفكري والقانوني عبر تطوير العملية التربوية والتعليمية وخاصة تطوير مناهج التعليم العالي، وإعداد الكوادر المتخصصة التي تتطلبها احتياجات التنمية في المجتمع وفق خطة مدروسة ومتناسقة عبر وضع خطط البحوث والإشراف المستمر. كما تساهم الجامعة في نشر المعرفة والثقافة وجعل مؤسساتها في خدمة المجتمع، وتشجيع ودعم التأليف والبحوث العلمية ونشرها والخاصة بتطوير المواطنة وعلاقتها بموضوع حقوق الإنسان باعتبار أن جوهر المواطنة هو الإنسان من خلال الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية، وبحقوقهم المتساوية والثابتة التي ترتكز على أساس الحرية والعدل والسلام في العالم. حيث ترتكز مهمة الجامعة في تعزيز مفاهيم المواطنة وتنمية حقوق الإنسان عبر إذكاء الوعي بأهمية حقوق الإنسان من خلال مجالات مختلفة لتكوين أجيال مستقبلية تحترم حقوق الإنسان وإدراج مقاييس خاصة بتدريس حقوق الإنسان، ونشر ثقافة احترام الحقوق والواجبات.(لكحل، 2015، ص 229)

ثانيا/الجانب الميداني و إجراءاته المنهجية

1- منهج الدراسة :

يتوقف نجاح المنهج الذي يختاره الباحث على مدى توافقه مع طبيعة الظاهرة المدروسة و على قدرته على التحكم في تقنياته، وقد تم اختيار المنهج الوصفي بطريقته التحليلية، والذي يهدف إلى استخدام ما يتوفر لدى الباحث من معلومات وبيانات حول موضوع الدراسة وتحليلها، حيث نسعى من استخدام هذا المنهج إلى التعرف على درجة تمثل قيم المواطنة لدى عينة من طلبة الجامعة الجزائرية .

2-مجتمع و عينة الدراسة:

تمثل مجتمع الدراسة في طلبة السنة الأولى والثالثة بكليتي العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم

الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير بجامعة الجزائر العاصمة خلال الموسم الجامعي (2014-2013) أما عينة الدراسة فقد تم اختيارها بطريقة العينة العشوائية الطبقية، حيث تم اختيار كليتين إحداهما في الاختصاص العلمي، والثانية في الاختصاص الأدبي، كما تم اختيار 200 طالب منهم 100 ذكور و 100 إناث موزعين بالتساوي على التخصصين و المستويين الدراسيين وهذا وفق الجدول رقم (01) :

الجدول رقم (01) يوضح توزيع أفراد العينة

المتغير	الفئات		المجموع
الجنس	ذكر	أنثى	**200**
	100	100	
التخصص الدراسي	علوم إنسانية اجتماعية	علوم اقتصادية وتجارية	
	100	100	
المستوى الدراسي	سنة أولى ليسانس	سنة ثالثة ليسانس	
	100	100	

- 3 أداة الدراسة:

3-1- استبانة تمثل قيم المواطنة :

لغرض قياس درجة تمثل قيم المواطنة لدى طلبة الجامعة تم الاعتماد على استبانة «الهاجري» (2007) لحداثتها ولكونها معدة للبيئة العربية، كما تمتعت بخصائص سيكومترية مقبولة.

تكونت الاستبانة من (30) فقرة موزعة على (03) أبعاد هي: بعد الانتماء وتمثله الفقرات من (1 - 10)، وبعد الولاء وتمثله الفقرات من (11 - 20)، وبعد الديمقراطية وتمثله الفقرات من(21 - 30)، كما اعتمد في بنائها على سلم ليكرت الخماسي الذي يعبر عن درجة التمثل بالبدائل التالية (موافق بشدة، موافق، لا أدري، غير موافق، غير موافق بشدة) و تقابلها الدرجات (1.2.3.4.5) على الترتيب. ومن أجل تفسير النتائج تم اعتماد 3 مستويات لتمثل قيم المواطنة هي :

- مستوى تمثل مرتفع يقابل نسبة مئوية تقع بين (70-100%).
- مستوى تمثل متوسط (مقبول) يقابل نسبة مئوية تقع بين (50-69٪).
- مستوى تمثل منخفض يقابل نسبة مئوية تقع عند (49%) فما دون.

3-2- الخصائص السيكومترية لأداة الدراسة:

للتحقق من الخصائص السيكومترية للاستبانة قبل تطبيقها في الدراسة الحالية تم القيام بدراسة استطلاعية استهدفت عينة متكونة من (42) طالبا من جامعة الجزائر من خارج عينة الدراسة، منهم (21) طالبا و(21) طالبة، وتم حساب ما يلي :

صدق الاتساق الداخلي :

والذي يعتمد على حساب معامل الارتباط (paerson) بين الدرجة الكلية للفقرة والدرجة

الكلية للمقياس، وقد تراوحت قيم معاملات الارتباط المحسوبة بين (0.32-0.71) وكانت معظمها دالة إحصائيا ماعدا الفقرات (30.21.19.17.11.5) فقد كانت معاملات ارتباطها بالدرجة الكلية للمقياس غير دالة مما استوجب حذفها لتصبح الاستبانة مكونة من (24) فقرة موزعة على أبعادها الثلاثة.

كما تم حساب معامل الارتباط بين الدرجة الكلية للبعد والدرجة الكلية للاستبانة، والجدول رقم (٠٢) يوضح النتائج المسجلة :

الجدول رقم (02): يمثل الأبعاد ومعامل الارتباط والدلالة الإحصائية

الرقم	الأبعاد	معامل الارتباط	الدلالة الإحصائية
1	الانتماء	0.88	0.01
2	الولاء	0.70	0.01
3	الديمقراطية	0.78	0.01

من خلال الجدول رقم (02) نلاحظ أن جميع معاملات ارتباط أبعاد الاستبانة بالدرجة الكلية لها كانت دالة إحصائيا وهذا يدل على اتساق الأبعاد مع المقياس، ويؤكد صدق الاستبانة وصلاحيتها للتطبيق في الدراسة الحالية.

الثبات :

تم تقدير ثبات الاستبانة بحساب معامل الثبات « ألفا كرونباخ» والذي بلغت قيمته (0.827) وهو معامل ثبات عال يدل على ثبات وصلاحية تطبيق الاستبانة في الدراسة الحالية.

4- مجالات الدراسة:

- المجال المكاني: تم إجراء الدراسة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجزائر2 وكلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير بجامعة الجزائر3.

- المجال الزماني: تم تطبيق الإجراءات الميدانية خلال السنة الجامعية (2013/ 2014).

- المجال البشري : المعنيون بالدراسة هم عينة من طلبة جامعتي الجزائر٢ و ٣ والمسجلين بالسنتين الأولى والثالثة ليسانس بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية وكلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير وقد بلغ عددهم (200) طالبا منهم (100) ذكر و(100) أنثى.

5- الأساليب الإحصائية:

بعد جمع البيانات وتفريغ المعطيات الناتجة عن استجابات أفراد العينة تمت معالجتها باستخدام التقنيات الإحصائية التالية :

- التكرارات والنسب المئوية : استخدمت في حساب درجة تمثل الطلبة لقيم المواطنة.

- معامل الارتباط «بيرسون» (Pearson) : استخدم في حساب صدق أداة الدراسة.

- اختبار (T.test) : استخدم في الكشف عن دلالة الفروق بين الجنسين والتخصصين والمستويين الدراسيين في درجة تمثل الطلبة لقيم المواطنة.

نتائج الدراسة

1- عرض وتحليل ومناقشة نتائج الفرضية الأولى :

تنص الفرضية الأولى على ارتفاع درجة تمثل الطلبة

لقيم المواطنة لدى عينة الدراسة و للتأكد من تحقق الفرضية تم حساب التكرارات والنسب المئوية لاستجابات أفراد العينة، والجدول رقم (03) يوضح النتائج المتوصل إليها :

الجدول رقم (03) يوضح الفقرات و التكرارات والنسب المئوية

والرتب النهائية ودرجات التمثل لاستبانة قيم المواطنة

الرقم	الفقرات (البنود)	التكرارات	النسب المئوية	الرتب	درجة التمثل
1	أسعى للحفاظ على مصلحة الوطن واستقراره	917	91.7	1	مرتفعة
2	أتحمّل مسؤوليتي تجاه الوطن	848	84.8	9	مرتفعة
3	أشعر بالأمن والاستقرار في بلدي	599	59.9	22	متوسطة
4	أسعى بكل إخلاص لتقديم ما أستطيع من أجل وطني	854	85.4	8	مرتفعة
5	أسارع لتقديم خدمة للوطن عندما يطلب مني	812	81.2	12	مرتفعة
6	أفتخر بالمسيرة السياسية لوطني	565	56.5	24	متوسطة
7	أومن بشكل قاطع بأهمية الوحدة الوطنية.	879	87.9	5	مرتفعة
8	أقوم بأي عمل يسهم في القضاء على المظاهر السلبية في مجتمعي	873	87.3	7	مرتفعة
9	أتفهم أفكار ومواقف الآخرين	830	83	11	مرتفعة
10	أشعر بالتفاؤل والتطلع إلى مستقبل وطني	693	69.3	20	مرتفعة
11	أنمي شعوري بالولاء للوطن بتعزيز ارتباطي به	771	77.1	16	مرتفعة
12	أدافع عن وطني في كل المواقف التي تتطلب ذلك	877	87.7	6	مرتفعة
13	أحس بالحنان والشوق إلى وطني باستمرار	785	78.5	15	مرتفعة
14	أقدم مصلحة وطني على مصلحتي الشخصية	635	63.5	21	متوسطة
15	أعبر للآخرين عن شعوري وحبي لوطني	734	73.4	18	مرتفعة
16	أشعر بواجبي في المساهمة في تحقيق إنجازات الوطن والمحافظة عليها	843	84.3	10	مرتفعة
17	أومن بأهمية العمل التطوعي	883	88.3	4	مرتفعة
18	أومن بالمشاركة في عملية صنع القرار كل حسب موقعه	803	80.3	14	مرتفعة
19	أومن بروح التعاون والإخاء بين المواطنين	903	90.3	2	مرتفعة
20	أقدر دوري في المشاركة في الحياة السياسية	585	58.5	23	متوسطة
21	أومن بتعددية الأفكار السياسية والثقافية	714	71.4	19	مرتفعة
22	أرفض العنف واستخدام القوة في تحقيق أهدافي أو للتعبير عن رأيي	901	90.1	3	مرتفعة
23	أؤيد المشاركة في النشاطات التي تعزز الديمقراطية في وطني	767	76.7	17	مرتفعة
24	أحافظ على مظاهر الديمقراطية في بلادي	812	81.2	12	مرتفعة
الاستبانة		**18883**	**78.67**	**مرتفعة**	

من خلال الجدول رقم (03) نلاحظ أن النسبة المئوية الإجمالية لاستبانة تمثل قيم المواطنة قد بلغت (78.67%) وهي قيمة تقع في المستوى المرتفع حسب المستويات المحددة في الدراسة الحالية، كما أن معظم الفقرات حصلت على نسب مرتفعة، حيث تراوحت بين (91.7- 69.3%) ماعدا الفقرات (14.10.6.3) فقد حصلت على نسب متوسطة تراوحت بين (63.5-56.5%)، كما حصلت الفقرة رقم (01) والمتعلقة بالمحافظة على مصلحة الوطن واستقراره على الترتيب الأول مسجلة نسبة مرتفعة قدرها (91.7%)، بينما حصلت الفقرة رقم (06) والمتعلقة بافتخار الطالب بالمسيرة السياسية للوطن على الترتيب الأخير بنسبة قدرها (56.5%) . وهذه النتيجة المتوصل إليها تؤكد وجود درجة تمثل مرتفعة لقيم المواطنة لدى الطلبة عينة الدراسة، ومنه فإن الفرضية الأولى قد تحققت .

كما تم حساب النسب المئوية لكل بعد من أبعاد الاستبانة و الموضحة في الجدول رقم (04):

الجدول رقم (04) يمثل التكرارات والنسب المئوية والرتب النهائية

ودرجات التمثل لأبعاد استبانة قيم المواطنة

الرقم	الأبعاد	التكرارات	النسبة المئوية	الرتبة	درجة التمثل
1	الانتماء	7177	%79.74	1	مرتفعة
2	الولاء	5338	76.25%	3	مرتفعة
3	الديمقراطية	6368	79.60%	2	مرتفعة

يتضح من الجدول رقم (04) أن كل أبعاد استبانة التمثل لقيم المواطنة قد حصلت على نسب مئوية مرتفعة تراوحت بين (79.74%-76.25%)، وكلها قيم تقع في المستوى المرتفع ،حيث جاء البعد الأول والمتعلق بالانتماء في الترتيب الأول، يليه البعد الثالث المتعلق بالديمقراطية، بينما حصل البعد الثاني المتعلق بالولاء على الترتيب الأخير، وهذه النتيجة تؤكد أيضا وجود درجة تمثل مرتفعة لقيم المواطنة لدى عينة الدراسة على المقياس كله وعلى أبعاده الثلاثة.

هذه النتيجة قد تعزى إلى نجاح مؤسسات التنشئة الاجتماعية في إعداد المواطن الجزائري إيمانا منها بأن الشباب هم أمل المستقبل وعدته، بالإضافة إلى تجسيد ثقافة التعددية السياسية وقبول الآخر المخالف في الرأي السياسي في المجتمع، وظهور نزعة قوية لدى الشباب الجزائري نحو الحرية والمشاركة السياسية في تقرير مصير البلاد من خلال الاندفاع نحو صناديق الانتخاب باعتبارها الآلية الأنجع للتغيير الاجتماعي و السياسي، وقد تعود هذه النتيجة أيضا إلى الحقوق التي يتمتع بها الطالب الجزائري وما توفره له الجامعة من خدمات أكاديمية واجتماعية متعددة وعلى رأسها مجانية التعليم الأمر الذي ساهم في تحقيق قيم الولاء والانتماء والديمقراطية وارتفاع درجة تمثل الطلبة لها. كما أن تزامن الدراسة مع مباراة الفريق الوطني المؤهلة لنهائيات كأس العالم (2014) كان له أثر كبير على هذه النتيجة، حيث أدت أجواؤها واحتفالاتها إلى ارتفاع مؤشر الوطنية لدى الشباب وزادت من ولائهم وانتمائهم للوطن.

إن هذه النتيجة تتفق مع النتيجة التي توصلت إليها دراستي «أبو سنينة «(2010) و «الهاجري» (2007) واللتان أظهرت نتائجهما وجود درجة تمثل مرتفعة لمفاهيم و قيم المواطنة لدى طلبة الجامعة.

2- عرض وتحليل النتائج الفرضية الثانية:

تنص الفرضية الثانية على عدم وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل الطلبة لقيم المواطنة تعزى لمتغير الجنس لدى عينة الدراسة، وللتحقق من هذه الفرضية تم حساب اختبار دلالة الفروق (T.test) و تم رصد النتائج الموضحة في الجدول رقم (05) :

الجدول رقم(05) يوضح دلالة الفروق (T.test)

في درجة تمثل قيم المواطنة حسب متغير الجنس

الفئات	عدد أفراد العينة	المتوسط الحسابي	**الانحراف المعياري**	**درجة الحرية**	**قيمة (ت) المحسوبة**	**مستوى الدلالة**
علوم اجتماعية وإنسانية	100	94.01	1.57	198	- 0.4	غير دالة
علوم اقتصادية وتجارية	100	94.49	1.32			
ذكور	100	92.88	1.59	198	-3.14**	دالة 0.01
إناث	100	96.46	1.02			

من خلال الجدول رقم (05) نلاحظ أن قيمة اختبار(ت)المحسوبة قد بلغت على المقياس كله (3.14-) وهي دالة عند مستوى الدلالة (0.01) مقارنة مع قيمة (ت) المجدولة والتي بلغت (2.57) عند درجة حرية، وهذا يدل على وجود فروق دالة إحصائيا بين الطلبة والطالبات المعنيين بالدراسة في درجة تمثل قيم المواطنة لصالح فئة الإناث، مما يعني رفض الفرضية الصفرية الثانية وقبول الفرضية البديلة.

هذه النتيجة قد تعود لكون الإناث على درجة عالية من الوعي بقيم المواطنة نتيجة التنشئة الاجتماعية التي أصبحت تحث البنات على إثبات وتحقيق مكانتهن في المجتمع وتشجيعهن على الدراسة بالجامعة والممارسة السياسية، الأمر الذي عزز تمثلهن لقيم المواطنة وزاد من ولائهن للوطن. وهذه النتيجة تختلف عن النتيجة التي توصلت إليها دراستي «أبو سنينة «(2010)

و«الهاجري» (2007) واللتان أثبتت نتائجهما عدم وجود فروق بين الجنسين في درجة التمثل لمفاهيم وقيم المواطنة، وهذا الاختلاف في النتائج قد يعود إلى تباين الخلفيات الثقافية لدى عينات الدراسة.

3 – عرض وتحليل و مناقشة نتائج الفرضية الثالثة:

تنص الفرضية الثالثة على عدم وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل قيم المواطنة تعزى لمتغير التخصص الدراسي ،وللتحقق من هذه الفرضية تم حساب الاختبار التائي لمتوسطين غير مرتبطين وذلك وفق الجدول رقم (06):

الجدول رقم(06) يوضح دلالة الفروق(T.test)

في درجة تمثل قيم المواطنة حسب التخصص الدراسي

الفئات	عدد أفراد العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	قيمة (ت) المحسوبة	مستوى الدلالة
السنة الأولى	100	92.32	1.3	198	3.24-	0.01 دالة
السنة الثالثة	100	96.18	1.52			

من خلال الجدول رقم (06) نلاحظ أن قيمة اختبار(ت) المحسوبة قد بلغت على المقياس كله (0.4-) وهي غير دالة عند مستوى الدلالة (0.05) مقارنة مع قيمة (ت) المجدولة والتي بلغت (1.96) عند نفس المستوى، وهذا يدل على عدم وجود فروق دالة إحصائيا بين التخصصين المستهدفين بالدراسة في درجة تمثل قيم المواطنة لدى عينة الدراسة، مما يعني تحقق الفرضية الصفرية الثالثة .

وهذه النتيجة قد تعود لكون الطلبة المعنيين بالدراسة على اختلاف تخصصاتهم العلمية (علوم اقتصادية وتجارية وعلوم التسيير) والأدبية (علوم إنسانية واجتماعية) يشعرون بانتمائهم وولائهم لوطنهم، كما أن تواجدهم بالجامعة عزز من تمثلهم لقيم المواطنة وعلى رأسها قيمة الديمقراطية التي أتاحت لهم التعبير عن آرائهم بكل حرية، والانخراط في المنظمات الطلابية على اختلافها لإيصال انشغالاتهم، وتحقيق مطالبهم والمساهمة في اتخاذ القرارات، وتغيير الأوضاع القائمة في الجامعة .

وهذه النتيجة تقترب من النتيجة التي توصلت إليها دراسة « داود» (2011) والتي أظهرت عدم وجود فروق بين متوسطات عينة الدراسة في استجاباتهم لدور الجامعة في تنمية قيم المواطنة تعزى لمتغير اختلاف الكلية، كما أن النتيجة تختلف عن نتائج دراسة «الهاجري» (2007) التي توصلت إلى وجود فروق بين التخصصات الدراسية لصالح الكليات الإنسانية.

4 – عرض وتحليل ومناقشة نتائج الفرضية الرابعة:

تنص الفرضية الرابعة على عدم وجود فروق

دالة إحصائيا في درجة تمثل قيم المواطنة تعزى لمتغير المستوى الدراسي لدى عينة الدراسة، حيث تم حساب الاختبار التائي وفق النتائج الموضحة في الجدول رقم (07) :

الجدول رقم (07) يوضح دلالة الفروق(T.test) في درجة تمثل قيم المواطنة حسب متغير المستوى الدراسي

من خلال الجدول رقم (07) نلاحظ أن قيمة (ت) المحسوبة قد بلغت على المقياس كله (-3.24) وهي دالة عند مستوى الدلالة (0.01) مقارنة مع قيمة (ت) المجدولة والتي بلغت (2.57) عند نفس المستوى، وهذا يدل على وجود فروق دالة إحصائيا بين المستويين الدراسيين المستهدفين بالدراسة في درجة تمثل قيم المواطنة لصالح طلبة السنة الثالثة، مما يعني رفض الفرضية الصفرية الرابعة وقبول الفرضية البديلة .

وهذه النتيجة قد تعود لكون تنشئة الفرد وتربيته على مفاهيم وقيم المواطنة تبدأ وتكتمل في مؤسسات المجتمع المدني ومنها الجامعة، والتي تستكمل تعزيز هذه القيم لدى طلبتها بتدرجهم من سنة إلى أخرى وهذا ما أظهر الفروق بين طلبة السنة الأولى الذين التحقوا بالجامعة حديثا وطلبة السنة الثالثة الذين ساهمت البيئة الجامعية في تكوينهم العلمي والثقافي ونسقهم القيمي خلال سنوات الدراسة المتتالية. وهي نتيجة تقترب من النتيجة التي توصلت إليها دراسة «الخوالدة» (2013)، والتي أظهرت نتائجها وجود فروق تعزى لمتغير المستوى الدراسي، وتختلف عن نتائج دراسة « الهاجري» (2007) والتي توصلت إلى عدم وجود فروق في درجة تمثل قيم المواطنة تعزى لمتغير السنة الدراسية .

الاستنتاج العام :

من خلال هذه الدراسة الوصفية حول درجة تمثل طلبة الجامعة الجزائرية لقيم المواطنة ،وباستخدام المنهج الوصفي التحليلي، وفي ضوء المعالجة الإحصائية للفرضيات تم استنتاج ما يلي:

– وجود درجة تمثل مرتفعة لقيم المواطنة لدى عينة الدراسة في جميع أبعاد الاستبانة، حيث بلغت النسبة المئوية الإجمالية (78.67 %)، وهي قيمة تقع في المستوى المرتفع حسب المستويات المعتمدة في الدراسة الحالية، ومنه فإن الفرضية الأولى قد تحققت .

– وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل قيم المواطنة تعزى لمتغير الجنس لدى عينة الدراسة لصالح فئة الإناث، ومنه فإن الفرضية الصفرية الثانية لم تتحقق .

– عدم وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل قيم المواطنة تعزى لمتغير التخصص الدراسي لدى عينة الدراسة، ومنه فإن الفرضية الصفرية الثالثة قد تحققت .

– وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تمثل قيم المواطنة تعزى لمتغير المستوى الدراسي لدى عينة الدراسة لصالح طلبة السنة الثالثة ومنه فإن الفرضية الصفرية الرابعة لم تتحقق .

وأخيرا تعتبر النتائج المتوصل إليها أولية ونقطة انطلاق للباحثين في هذا المجال، وذلك لمناقشتها وإثرائها من جديد على عينات أخرى وفي مراحل تعليمية أعلى،و بمناطق جغرافية أوسع.

خاتمة ومقترحات :

إن ترسيخ قيم المواطنة وتمثّل الشباب الجامعي لها أصبح ضرورة تقتضيها التحديات التي يواجهها الطلبة في عصر العولمة، فدور الجامعة لم يعد مقتصرا على تقديم الخدمات الأكاديمية والعلمية فحسب بل تعداه ليساهم في تعزيز قيم المواطنة وترقية الوعي بها لدى الطلبة، وهذا بهدف تكوين جيل واع مثقف يحمل قيم التفاهم والتسامح والالتزام، ويمتلك قدرة وحصانة وطنية تمكّنه من مواجهة مختلف التحديات المستقبلية، و

يساهم في الرقي بمجتمعه وأمته .

و بناء على نتائج الدراسة الحالية يمكن الخروج بالاقتراحات التالية :

1-توجيه الطلبة وتوعيتهم بأهم قضايا المجتمع ومشكلاته ،و تمكينهم من التعبير عن آرائهم كشركاء فاعلين وتعزيز قيم المشاركة والتسامح والديمقراطية لديهم.

2-عقد ندوات دورية حول التراث الوطني والمشاركة في الاحتفالات والمناسبات الوطنية والاعتزاز بالانتماء للوطن لأنها من أبرز السمات الوطنية.

3-العمل على زيادة تفعيل دور الجامعة في تنمية قيم المواطنة لدى الطلبة، وذلك من خلال البرامج الدراسية التي تعزز هذه القيم وتنميها.

4-تشجيع الأنشطة الطلابية التي تنمي مختلف المهارات والقيم والاتجاهات الإيجابية لدى الطلبة ومنها قيم المواطنة.

5- ضرورة تكامل كافة مؤسسات المجتمع المدني مع المؤسسات التعليمية لترسيخ قيم المواطنة وتنميتها في نفوس الأجيال .

6 - تفعيل برلمان الأطفال والشباب لتدريبهم على ممارسة مفاهيم المواطنة وتجسيد قيمها.

7 - إجراء دراسات مماثلة، و في أطوار تعليمية أخرى من أجل تعزيز نتائج الدراسة الحالية.

المراجع :

1- أبو سنينة، عودة (2010) : **درجة تمثل طلبة كلية العلوم التربوية (الأونروا) للمفاهيم الوطنية في المملكة الأردنية الهاشمية**، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، مجلد18، العدد الأول، عمان، الأردن.

2- أحمد، سهير كامل (2001): **علم النفس الاجتماعي بين النظرية و التطبيق**، ب ط، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر.

3- الخوالدة، تيسير محمد (2013) : **دور عضو هيئة التدريس في تنمية قيم المواطنة**، دراسات في العلوم التربوية، مجلد 40، ملحق3، الجامعة الأردنية، الأردن.

4- الهاجري، فيصل عايض (2007): **درجة تمثل طلبة جامعة الكويت لقيم المواطنة ودور الجامعة في تنميتها**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عمان، الأردن.

5- داود، عبد العزيز (2011): **دور الجامعة في تنمية قيم المواطنة لدى الطلبة**، المجلة الدولية للأبحاث التربوية،العدد 30، الإمارات العربية المتحدة.

6- شقير، حفيظة و فراوس، يسرا (2014): **الشباب و المواطنة الفعالة**، صندوق الأمم المتحدة للسكان و ائتلاف حافلة المواطنة، تونس.

7- لكحل، أحمد (2015): **دور الجامعة في ترسيخ قيم المواطنة**، مجلة المفكر، العدد 12، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

8- محمد آل عبود، عبد الله بن سعيد (2011): **قيم المواطنة لدى الشباب وإسهامها في تعزيز الأمن القومي**، ط1، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

9- مرتجى، زكي و الرنتيسي، محمود (2011): **تقييم محتوى مناهج التربية المدنية للصفوف السابع والثامن والتاسع الأساسي في ضوء قيم المواطنة**، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد19، العدد 2، فلسطين .

10- مقدم، عبد الحفيظ (2003): **الإحصاء النفسي والتربوي مع نماذج من المقاييس والاختبارات**، ط2 ، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر.

آداب طلب العلم (العالم والمتعلّم – الأستاذ والطّالب) من خلال قصة موسى والخضر عليهما السّلام

د.يوسف نواسة
أستاذ محاضر أ –
المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة.

Abstract

The research deals with the subject of the ethics of the learned and the learner / the ethics of the teacher and the student / the ethics of the teacher and the student through the analysis of the story of Moses and the Khader peace be upon them, and the interesting dialogue that took place between them, and begins the research from the statement of the educational dimension of the story of the Koran .and then the educational dimension of dialogue in the story of the Koran, As it came in the Revelations: the Book of Allah and the Sunnah of the Prophet, to conclude the statement of benefits and governance related to the science transmitted in the folds of the story, and then the statement of the etiquette of the learner / student / student through this story, and then the statement of ethics of the learned / teacher / teacher.

مقدمة:

إنّ القصص القرآني أروع القصص بإطلاق، إذ هو أحسن القصص بيانًا بليغا وحكمة بالغة، ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**﴾، والمقصود الأعظم منه هو الاهتداء لخير السّبل وأفضل الأخلاق بالاعتبار بخير قصص وأفضل مثال، إعمالاً للعقل بالتّدبّر، واستنباطًا للحكم والفوائد بالتّفكّر: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ ، وكم من العِبر العظيمة والحِكم الجليلة في اللفظة الواحدة من القرآن العظيم بله القصة الكاملة منه؟!، بل ربّما يكون في الكلمة منه حِكما ومعاني أكثر من عدد حروفها!، ولله الحكمة البالغة.

ومن روائع القصص القرآني التي تشدّ قارئها شدًّا، وتأخذ بلبه وقلبه أخذا: قصة موسى والخضر عليهما السّلام، هذه القصة الجليلة الجميلة التي حيّرت العلماء وبهرت العقلاء بأحداثها العجيبة ووقائعها الفريدة وحِكمها الباهرة!، لا تزال معينًا صافيًّا للمتدبّرين، ونبعًا ثرًّا للمتفكّرين، ومنارة سامية للمتعلّمين. ولست بصدد تفسير الآيات التي حوتها، فدون ذلك التّفاسير

الكِثار لعلمائنا الأبرار، وإنّما قصدي التّنبيه على فرائد من فوائدها قد يُغفل عنها ولا يُنتبه لها، فأمام روعة القصة وعجيب أحداثها قد لا ننتبه إلى آداب العالم والمتعلم (= آداب الأستاذ والطالب) التي احتوتها وأفادتها، ولكنّ علماءنا تدبّروا وتفكّروا واستنبطوا منها جليل الآداب ودقيقها، وجميل الحِكَم وعميقها، وتركوا مهيعا وسيعا لمن أراد أن يسلك سبيل المتفكرين. فهذا الإمام الرّازيُّ يستنبط من آية واحدة في نصف سطر اثنتي عشرة فائدة، قال في تفسير قوله تعالى:﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾: «اعلم أنّ هذه الآيات تدلّ على أنّ موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللّطف عندما أراد أن يتعلّم من الخضر.

فأحدها: أنّه جعل نفسه تابعاً له؛ لأنّه قال:﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ**﴾. وثانيها: أنّه استأذن في إثبات هذا التّبعية؛ فإنّه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تابعاً لك، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع. وثالثها: أنّه قال على أن: ﴿ **تعلمني** ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم. ورابعها: أنّه قال: ﴿ **مِمَّا عُلِّمْتَ** ﴾ وصيغة من للتّبعيض؛ فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضاً مشعر بالتّواضع كأنّه يقول: له لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله. وخامسها: أن قوله: ﴿ **مِمَّا عُلِّمْتَ** ﴾ اعتراف بأنّ الله علّمه ذلك العلم. وسادسها: أنّ قوله: ﴿ **رَشَدًا** ﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضّلال. وسابعها: أن قوله: ﴿ **تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾ معناه أنّه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنّه يكون إنعامك عليّ عند هذا التّعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم؛ ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلمت منه حرفاً. وثامنها: أنّ المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير؛ لأجل كونه فعلاً لذلك الغير ... فنقول قوله: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ**﴾ يدلّ على أنّه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها. وهذا يدلّ على أنّ المتعلم يجب عليه في أول الأمر التّسليم وترك المنازعة والاعتراض. وتاسعها: أن قوله: ﴿**اتبعك**﴾ يدلّ على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيّد بشيء دون شيء. وعاشرها: أنّه ثبت بالإخبار أنّ الخضر عرف أولاً أنّه نبيُّ بني إسرائيل، وأنّه هو موسى صاحب التّوراة، وهو الرّجل الذي كلّمه الله عزّ وجلّ من غير واسطة، وخصّه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثمّ إنّه عليه السّلام مع هذه المناصب الرفيعة والدّرجات العالية الشّريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التّواضع؛ وذلك يدلّ على كونه عليه السّلام آتيّاً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به؛ لأنّ كلّ من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسّعادة أكثر، فكان طلبه لها أشدّ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشدّ. والحادي عشر: أنّه قال: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تعلمني** ﴾ فأثبت كونه تابعاً له أولاً ثمّ طلب ثانيّاً أن يعلّمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التّعليم. والثّاني عشر: أنّه قال: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تعلّمني** ﴾، فلم يطلب على تلك المتابعة على التّعليم شيئاً، كأنّه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلاّ طلب العلم»[1]. فهذا نموذج لما ذكره علماؤنا من فوائد فرائد. وسيأتي باقي الحكم والفوائد.

إشكالية البحث:

تنبع إشكالية هذا البحث من تردّي علاقة الطّالب بالأستاذ والتّلميذ بالمعلّم كما هو معلوم من الواقع التّربويّ المعيش في المؤسسات التّعليمية بكلّ أطوارها، حيث يحاول البحث إبراز نموذج عالٍ من الالتزام بآداب التّعليم والتّعلّم (= آداب العالم والمتعلم، آداب الأستاذ والطّالب) من خلال قصة قرآنية فريدة،

جمعت عوامل التّأثير الأساسية: من قدوة سامية، ومن استعمال أسلوب القصة والحوار، ومن نصّ في قمة الإعجاز البلاغيّ، وهو نصّ ديني مقدّس، يتميّز بالتّأثير الفريد المعجز. فهل يمكن استخلاص أهم الآداب الأساسية التي تحتاجها العملية التّعليمية من خلال هذه القصة القرآنية، وهل كان إبراز وتعزيز هذه الآداب من مقاصد هذا النّص القرآني؟.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

أولا: التّنبيه إلى اشتمال قصة موسى والخضر عليهما السّلام على صورة ناصعة من الالتزام بآداب العالم والمتعلّم.

ثانيا: بيان أهم آداب المتعلّم والطالب من خلال سلوك سيدنا موسى عليه السّلام.

ثالثا: بيان أهم آداب العالم والأستاذ من خلال سلوك سيدنا الخضر عليه السّلام.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث المنهج الوصفي الذي يعني بجمع وتلخيص وتصنيف المعلومات والحقائق المدروسة؛ لغرض تحليلها وتفسيرها وتقييمها.
وسيكون البحث مبسوطا في ستة مطالب كالآتي:

مقدمة: وهي ما أنا بصدد تحريره، وقد ذكرت فيها الإشكالية التي يحاول البحث معالجتها، وأهداف البحث، والمنهج المعتمد في إنجازه. كما تظهر منها أهميته محدوده.

المطلب الأول: البعد التّربويّ للقصة القرآنية.

المطلب الثّاني: البعد التّربويّ للحوار في القصة القرآنيّة.

المطلب الثّالث: تمهيد لقصة موسى والخضر عليهما السّلام.

المطلب الرّابع: فوائد عامة تتعلّق بالعلم وطلبه من قصة موسى والخضر عليهما السّلام.

المطلب الخامس: آداب المتعلّم والطّالب من خلال قصة موسى والخضر عليهما السّلام.

المطلب السّادس: آداب العالم والأستاذ من خلال قصة موسى والخضر عليهما السّلام.

خاتمة: وهي حوصلة موجزة للبحث.

المطلب الأول: البعد التّربويّ للقصة للقرآنية.

لا يخفى ما للقصة من أثر بالغ على النفس البشرية يشبه السّحر من خلال انفعال النّفس بأحداثها، والمشاركة الوجدانية لشخصياتها، ومن هنا نجد القرآن العظيم يعتمد فيما يعتمد من وسائل على التربية بالقصة؛ لِما للقصة الواقعية من تأثير قويّ في النفوس، وتنبيه قويّ على الاعتبار والادِّكار. والقصة كما هو معلوم تصوّر نواحي الحياة فتعرض لك الأشخاص في حركاتهم وسكناتهم، وفي اتفاقهم واختلافهم، وفي سموّهم وسفولهم، وفي أفكارهم وميولاتهم، وفي بيئاتهم وأزمانهم، وفي حواراتهم وتفاعلهم بما يكشف عن مستكن النّفوس من خواطر وطباع، ومستور الأفئدة من ميولات وأهواء. والقصة بعد ذلك تحرّك في الإنسان غريزة حبّ الاستطلاع، وتجلب اهتمامه بصناعة التّشويق استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية القصة والوصول إلى نهايتها. وتغرس القناعات بنعومة الخطاب الفنيّ الذي يهزّ الوجدان ويسحر الألباب.

والقصة القرآنية وإن كانت تتفق مع عامة القصص في جوانب، إلّا أنّها في الوقت ذاته تختلف عنها في جوانب هامة وحاسمة، فـ «القصة القرآنية ليست عملا فنيّا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه -كما هو الشّأن في القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق- إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن

الكثيرة إلى أغراضه الدّينية»[2]. فالجانب الفني للقصة القرآنية يوظّف لتحقيق أغراض أعلى وأهداف أسمى، يجملها: الهداية للتي هي أقوم، في كلّ القضايا، وعلى كلّ الصُّعد، وفي كلّ مجالات الحياة، يقول الأستاذ محمد قطب: «والقرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التّربية والتّوجيه التي يشملها منهجه التّربوي: تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتّوقيع على الخطوط المتقابلة في النّفس، والتّربية بالقدوة والتربية بالموعظة، فهي سجل حافل لجميع التوجيهات، وهي كذلك -على قلة عدد الألفاظ المستخدمة في أدائها- حافلة بكلّ أنواع التّعبير الفني ومشخصاته: من حوار إلى سرد إلى تنغيم موسيقى، إلى إحياء للشخوص، إلى دقة في رسم الملامح، إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة في القصة لتوجيه القلب للعبرة، والتوقيع عليه بالنّغم المطلوب»[3].

إنّ الفوائد والعبر التي تستفاد من قصص القرآن هي المقصود الأول الذي يجب الحرص على تحصيله للاهتداء به والعمل على مقتضاه، يقول الإمام محمد الغزالي رحمه الله: «والقصة حيث كانت عنصر تربية، وشارة توجيه، وإفرادها أو تكريرها مقرون بحكمة وغاية»[4]. وقصة الخضر وموسى عليهما السلام قصة مفردة لم تتكرر، وفيها من تلك التربية وذلك التّوجيه الشّيء الكثير، تربيةً بالقدوة ممثلة في عبدين من أكرم الخلق ومن المصطفين الأخيار، وتوجيها لأقوم السلوك وأحسن الأخلاق في باب من أهم أبواب الحياة: طلب العلم، أو العلم والتّعلّم، الذي هو أساس كلّ نهضة وكلّ إصلاح وكلّ حضارة. يقول العلامة عبد الرحمن بن ناصر السّعدي رحمه الله: «في هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير»[5]، وقبله قال الإمام النّووي رحمه الله: «في هذه القصة أنواع من القواعد والأصول والفروع والآداب والنّفائس المهمة»[6]، وبعدهما قال العلامة إبراهيم بيوض رحمه الله: «ففي هذ المحاورة حِكم كثيرة تتعلّق بآداب المتعلّم وآداب العالم، وحقوق العالم على المتعلّم، وفضل العلم، والأدب الذي يجب أن يلتزمه طلّاب العلم»[7]. ولكنّي سأقتصر على ما كان منها متعلّقا بطلب العلم التزاما بالمقام وحدود البحث.

المطلب الثّاني: البعد التّربويّ للحوار في القصة القرآنيّة.

لقد استعمل القرآن العظيم أكثر من أسلوب للوصول إلى قلب الإنسان وعقله والتأثير في شعوره وفكره. وأسلوب الحوار هو الأسلوب الفريد من بين أساليب الحديث الذي يرتكز عليه فنّ القصص في خلق الحركة وتنويعها وتلوينها، وهذه الحركة في تنوّعاتها وتلوّناتها هي روح العمل القصصي الذي ينفخ فيه الحياة، ويمدّه بالإشراق الذي يجذب النّفوس للتّعلّق به وتذوّق جمالياته، ومن غير حوار ولا حركة ولا تنوّع ولا تلوّن تكون القصة ركامًا من كلمات بادرة جامدة لا تصيخ لها أذن، ولا يهفو لها قلب، ولا يتحرّك لها وجدان![8]؛ ولهذا نجد القرآن العظيم ارتكز في قصصه على المحاورة والمناظرة، فكانت قصصه قطعا من الحياة نيّرة، وتيارا من الحركة المثيرة.

واستعمال القرآن العظيم للحوار ذو قصد تربويّ بيّن، يقول العلامة حسين فضل الله: «وجاء الإسلام -من خلال القرآن الكريم- ليكون دين الحوار، الذي يطلق للعقل أن يفكر في كلّ شيء؛ ليتحدث عن كلّ شيء، وليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل؛ ليعلمهم كيف يصلون إلى قناعته وآفاقه بالكلمة الحلوة والأسلوب الطّيب والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن»[9]، و يمكن إجمال أهم الأهداف التّربويّة للحوار في الآتي:

1 – التّأثير في المتلقي (السّامع أو القارئ) وجعله يتقاسم مع المخاطب اعتقاده واقتناعه الخاص.

2 – التّأثير في المتلقي وجعله يقوم بالفعل الذي

يطلبه ويريده المخاطب.

3 – استمالة المتلقي وإغرائه باعتباره ذهنا وعاطفة عقلا وقلبا؛ لكسب تأييده وتوافقه الضّمنيّ أو الصّريح[10]. والقرآن الكريم «يعتمد اعتمادا كبيرا على أسلوب الحوار في توضيح المواقف، وجلاء الحقائق، وهداية العقل، وتحريك الوجدان، واستجاشة الضمير، وفتح المسالك التي تؤدّي إلى حسن التّلقي والاستجابة والتّدرج بالحجة، احترامًا لكرامة الإنسان، وإعلاءً لشأن عقله الذي ينبغي أن يقتنع على بينة ونور»[11]. ولا يخفى أنّ هذه الطريقة الفنية فعّالة تمام الفعالية لغرس الأخلاق وتعزيزها، وتقويم الآداب وتحفيزها عند المتلقي، فهي تغريه بالخلق وتُشرِب نفسَه الأدبَ بطريقة فنية يغشاها الجمال والجلال.

وممّا يزيد الحوار في القصة القرآنية قوة أنّه حوار واقعي حقيقيّ، وليس مُتخيّلا ولا مُتمثلا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: 13]، وهذه الواقعية والصّدق تجعل المتلقي يتفاعل بكليته مع مقاصد الحوار وأغراض القصة، ويتأثر تأثرًا كبيرا بذلك، «ذلك أنّنا في القصص القرآنيّ لا نجد فرصة أبدا نتفلت فيها من هذا الشعور الذي يستولي علينا، من أنّنا بإزاء شخصيات واقعية، لها وجودها الذّاتيّ، ولها منطقها وتفكيرها، ولها منزعها وإرادتها في الموقف الذي تقفه في الحدث، وفي الأسلوب الذي تعبّر به عن موقفها ... من أجل هذا كان الحوار القصصي في القرآن ذا أثر بعيد في إحياء المشاهد التي ضمّ عليها الحدث القصصي، وفي إقدارها على التّأثير بالكلمة تأثيرا لا يبلغه التّأثير بالصورة أو الحركة في العمل السّينمائيّ أو المسرحيّ ...»[12]. ومن هنا يمكن القول بأنّ الحوار أبرز عناصر القصة وأهمها؛ لِما يؤدّيه من دور في إبراز شخصياتها، وإبراز المعاني النّفسية التي يتضمنّها الموقف الحواري. فالحوار يكشف الأبعاد النّفسية للإنسان، ومن خلال ذلك يمكن رسم ملامح شخصيته، وإظهار جوانب القدوة منها. وهذا ما تحقّق من خلال سرد المحاورة العجيبة بين سيدينا موسى والخضر عليهما السّلام، التي نحن بصدد استخلاص واستنباط بعض حِكمها وفوائدها.

المطلب الثّالث: تمهيد لقصة موسى والخضر عليهما السلام.

سأذكر في هذا المطلب مجمل القصة كما وردت في الوحيين، في سورة الكهف، وفي الحديث الشريف، ولا أعنى بتفسيرها؛ لضيق المقام عن ذلك، وللتّركيز على أهداف البحث.

ومجمل القصة ورد في القرآن العظيم في سورة الكهف، وذلك قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ

يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف: 60-82]، والآيات بيّنة في ألفاظها ومعانيها، وإن كانت عميقة في دلالاتها، غنية بالأسرار والحِكم، فلست مضطرا إلى تفسيرها وتتبع أقوال المفسرين فيها[13]. ويكفي أن أعرّج على هذه القصة كما روتها السنّة النّبوية لأزيدها إيضاحًا وبيانًا، قبل أن أدلف لبيان المقصود من هذا البحث. فعن أبيِّ بنِ كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النّبيّ ﷺ قال: «قام موسى النّبيُّ خطيبا في بني إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟، فقال: «أنا أعلم». فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبدا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب، وكيف به؟، فقيل له: احمل حوتا في مكتل فإذا فقدته فهو ثَمَّ، فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحملا حوتا في مكتل، حتى كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما، وناما، فانسل الحوت من المكتل، فاتخذ سبيله في البحر سربا. وكان لموسى وفتاه عجبا، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: (آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) ، ولم يجد موسى مسًّا من النَّصب حتى جاوز المكان الذى أمر به. فقال له فتاه: (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت)، قال موسى: (ذلك ما كنّا نبغي، فارتدّا على آثارهما قصصا، فلمّا انتهيا إلى الصّخرة إذا رجل مسجّى بثوب – أو قال تسجى بثوبه – فسلّم موسى. فقال الخضر: وأنّى بأرضك السّلام؟، فقال: أنا موسى. فقال: موسى بنى إسرائيل؟!، قال: نعم. قال: (هل أتبعك على أن تعلمني ممّا علمت رشدا)؟، قال: (إنّك لن تستطيع معي صبرا)، يا موسى إنّي على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه. قال: (ستجدني إن شاء الله صابرا، ولا أعصى لك أمرا)، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر، فحملوهما بغير نول، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر. فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلّا كنقرة هذا العصفور في البحر. فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه. فقال موسى قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، قال: (ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت). فكانت الأولى من موسى نسيانا. فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده. فقال موسى: (أقتلت نفسا زكية بغير نفس قال ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه). قال الخضر بيده فأقامه . فقال له موسى: (لو شئت لاتخذت عليه أجرا). قال: (هذا فراق بيني وبينك)». قال النّبي ﷺ : «يرحم اللهُ موسى، لوددنا لو صبر حتى يقصّ علينا من أمرهما»[14].

المطلب الرّابع: فوائد عامة تتعلّق بالعلم وطلبه من قصة موسى والخضر عليهما السّلام.

لا تقتصر فوائد هذه القصة فيما يتعلّق بالعلم ببيان أهم الآداب النّفسيّة والسّلوكيّة للعالم والمتعلّم، بل هي تتضمن زيادة على ذلك فوائدَ غواليَ في هذا المجال، رأيت من المهم إفرادها بمطلب وتقديمها ذكرا على سرد آداب العالم والمتعلّم؛ لتعلقها بهما أولًا، ولكونها كالمقدّمة والتّأسيس للآداب. وأهم هذه الفوائد ما يأتي:

الفائدة الأولى: لا يقال: فلان أعلم الناس أو أعلمهم بكذا، ومن باب أولى ألّا يظنّ المرء بنفسه أنّه أعلم النّاس!.

فالحديث الشّريف وهو يروي الملابسات والمناسبة التي مهدّت لأحداث القصة يوقفنا على أدب عظيم يعدّ الأرض الصّلبة التي يجب أن يقف عليها كلّ عالم وكلّ طالب علم، خاصة في زماننا هذا الذي كسدت فيه سوق العلم وراجت فيه سوق الدّعوى، هذا الأدب القويم هو أنّه: لا يقال فلان أعلم الناس أو أعلمهم بكذا، ومن باب أولى ألّا يظنّ بنفسه أنّه أعلم النّاس!: وهي فائدة عزيزة نستفيدها من رواية رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه القصة، حيث يقول: «قَامَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟، فقال: أنا أَعلَمُ. قَالَ: فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ ..»، وقد خرّجه الإمام البخاري تحت باب: مَا يُستَحبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِل: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللهِ. فالعالم لا يجوز له الجزم في هذا، فكيف بمن ليس بعالم؟، ولا يخفى ما ابتلينا به من تعصب للشّيوخ والعلماء، وتفضيل بعضهم على بعض رجمًا بالغيب وإتباعًا للهوى وتعصبًا بغير حقّ. وهذا موسى عليه السلام –وهو من هو رفعةً بالنّبوة والتّكليم والعلم– مع ذلك يؤدبه ربّه جلّ جلاله بهذا الأدب؛ أن يقول: «الله أَعْلَمُ أيَّ الناس أعلم»؛ لأنّه لم يُحِط علمًا بكلّ عالم في الدّنيا، ويتقبّل ذلك راضيًّا مرضيًّا.

الفائدة الثّانية: العلم أعظم مقام للإنسان:

فموسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرّسل، وفضّله الله بالتّكليم، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾ ، رغم هذا هبّ طلبًا للعلم حين علم بوجود من هو أعلم منه ببعض العلوم، ولولا أنّ العلم أعظم مقام للإنسان لما تعنّى الكليم عليه السلام كلّ ذلك العناء للاستزادة منه، قال الشيخ إبراهيم بيوض: "هذا المقام الرّفيع والشّرف العالي لموسى عليه السّلام لم يمنعه أن يحمل زاده ويصحب فتاه في سبيل الاستزادة من العلم الذي يزداد به معرفة لجلال الله وحكمته، وهذا هو العلم الذي تشدّ له الرّحال ويسترخص في سبيله كلّ غال"[15]، وهذا الموقف من موسى عليه السّلام يدلّ بوجه آخر على سمو مقام العلم، حيث ترك مهام الرسالة والدعوة لفترة في سبيل طلب العلم، يقول العلامة السّعدي في بيانه لفوائد هذه القصة: «فمنها فضيلة العلم، والرّحلة في طلبه، وأنّه أهم الأمور، فإنّ موسى عليه السّلام رحل مسافة طويلة، ولقي النّصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السّفر لزيادة العلم على ذلك».[16]

الفائدة الثّالثة: مراعاة الأولويات وتقديم الأهم فالأهم.

ذلك أنّ التّعلّم يسبق التّعليم، وقبل أن يتبوأ المرء مقام التوصيل لا بدّ له من استكمال مقام التّحصيل، إذ فاقد الشيء لا يعطيه كما هو معلوم معقول، وهذا الذي جعل سيدنا موسى عليه السّلام يقدم الاستزادة من العلم على أداء وظائفه الأخرى على جلالتها؛ لكونها تفتقر إلى العلم وتقوم عليه، يقول العلامة السّعدي رحمه الله وهو يعدد فوائد هذه القصة: « ومنها: البداءة بالأهم فالأهم، فإنّ زيادة علم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتّعلّيم من دون تزوّد من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل»[17].

الفائدة الرّابعة: العلم علمان: مكتسب ولدنيّ.

رغم أنّ العلم في الأساس هو فضل من الله يختصّ به من يشاء من خلقه، فقد يطلب المرء العلم ولا يوفق لنيله والانتساب إلى أهله، إلّا أنّ العلم في حدّ ذاته من حيث هو علم يقسّمه العلماء إلى قسمين: علم كسبيّ يناله المرء بالتّعلّم والاجتهاد وبذل الوسع في طلبه، وعلم لدنيّ يلهمه الله سبحانه من يختار من خلقه، ولا يدرك بالطّلب والاجتهاد والتّعلّم. قال الإمام جمال الدّين القاسميّ رحمه الله: « دلّ قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** ﴾، على أنّ من العلم علمًا غيبيّا، وهو

المسمى بالعلم اللّدنيّ. فالآية أصل فيه"[18]. وقال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله: « وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (مع أنّ كلَّ علم من لدنه، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنيّا، بل اللّدنيّ الذي ينفتح في سّر القلب من غير سبب مألوف من خارج»[19]. ويفرّق الإمام ابن عطية الأندلسي رحمه الله بين علم موسى وعلم الخضر عليهما السلام، فيقرر: «كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها. وكان علم موسى عليه السّلام علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم»[20].

الفائدة الخامسة: العلم فضل من الله والعلم النافع المرشد إلى الخير.

وهذا ما يستفاد من قول الله الله جلّ في علاه: ﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً** ﴾، فالذي علم الخضر عليه السلام هو ربّ العالمين سبحانه، وأنّى للخضر أو غيره من البشر أن ينال شيئا أو يعلم شيئا لولا فضل الله وتيسيره؟!، ثمّ ما فائدة علم إن لم يهد صاحبه سواء السّبيل ويلحقه بالرّاشدين؟!، قال العلامة السّعدي رحمه الله وهو يعدد فوائد هذه القصة: «ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿**تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾ أي: ممّا علمك الله تعالى. ومنها: أنّ العلم النّافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكلّ علم يكون فيه رشد وهداية لطرق الخير، وتحذير عن طريق الشّر، أو وسيلة لذلك، فإنّه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإمّا أن يكون ضارًّا، أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿**أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾[21].

المطلب الخامس: آداب المتعلّم والطّالب من خلال قصة موسى والخضر عليهما السّلام.

بدأت بآداب المتعلّم والطّالب قبل آداب العالم والأستاذ؛ لأنّه هو الأحوج للأدب، ولأنّ الأصل في العالم أن يكون متأدبّا بأرقى الآداب وأسماها، وخروج العالم أو الأستاذ عن الأدب شذوذ يحفظ ولا يقاس عليه، أمّا الطالب أو المتعلّم وهو في أول الطريق فيحتاج أكثر ممن بلغ آخر الطريق للآداب التي تضبط سلوكه وتزيّن شخصيته. وأهم ما ورد من آداب الطالب والمتعلّم في هذه القصة ما يأتي:

الأدب الأول: تواضع الطّالب لمعلمه.

قال الله عزّ وجلّ على لسان موسى:﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ على أن تعلمنِ ..** ﴾ هنا موسى عليه السلام يُعلِّمنا أدب تلقّي العلم وأدب التّلميذ مع معلمه، فمع أنّ الله تعالى أمره أن يتبع الخضر، لم يقُل للخضر: إنّ الله أمرني أن أتّبعك فيكون الخضر عليه السّلام ملزمًا بتعليمه، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ..** ﴾ وقد سبق ذكر قول الإمام الرّازي رحمه الله: «أنّه استأذن في إثبات هذا التّبعية؛ فإنّه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك، وهذا مبالغة عظيمة في التّواضع»[22]. ونبّه الشّيخ بيوض رحمه الله على فائدة جليلة تستشف من هذا الموقف، فقال: «و لم يكن الخضر مقيمًا في مكان معلوم، فطلب موسى الجلوس إليه فيكون هذا التعلّم ميسورا، بل كان رحّالة ينتقل من مكان إلى مكان، ومع هذا قبل موسى أن يسير معه، وإن شقّ عليه السفر والمسير، وهذه نكتة مهمة يجب أن نتذكرها ولا ننساها، وحقيقة إنّه تواضع من موسى عجيب»[23].

الأدب الثّاني: الاستعداد النّفسي لتحمّل كلّ المشاق في طلب العلم.

ممّا ذكر آنفا من الاستعداد للتّنقل مع الخضر عليه السّلام إلى حيث رحل نتبين حرص موسى عليه السلام الصّادق، ورغبته القوية، واستعداده التام لطلب العلم. وتحمل كلّ ما يعترض سبيله، يقول الشّيخ بيّوض رحمه الله: «و لم يحدّد موسى عليه السلام مدّة إتّباعه للرجل الصالح ... وإنّما طلب منه فقط أن يتبعه ليعلّمه، ولعلّه يطوف به الأرض كلّها، ويسير به الليل والنّهار»[24]،

وهذه العزيمة المضاء والهمة السامقة هي التي تصنع العلماء، وهي أساس النّجاح والتّفوّق والتّبريز.

الأدب الثّالث: الرّغبة الصّادقة في طلب العلم.

لا شكّ أنّ الجانب النّفسي عامل حاسم في سلوك سبيل العلم، وفي تحصيله والفوز بنيله، فمن لا رغبة صادقة له في العلم يشقّ عليه سلوك سبيله، وسرعان ما يتركه، وإن لم يتركه فلن يذهب فيه بعيدا، وسيدنا موسى عليه السلام يضرب لنا مثلا لهذه الرغبة الصادقة في العلم، قال الحقّ سبحانه على لسانه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾، "وهذا إخبار من موسى أنّه وطّن نفسه على تحمّل التّعب الشّديد، والعناء العظيم في السّفر؛ لأجل طلب العلم، وذلك تنبيهٌ على أنّ المتعلّم، لو سار من المشرق إلى المغرب؛ لأجل مسألة واحدة، حُقّ له ذلك"[25].

الأدب الرّابع: تقديم العلم والازدياد منه على كلّ الأمور الأخرى وإن كانت مهمة.

ولا يفعل ذلك إلاّ من عرف قدر العلم وفضله، فالعاقل الذي عرف فضل العلم ومقام أهله لا يرضى من العلم بما حصل بالغا ما بلغ، بل هو في حرص على الازدياد منه دائما كلما واتته الفرصة، يقول الإمام ابن القيم شارحا حديث: «سَأَلَ مُوسَى ربَّه .. أَي عِبَادك اعْلَم قَالَ عَالم لَا يشْبع من الْعلم يجمع علم النَّاس إِلَى علمه»[26]، «فَأخْبر في هذا الحديث أن أعْلَم عباده الَّذِي لَا يشْبع من العلم فهو يجمع علم النَّاس إِلَى علمه لنهمته في العلم وحرصه عَلَيْهِ وَلَا ريب أنّ كَون العَبْد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كَمَاله، وَهَذَا هُوَ الَّذِي حمل مُوسَى على الرحلة إِلَى عَالم الأرض؛ ليعلمه مِمَّا علمه الله؛ هَذَا وَهُوَ كليم الرَّحْمَن، وَأكْرم الْخلق على الله فِي زَمَانه، وَأعلم الْخلق؛ فَحَمله حرصه ونهمته فِي الْعلم على الرحلة إِلَى الْعَالم الَّذِي وصف لَهُ؛ فلولا أنّ العلم أشرف مَا بذلت فِيهِ المهج، وأنفقت فِيهِ الأنفاس لاشتغل مُوسَى عَن الرحلة إِلَى الخضر بِمَا هُوَ بصدده من أمْر الأمة، وَعَن مقاساة النصب والتعب فِي رحلته .. فهذا النَّبِي الكريم كان عَالما بِقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه»[27].

الأدب الخامس: تواضع الفاضل للتعلّم ممن هو دونه.

فإنّ موسى بلا شكّ أفضل من الخضر؛ لأنّ موسى عليه السّلام من أولي العزم من المرسلين، الذين هم خيار الخيار وصفوة الصّفوة، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، والخضر عليه السّلام اختلف العلماء فيه، هل هو نبيّ أو رجل صالح؟[28]، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عند موسى عليهما السلام؛ فلهذا حرص على التّعلّم منه العلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم والفضل بدرجات كثيرة[29].

الأدب السّادس: خدمة الطّالب للأستاذة طلبًا للتعلّم ورغبًا في الاستفادة.

وهذا من تمام التواضع، ومن كمال معرفة فضل الأستاذ وحقّه، ومن جميل الأدب معه، وحسن التّأتّي للاستفادة منه، قال الشّيخ بيوض رحمه الله: «ثمّ إنّ موسى قال للعبد الصّالح: إنّي أتّبعك وأكون لك خادما مطيعا، لا أرجو منك أجرة ولا شيء مطلقا إلّا أن أتعلم منك، فموسى ما وضع نفسه خادما بدون أجرة إلّا ليستفيد مسألة تزيده هدى أو تصدّه عن ردى»[30].

الأدب السابع: التّأدب في مخاطبة الأستاذ وملاطفته في الكلام.

يظهر هذا جليا في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً** ﴾، قال الإمام ابن عطية الأندلسي رحمه الله: «هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يَتَّفِقُ لك وَيَخِفُّ عليك؟»[31]، وقال الشيخ سيد طنطاوي رحمه الله: «فأنت ترى أن موسى عليه السلام قد راعى في مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب اللّائق بالأنبياء

عليهم الصّلاة والسّلام حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على التلطف، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم، وحيث استأذنه في أن يكون تابعا له، ليتعلّم منه الرّشد والخير»[32].

الأدب الثّامن: اعتراف الطّالب بالجهل أمام الأستاذ شرطٌ لحسن التّعلّم.

إذا كان الطّالب يرى نفسه أعلم من أستاذه وأفهم، أنّى له أن يستفيد منه أو يتعلّم؟!، لا ريب أنّ أول ما يجب على طالب العلم بعد التّحقق بالصفات النفسية من صبر ورغبة وصدق وعزم أن يعترف بقصوره وجهله، ويعرف لأستاذه قدره في العلم، وهذا ما تحقق به سيدنا موسى عليه السلام، قال العلامة السّعدي رحمه الله: « .. وإقراره بأنّه يتعلّم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقارهم إلى علمه، بل يدّعي أنّه يتعاون هم وإيّاه، بل ربما ظنّ أنّه يُعلم معلمه، وهو جاهل جدًا، فالذّل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلّم»[33]، وقال الشّيخ بيوض رحمه الله: «يتضمّن قول موسى للخضر: ﴿ **عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ** ﴾ اعترافه بجهله، إذ لم يعتبر كلّ ما عنده من مقابل ما يرجوه من علم، ولا بدّ من اعترافه بالجهل؛ لأنّه في مرتبة المتعلّم»[34].

الأدب التّاسع: أهمية صبر الطّالب على أستاذه وطاعته.

فمن لا صبر له يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم، ولا يستفيد من معلمه، ومن استعمل الصّبر ولازمه، أدرك به كلّ أمر سعى فيه؛ لقول الخضر: ﴿ **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾، وقول موسى: ﴿ **قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾. وهذا ينقص كثيرا من تلامذتنا وطلابنا، ولا بدّ من الانتباه إلى أهميته في نجاح العملية التّربوية[35]، وقال العلامة الطّاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً** ﴾: «﴿**ولا أعصي لك أمرا**﴾ معطوفة على جملة ﴿**ستجدني**﴾، أو هو من عطف الفعل على الاسم المشتق عطفًا على ﴿**صابرا**﴾ فيؤول بمصدر، أي وغير عاص. وفي هذا دليل على أنّ أهم ما يتّسم به طالب العلم هو الصّبر والطّاعة للمعلم»[36].

الأدب العاشر: الثقة في الأستاذ وتبجيله بما يستحقّ وإحسان الظنّ به.

عنصر الثّقة عنصر حاسم في نجاح أيّ علاقة تكون بين البشر، فهي تنم عن التّوافق الوجدانيّ بين أطراف العلاقة، وتترجم الارتياح النّفسي المتبادل بينهم، ممّا يُسهم في بلوغ المراد وتحقيق المقصد، قال الإمام النّووي رحمه الله: «.. وفيه [أي حديث هذه القصة الذي سبق في المطلب الثّالث من هذا البحث] الأدب مع العالم، وحرمة المشايخ، وترك الاعتراض عليهم، وتأويل ما لا يفهم ظاهره من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والوفاء بعهودهم، والاعتذار عند مخالفة عهدهم»[37]، وقال الشّيخ بيوض رحمه الله: «يجب أن يكون بين المتعلّم والمعلم ثقة تامّة، فعلى المتعلم أن يضع كلّ ثقته في معلمه، أمّا إذا كان هناك اعتراض، أو عدم استسلام أو تنقيص من قيمة المعلّم بطلت منفعته، ولن تكون هناك فائدة ترجى»[38].

الأدب الحادي عشر: مراجعة التّلميذ لمعلمه ومناقشته بأدب.

حتى لا تفهم النّقطة السّابقة خطأ، إذ ليس المقصود بها التسليم بكلّ ما يقوله المعلم من غير مناقشة ومحاولة فهم، بل على الطّالب المناقشة والبحث مع أستاذه لكن بأدب ولطف واحترام، كما تعلّمنا أسئلة موسى للخضر عليهما السّلام عن الأعمال التي ظاهرها النّكارة الشّديدة وباطنها الحكمة السّديدة. يقول الشيخ بيوض رحمه الله: «ليس معنى الثّقة إقرار الباطل وقبوله، فقد يخطئ المعلّم، ويستدعى المراجعة، فلتكن هذه بلطف وأدب وحكمة، كأنّ تكون على شكل

تساؤل، كقولك: ألا يكون المعنى كذا وكذا؟، ولا يكون برفع الصّوت أمامه، وقولك: ليس المعنى هكذا!، كما يفعل الطّالب المتنطّع غير المتأدب، وقد شاهدنا هذا في دروسنا عند مشايخنا»[39].

الأدب الثّاني عشر: التوكّل على الله والاستناد على مشيئته.

وهذا في الحقّ واجب على كلّ مؤمن، في كلّ شؤونه، وفي كلّ أعماله، وفي كلّ أحواله، ففي سورة الكهف التّي وردت فيها هذه القصة، جاء قول الله عزّ شأنه موجها لنبيه الكريم: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾، وطالب العلم مطالب بهذا التوكّل وهذا الاستناد؛ لأنّ طريق العلم طريق شاقّ وطويل، يحتاج صبرا ويحتاج دعمّا ماديّا ومعنويًّا؛ ولهذا قال سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ **قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾، قال الشّيخ ابن عثيمين رحمه الله: «هذا الذي قاله موسى قاله فيما يعتقده في نفسه في تلك الساعة من أنه سيصبر، لكنه علّقه بمشيئة الله لئلّا يكون ذلك اعتزازاً بنفسه وإعجاباً بها.»[40].

المطلب السّادس: آداب العالم والأستاذ من خلال قصة موسى والخضر عليهما السّلام.

الأدب الأول: معرفة الأستاذ نفسية الطّالب ومراعاتها:

من أهم الصّفات التي تساعد الأستاذ على النّجاح في عمليته التّربوية التّعليمية معرفته بنفسيات النّاس، التي تسمح له باستشراف ردود أفعالهم، وتعينه على حسن التّعامل معهم، وهذا ما نستشفه من قول سيدنا الخضر لسيدنا موسى عليهما السلام: ﴿ **قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾، قال الشيخ ابن عاشور رحمه الله: «وأكد جملة ﴿ **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** ﴾ بحرف (إنّ) وبحرف (لن) تحقيقا لمضمونها من توقّع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه؛ لأنّه علم أنّه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف. ولما كان موسى عليه السّلام من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجراء الأحكام على الظّاهر علم أنّه سينكر ما يشاهده من تصرفاته لاختلاف المشربين؛ لأنّ الأنبياء لا يقرون المنكر»[41].

الأدب الثّانيّ: تقديم النّصح للطّلاب.

هذا واجب على كلّ مسلم تجاه أخيه المسلم، فهو من حقوق المسلمين المقررة نصّا، كما جاء في الحديث: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصّلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكلّ مسلم[42]. وهذا الواجب في حقّ الأستاذ مع طلابه أوجب وأولى، فهو بالنّسبة إليهم في مقام الوالد، وهذا ما فعله سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما السّلام حين قال له: ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾، «وهذا تحذيرٌ منه لموسى، وتنبيهٌ على ما يستقبله منه حتى يقدم على متابعته إن شاء على بصيرة وعلى غير اغترار»[43].

الأدب الثّالث: مصارحة الطالب بحقيقة العلم الذي يعلّمه إيّاه.

طالب أيّ علم في بداية مشواره لا يكون عارفًا بحقيقة ما هو مقبل عليه، والمشاق الذي تنتظره في سبيله، وما يلزمه من بذل وتحمّل لنيل مرامه ومراده، وهنا من اللازم على الأستاذ أن يطلعه على جلية الأمر، وهو أدب آخر نستفيده من الآية السّابقة: ﴿ **وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا** ﴾، قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «وفي هذا أصل من أصول التّعليم أن ينبّه المعلم المتعلّم بعوارض موضوعات العلوم الملقنّة لا سِيما إذا كانت في معالجتها مشقّة»[44].

الأدب الرّابع: التّغليظ على المتعلّم إذا كان في ذلك مصلحة.

لا ريب أنّ الرّفق واللّين مرغّب فيه في التّعامل بين النّاس عموما، وبين الأساتذة وطلبتهم من باب أولى، لكن هذا لا يمنع من استعمال التّغليظ في بعض المواقف إذا كان من ورائه مصلحة للطّالب، كما حدث من الخضر عليه السلام، قال الإمام الرّازيّ عليه رحمة الله: «قول الخضر لموسى عليه السلام: ﴿ **وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا** ﴾ نسبه إلى قلّة العلم والخبر .. [ولكنّ] المعلم إنّ رأى أنّ في التّغليظ على المتعلّم ما يفيده نفعًا وإرشادا إلى الخير، فالواجب عليه ذكره فإنّ السّكوت عنه يوقع المتعلّم في الغرور والنّخوة وذلك يمنعه من التّعلم»[45].

الأدب الخامس: وضع قواعد وشروط للتّعليم.

وهذا الأدب واضح من قول سيدنا الخضر لسيدنا موسى عليهما السّلام: ﴿ **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب رحمه الله: «وإزاء الرّغبة الملحّة من موسى عليه السّلام الحريص على طلب العلم والمعرفة، يرضى الأستاذ أن يكشف لتلميذه عن بعض ما عنده، ولكنّه يشترط لنفسه، كما اشترط التلميذ من قبل لنفسه، أن تكون صحبته غاية لطلب العلم، فيقول: ﴿ **فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً**﴾ أي: إن اتبعتني فعليك أن تلزم الصّمت، ولا تنطق بكلمة، ولا تنبس ببنت شفة، حتى أكون أنا الذي يدعوك إلى الكلام فيما أريدك عليه"[46]. وقال الشيخ سيد طنطاوي رحمه الله: «وأنّه لا بأس على العالم أن يشترط على المتعلّم أمورًا معيّنة قبل أن يبدأ في تعليمه»[47].

الأدب السّادس: منع الطّالب من طرح الأسئلة ابتداءً إذا رأى في ذلك مصلحة.

وهذا فحوى الشرط الذي اشترطه سيدنا الخضر لنفسه على سيدنا موسى عليهما السلام في الآية السابقة، فهي تدلّ على جواز الاشتراط، كما يدل على جواز أن يمنع الأستاذ الطالب من السؤال ابتداء إذا رأى في ذلك مصلحة، قال العلّامة السّعدي رحمه الله: «ومنها [أي فوائد القصة]: أنّ المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلّم أن يترك الابتداء في السّؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلّم هو الذي يوقفه عليها، فإنّ المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصرا، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالًا لا يتعلق في موضع البحث»[48].

الأدب السّابع: العفو وسعة الصّدر وتحمّل خطأ الطالب.

هذا الأدب يتجلّى من تعامل سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام، حيث اشترط عليه عدم الابتداء بالسؤال مهما رأى حتى يكون هو من يفسر له، بعد أن حذّره من عدم صبره على ما سيرى، وقبول موسى لذلك ورضاه به، ولكنه سرعان ما ينكر على الخضر او عمل يراه منه، فيذكّره بلطف: ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾ ، ويعتذر موسى عليه السلام فيقبل منه ذلك، ولكنّه سرعان ما يرجع للإنكار، فيكرر التّذكير: ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾، حتى يكون موسى عليه السلام هو الذي يضع حدًّا للمرافقة: ﴿ **قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**﴾، قال الإمام الرّازيّ رحمه الله: «قال موسى: {إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي} مع العلم بشدّة حرصه على مصاحبته، وهذا كلام نادم شديد النّدامة ثمّ قال: {قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا}. والمراد منه أنّه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولا وثانيًا، مع قرب المدة»[49].

الأدب الثّامن: مراعاة الفروق بين الطلبة.

وهذه الخلّة ضرورية للأستاذ للنّجاح مع أكبر عدد من الطّلبة والتّلاميذ، وإلّا فإنّ معاملة الكلّ بالمعاملة

ذاتها تؤدّي في الغالب إلى نتائج سلبية، وهذا ما جعل سيدنا الخضر يتشدد في رفض طلب سيدنا موسى عليه السلام اتباعه والتّعلم منه، وعدم القبول إلّا بالشرط، قال الشيخ ابن عاشور رحمه الله: « .. الصّبر والطّاعة من المتعلّم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلّم السّاذج؛ لأنّ خلوَ ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها، فالمتعلّم الذي له نصيب من العلم وجاء طالبًا الكمال في علومه إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرّر في علمه يبادر إلى الاعتراض والمنازعة. وذلك قد يثير النّفرة بينه وبين أستاذه، فلتجنّب ذلك خشي الخضر أن يلقى من موسى هذه المعاملة فقال له: ﴿ **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾ ، فأكدّ له موسى أنّه يصبر ويطيع أمره إذا أمره»[50].

الآداب التي تساعد العالم أو الأستاذ على القيام بمهامه على أتم وجه وأكمل حال، كلّ ذلك بالأسلوب غير المباشر إيماء وتنبيها.

وإذا كان لي من توصية في ختام هذه الجولة الماتعة مع هذه القصة الرائعة، وبعض ما اكتنزته من فوائد وحكم ظاهرة وأسرار ومعانٍ باهرة: هي ضرورة الاستفادة من منهج القرآن العظيم في غرس الأخلاق الجميلة، والآداب الجليلة، وتعزيز السّلوك السويّ بإعطائه حيّزا أكبر في المقررات الدراسية والاهتمام أكثر بالجانب التّربوي منه. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله أولا وآخرا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وإخوانه من الأنبياء والمرسلين دائما أبدا.

الخاتمة:

هذه بعض فوائد وحكم هذه القصة القرآنية الفريدة، وللقارئ أن يقلّب الفكر متدبّرا في معاني هذه الآيات، ويستعين بتفاسير الأئمة الأعلام؛ ليستفيد ما لم يذكر هنا، وهو كثير وفير عظيم. والمقصد التّنبيه على أهمية الأدب في تحصيل العلم والنّجاح في الدّراسة؛ وقد قال الإمام أبو زكريا العنبريّ: ''علم بلا أدب كنار بلا حطب''، وأوصى الإمام مالك رحمه الله أحدَهم فقال:'' يا ابن أخي تعلم الأدّب قبل أن تتعلّم العلم».

وإجمالًا فقد نبّهت هذه القصة على فضل العلم وقيمته، وقدر أهله، وسمو مقامهم ومكانتهم، كما نبّهت على آداب طالب العلم وآداب العالم، واهتمت أكثر لآداب الطّالب؛ لأنّه للأدب أحوج وأفقر، فأشارت إلى نوعين من الآداب اللازمة له: الآداب النفسية والآداب السلوكية، وأشارت إلى آداب من أهم

الهوامش:

1- الرّازي، محمد بن عمر فخر الدّين: مفاتيح الغيب = تفسير الرّازي (ط 3/ 1420هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت): 484/21

2 - قطب، سيد: التّصوير الفني في القرآن (ط 17 / 1425هـ. 2004م. دار الشروق، القاهرة): ص 143.

3 - قطب، محمد: منهج التربية الإسلامية (ط 14 / 1415هـ. 1993 م. دار الشروق، القاهرة): 194/1.

4- الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن الكريم (دار الشروق، القاهرة): ص 100.

5- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي (تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1/ 1420هـ. 2000 م، مؤسسة الرسالة، بيروت): ص 482

6- النووي، يحي بن شرف: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ط 2/ 1392 هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت): 146/15

7- بيوض، إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن، تفسير سورة الكهف (تحرير: عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، ط 1/ 1416هـ، 1995م. نشر جمعية التراث، غرداية): ص 285

8- ينظر: الخطيب، عبد الكريم: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه (ط 2 / 1395 هـ. 1975م، دار المعرفة، بيروت): ص 119

9- فضل الله، محمد حسين: الحوار في القرآن (ط 5/ 1417هـ. 1996م، دار الملاك، بيروت): ص 8

10 - أعراب حبيب: الحجاج والاستدلال الحجاجي(مقال منشور بمجلة عالم الفكر، عدد: 1، يوليو 2001، الكويت): ص 111

11 - الندوة العالمية للشباب المسلم: في أصول الحوار (ط 5/ 1419هـ. 1998م): ص 14

12- الخطيب عبد الكريم: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: ص 129-130

13 - المكتبة التفسيرية غنية ومتنوعة ولا يمكن عدها أو حصرها، فيمكن الرجوع إلى أيّ تفسير للنظر في المعنى التفصيلي للآيات الكريمة.

14 - رواه البخاري في مواضع من صحيحه ومسلم وغيرهما: - البخاري: كتاب العلم. باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله. (رقم: 122): 219/1 - مسلم. كتاب الفضائل. باب من فضائل الخضر عليه السلام.(رقم: 2380): 1847/4.

15 - بيوض إبراهيم بن عمر: في رحاب القرآن، تفسير سورة الكهف: ص 291

16- السعدي: تفسير السعدي: ص 482

17- المرجع نفسه، نفس الصفحة. ولكن جاءت هكذا: «فإن زيادة العلم وعلم الإنسان». و لم ينتبه المحقق للخلل فيها، وصححتها من كتابه الآخر، الذي هو اختصار لتفسيره هذا: تيسير اللّطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، حيث جاء فيه قوله: «البداءة في العلم بالأهم فالأهم، فإن زيادة علم الإنسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالا بالتعليم فقط، بل يتعلم ليعلم». ينظر: تيسير اللّطيف المنان (ط 1 / 1422هـ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية): ص 254

18 - القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل (تح: محمد باسل عيون السود، ط 1/ 1418هـ، دار الكتب

العلمية، بيروت) : 61/7

19 – الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد: إحياء علوم الدّين (دار المعرفة، بيروت): 24/3

20 – ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تح: عبد السلام عبد الشافي، ط 1/ 1422هـ، دار الكتب العلمية، بيروت): 529/3

21 – ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن: ص 482– تيسير اللطيف المنان: ص 256

22 – الرّازي: تفسير الرّازي: 484/21

23 – بيوض: في رحاب القرآن: ص 292

24 – المرجع نفسه.

25 – ابن عادل، عمر بن علي بن عادل الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب (تح: عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط 1/ 1419 هـ.1998م، دار الكتب العلمية، بيروت): 523/12

26 – رواه ابن حبان في صحيحه، (بترتيب ابن بلبان)، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ذكر سؤال كليم الله جلّ وعلا ربّه عن خصال سبع (رقم: 6217): 100/14

27 – ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (دار الكتب العلمية، بيروت): 159/1

28 – اختلاف العلماء حول نبوة الخضر عليه السّلام من عدمها اختلاف عريض طويل، ومجمل القول لخصه الإمام ابن حيان الأندلسي رحمه الله في قوله: «والجمهور على أنّ الخضر نبيّ، وكان علمه معرفة بواطن قد أوحيت إليه، وعلم موسى الأحكام والفتيا بالظّاهر»، البحر المحيط في التفسير (تح: صدقي محمد جميل، ط / 1420هـ، دار الفكر، بيروت): 7/ 204، وقال الإمام ابن جُزي الغرناطيّ: «{آتَيْنَاهُ رَحْمَةً} يعني النّبوة على قول من قال: إنّ الخضر نبيّ. وقيل: إنّه ليس بنبيّ ولكنه وليّ، وتظهر نبوته من هذه القصة»، التّسهيل لعلوم التّنزيل (تح: أبو بكر بن عبد الله سعداوي، ط 1/ 1433هـ، 2012م، المنتدى الإسلاميّ، الشارقة): ص 481 وقد استوفى الكلام في هذه المسألة الإمام الرّازيّ رحمه الله، ينظر: تفسير الرّازيّ: 481/21–482

29 – ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن: ص 482– تيسير اللطيف المنان: ص 256

30 – بيوض: في رحاب القرآن: ص 292

31 – ابن عطية: المحرر الوجيز: 3 / 530

32 –طنطاوي، سيد: التفسير الوسيط للقرآن الكريم (ط 1 / 1998م، دار نهضة مصر، القاهرة): 552/8

33 – تيسير الكريم الرحمن: ص 482– تيسير اللطيف المنان: ص 256

34 – بيوض: في رحاب القرآن: ص 293

35 – ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن: ص 482– تيسير اللطيف المنان: ص 256

36 – ابن عاشور: التحرير والتنوير: 373/15

37 – النّووي، يحيى بن شرف محيي الدين: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ط 2/ 1392هـ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت): 15/ 137

38 – بيوض: في رحاب القرآن: ص 292

39 – المرجع السّابق: ص 296

40 – ابن عثيمين، محمد بن صالح: تفسير الكهف(

ط1/ 1423هـ، دار ابن الجوزي، السعودية): ص 114

41 – ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 371/15

42 – رواه البخاري في مواضع من صحيحه ومسلم وغيرهما: – البخاري: كتاب بدء الوحي. باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدين النصحية لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم). (رقم: 57): 1/ 31– مسلم. كتاب الإيمان. باب بيان أن الدين النصيحة.(رقم: 56): 75/1

43 – ابن عاشور، مرجع سابق: 15/ 371

44 – المرجع نفسه: 372/15

45 – الرّازي: تفسير الرازي: 485/21 وينظر كذلك: ابن عادل: اللباب في علوم الكتاب: 534/12

46 – الخطيب: التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8 / 653 بتصرف يسير.

47 – طنطاوي: التفسير الوسيط: 8 /565

48 – السّعدي: تيسير الكريم الرحمن: ص 482– تيسير اللطيف المنان: ص 258

49 – الرازي، مرجع سابق: 485/21

50 – ابن عاشور: التحرير والتنوير: 373/15

المراجع:

– أعراب حبيب: **الحجاج والاستدلال الحجاجي**. مقال منشور بمجلة عالم الفكر، عدد: 1، يوليو 2001، الكويت.

– البخاري، محمد بن إسماعيل: **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (= صحيح البخاري)**. تح: مصطفى البغا، ط 3/ 1407هـ. 1987م، دار ابن كثير، بيروت.

– بيوض إبراهيم بن عمر: **في رحاب القرآن، تفسير سورة الكهف**. تحرير: عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، ط 1/ 1416هـ، 1995م. نشر جمعية التراث، غرداية.

– ابن جُزي، محمد بن أحمد الغرناطيّ: **التّسهيل لعلوم التّنزيل**. تح: أبو بكر بن عبد الله سعداوي، ط 1/ 1433هـ، 2012م، المنتدى الإسلاميّ، الشارقة.

– ابن حبان، محمد بن حبان البُستي: **صحيح ابن حبان (بترتيب ابن بلبان)**، تح: شعيب الأرنؤوط ، ط 1/ 1408 هـ، 1988 م. مؤسسة الرسالة، بيروت.

– ابن حيان، محمد بن يوسف الأندلسيّ: **البحر المحيط في التفسير**. تح: صدقي محمد جميل، ط / 1420هـ، دار الفكر، بيروت.

– الخطيب، عبد الكريم: **التّفسير القرآنيّ للقرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة.

القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. ط 2 / 1395 هـ. 1975م، دار المعرفة، بيروت.

– الرّازي، محمد بن عمر فخر الدّين: **مفاتيح الغيب = تفسير الرّازي**. ط 3/ 1420هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– السعدي عبد الرحمن بن ناصر: **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي**. تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1/ 1420هـ. 2000 م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

تيسير اللّطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن. ط 1 / 1422هـ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف

والدعوة والإرشاد، السعودية.

– طنطاوي، محمد سيد: **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**. ط 1 / 1998م، دار نهضة مصر، القاهرة.

– ابن عادل، عمر بن علي بن عادل الحنبلي: **اللباب في علوم الكتاب**. تح: عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط 1/ 1419 هـ.1998م، دار الكتب العلمية، بيروت.

– ابن عاشور، محمد الطاهر: **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (= التحرير والتّنوير)**. ط / 1984م، الدار التونسية للنشر، تونس.

– ابن عثيمين، محمد بن صالح: **تفسير الكهف**. ط1/ 1423هـ، دار ابن الجوزي، السّعودية.

– ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. تح: عبد السلام عبد الشافي، ط 1/ 1422هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

– الغزالي محمد: **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**. دار الشروق، القاهرة.

– الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد: **إحياء علوم الدّين**. دار المعرفة، بيروت.

– فضل الله، محمد حسين: **الحوار في القرآن**. ط 5/ 1417هـ. 1996م، دار الملاك، بيروت.

– القاسمي، محمد جمال الدين: **محاسن التأويل**. تح: محمد باسل عيون السود، ط 1/ 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

– قطب سيد: **التّصوير الفني في القرآن**. ط 17 / 1425هـ. 2004م. دار الشروق، القاهرة.

– قطب محمد: **منهج التربية الإسلامية**. ط 14 / 1415هـ. 1993 م. دار الشروق، القاهرة.

– ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**. دار الكتب العلمية، بيروت.

– مسلم، ابن الحجاج النّيسابوري: **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (= صحيح مسلم)**. تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

– الندوة العالمية للشباب المسلم: **في أصول الحوار**. ط 5/ 1419هـ. 1998م.

– النووي يحي بن شرف: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. ط 2/ 1392 هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

المكوّن التداولي في نحو الخطاب الوظيفي

الأستاذ: بن عياش نجيب
جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية

الملخّص

يعالج هذا المقال موضوع المكوّن التداولي، باعتباره من أهم المكوّنات الأساسيَّة في الدَّرس اللُّغوي الحديث، وباعتباره ضروري لتشكيل آليات التخاطب، وهو أحد المكوّنات الوظيفيَّة في نظريَّة النحو الوظيفي. وقد بدأته بالتعرُّف على تداوليَّة الخطاب وبيان مفهوم المكوّن التداولي في النحو الوظيفي، ثمَّ قمت بعرض نموذج نحو الخطاب الوظيفي. وإذا كان هذا المكوّن يُغني الدَّرس اللِّساني، ويجعله عنصرًا بارزًا فيه، ينبغي دراسته وإعطائه القيمة التي يستحقها، من أجل إثرائه وتكون إضافة جديدة للبحث اللِّساني الحديث.

Abstract

Cet article traite le sujet de la composante délibérative ,comme l‹une des composantes les plus importantes de la leçon linguistique moderne ,et aussi nécessaire à la formation des mécanismes de communication ,qui est une composante fonctionnelle de la théorie de la syntaxe fonctionnelle. J‹ai commencé par identifier le discours délibératif et le concept de la composante délibérative dans la forme fonctionnelle ,puis j‹ai présenté un modèle vers le discours fonctionnel .Si cette composante enrichit la leçon linguistique et en fait un élément important ,elle doit être étudiée et valorisée ,afin de l‹enrichir et de constituer un nouvel ajout à la recherche linguistique moderne.

الكلمات المفتاحية: المكوّن، التداولي، الخطاب، النحو، الوظيفي،السياق، المقام، التواصل، اللّسان، اللُّغة.

مقدّمة:

إنَّ أهم ما يميز الدراسات اللغوية الحديثة هو الاختلاف في المصطلح، إذ تحتل مصطلحات التداوليَّة، النَّص، السياق، الخطاب، موقعًا مركزيًّا في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات: تحليل الخطاب، لسانيَّات الخطاب، لسانيات النص، نحو النصّ، النحو الوظيفي.

ولقد شاع مصطلح «المكوّن التداولي» في مؤلفات اللِّسانيين العرب والغربيين المحدثين، فتردّد صداه في مؤلفاتهم في أزيد من موضع وأكثر من مرجع، وهو أحد المكوّنات الذي وظَّفته أحدث النظريات اللِّسانيَّة نظريَّة النحو الوظيفي التي تهتم بوصف خصائص اللُّغات الطبيعيَّة وتفسيرها وكيفيَّة استخدام العلامات اللُّغويَّة بنجاح، والسياقات والطبقات المقاميَّة المختلفة التي ينجز ضمنها «الخطاب»، وذلك من أجل تحقيق رسالة تواصليَّة ناجحة، وهذا ما جعل المكوّن التداولي يشكّل جزءًا أساسيًّا في نظريَّة النحو الوظيفي.

1 تداولية الخطاب:

يعود استعمال مصطلح التداولية إلى الفيلسوف (تشارلز موريس) اِنطلاقًا من عنايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات أو السميائية، من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع؛ وهي[1]:

النحو أو التركيب (syntaxe) وهو دراسة العلاقة الشكليَّة بين العلامات بعضها ببعض.

الدلالة (sémantique) وهي دراسة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

التداولية (pragmatique) وهي دراسة علاقة العلامات بمستعمليها وبمؤوليها.

ومصطلح «التداولية» هو المصطلح الأكثر شيوعًا عند العرب، وهو مصطلح مترجم من المصطلح الإنجليزي pragmatics والمصطلح الفرنسي pragmatique، وهناك من الدارسين والباحثين الأكاديميين من يطلق عليه ويترجمه بعلم التخاطب. أمثال: «محمد محمد يونس علي» في كتابه (مدخل إلى اللسانيات)، وكتابه (علم التخاطب الإسلامي) وبعض الباحثين يترجمونه بالنفعية أو الذرائعية اعتقادًا منهم أنَّه شيء واحد pragmatique /pragmatisme، لكن الأمر ليس كذلك، لأن pragmatisme مدرسة فلسفية ظهرت في أمريكا فهي تذهب إلى أن فكرة النظرية لاتجدي نفعًا إذا لم تكن لها تطبيقات عملية[2].

وقد يصعب تحديد مفهوم أو تعريف للتداولية تعريفًا دقيقًا، وذلك «لاختلاف الدارسين واتجاههم اتجاهات شتى، إلا أنَّهم يقرون بأن قضية التداولية هي «إيجاد» القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير «التداولية»، من ثم جديرة بأن تسمى ب «علم الاستعمال اللغوي»»[3].

1 1 . مفهوم التداولية (la pragmatique)

يُعرِّفها مسعود صحراوي بقوله: «التداولية ليست علمًا لغويًا محضًا، بالمعنى التقليدي، علمًا يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج، من ثمَّ، مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة «التواصل اللغوي وتفسيره» وعليه، فإن الحديث عن «التداولية» وعن

«شبكتها المفاهيمية» يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة لأنَّها توحي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات مُتداخلة، كالبنية اللغوية، وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، والعمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللغويين، وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال...الخ»[4].

والتداولية تُعنى «بوصف العلاقات القائمة بين المرسِل والمرسَل إليه في إطار عملية التواصل، كما تُعنى بالحدث اللغوي بوصفه تعابير مدرجة في عملية التخاطب، وكل هذا يفرض مسبقًا وجود الأبعاد التركيبية والدلالية للعملية السميائية، فالأهم في عملية الاتصال هو الشكل الذي يقوم المرسِل من خلاله بإفهام المرسَل إليه ما يريد إيصاله إليه باللجوء إلى سلاسل من العلامات»[5].

تعددت وتنوعت تعريفات التداولية بالرغم من نقاط الالتقاء بينها بجامع من معالجة العلاقة بين المتكلمين والمقام الذي يجري فيه المقال، وكونها أقوالاً تتحول إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية بمجرد التلفظ بها، وهي عند جمهور آخر من الدارسين، دراسة للآثار اللغوية التي تظهر من خلال الخطاب، ومنهم من ركز على الجانب الضمني أو الخفي للكلام[6].

أما «فرنسوا ريكانتي» يرى التداولية بأنها «جزء من دراسة استعمال اللغة في الخطاب، والآثار الخاصة في اللغة والتي تشهد على مقدرتها الخطابية»[7].

ويعتبر الفيلسوف (تشارلز موريس) التداولية «جزءًا من السميائية تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي العلامات»[8].

في حين أن التداولية هي «دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل، لأنها تشير إلى أن المعنى ليس شيئًا متصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا المتلقي وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والمتلقي في سياق محدَّد (مادي واجتماعي ولغوي)، وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما»[9].

لقد اهتم اللِّسانيون العرب المحدثون بالتداولية نظرًا لحداثتها، ولا ينكر أحد منا أن لها أثرًا في التراث العربي، عند النحاة البلاغيين وعلماء الأصول، فقد اهتم العلماء القدامى بالمخاطِب والمخاطَب والمقام الذي يجري فيه الحدث الكلامي، وهو الأمر الذي لم يغفله العرب المحدثون ممن بذلوا الجهد في سبيل دراسة الاستعمال اللغوي.

يرجع الدارسون أصل التداولية إلى اتجاهين مختلفين[10]:

اتجاه ينطلق من دراسة التداولية من كونها نظرية في التعامل الاجتماعي، تهتم بالجانب الاستعمالي، أي استعمال اللغة، بزعامة أوستين.

اتجاه فلسفي منطقي تعود جذوره إلى «بيرس» الذي أطلق عليها اسم البراغماتية عام 1905، و»وليم جيمس» الذي سماها بالذرائعية عام 1978.

2 . التداولية في النحو الوظيفي:

لقد اهتم «أحمد المتوكل» اهتمامًا كبيرًا بالتداولية معتبرًا أيَّاها أحد المكوِّنات الوظيفية في وصف بنيات اللغة العربية وتفسيرها، وكذلك اهتم بتحديد طبيعة الوظائف التداولية في اللغة العربية، وهذه الأخيرة هي «علاقات أو وظائف تسند بالنظر إلى المقام التبليغي أو السياق في بعديه المقامي والمقالي»[11]. مع العلم أن النحو الوظيفي يقسم هذه الوظائف إلى صنفين: الوظائف الداخلية فيها وظيفتان اثنتان: المحور والبؤرة، في حين أنَّ الوظائف الخارجية تتمثل في: المبتدأ والذيل والمنادى، وهي وظائف تداولية تقع خارج الحمل، ولها مواقع محددة في الجملة العربية.

2 1 . الوظائف الداخلية: تسند إلى أحد موضوعات الحمل، أو إلى عناصر من المستوى التمثيلي وظيفتان اثنتان تتمثلان في:

2 1 1 . المحور topic: يسوق «المتوكل» تعريف المحور انطلاقًا من التعريف الذي اقترحه «سيمون ديك»؛ بقوله: «الذات التي تشكل محط خطاب ما، أو الذات التي تشكل موضوع حمولة المعلومات الواردة في خطاب ما»[12]. ومرد تداوليتها راجع إلى أنها تمثل وضعًا تخابريًّا قائمًا بين المتكلم والمخاطب، وقد تتعدَّد المحاور في الخطاب الواحد على أساس أن تقوم بينها علاقات سلميَّة، كأن يندرج محور فقرة في كتاب ما، في محور الفصل الذي يعلوه، هذا الأخير يندرج في المحور الأعلى، محور الكتاب ككل.

وبناءً على ذلك يكون التفاوت بين محاور الخطاب الواحد، من حيث المركزية «تفاوتًا في كم المعلومات التي تشكل هذه المحاور موضوعات لها، ويصبح بذلك المحور الرئيس في خطاب ما المحور الذي يستقطب الكمّ الأكبر من المعلومات في ذلك الخطاب، كما تقاس مركزية المحور بمدى «استمراره» عبر الخطاب، يقاس عدد مرات إيراده (إما بعينه أو عن طريق توابعه أو متعلقاته)»[13].

2 1 2 . البؤرة focus: تسند البؤرة في النحو الوظيفي، إلى المكوّن « الذي يحمل المعلومة الأهم أو الأبرز في موقف تواصلي معين، والتي يعتقد المتكلم أنها أحرى بأن تُدرجَ في مخزون معلومات المخاطَب»[14]، أو هي «العلاقة التداولية التي يحملها المكوّن الحامل للمعلومات المجهولة أو المعلومة المتردد في ورودها (أو المنكر ورودها)»[15].

يتضح من خلال هذا التعريف، أن من الفروق الأساسية بين وظيفة البؤرة ووظيفة المحور أن المعلومة البؤرية تنتمي إلى الحيّز الذي يشكِّل الفرق بين مخزون المتكلم ومخزون المخاطب، أي الفرق بين مخزون المبلِّغ (المتكلم) ومخزون المبلَّغ (المخاطب).

والشيء الملفت للانتباه هو أن الفرق بين مخزوني المتكلم والمخاطب، لا يكمن في المعلومات «الجديدة» بالنظر إلى مخزون المخَاطب فحسب، بل كذلك في المعلومات التي لا تتطابق بينهما، أي في معلومات المخاطب التي لا توافق معلومات المتكلم، ومؤدَّى ذلك أن ما يمكن أن يضيفه المتكلم إلى مخزون المخاطَب ليس معلومات جديدة لا يملكها المخاطب فحسب بل كذلك معلومات تُعدِّل أو تصحِّح أو تعوض معلومات في مخزون المخَاطب يعدُّها المتكلم مستوجبة للتعديل أو التصحيح أو التعويض.

وأهم التعديلات والتفريعات التي عرفتها وظيفة البؤرة في النحو الوظيفي يمكن تصنيفها إلى ما يلي[16]:

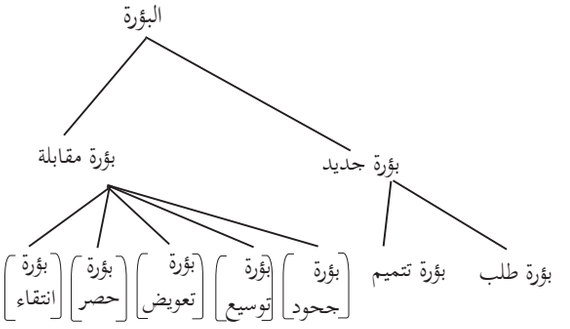

2 1 2 1 . بؤرة الجديد: تسند بؤرة الجديد إلى المكوَّن الحامل للمعلومة التي لا تتوافر في مخزون المتكلم (بؤرة طلب) ولا في مخزون المخاطب (بؤرة تتميم). ففي الحالة الأولى يطلب المتكلم من المخاطب أن يمده بمعلومة لا تتوافر في مخزونه وفي الحالة الثانية (بؤرة تتميم) يمد المتكلم المخاطب بالمعلومة التي يرى أنها تنقصه ولا تتوافر في مخزونه المعرفي، ويمكن التمثيل لذلك بالجمل الاستفهامية أو الزوج الجملي الآتي: متى ستعود هند؟ ستعود هند **غدًا** (بنبر «غدًا»).

في هذه الحالة تكون الجملة الاستفهاميَّة بؤرة طلب، في حين يكون المكوّن «غدًا» بؤرة تتميم.

2 1 2 2 . بؤرة المقابلة: تسند بؤرة المقابلة

إلى «المكوّن الحامل للمعلومة التي يشك المخاطب في ورودها أو المعلومة التي جحد المخاطب ورودها»[17]. وتفرعت إلى خمسة فروع؛ هي:

2 1 2 2 1. بؤرة الجحود: تسند إلى المكوّن الحامل لمعلومة من معلومات مخزون المخاطب، يعدها المتكلم غير واردة، وترد غالبًا في سياق النفي كما يتبين من الزوج الجملي الآتي:

أ. ذهب خالد إلى تطوان.

ب. لا لم يذهب خالد إلى **تطوان** (بنبر «تطوان»).

2 1 2 2 2. بؤرة التعويض: تسند إلى المكوّن الحامل للمعلومة التي يراها المتكلم غير واردة بمعلومة أخرى؛ مثل الجملة الآتية:

أ. لا، لم يذهب خالد إلى تطوان.

ب. لا، لم يذهب خالد إلى **تطوان** بل ذهب إلى **(طنجة)**.

2 1 2 2 3. بؤرة التوسيع: تسند إلى المكوّن الذي يكمل بها المتكلم معلومة أو معلومات ناقصة لدى المخاطب. كإضافة الوقت المحدد في الجملة الآتية:

. لا، لم يذهب خالد إلى تطوان بل ذهب إلى طنجة، **على الساعة العاشرة**.

2 1 2 2 4. بؤرة الحصر: ترد في السياقات التي يكون فيها مخزون المخاطب متضمنًا لمعلومة واردة ومعلومة يعدّها المتكلم غير واردة؛ مثل:

لا، لم يذهب خالد إلى تطوان وطنجة بل إلى طنجة فقط.

2 1 2 2 5. بؤرة الانتقاء: تسند إلى المكوّن الذي يحمل معلومة ينتقيها المتكلم بين مجموعة من المعلومات يتردد المخاطب في إيرادها؛ مثل ما نجده في الحوار الآتي:

. إلى طنجة ذهب خالد أم إلى تطوان أم إلى الرباط؟

إلى الرباط ذهب خالد.

إذًا تنتمي كل من الوظيفتين المحور والبؤرة إلى الجملة، بينما تحتل الوظائف الخارجية مواقع خارج الجملة. أما من حيث مجال البؤرة يمكن التمييز بين[18]:

. بؤرة المكوّن: باعتبار أن البؤرة مسندة إلى مكوّن من مكونات الجملة.

. بؤرة الجملة: باعتبار إسناد البؤرة إلى الجملة ككل، لا إلى إحدى مكونات الجمل، وتتمثل في[19]:

2 2 الوظائف الخارجيّة: والتي تشمل كل من المبتدأ والذيل والمنادى.

2 2 1 المبتدأ: هو المكوّن الذي يدل على مجال الخطاب الذي يعد الحمل الموالي واردًا بالنسبة إليه، يعني هذا أن المبتدأ يُسند إلى المكوّن الذي يحدد مجال الخطاب بالنسبة إلى ما يأتي بعده.

2 2 2 المنادى: هو المكوّن الذي يشكل محط النداء في الجملة، ويعد «النداء» «فعلاً لغويًا شأنه في ذلك شأن الأفعال اللغوية الأخرى كالإخبار والسؤال والالتماس. ونميز بين النداء باعتباره فعلاً لغويًا و»المنادى» باعتباره مكوّنًا من مكوّنات الجملة يدل على الذات محط النداء، فالنداء إذن، فعل لغوي في حين أن المنادى وظيفة، أي علاقة تقوم بين مكونات الجملة وباقي المكونات التي توارده»[20].

2 2 3 الذيل: هو المكوّن الذي يوضح أو يعدل أو يصحح معلومة واردة في الحمل.

أما الاتجاه التداولي الوظيفي عند العرب يتمثل حسب المتوكل في اهتمام القدامى بالقصد والغرض، وهو ما يترجمه الكاتب بالمعنى التداولي sens pragmatique))، ولعل تعريفهم للغة يؤكد على وظيفتها وهي التواصل الذي يمثل أساس الاتجاه التداولي الذي يبدو واضح المعالم عند النحاة فانتبه «سيبويه» (ت 180هـ) و»ابن هشام» (ت 761هـ) إلى دور المقام في العمل التواصلي[21]، وأكد الأصوليون أنَّ النحو

الذي يُكتفى فيه بوصف الأشكال والبنى المجردة عن وظائفها، نحو لا يعتد به ولا يوثق بعلم أصحابه، كما أن المتوكل أولى اهتمامًا كبيرًا بالجانب التداولي والدليل على ذلك؛ هو قوله: «حاولنا جهدنا، في هذه المجموعة من الدراسات أن نشارف هدفين اثنين: إغناء لسانيات اللغة العربية بتقديم أوصاف وظيفية لظواهر نعدها مركزية بالنسبة لدلاليات وتركيبات وتداوليات هذه اللغة، وتطعيم النحو الوظيفي كلما مست الحاجة إلى ذلك بمفاهيم يقتضيها الوصف الكافي لهذه الظاهرة أو تلك»[22].

3 دور المقام في تشكُّل الخطاب التداولي:

لقد اشتهرت كلمة المقام التخاطبي مع السكاكي بمقولته المشهورة «لكل مقام مقال» حيث وضع في كتابه المفتاح مبحثًا بهذا العنوان يتناول فيه المقام الذي يمثل أحد محددات الرسالة اللغوية، كما يتحدث عن اختلاف وظائف الكلام ومقامته؛ يقول السكاكي (ت626هـ): «لا يخفى عليك أنَّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذلك مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»[23].

فالدلالات تفترق ولكل دلالة وجه من التراكيب يختص بها، وفي هذا الشأن يقول أيضًا: «فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلّ حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه (مقتضى الحال) فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفًا وقوة...»[24] ، وتحليل الظاهرة اللغوية عند السكاكي تحليل متكامل يربط بين المعنى الصريح وهو المعنى الأصلي والمباشر للعبارة، والمعنى المستلزم مقاميًا وهو غير الأصلي وغير المباشر، ويحاول أن يراعي جميع المستويات اللغوية عند التحليل: وهو ما أشار إليه المتوكل؛ بقوله: «تمتاز اقتراحات السكاكي في «مفتاحه» عن باقي ما ورد في وصف الظاهرة بأنها تجاوز الملاحظة الصرف وتحمل أهم بذور التحليل الملائم للظاهرة، أي التحليل الذي يضبط علاقة المعنى «الصريح» بالمعنى المستلزم مقاميًا ويصف آلية الانتقال من الأوَّل إلى الثاني بوضع قواعد استلزامية واضحة، هذا بالإضافة إلى ميزة أخرى هي أن تقعيد السكاكي للاستلزام التخاطبي وارد مؤطرًا داخل وصف لغوي شامل يطمح لتناول جميع المستويات اللغوية (أصوات، صرف، نحو، معان، بيان...)»[25].

ويكمن دور التداولية في الخطاب في تأثير المقام في المعنى، كما يقول صابر الحبشة «ينظر إلى التداولية بوصفه العلم الذي يدرس تأثير المقام في معاني ملفوظات الأقوال في عملية التأثير»[26]، والأصل في المقام يتألف؛ من:

أ . عنصر المشاركين في القول.

ب . مكان القول.

ج . زمانه.

د . هدفه أو الغاية منه.

ر . موضوعه.

ز . جنس الخطاب (الذي يجري فيه القول).

هـ . إضافة إلى قناة التَّعبير، واللَّهجة المستخدمة فيه، وقواعد توزيع الكلام.

و . يضاف إلى ذلك معارف المشاركين عن العالم،

ومعرفة بعضهم بعضًا، إضافة إلى معرفة الخلفيَّة الثقافيَّة للمجتمع الذي انبثق فيه الخطاب[27].

أما النواة التي تشكِّل المقام، ضمن العناصر السياقية، تتمثل في «المشاركين في الخطاب، وإطاره الزَّماني والمكاني، والهدف من إجرائه»[28].

في حين يذهب «بروان وبول» إلى أنَّ اهتمام العمل اللِّساني بالمقام يربط الأصناف الآتية بعضها ببعض، وتتمثل هذه الأصناف في:

أ . الخاصيَّات المتعلِّقة بالأطراف المشاركة كالأشخاص والشخصيَّات؛ منها:

. الفعل الكلاميّ للأطراف المشاركة.

. الفعل غير الكلاميّ للأطراف المشاركة.

ب . الأشياء المتعلِّقة بالموضوع.

جـ . وقع الفعل الكلاميّ.

د . يضاف إلى ذلك الخصائص العامَّة للقناة (كيفيَّة ربط حلقة الوصل بين الأطراف المشاركة في الفعل الكلاميّ لفظًا أم كتابةً أم إشارة) والشَّفرة المستعملة، أي اللُّغة أو اللَّهجة أو الأسلوب المستعمل، وصيغة الرِّسالة (حديث عابر غير رسميّ أم مناظرة أم خطبة أم حكاية شعبيَّة أم قصيدة أم رسالة غراميَّة) والحدث (أي طبيعة الحدث التواصليّ الذي يمكن أن نضمن داخله نمطًا خطابيًّا معيَّنًا[29].

ويعرف المتوكل المقام في النحو الوظيفي؛ بقوله: «مجموعة العناصر التي تتوافر في موقف تخاطبي معين، وأهمها زمان التخاطب ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وخاصة الوضع التخابري القائم بينهما، أي مجموعة المعارف التي تشكل مخزون كلّ منهما أثناء عملية التخاطب»[30].

من خلال هذا التعريف يمكن تحديد عناصر الخطاب؛ وهي:

أ . زمان التخاطب

ب . مكانه

ج . علاقة المتكلم بالمخاطب

والمقام حسب البلاغيين القدامى «يرتبط بالسياق الخارجي للملفوظ»[31]، هذا ما يجعلنا نتوقف عند أهم القرائن الخارجية التي تسهم في تحديد الدلالة وتوضيحها ومن هذه القرائن المقامية؛ نجد:

. زمان الخطاب ومكانه

. المتلقي والغرض من تلقيه

ولعلَّ هذا من الأسباب المباشرة في تشكل آليات التخاطب، وذلك انطلاقًا من العناصر المقامية المذكورة سابقًا.

4 نموذج نحو الخطاب الوظيفي: لقد أجرى كل من هنخفلد ومكنزي (2008) بعض التعديلات، إذ جاؤو بما يسمى بالنحو الوظيفي الخطابي، وهو « نحو موجَّه خطابيًا يستمد مشروعيته من لجوء المتكلم إلى استعمال وحدات أقل من العبارة اللغويّة»[32]. هذا يعني أنَّه يهتم بالوحدات الخطابية أيًّا كان شكلها، كلمة أو مركبًا أو جملة أو نصًا أو حورًا ... وكذلك يقوم بتفسير الأفعال الخطابية من زاوية وظيفية.

وهذا النموذج متعلق بإنتاج الكلام[33].

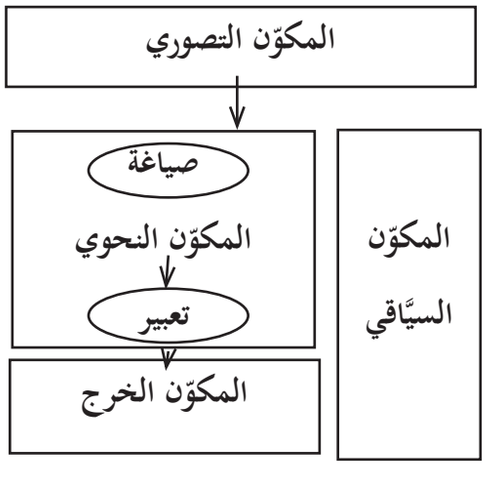

في حين أورد المتوكل عرضًا (٢٠٠٥) بيَّن فيه أنَّ نحو الخطاب الوظيفي يعتمد على أربع مكوّنات؛ هي: المكوّن المفهومي أو المعرفي والمكوّن النحوي والمكون الإصاتي والمكوّن

السياقي.

أولاً: يقوم **المكوّن المفهومي** برصد كل المعارف اللُّغوية وغير اللُّغوية المتوافرة لدى منتج الخطاب، ويعدُّ القوّة الدافعة بالنظر إلى المكوّنات الأخرى.

ثانيًا: يضطلع **المكوّن النحوي** بمكوّناته الثلاثة (الصياغة، الصرفي التركيبي، الفونولوجي)، إلى تحديد المستوى العلاقي (أو التداولي) والمستوى الدلالي (أو التمثيلي) والمستوى البنيوي.

والمستويان العلاقي والتمثيلي مُثِّل لهما للخطاب في شكل فعل خطابي يتضمّن فحوى قضوي قوامه فعل إحالي وفعل حملي، كما يمثل له في البنيتين الآتيتين:

(فعل خطابي: [إنجاز: [فحوى قضوي: [(فعل إحالي) (فعل حملي]]]).

(مخصّص واقعة: [محمول (س^1) ... (س ن(ص^1) ... (ص ن)]).

ثالثًا: يقوم **المكوّن الإصاتي** بتحقيق المستوى البنيوي بنطق الخطاب في شكل عبارة لغوية محققة أي ذو طبيعة مسموعة، وطبيعة غير مسموعة (خطّية أو إشاريّة) إذا كان الخطاب غير منطوق.

رابعًا: يقوم **المكون السياقي** برصد وتخزين المعلومات المأخوذة من السياق بشقيّه المقامي والمقالي، وإمداد المكوّنات الأخرى بها عند الحاجة، أي يربط بين المكونات الثلاثة الأخرى[34].

والشكل الآتي يوضح مكوّنات جهاز نحو الخطاب الوظيفي وطريقة اشتغاله[35].

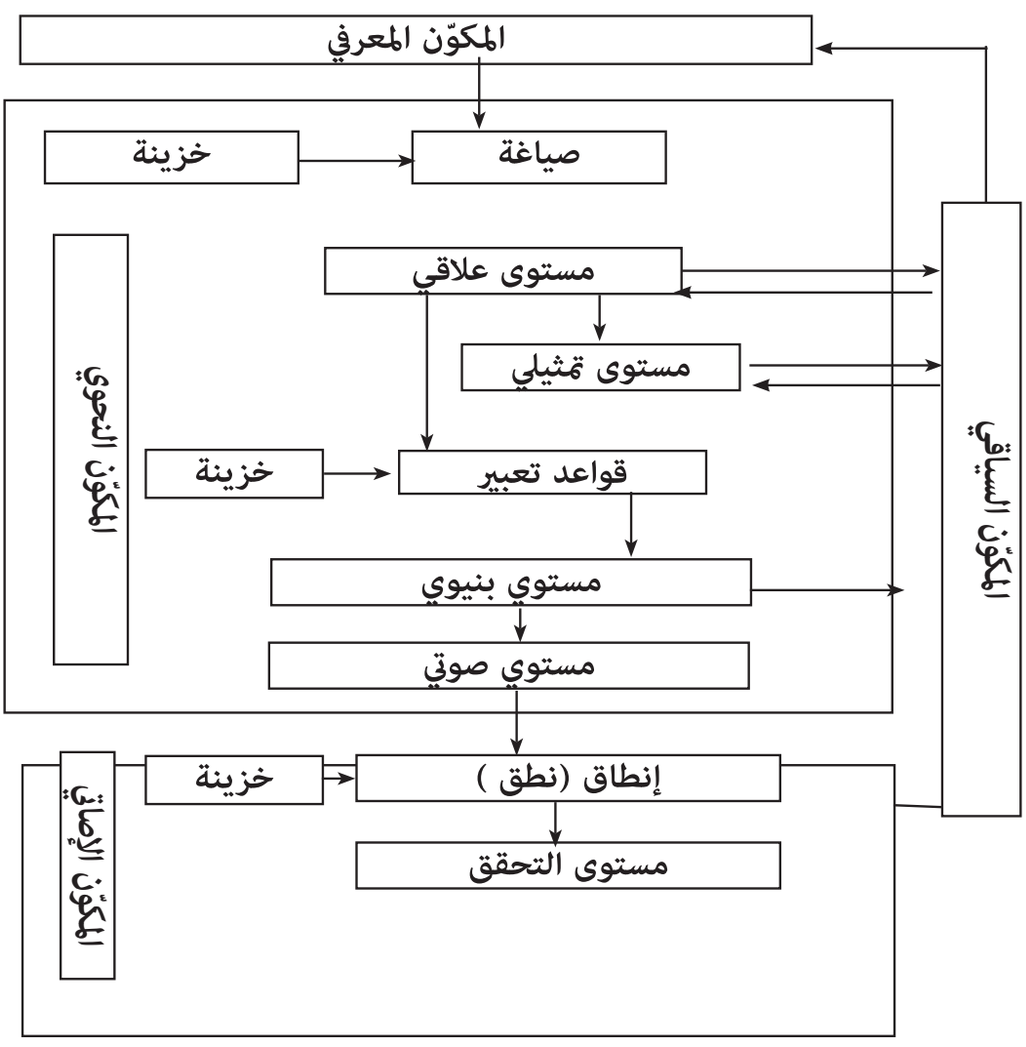

لقد انطلق نحو الخطاب الوظيفي في إنتاج الفعل الخطابي من المستوى العلاقي الممثل للمعلومات التداولية في مستواه الفونولوجي ثم ينتقل بعد ذلك ليمثل المعلومات التداولية في المستوى التمثيلي.

يفهم من هذا أنَّ نحو الخطاب الوظيفي يهتم بتفسير كيفية إنتاج المتكلم للأفعال الخطابية تفسيرًا وظيفيًا أي ما ينتجه ويتواصل به مع الآخرين.

وهذا لا يتحقق إلاَّ إذا تمَّ إعداد جهاز نحو الخطاب الوظيفي وذلك بإحرازه لثلاث موصفات هيّ[36]: الخصوصيَّة، الشمول، العموم.

أ الخصوصيّة: يقوم تنميط الخطاب على أساس تعدُّد الخطابات وتباين مجالاتها وآلياتها وأهدافها، لكنها تؤول إلى بنية خطابيّة عامّة واحدة تجد ثوابتها في المستويات الأربعة (العلاقي، التمثيلي، الصرفي التركيبي، الفونولوجي)، وبهذا التَّعدّد تتولَّد الأنماط الخطابيَّة.

ب الشمول: يقصد بالشمول «أن يصبح الجهاز المقترح في نحو الخطاب الوظيفي نموذجًا حقيقيًا لمستعمل اللُّغة محرزًا لقدر معقول من الكفاية النفسيَّة برصده للقدرة على إنتاج الخطاب المباشر وفهمه، والقدرة على القيام بمختلف عمليات التحويل التي يستلزمها إنتاج الخطاب الموسّط»[37]هذا يعني وجوب إزدواج الجهاز بإضافة آلية تحليليّة إلى آلية الإنتاج.

ج العموم: يعني توسيع مفهوم الكفاية التداوليَّة بحيث تصبح كفاية تواصليَّة وتدرج نظرية النحو الوظيفي في نظريّة أعم، «النظرية الوظيفيّة العامّة» التي تعد مسؤولة عن التنظير للتواصل بمختلف أنساقه اللُّغويَّة وغير اللُّغويَّة.

ولبلوغ هذا الهدف يجب أن يقوم جهاز نحو الخطاب الوظيفي على مجموعة من الأنساق المجرَّدة المولَّدة والمحلَّلة والمحوَّلة الفارغة، يستخدم للتواصل اللُّغوي وغير اللُّغوي.

خاتمة:

وبعد هذه المعالجة حول تداولية الخطاب والتداولية في النحو الوظيفي وبيان دور المقام في تشكُّل الخطاب التداولي وعَرضِنَا لنموذج نحو الخطاب الوظيفي، يتضح لنا أنَّ المكوّن التداولي من أهم المكوّنات الوظيفيَّة، الذي يقوم بوصف بنيات اللغة العربية وتفسيرها وتحديد وظائفها الداخليّة والخارجيّة لها، وكما يضمن استمرارية التواصل في وظيفته التخاطبيّة.

الهوامش:

1 – ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: **استراتيجية الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي ليبيا، ط1، 2004م، ص21.

2 – ينظر: آن روبول وجاك موشلار: **التداولية اليوم عالم جديد في التواصل**، تر: سيف الدّين دغفوس ومحمّد الشّيباني، المنظمة العربية للطباعة والنشر، دار الطليعة، بيروت . لبنان، ط1، 2003م. ص28 – 23.

3 – مسعود صحراوي: **التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية» في التراث اللساني العربي)**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان، ط1، 2005م، 25.

4 – المرجع نفسه، ص16.

5 – فرانسواز أرمنيكو: **المقاربة التداولية**، تر: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع . سوريا، ط1، 1997م، ص 13 . 14. وينظر: نواري سعودي أبو زيد: **في تداوليات الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراء)**، بيت الحكمة للنشر والتوزيع . العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص23 – 24.

6 – ينظر: ليلى كادة: **المكوّن التداولي في النظرية اللسانية العربية «ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجًا»**، (مخطوط رسالة دكتوراه)، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر . باتنة، إشراف: بلقاسم دفة، 2011م-2012م، ص36.

7 – علي آيت أوشان: **السَّياق والنص الشعري (من البنية إلى القراءة)**، مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص55.

8 – نعمان بوقرة: **المدارس اللسانية المعاصرة**، مكتبة الآداب . القاهرة، دط، 2004م، ص166.

9 – محمود نحلة: **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية، ط1، 2006م، ص9.

10 . ينظر: راضية خفيف بوبكري: **التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقاربة نظرية**، مجلة الموقف الأدبي، إتحاد الكتاب العرب، دمشق . سوريا، العدد399، دط، 2004م، ص22.

11 – يحي بعيطيش: **نحو نظرية وظيفية للنحو العربي**، جامعة قسنطينة، رسالة دكتوراه، (مخطوط)، 2006م، ص163.

12 – أحمد المتوكل: **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب)**، دار الأمان 4 زنقة المامونية، الرباط، دط، 2001م، ص111.

13 – يحي بعيطيش: **نحو نظرية وظيفية للنحو العربي**، ص364.

14 – أحمد المتوكل: **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب)**، 116.

15 – علي آيت أوشان: **اللسانيات والديداكتيك نموذج النحو الوظيفي، (من المعرفة العلميّة إلى المعرفة المدرسيّة)**، السلسلة البيداغوجية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005م، ص194.

16 – ينظر: أحمد المتوكل: **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب)**، ص118.

17 – ينظر: أحمد المتوكل: **الوظائف التداولية في اللغة العربية**، مطبعة النجاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، الرباط

المغرب، ط1، 1985م، ص29.

18 – المرجع نفسه، ص31 – 32.

19 . المرجع نفسه، ص115 – 147 – 160.

20 – علي آيت أوشان: **اللسانيات والديداكتيك نموذج النحو الوظيفي**، ص232.

21 – ينظر: ليلى كادة: **المكوِّن التداولي في النظرية اللسانية العربية «ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجًا»**، ص81 – 82.

22 – أحمد المتوكل: **دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1986م، ص6.

السكاكي: **مفتاح العلوم**، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط2، 1987م، ص168. 23

24 **المرجع** نفسه، ص169.

25 أحمد المتوكل: **دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي**، ص96.

26 صابر الحبشة: **من آليات تحليل الخطاب**، جذور، 2005م، ج22، مج10، ص332.

27 ينظر: المرجع نفسه، ص332.

28 المرجع نفسه، ص332.

29 ينظر: عبد الواسع الحميري: **ما الخطاب؟ و كيف نحلله؟**، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان، ط1. 2009، ص59.

30 أحمد المتوكل: **المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي (الأصول والامتداد)**، مكتبة دار الأمان 4 ساحة المامونيَّة الرّباط، ط1، 2006، ص172.

31 عبد الواسع الحميري: **ما الخطاب؟ و كيف نحلله؟**، ص60.

32 – عِزّ الدين البوشيخي: **التَّواصل اللُّغوي مقاربة لسانيَّة وظيفيَّة ،(نحوَ نموذج لمستعملي اللُّغات الطَّبيعية)**، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، سنة 2012م، ص126.

33 – المرجع نفسه، ص127.

34 – ينظر: أحمد المتوكل: **المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي (الأصول والامتداد)**، ص83 – 86. وينظر: عزالدين البوشيخي: **التواصل اللغوي (مقاربة لسانية وظيفية)**، ص16 – 18.

35 – أحمد المتوكل: **المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي (الأصول والامتداد)**، ص86.

36 – ينظر: أحمد المتوكل: **الخطاب الموسَّط (مقاربة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات)**، منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط المغرب، ط1، 2011، ص79 – 80 – 81.

37 – المرجع نفسه، ص80.

أسلبة اللغة في الخطاب الشعري العربي المعاصر

(مقاربة لبعض الظواهر الأسلوبية و الجمالية)

بوعيشـــة بوعمـارة.
أستاذ محاضر، قسم أ
جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر.

Abstract

In this research, we present the different modalities followed by the contemporary Arab poet in the construction of its language and therefore in its poetic, and through certain stylistic phenomena, aesthetic, semantic and syntactic.

This research examines all elements in the architecture of his poetic as the pronoun, the verb, the noun, adjective, verb phrases and noun phrases and different ways of saying what makes poetry a modern harmonization between the language and its construction.

KEYWORDS :
stylistic phenomena, aesthetic phenomena, the structure of the speech, poetic contemporary poetry

الكلمات المفتاحية: ظواهر أسلوبية، ظواهر جمالية ، أسلبة اللغة ، بنية الخطاب ، الخطاب الشعري المعاصر

في مفهوم الأسلوب :

الأسلوب سمة شخصية في استعمال اللغة، من خلال طريقة نظمها ، ولذلك قيل: إنه كبصمات الأصابع لا يصطنع ولا يزيّف، والشاعر هو صائغ الكلمات التي يحيلها من مجرد حروف متتابعة إلى نبض حي يستولي على إحساسات القارئ عن طريق الصفات الحسية لصوت الكلمة وإيقاعها، ولذلك عرّف عبد السلام المسدي الأسلوب على أنه:« قوام الكشف لنمط التفكير عن صاحبه»[1] فهو يتجسد من خلال تعامل المبدع مع اللغة وإخراجها عن دائرة المواضعة والمألوف، وبذلك يتحقق للنص تفرده وخصوصيته الفنية.

على أنه لا ينبغي أن يصبح الانحراف باللغة الشعرية عن النظام المألوف غاية وهدفا، إذ « ليس كل انحراف عن القاعدة الأساسية ينبثق عنه إبداع فني»[2]، فاللغة تحتوي على طاقات هائلة للتعبير، والمبدع عندما يعمد إلى تشكيل عمله الإبداعي فإنه يعتمد أسلوبا معينا في تعامله مع اللغة، إفرادا وتركيبا يميزه عن غيره من الكتاب والمبدعين.

فالأسلوب «عملية اختيار أو انتقاء، يقوم بها المنشئ لسمات لغوية معينة، بغرض التعبير عن موقف معين»[3]، إذ يعدّ علامة صاحبه ودليلا على أفكاره ومواقفه، ومكنوناته العاطفية والنفسية والفكرية، ولذلك قال: «جورج بوفون» الأسلوب هو الرجل»[4] ، أي إن الأسلوب الخاص بهذا المبدع أو ذاك هو حصيلة مجموعة من العمليات الذهنية والفكرية والثقافية، وطريقة التناول، والمقدرة على التعرف إلى التشابه، للوصول إلى التميز.

والأسلوب حدث يمكن ملاحظته، إنه لساني لأن اللغة أداة بيانية، وهو نفسي لأن الأثر غاية حدوثه، وهو اجتماعي لأن الآخر ضرورة وجوده؛ وإذا كان كذلك فإنه يستلزم نوعين من النشاط: الأول يتعلق بالشاعر أو المرسل، والثاني يتعلق بالمتلقي، أما النشاط نفسه فقد يكون علميا بمعنى أنه يقف عند حدود البحث في ظاهرة من الظواهر بشكل موضوعي، وقد يكون غير ذلك فيدخل القصد إليه حينئذٍ في إدهاش المتلقي والتأثير فيه[5] .

أسلبة اللغة الشعرية :

أولا– على مستوى البنية الإفرادية:

1/ أسلبة الضمير: إنَّ الضمائر« جوهرية للغاية من أجل إثبات تأثير البنية النحوية في معمار النص الشعري»[6]، ولقد أصبح الشاعر المعاصر« يدرك بوعي منزلة الضمير داخل النص الشعري فجعله مظهرا أساسيا من مظاهر قوانين اللغة النحوية وخصوصا الضمير الذي يمثل مرجعا يحدد الحاضر أو الغائب، وبالتالي يدل على معين، لكن الشاعر يتغافل عن تحديد هذا المرجع ليتحقق البعد التأويلي لدى القارئ عن طريق غموض المرجع».[7]

يقول محمد السرغيني:

أ طلّ عليك من أبراج سحب اليأس
وأضمّ فيك حطام شوق الأمس. [8]

فضمير المخاطب الكاف المتصل بحرفي الجر:» على» في السطر الأول و»في» في السطر الثاني يظل مطلقا، هل يعني المخاطب المذكر أم المخاطب المؤنث؟، ثم من هو هذا الشخص؟ هل هو معين؟ أم أنه يشير إلى كل مذكر ومؤنث؟، فهذا التوظيف غير المألوف للضمير له وظيفته الإيحائية التأويلية.

ومن خلال دراسةالضمير في ديوان الشعر العربي المعاصر نلاحظ أن الشاعر العربي المعاصر يوظف الضمير:

- ✓ الحاضر أكثر من الغائب.

- ✓ المفرد أكثر من الجمع.
- ✓ المتكلم أكثر من المخاطب.

ومن ثمة فإنبنية الضمير = حضور المفرد المتكلم ، وهذا ما يفسر:

- ✓ الحضور القوي للذات الشاعرة من خلال الإلحاح على المتكلم المفرد، وربما هذا ما يؤكد صحة رؤية بعض النقاد على أن: ضمير المتكلم أنسب الضمائر للتعبير عن الشعر (في مقابل المخاطب للمسرح، والغائب للقصة).
- ✓ بروز سمة الفردية نظرًا لوفرة توظيف المتكلم المفرد مقارنة بالمتكلم الجمع.

فبنية الضمير هي غالبا بنية حضور، إلاّ أن هذا لا يعني عدم حضور ضمير الغائب، فللغياب حضوره، وعليه فالذات الشاعرة تتأرجح بين الحضور والغياب، وإذا كان الأول يمثل ما يعيشه الشاعر، فإن الثاني يمثل العالم الغائب أو المغيب (مضى أو فات هو في رحم المستقبل).

إن ضمير المتكلم مهيمن في المتن الشعري المعاصر، حيث يكون مشخصا في المتكلم والموضوع وفعله يرتبط بسلوك إيديولوجي، يتحدد مع إضفاء النزعة الوجدانية ، يقول السياب :

سوف أمضي، أسمع الريح تناديني
في ظلام الغابة اللقاء .. والدرب طويل
يتمطى ضجرا، والذئب يعوي، والأفول
يسرق النجم كما تسرق روحي مقلتاك
فاتركيني أقطع الليل وحيدا
سوف أمضي، فهي ما زالت هناك
في انتظاري[9]

إذ يلاحظ أن فعل المتكلم واضح من خلال موقفه الإيديولوجي، حيث له مفهومه الخاص لرؤية العالم المتجسد في الفعل اللغوي والتركيب.

2/أسلبة الفعل: إنَّ قلة الأفعال الماضية أمام مد الأفعال المضارعة وأفعال الأمر في القصيدة الجديدة هو انتصار لها على حساب القصيدة القديمة :

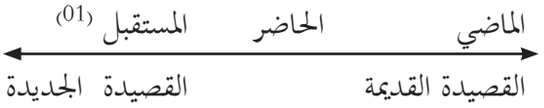

فالفعل المضارع مفتوح على فضاء الحاضر والمستقبل، أي على المحتمل، وقد صرح الشاعر المعاصر أنه يكتب «عن الأشياء التي ما زالت حلما أو طموحا»[11]، أي الأشياء التي يكتنفها فضاء الآتي، وهذا يدعم غلبه نسبة أفعال الأمر.

وقد يستخدم الشاعر الفعل الماضي لخدمة المستقبل، ويظهر هذا في تحويل بعض الأفعال الماضية للدلالة على الاستقبال حين تقرن بأسلوب الشرط، هكذا:

فعل ماض+ أسلوب الشرط ← دلالة على المستقبل.

ومثال ذلك قول محمودرويش: ونحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا

كما يستخدم الشاعر المضارع المفتوح على المستقبل، وتوجه الأفعال المضارعة نحو المستقبل من خلال ربطها بلام الأمر أو السين أو سوف الدالتين على الاستقبال ليحدث عناق بين الحاضر والمستقبل، هكذا:

(''لامالأمر''أو ''السين'' أو ''سوف'')+ فعل مضارع ← دلالة على الحاضر المفتوح على المستقبل

ومثاله قول السياب:

مطر...
مطر ...
مطر ...
في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر

وكل دمعة من الجياع والعراة.

مطر ...

مطر ...

مطر ...

سيعشب العراق بالمطر.

فالمطر بدأ المقطع، وفي مجراه جرى، وعلى وقعه انتهى، وعندما يمتزج المطر، بدموع الجياع يصبح مطرا مخصّبا خصيبا، تنبثق منه الحياة، في الحاضر والمستقبل، لأن الفعل المضارع ''يعشب'' قد وجه نحو المستقبل لارتباطه بحرف السين الدالة على الاستقبال، كما قد يوظف الشاعر الفعل الواحد بإيحاءات متعددة ومعانٍ مختلفة، فيوسع دلالاتها من خلال استخدامها بمعاني (مختلفة غير المعنى الأصلي).

ومن خلال تطبيق معادلة ''بوزيمان Bouseman» في دراسة نسبة الفعل إلى الصفة، والتي تدل على «ارتفاع نسبة الأفعال إلى الصفات في النصوص الشعرية في مقابل انخفاضها في النثر»[21]، ويتم ذلك من خلال حساب نسبة الفعل إلى الصفة هكذا:

$$\text{ن ف ص} = \frac{\text{ع / الأفعال}}{\text{ع / الصفات}}$$

يمكننا قياس درجة الاستقرار/ اللااستقرار العاطفي عند الأفراد كما يمكن من خلالها اكتشاف مدى اتصاف الشخصية بخصائص الحركية، العاطفية، انخفاض العقلانية، الموضوعية، وعدم توخي الدقة في التعبير.

ومن خلال تطبيق هذه المعادلة على عينات من الشعر العربي المعاصر نحصل على النتائج الآتية:

- صحة المعادلة بارتفاع نسبة الفعل إلى الصفة.
- اختلاف نسبة تكرار كل من الفعل / الصفة من نص إلى آخر.
- اعتماد الشاعر المعاصر على الأفعال الدالة على الحركة أو تلك التي تتضمن صفة الانفعال وعدم الاستقرار أكثر من غيرها.

وتعد قصيدة «ونحن نحب الحياة» للشاعر محمود درويش من النماذج التي طغى فيها الفعل على الاسم، مما يبين تغلب الحركة على السكون. وبما أن أغلب الأفعال في هذه القصيدة مضارعة (نحب، نرقص، نرفع، نسرق، نبني، نسيج، نفتح، يخرج، نزرع، نحصد، ننفخ، نرسم، نكتب) – مع تكرار بعضها أحيانا- فإن الحياة تتغلب على الموت ليتجه النص بذلك نحو الشهادة أو النصر.

3 / أسلبة الاسم:

قد يتحرر الشاعر من الزمن، ويسبح في فضاء زمني مفتوح، فيلغي الأفعال إلغاء تاما ويكثر الأسماء في تلاحق وتراكم وتكيف. يقول «محمد عمران»:

الصلاة بندقية

تقتات بالأزهار

بالحمام

بالعصفورة البيضاء

بالأشعار

بالزيتون

بالأطفال

بالمدن[31]

فالكتابة هنا بالاسم، إذ يتضافر هذا الطابع الاسمي مع عملية تشظية الكلام وبعثرته ليضعنا في حضرة زمن هو اللازمن، فلا حركة ولا فعل ولا حياة، إنما هي الفوضى والسكون.ليكون حينها النص موسوما بالديمومة لأنه يستغرق كل الزمن، فيلتقط جزئيات الواقع محاولا الغوص في ما وراءها لعدم ارتباط الاسم بالزمن.

4/أسلبة الصفة:

يتميز الشعراء المعاصرون بتلوّن نفسياتهم وتدفق مشاعرهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم وأخيلتهم، إذ تأتي قصائدهم ملونة بحسب الواقع النفسي وعالم القصيدة ،من هنا كان للصفة دور بارز في بناء القصيدة المعاصرة وتشكيلها، إذ تقوم بوظيفة فنية جمالية من خلال إسقاطها على الواقع النفسي.

يقول «أدونيس»:أنتظر الله الذي يجيء
مكتسيا بالنار
مزينا باللؤلؤ المسروق
يغضب، يبكي، ينحني، يضيء[41]

ففي هذا المقطع يكثر «أدونيس» من النعوت / الصفات: الذي يجيء، الذي يحار، الذي: يغضب، يبكي، ينحني، يضيء، أضف إلى ذلك الأحوال الواردة: مكتسيا بالنار، مزينا باللؤلؤ، وفي ذلك بعث للروح في اللغة لخلق دلالات جديدة لم يألفها القارئ، وهذه الظاهرة تبرز النزوع نحو رسم إطار للحالة النفسية للشاعر، وتكسب شعره رومانسية ذلك، أن الشعر الرومنسي أغرق في الوصف الداخلي والخارجي.

ثانيا–على مستوى البنيـة التركيبيـة:

1/ جدل الجمل الفعلية و الاسمية وعلاقته بتشكيل النص:

من الظواهر الأسلوبية الملاحظة في الشعر المعاصر غلبة الجمل الفعلية على الجمل الاسمية، مما يعكس مدى التوتر والانفعال الذين يعاني منهما الشاعر أثناء التعبير والكتابة، وهذا ما يعطي التجربة الشعرية قدرا من الحيوية والدرامية إذ تضطلع الجمل الفعلية برصد الحركة الداخلية والخارجية في النص الشعري (هذه الحركة أو الدينامية تقتضي عنصر الزمن، وعنصر التغير عبر الزمن ... فالحركية تنفي الاستقرار والجمود واللاحركة»[51] ، فالجمل الفعلية تحمل دلالات الحدوث والتحول وسيطرة الحركة والحيوية والنشاط.

يقول «محمود درويش «:ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا
ونرقص بين شهيدين نرفع مئذنة للبنفسج بينهما أو نخيلا

نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا
ونسرق من دودة القز خيطا لنبني سماء لنا ونسيج هذا الرحيلا
ونفتح باب الحديقة كي يخرج الياسمين إلى الطرقات نهارا جميلا
نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا
ونزرع حيث أقمنا نباتا سريع النمو، ونحصد حيث أقمنا سبيلا

ففي هذا النص يوظف الشاعر جملة من الأفعال متكلما بصيغة الجماعة (نحب، استطعنا، نرقص، نرفع، نسرق، نبني، نسيج، نفتح، نزرع، أقمنا، نحصد) وكلها تدل على الحاضر والمستقبل، حتى الماضية منها ترتبط بما ينقلها إلى الدلالة على الحاضر والمستقبل مثل: (نحب الحياة إذا ما استطعنا)، (نزرع حيث أقمنا) (نحصد حيث أقمنا) ... إلخ.وطغيان الفعل على الاسم يعنى أن الحركة تغلب على السكون، وطغيان المضارع على الماضي « يعني أن الفعل يبدأ الآن ويستمر في المستقبل حتى يتم تحقيق الاستقلال، فالنص يعكس السير نحو الحياة، نحو النصر والبناء».[61]

ومن ثمة فالنص يتجه نحو المقاومة حتى النصر أو الشهادة، وحركة الفعل الثوري ممتدة على طول النص الشعري، رغبة من الشاعر في التعبير عن إصرار الجماعة على إخراج المستعمر من الأرض المحتلة، والتحول من السكون إلى الحركة، ومن الموت إلى الحياة.

فكما أن طغيان الأفعال على الأسماء تعني غلبة

الحركة على السكون، كذلك « تعني غلبة الحياة على الموت، فهناك حبّ للحياة ومحاولة لإقامة عناصر الحياة، فالرقص بين شهيدين يدل على الحركة التي تستند إلى فعل الشهادة الذي يغذي الثورة ويدفعها إلى الاستمرار، ف(الشهيد) عنصر للحياة لما يمدُّهُ من قوة للشعب الصامد، هو راية خفاقه تدعو إلى إبادة المستعمر الغاضب، وبين شهيد وآخر تكبر الثورة وتتسع، ومن خلال سلسلة الشهداء ينهض الوطن وترتفع المآذن وتبنى سماؤه وتسيج أرضه، ويتم استقرار الناس في بلدهم ويعود المنفيون إلى وطنهم، وتزرع النباتات سريعة النمو وتزحف الحدائق وتنتشر الروائح الطيبة وتتعطر البلاد، وكما يمثل الرقص بين الشهيدين وقودا للمقاومة، يمثل حصاد القتلى وقودا أيضا لهذه المقاومة (ونحصد حيث أقمنا قتيلا)» [71]، لذلك نجد الحركة في القصيدة قائمة على الشهادة من جهة وعلى القتل من جهة أخرى.

2/وظيفة المزاوجات الاسمية الخاصة في تشكيل النص:

يعتمد الشاعر العربي المعاصر على المزاوجات الاسمية المجازية الخاصة ، التي بنيت من اسم وصفة أو من اسمين، وغالبا ما تكون مكونة من محسوس ومجرد، فيسمى الشيء بغير اسمه الذي يطلق عليه، ويوظف اللفظ في غير موضعه ، إذ يقيم الشاعر علاقة لغوية بين اسمين أو اسم وصفة ليخلق صورا مميزة ، ومن أمثلة ذلك قول «أدونيس»:

ودخلت في طقس الخليقة، في
رحم المياه، وعذرة الشجر
فرأيت أشجارا تراودني
ورأيت بين غصونها غرفا
وأسرّة وكوًى تعا ندني،
ورأيت أطفالا قرأت لهم
سُور الغمام وآية الحجر،
ورأيت كيف يسافرون معي
ورأي كيف تضيء خلفهم
برك الدموع وجثة المطر [81]

فالجمع بين الأشياء ولا منطق أحوالها ملحوظ في مواضع عديدة من هذا المقطع، مثل: رحم المياه، عذرة الشجر، سور الغمام، آية الحجر، جثة المطر، ... إلخ ، ثم إن غلبة الأسماء على الأفعال تجعل النص قليل الحركة كثير الثبات، وحركته القليلة هذه حركة نفسية فقط، كما أن النص اعتمد على المعارف (التعريف بالإضافة) فهو إذن محدود المعالم، وأغلب الأسماء مأخوذة من الطبيعة وتتناسب مع تجربة الشاعر.

إنَّ «أدونيس»« يستحضر العناصر اللغوية القديمة (الخيمة، الصحراء، القنديل، الجبة، النخلة) والعناصر الشائعة قديما وحديثا (الجوع، الفقر، النهار، الليل، البكاء، المعنى...) ليقوم بتثويرها، والخروج بها عن مسارها المعروف سلفا لإعادة نظمها في بنية جديدة وعلاقات جديدة، لحملها على إنتاج دلالات ومواقف فكرية جديدة، وهو في ذلك كله لا يكتفي بتحميل المفردة دلالة متعددة وحسب، بل يعتمد نسف أصلها الدلالي السابق بالقلب الكامل للاستعمال الأساسي لهذه المفردة، هكذا يستحوذ الشاعر على لغة شعرية خاصة به تحمل دلالاتها ومسمياتها الخاصة بها» .[91]
يقول «أدونيس» في «فصل الأشجار»:

زرع الجائعون
غابة للرجاء
صار فيها البكاء
شجرا، والغصون
وطنا للنساء الحبالى
وطنا للحصاد؛

كل غصن جنين
راقد في سرير الفضاء
أخضر ساحر الأنين
فرض غابة الرماد
من بروج الفجيعة
حاملا آهة الجائعين
شاكيا للطبيعة[02]

هنا نلاحظ التقاء مكونات على غير العادة، حيث أصبح للرجاء غابة، وصار البكاء شجرا، والغضون وطنا، وصار كل غصن جنينا، وصار للفضاء سرير، وللرماد غابة . وهكذا،« يعبر الشاعر عن لغة العالم والوجود بلغة تشبهها، لغة تتأسس بنظام المحو والإزاحة والتحول».[12]

ولقد أثبتت الدراسات اللغوية المستقصية لأسلوب «أدونيس» أن استخدامه الجديد للغة يتمثل في خاصيتين أساسيتين تمضيان في اتجاهين متعاضدين هما: [22]

- تفجير الجملة الشعرية بتضخيم مكوناتها، فالفاعل عنده ليس كلمة واحدة في أغلب الأحيان، وكذلك المفعول والصفة والحال والظرف وكل المكونات فيما عدا الفعل.
- وأما الاتجاه الثاني فإنه يتحدد بالتقاء مكونات لا تلتقي مع بعضها في لغة العرف، وهذا الاتجاه الثاني يفسر التقاء المكونات السابقة على غير العادة (غابة الرجاء، غابة الرماد، البكاء شجر، الغصون وطن، الغصن جنين، سرير الفضاء ... إلخ)

ويمكن تمثل الاتجاه الأول في المقطع نفسه، حيث يقوم هذا المقطع على بنية التوالد والتكاثر، فهو يتكون من جملة واحدة مطولة تتداخل حلقاتها لتفضي إلى التضخيم والتعقيد، فغابة الرجاء تغض بالبكاء، والبكاء يصير شجرا، والشجر له غصون، والغصون، وطن، والوطن للنساء الحبالى، والحبالى يلدن أجنة، والأجنة موزعة على الأغصان وهكذا.

3/ تنويع الأساليب الشعرية ودوره في تشكيل النص:

يمنح مزج الشاعر بين الأساليب المختلفة في النص الواحد طاقات إيحائية تساهم في إثراء الدلالات وتفجيرها في شبكة علاقات يتقاطع فيها الانفعال، إذ يرى «رومان جاكبسون» أن استخدام الشاعر « للوسائل الأسلوبية واللسانية من تأوه ونداء وتكرار وأفعال الأمر والتوكيد يجسد اهتمام الشاعر بجمهوره، ومحاولته الاستحواذ عليه عبر التركيز على ما يغذي فيه الوظيفة الإفهاميةوالانتباهية».[32]

يقول السياب:الليل يطبق مرة أخرى، فتشربه المدينة

والعابرون إلى القرارة ... مثل أغنية حزينة
وتفتحت كأزهار الدفلى، مصابيح الطريق
وكأنها نذر تبشر أهل بابل بالحريق
من أيّ غاب جاء هذا الليل من أي
كهوف؟
من أيّ عش في المقابر دف أسفح
كالغراب؟
قابيل أخفى دم الجريمة بالأزهار
والسفوف
وبما تشاء من العطور وابتسامات النساء.
ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء
عمياء كالخفاش في وضح النهار، هي
المدينة
والليل زاد لها عماها.[42]

فهذا المقطع يتحرك من أسلوب وصفي يعتمد السكونية إلى أسلوب إنشائي استفهامي يفتح باب الحركية، ثم الانتقال إلى الأسلوب الخبري التصويري. كما أن بعض هذه الأساليب مشحونة بمضامين عاطفية

مثل: «الليل يطبق مرة أخرى»، و»مثل أغنية حزينة»؛ بل إنَّ استعمال الشاعر لبعض كلمات الحياة ليومية مثل: (الدفلى، الذئاب، عمليات، زاد لها عماها ... إلخ) أعطى النص نغمة عاطفية غير متوقعة اخترقت انغلاقيه التركيب، ومما أثرى دلالات النص وفجرها وجعلها أكثر إيحاءً وتعبيرا عن إحساس الشاعر بحقيقة المدينة وصورتها.

ومن الأمثلة التي كثر فيها استخدام هذه الأساليب والوسائل الأسلوبية واللسانية القصيدة العاشرة من مجموعة «سفر أيوب» التي يتضمنها ديوان: «منزل الأفنان» للسياب يقول فيها:

يا غيمة في أول الصباح
تعربد الرياح
من حولها، تنتف من خيوطها، تطير.
بها إلى سماوة تجوع للحرير
سينطوي الجناح
ستنتف الرياح ريشة مع الغروب
يا غيمة ما أمطرت تذوب
فأبرقي، وأرعدي، وأرسلي المطر
ومزقي ذوائب الشجر
وأغرقي السهوب
وأحرقي الثمر
سترجحنّ بعدك السنابل الثقال بالحبوب
وتقطف الورود والأقاح
صبيّة يؤج في وجنتها الجنوب
وأنت يا شاعر واديك أما تؤوب
من سفر يطول في البطاح
تراقص النهر
وتلثم المطر
أما سمعت هاتف الرواح؟
«خام وزنبيل من التراب
وآخر العمر ردىً»، ويطلع القمر
فابرق، وارعد، أرسل المطر
قصائد احتوى مداها دارة العمر
يا غيمة في أول الصباح
يا شاعرًا يهمُّ بالرواح
وودّع العمر[52]

فالشاعر يستخدم مختلف الأساليب الإنشائية: النداء والأمر والاستفهام ، حتى إن الأسلوب الغالب على النص هو الأسلوب الإنشائي، وهنا – مثلما يقول «د/ صلاح فضل'' معلقا على هذا القصيدة- « تكتمل جماليا بنية النص الشعري، بعد أن أشبعت دوائر الخطاب بهذا التوازي الفادح بين غيمة الصباح وشاعر الوادي في مجموعة أفعال الأمر ذاتها، بعد أن انسرب إليها بشكل خاطف هاتف الرواح الذي يحاورها من داخل الوعي العميق بقدرة الإنسان ينذرها بحكم الرّدى، لكنه لا يقوى على الحيلولة دون فعل الانبثاق العظيم: طلوع القمر»[62]، لتنهض أساليب الإنشاء ببث الحيوية في النص، بل بتفجيرها وبعث الحركية في أسلوب الشاعر.

4/ التخلي عن أدوات الربط في تشكيل النص:

لقد خالف الشاعر المعاصر قواعد الربط الذي يعني إحكام العلاقة بين أطراف التركيب أي بين الوحدات اللغوية بواسطة الحروف والأدوات، وتجاوز وظيفتها، وهو بذلك قد تجاوز البناء المألوف للنص الشعري، وعمد إلى «خلق طرق جديدة في بناء نصه، وفي شكل تتحقق فيه الوحدة على نحو ينسجم مع التجربة النفسية الشعورية ... فالربط النفسي أضحى هو الخيط الواصل بين الأدلة، لأنه يتيح للكتابة أن تواصل تدفقها بطلاقة وتلقائية، دون إخضاعها للقواعد النحوية التي تفترض وجود أدواتِ الربط بين الجمل والكلمات والوحدات

اللغوية».[72]

فإذا كان الربط قرينة نحوية ودلالية تسهم في إحكام علاقات اللغة ووضوح الدلالة، فإن شاعر الحداثة قد حطم هذه القرينة وتجاوز الربط المألوف مولدا دلالات جديدة في نصه الشعري.

يقول «محمد عمران» في مرفأ الذاكرة الجديدة:

الرغيف
هذا السيد المكرس السيادة
لديّ ما أغني
لمجده
أغمضيها قليلا
عينيك
في زمانا المريض
أعدم الغناء
زماننا المصلوب فوق مسطرة
زماننا المهندس النبضّي
الشفاه، آلة الكلام
العين آلة[82]

فالجمل هنا تتوالى بلا روابط نحوية، لتشكل بنية شعرية تتلاحق وحداتها بشكل تراكمي معقد، تضفي على النص كثافة دلالية يصعب الإلمام بها.

ويمكن تمثل تخلي الشاعر عن أدوات الربط ، لاسيما حروف العطف أيضا في هذا النص لأدونيس، فقد تتابعت الجمل دون روابط ولا علامات وقف هكذا:

أغفو على الريح ويغفو معي
حتى بهاء الشمس حتى الصباح
أحمل أسراري إلى العالم
حمّلني أثقاله واستراح[92]...

فهذا المقطع انزاح عن الربط الذي هو قرينة نحوية ودلالية تعمل على إحكام العلاقات اللغوية وخلا من الربط أو كاد، كما أنه لم يحو علامات لوقف (لا فاصلة ولا نقطة ولا غيرهما) عدا النقاط الثلاث في آخره، إنه مقطع انسيابي تراكمي، فجر فيه الشاعر اللغة وحطم القواعد المألوفة لينفتح على دلالات أكثر.

وقد يحطم الشاعر البنية النظمية للنص كلية، بحيث تضيع الروابط النحوية والدلالية من النقاط والفواصل وحروف العطف، ليغدو النص مجالا مفتوحا لا نهائيا. يقول «أدونيس»:

دخلت إلى حوضك
أرض تدور حولي أعضاؤك نيل يجري
طفونا ترسبنا: تقاطعت في دمي قطعت
صدرك أمواجي
انصهرت لنبدأ: نسي الحب شفرة الليل
هل أصرخ
أن الطوفان يأتي؟
لنبدأ صرخة تعرج المدينة والناس
مرايا تمشي
إذا عبر الملح التقينا هل أنت؟[03]

فالقارئ يلاحظ انعدام الربط بين الوحدات والجمل ومع ذلك لم يختل المعنى العام، إذ لا حاجة للشاعر المعاصر لمثل هذه الروابط ما دام الرابط الفني والنفسي موجودا داخل العمل الشعري ، يحقق انسجام الوحدات وتناغمها للسير في اتجاه البنية العامة للنص. إنها بنية تقوم على التراكم بلا فاصل نحوي أو دلالي مما يختلق غموضا كثيفا ولبسا دلاليا وإلغاء للتجانس الشكلي، كل هذا يصدم القارئ، ويحطم الألفة اللغوية لديه، غير أن بين الوحدات تفاعلا باطنيا عضويا يتخفى في تشكيل النص بمعنى أنه فضل خلق وحدة عضوية باطنية لعمله الشعري.

ومن النماذج الناجحة التي تتجاوز البنية النظمية للنص قول «محمد بنيس» :

3- **لأن الشعر آفة عينك الأشجار تعكس**
شعلة مفتوحة هدِد مساءك بانفجار الوردِ
أو بتقاطع الضحكات مأواكَ الخرافاتُ
انتشرْ في الماء هذا الضوءُ يسرق الليالي
سرَّها عبق هنا وهناك موتى غيرُ
مكترثين بالصلوات فانوس يشع على كلامِ
العابرين صبيةٌ دلفت لمنعطف الظلام هلالُ
قُرمُود يبلله الهواء أنينُ سيِّدةِ
تشرب الصمت البعيد. (13)

فبناء هذا النص تراكمي، لم يستعمل فيه الشاعر النقاط والفواصل وكل علامات الوقف، ويكاد يخلو من أدوات الربط، حيث كتب السطر الشعري على غرار النص النثري، وبذلك يكون الشاعر قد فجر اللغة وحطم قواعدها، مما أنتج غموض دلاليا كثيفا وتشكيلا نصيا خاصا.

4- لقد طور شاعر الحداثة مجموعة من التقنيات اللغوية لبناء جمله الشعرية، لعلّ أبرزها وأكثرها هيمنة على لغته اعتماده على أسلبة الضمير والفعل والاسم والصفة، وأسلبة الجملة وشبه الجملة و المزاوجات الاسمية الخاصة ، إضافة إلى تنويع الأساليب وطرائق استخدام أدوات الربط ، مما يعتبر مرتكزا من المرتكزات التي تنهض عليها قصيدة الحداثة، وإلحاح الشاعر على تشكيل النص انطلاقا من هذه الأساليب يوهج واقعيه الاجتماعي والنفسي.

5- هناك حضور مكثف لذات الشاعر من خلال الإلحاح على ذات المتكلم وبروز دينامية مميزة من خلال مقارنة نسبة حضور الأفعال بالنسبة للأسماء مع تسجيل ظواهر: التضاد، والتكرار، وكثرة النعوت، والإضافات، والمعطوفات.

أمّا علاقة المتكلم بالآخر فتتوزع —من خلال أساليب: النداء، والأمر ،والاستفهام، والحوار– بين التطابق والانفصال، مع

الخاتمة :يمكن استجماع نتائج البحث في النقاط الآتية :

1- لما كان الشعر فنا لغويا ونشاطا إبداعيا فإنه يولد من الوعي المنظم للغة ليصبح نص شعر الحداثة تشكيلا لغويا وفاعلية أسلوبية ذات طاقات إيحائية خلاقة، تجمع بين جدة اللغة وحداثة التركيب.

2- إن شاعر الحداثة قد أولى أهمية قصوى للغة بوصفها مادة بناء الشعر، ووسيلة وغاية في آن معا لأنها تعبير عن تجربة الشاعر وهي في الوقت نفسه قيم فنية وجمالية، يستهدفها الشاعر والناقد وتترك أثرا في المتلقي، ولكل تجربة شعرية لغتها الخاصة والجديدة التي يشكلها الشاعر ليعبر عن تجربته وموقفه ورؤياه تعبيرا يختلف عن الآخرين، فيفجرها ويحملها دلالات جديدة ويعطيها أبعادا جمالية جديدة أيضا.

اللغة هي مادة بناء الشعر، وعلاقة تجربة الشاعر بلغته وثيقة، إذ تبتكر التجربة لغتها الجديدة وتدفع المبدع إلى تشكيلها بطريقة خاصة، حيث صار الشاعر يطمح إلى استخدام اللغة بدلالات جديدة مع كل تجربة جديدة، وأصبحت مهمته تحرير اللغة من دلالالتهاالماقبلية، وتزويدها بطاقة التجدد من قصيدة إلى أخرى، وإكسابها القدرة على تقمص دلالات متعددة ومتجددة وغير ثابتة، وهي عند الشاعر أداة خلق لا أداة نقل، كونها قادرة على تغيير طبيعة معاني مفرداتها لتكوين مجموعة معانٍ شعورية ذات طاقات إيحائية لا حدود لها.

شيوع الحيويةوالحركة فيها.

6- إن تنويع الأساليب ليس ظاهرة جمالية فحسب، وإنما هو ظاهرة أسلوبية تكتسب وظيفة بنائية تركيبية وإيقاعية ودلالية تستطيع أن ترفد النص بالتلاحم والترابط، وبنية تنويع الأساليب الخاصة المميزة للشعر هي بنية ترتبط بالمعنى والدلالة ارتباطا قويا.

7- تتأسس شعرية النص الحداثي بفعل ما يضمره من ظواهر أسلوبية ، على المستويين : الإفرادي والتركيبي، قادرة على إنتاج المعاني الجميلة، إذ إن للأسلوب – إضافة إلى كونه عامل تميز للخطاب الأدبي- دورًا جماليًا كبيرًا يسهم في لفت انتباه المتلقي، ومن ثمة التأثير فيه وتوصيل الرسالة التي يريدها الخطاب.

8- لقد استخدم شاعر الحداثة جملة من التقنيات اللغوية التي طبعت شعره حتى صارت ظواهر أسلوبية على المستويين : الشكل والمضمون، وكل هذه التقنيات اللغوية والظواهر الأسلوبية أكسبت النص الشعري الحداثي تميزا وأعطته دورا جماليا يسهم في لفت انتباه المتلقي وكسب مشاركته الوجدانية، ودعوته إلى إعادة قراءة الشعر قراءة واعية وموجهة.

هوامش البحث :

1 عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ط2، 1982، ص64.

2 رجاء عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1993، ص150.

3 سعد مصلوح، الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1991، ص37-38.

4 أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث،مكتبة الزهراء، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص154. ويرى جون كوهن أن هذه العبارة قد أولت لتسير في الاتجاه الذي يعتبر الأسلوب انزياحا. ينظر: جون كوهن بنية اللغة الشعرية،تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986، ص16.

5 منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1990، ص37-38.

6 يورى لوتمان، تحليل النص الشعري-بنية القصيدة-، تر: أحمد محمد فتوح، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، 1419هـ ، ص168.

7 عبد القادر عبو، فلسفة الجمال في فضاء الشعرية العربية المعاصرة، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2007 ، ص141.

8 نقلا عن: محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، 1985، ص182.

9 بدر شاكر السياب، الديوان،ج1، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص47.

10 ينظر: أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1979 ، ص104 وما بعدها.

11 هذا القول للشاعر: محمد الماغوط. ينظر: وفيق خنسة، دراسات في الشعر السوري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1982. ص64.

12 محمد العبد، لغة الإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1949م، ص100.

13 محمد عمران، الأعمال الكاملة، دار طلاس، دمشق، سوريا، د ط، د ت، ص107.

14 أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1971، ص379.

15 ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص149.

16 فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، ط2، 2008 ص139.

17 المرجع نفسه، ص139.

18 أدونيس، الأعمال الكاملة، ص457.

19 أسيمة درويش، تحرير المعنى،دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1997 ، ص149.

20 أدونيس، الديوان، ص179.

21 أسيمة درويش، المرجع السابق، ص150.

22 ينظر: صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1995 ،ص187.

23 رومان جاكبسون ، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب ، ص30.

24 بدر شاكر السياب، الديوان، ص509-510.

25 بدر شاكر السياب، الديوان، ص481.

26 صلاح فضل، المرجع السابق، ص75.

27 عبد القادر عبو ،المرجع السابق ، ص137.

28 محمد عمران، الديوان، ص106.

29 أدونيس، الاعمال الكاملة، مج1، ص63.

30 أدونيس، الاعمال الكاملة، مج2، ص215.

31 محمد بنيس، ورقة البهاء، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1988، ص52.

قائمة المصادر والمراجع :

ابن خلدون، المقدمة، مج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996.

أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث،مكتبة الزهراء، القاهرة، مصر، دط، دت.

أدونيسالأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1971.

أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1979.

أسيمة درويش، تحرير المعنى،دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1997.

بدر شاكر السياب، الديوان،ج1، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1971.

الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1972.

جون كوهن بنية اللغة الشعرية،تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986 .

رجاء عيد، البحث الأسلوبي (معاصرة وتراث)، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1993.

رومان جاكبسون ، قضايا الشعرية، تر:محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، دط، دت.

سعد مصلوح، الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1991.

صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب،الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ط2، 1982.

عبد القادر عبو، فلسفة الجمال في فضاء الشعرية العربية المعاصرة، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق،ط1، 2007.

فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، ط2، 2008.

محمد العبد، لغة الإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1949م.

محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، 1985.

محمد بنيس، ورقة البهاء، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1988.

محمد عمران، الأعمال الكاملة، دار طلاس، دمشق، سوريا، د ط، د ت.

منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1990.

وفيق خنسة، دراسات في الشعر السوري الحديث، ديوان المطبوعات ، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1982.

يورى لوتمان، تحليل النص الشعري' -بنية القصيدة-، تر: أحمد محمد فتوح، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، 1419هـ .

عتبات المناص في ثلاثية الطاهر وطار بين الوظيفة البنائية والوظيفة الدلالية

عفاف صيفي
أستاذة مساعدة، قسم أ
المدرسة العليا للأساتذة-بوزريعة

Résume

Le paratexte représente l'ensemble des discours de commentaires ou de présentation qui accompagnent une œuvre. Autrement dit, il s'agit d'un message scriptovisuel (photos, schémas, sociogrammes, tableaux...) ; le paratexe englobe aussi les dédicaces, la préface, les épigraphes, les notes en bas de page. Gérard Genette explique que ce domaine peut influencer concrètement la compréhension du texte. Dans cette étude on essaye de s'arrêter sur les seuils de paratexte représentées par (le titre, le dédicace et le préface) au sein de la trilogie du romancier Tahar Ouettar afin d'extrapoler le discours du paratexte avec le texte.

Mots clefs : Le paratexte ; L'Intertextualité ;Tahar Ouettar

الكلمات المفتاحية: المناص ؛ ملازمة النص ؛ التناص ؛ بنية النص ؛ وطار.

تمثل ثلاثية الطاهر وطار[1] علامة مميزة في تجربته الروائية، سواء من حيث معالجتها للراهن الجزائري المتأزم أو من حيث توظيفه للتناص القرآني بما يشكل ظاهرة لافتة، ومن هنا ارتأيت أن أتوقف بالتحليل عند المناص، كإحدى تمظهرات التناص.

أولا– العنوان: مفتاح الرواية

إن العنوان هو العنصر الهام في سيميولوجيا النص، وفيه تتجلى مجموعة من الدلالات المركزية للنص الأدبي، وهو عنصر بنيوي يقوم بوظيفة جمالية محددة في النص، فقد يشير إلى الشخصية الروائية الرئيسية كـ«الولي الطاهر» مثلا أو إلى مكان الحدث الروائي «المقام الزكي»، أو إلى الأسطورة الموظفة في النص الأدبي[2] أو إلى ثنائية جدلية حديثة مثل «الشمعة والدهاليز» تميل إلى الصراع بين الأنا والأخر، ويحتل عنوان الرواية مركز الصدارة في الصفحة الأولى للغلاف، مما يعطيه أهمية خاصة رغم الطابع الاختزالي الذي يميزه[3]، فهو مفتاح الرواية الذي يساعد على دخولها، وبه أيضا نخرج منها، لنختزلها فيه، لذلك فمن الضروري الوقوف عند الدلالات اللغوية والفنية والاجتماعية التي يحملها العنوان، فهو «العلاقة التي ما إن تدخل في اتصال فعلي حتى تعيد توزيع وتنظيم مجموع العلامات».[4] يحمل العنوان «رسائل مسكوكة مضمنة بعلامات دالة، مشبعة برؤية العالمي، يغلب عليها الطابع الإيحائي «[5]، لذلك كان الوقوف عند الدلالات اللغوية، الاجتماعية والفنية ضرورة للاقتراب من التجربة الفنية والإمساك ببعض مفاصلها المعرفية[6].

I - في «الشمعة والدهاليز»:

يتكون عنوان«الشمعة والدهاليز» من دالين متضادين (ثنائية التضاد) ، فالجزء الأول من العنوان (الشمعة) يحمل دلالة النور، التوهج... أما الجزء الثاني (الدهاليز) فيحمل دلالة الظلام الدامس حتى أضحى رمزا له، وهنا تظهر بوضوح ثنائية (النور الظلام)، وهذه الثنائية نفسها تحيلنا إلى ثنائية أخرى هي (العلم والجهل)، ووظيفة (الشمعة) هي الإنارة· حتى الذوبان والفناء، فهي هنا تحمل دلالة المعلم الذي يسعى إلى تنوير الناس بنور العلم الذي تعلمه، حتى وإن كان الثمن على حسابه الخاص، عكس الدهاليز التي بفضل ظلامها الدامس تلغى وظيفة العين، فتستحيل الرؤية، وكلما توغلت فيها كي تخرج منها تزداد ضيقا ظلاما قاسيا حد التطرف، وهنا تظهر لنا ثنائية جديدة هي(المثقف والمتطرف)، وهذا عرض لهذه الثنائيات المترتبة عن بعضها بعضا ممثلة حوارية بين النص الموازي والنص السردي :

1– ثنائية النور والظلام: تتجلى هذه الثنائية في أكثر من موضع داخل الخطاب السردي، وقمت برصدها داخل متن الرواية على النحو الآتي:

الموضع في الرواية	ص	الدلالة
. «نار حاميك» (سورة القارعة) . «.... يكاد زيتها يضيء» (النور) «... . «يتفتح ليدب فيه النور والنبض»	12 14 15	. النار معادل للضوء الضياء . النور

.»ستوقد شمعة .... ليعم نورها العالمين»	31	الشمعة = النور
. صلاة الفجر	125	الفجر يأتي بتباشير صباح جديد منير، بعد طول ليل مظلم.
.»....هناك ومضات ضوء خافت، ترسله شمعة ما في منارة ما في دهليز ما».	116	الضوء + الدهاليز وهو معادل موضوعي للظلام
.» بنور الشمعة تستضيء الدهاليز»	146	الشمعة والدهاليز الضوء والظلام النور والديجور
. بين السواد والبياض، ... لمعان الأسود ... وبين إشعاع الأبيض.	146	الأبيض = النقاء· الوضوح، الأسود = مدنس· غامض

2- ثنائية العلم والجهل: يرى الطاهر وطار أن أعظم علم في الوجود هو الإسلام، فهو النور الوحيد القادر على القضاء على دهاليز الجهل المظلمة، التي انتشرت وطغت»الإسلام هو الشمعة الوحيدة القادرة على إنارة كل الدهاليز والسراديب»[7]. فهو بالنسبة له، الحل الوحيد للحالة المرعبة التي وصل إليها الشعب الجزائري خلال العشرية السوداء،»يكفي الشعب الجزائري الاحتماء بالإسلام»[8] ، حيث يرى أن سبب ذلك كله هو الجهل، جهل الجزائري بمبادئ دينه وتشاريعه، حيث يقول وطار «آه، لو أن الخطر يأتي من الخصوم وحدهم، جماعتنا بدورهم شتات، شعوب وقبائل، الجهل ،وضيق الأفق»[9]. فجهل الشعوب يسهل سرقة ثرواتها، واستغلالها بأبشع الصور»الانتهازيون يركبون موجة الدين، كل حزب يتأسس يحاول انتزاع البساط من تحت الآخرين، الأجهزة تنشئ أحزابها، وتستعمل إسلامها، المهمشون في الحياة يظنون أن حجة، وجبة ولحية، وإن شاء الله والسلام عليكم تصنع مسلما شريفا، وتخلق اعتبارا اجتماعيا».[10] لذلك «حرام أن تحرم من شمعة العلم»[11].

3- ثنائية المثقف والمتطرف (الآنا والآخر):

ويتمثل المثقف في الشاعر الواعي، المتعلم الذي يوجه جماعة دينية، متعصبة متطرفة، حكمت على الشاعر بالموت لأنه لم يتبعهم وخالفهم الرأي، وبذلك يكون قد أصبح عدوهم لأن قانونهم ينص على»من ليس معنا فهو ضدنا».[12] ورغم أن الشاعر حاول الدفاع عن نفسه، فدخل معهم في حوار، لكن الطرف الآخر لا يجيد الحوار، فوحده هو الذي يسأل ووحده هو الذي يجيب لأنه يرى أنه وحده على حق، والباقي على خطأ «من جملة السراديب الزعم بامتلاك الحقيقة من طرف واحد».[13]

II . في « الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»:

يعد عنوان«الولي الطاهر يعود على مقامه الزكي» عنوانا طويلا جدا، ولتفسيره وتأويله اقترح تقسيمه إلى: الولي الطاهر / يعود إلى / مقامه الزكي:

– الولي الطاهر:

أو الولي الصالح عند الصوفيين، الاسم نفسه مع تغيير بسيط في الصفة، وهذا التغيير لا ينفي تعريف هؤلاء للولي الذي هو من»كان على بينة من ربه في حاله،

فعرف مآله بإخبار الحق إياه، على الوجه الذي يقع به التصديق عنده، وبشارته حق، وقوله صدق، وحكمه فصل»[14] والولي الطاهر في الرواية هو الفاعل، وقد تعمد المؤلف ذكره في العنوان، وجعله هو المبتدأ لينبهنا إلى الوظيفة المحورية لهذا الولي، فهو: «المولد الفعلي لتشابكات النص، وأبعاده الفكرية والإيديولوجية»[15].

– يعود إلى:

يأخذ مفهوم العودة عدة دلالات بحسب السياق «للعودة دلالات متعددة لدى مجتمعات وديانات مختلفة، فهناك عودة «المهدي المنتظر»... وهناك في الأدب اليوناني «عودة أوديس»... أو قد تكون عودة دينية أشبه ما تكون بعودة أهل الكهف»[16]، كما أن فعل المضارع (يعود) يحمل دلالة الحاضر والمستقبل أي أنه يحمل دلالة الاستمرارية، والعودة أيضا هي عودة العاصي لربه بالتوبة وهي عودة ذاكرة الولي المفقودة.

– المقام الزكي:

يتكون هذا المؤشر من اسم وصفة، يدل على مكان غير اعتيادي، يحمل معنى ماديا ومعنى روحيا لأن «المجال الجغرافي ليس مادة فحسب إنما هو أيضا ماهية إيديولوجية»[17]، لذا يمكننا استقراءه من جانبين، جانب إيديولوجي و جانب فني تخييلي:

• **الجانب الإيديولوجي**: المقام عند المسلمين هو (المقام المحمود) الذي وعد الله به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أيضا مقام سيدنا إبراهيم بجانب الحرم المكي، وقد يكون بيت المقدس. ونجده عند الصوفيين: «مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله تباركت أسماؤه»[18]، وهو أيضا بمعنى المرتبة. فالمؤلف يريد العودة إلى المقام، لأنه يمثل جذوره البعيدة، كما أنه يرى في هذا المكان الخلاص، الخير، الأخلاق والطهر، وبالتالي « يعتبر تصور الفضاء على هذا الأساس نزعة عميقة ثابتة في الفكر الإنساني»[19].

• **الجانب التخييلي**: المقام الزكي «ينتمي إلى الخرافة، بل هو مركز يتوسط العديد من الخرافات»[20]، لذلك ينجذب نحوه الخيال بصورة آلية ويحاول استرجاع كل ما سمعه عن هذا المقام الزكي فيخلق له صورة واقعية، فهذا المكان قد يكون بيتنا، قد يكون وطننا المسقي بالدماء الزكية، وقد يكون ديننا .. باختصار قد يكون حياتنا «حياتنا مقام ... «[21]. للمكان وظيفة أساسية في التشكيل الدرامي للأحدث، حيث أن «الإشارة إلى المكان تدل على أنه جرى أو سيجري به شيء ما، فمجرد الإشارة إلى المكان كافية لكي تجعلنا ننتظر قيام حدث ما، وذلك لأنه ليس هناك مكان غير متورط في الأحداث»[22]، لذلك أرى أن المقام الزكي عامل (فاعل) أساسي في الرواية، فاختفاؤه يدخله عالم الغرائبي العجائبي وهو حدث لا يمكن إغفاله، وبعد مهمة بحث شاقة وطويلة يقوم بها الولي يتجلى له المكان (المقام)، وعلى أساس هذه الثنائية (الخفاء والتجلي) يكون المقام الزكي «هو المكان الرمز، الذي يحيل إلى إحالات واقعية ورمزية»[23] إذن فالعودة إلى المقام الزكي هي عودة دينية، تاريخية حياتية، اجتماعية، وهي عودة عجائبية سحرية.

III- في «الولي الطاهر يرفع يده بالدعاء»:

هذا العنوان«الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» يشبه كثيرا عنوان الرواية الثانية من الثلاثية، فالتركيب هو هو، فالجزء الأول من العنوان «الولي الطاهر» هو نفسه في عنوان الرواية الثانية وما تغير هو الجزء الثاني والثالث، فقد غير الفعل» يعود إلى «ب» يرفع يديه» و»مقامه الزكي» ب «بالدعاء» وقد سبق تفسير دلالات «الولي الطاهر»، أما تفسير(يرفع يديه بالدعاء)، فبعد

أن عاد الولي الطاهر إلى مقامه حيث لم يفلح السيف في تغيير الأوضاع وتحقيق الغاية المنشودة، استسلم إلى أضعف الإيمان(الدعاء)، إذ يقول المؤلف في الإهداء «من رأى منا منكرا فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أقوى الإيمان»[24]، ويقول أيضا في المقدمة المسومة بـ»تأشيرة عبور» أن الولي في هذه الرواية اكتفى بأضعف الإيمان، وهو المواجهة بقلبه، إذ دعا ربه أن يسلط على الأمة ما تخافه تخشاه.[25] ويقول الولي في الرواية «ارتأيت، أن الهروب بدين الله، عنصر مهم من المواجهة، نقيم في هذا الفيف، نتضرع للمولى عساه يفرج الكرب»[26]. فهو يرى أن الهروب والدعاء والتواكل على الله سلاح آخر للمواجهة، فبعد أن كان دعاؤه هو نجاته ونجاة شعبه انقلب هذا الدعاء رأسا على عقب وأصبح هذا الولي يدعو الله أن يسلط عليه وعلى شعبه ما يخاف «يا خافي الألطاف، سلط علينا ما نخاف».[27] وقد استجاب الله له، حيث أتته الملائكة تبشره باستجابة الله له، «ابشر أيها الولي الطاهر، ربك استجاب»[28] وأكثر ما يخافه العرب هو اختفاء الشمس والبترول، حسب الرواية.

ثانيا– الإهداء: الوجهة المقصودة

يعدّ الإهداء إحدى عتبات المناص «تحمل داخلها إشارة ذات دلالة توضيحية»[29]، وقد أسميته الوجهة المقصودة، لأن إهداء عمل معين لشخص بعينه له دلالة عميقة ومقصدية خفية، يقول الآن جراهم في هذا الشأن»فمن الواضح أن المسألة ليست من قبيل عدم الاكتراث فيما إذا كان النص مهدى إلى الملكة أو عامة الناس»[30].وقد جاءت إهداءات الطاهر وطار في ثلاثيته كالأتي:

I- في «الشمعة والدهاليز»:

«إلى روح الشاعر والباحث يوسف سبتي الذي كان يتنبأ بكل ما يجري قبل حدوثه»[31].

نجد في «الشمعة والدهاليز» نسقا دقيقا في التآلف بين المناص المتمثل في الإهداء والنص، يميل إلى افتراض المطابقة بين الشخصية المهدى إليها والشخصية – البطل، قبل أن نعرف أن البطل في الرواية هو الشاعر يوسف سبتي (1943-1993) ، فحس الشاعر المتنبيء الذي أملى نصا موازيا، يحمل إمكانات متعددة الدلالات الاجتماعية والأيديولوجية، توازيه إسقاطات في المنحى ذاته في النص، تجلي تطورات الحدث الآتية والمحتملة[32]، وهو ما يؤكده الطاهر وطار بالضبط في إحدى حواراته «ومن عجائب ما حدث وأنا أكتب رواية «الشمعة والدهاليز» أني كنت أتحاور مع الكاتب الجزائري يوسف سبتي عن بعض خيوط الرواية التي هو نفسه بطلها الرمزي وكان رفيقي اليومي والأمين العام لمؤسسة الجاحظية، واختلفت معه في نهاية البطل، كنت أفضل أن يموت مذبوحا، وكان هو يرى غير ذلك، وأنهيت كتابة الرواية وفقا لما رأيت، وبعد نهايتها هجم على الصديق يوسف سبتي القتلة ليلا في بيته، فذبحوه بين كتبه ومؤلفاته وأوراق مشاريعه»[33]، فهذا التصريح للمؤلف يمثل مناصا خارجيا يؤكد تآلف الإهداء مع النص،كما أنه يسهم في وضع النص ضمن المسار الذي يرسمه له المؤلف، فيوجه القارئ كاشفا له المسكوت عنه في النص .

II - في «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»:

«إلى عملاقي الفكر العربي المعاصر المرحوم الدكتور حسين عروة[34]، والدكتور محمود أمين العالم أطال الله في عمره، قد نتحايل على النهر، فنحصر ماءه، وإن في بركة نستحم فيه مرتين، ولكن لن نستطيع الاستضاءة بنور الشمعة الواحدة مرتين»[35].

يُهدي وطار عمله هذا«الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» إلى شخص ميت وآخر لا يزال على قيد الحياة، إلى حسين مروة (1910-1987)هو مفكر لبناني قتل في الحرب الأهلية، والثاني الذي كان ما يزال على قيد الحياة، وقتها، وهو محمود أمين العالم(1922-2009) مفكر مصري، وكلاهما رمز من رموز الفكر العربي الحديث.لكن لماذا اختار وطار الربط بين الميت والحي معا؟ ربما يريد أن يوضع أن نور المثقف لا ينطفئ بموته، فقد تفنى الشمعة ولا نستطيع إعادة إشعال الشمعة نفسها، لكننا نستطيع إشعال شمعة أخرى تحمل مهمة الإنارة. فمن حسين مروة إلى محمود أمين العالم الذي يحمل راية الثقافة والفكر في الوطن العربي، تستمر رسالة التنوير، ففي الرواية نجد أن عودة النور مرتبطة بعودة الولي الطاهر إلى فكره النوراني وليس التطرف الظلامي. واللافت في الإهداء هو عبارة « قد نتحايل على النهر فنحصر ماءه، وإن كان في بركة ونستحم فيه مرتين»، لماذا النهر على وجه الخصوص؟ هناك أربعة احتمالات:

•**الأول**: استنادا إلى الجنس الذي ينتمي إليه هذا العمل الإبداعي الذي هو واحد من ثلاثية المؤلف، فالثلاثية أو «رواية الأجيال التي ازدهرت في الربع الثاني من القرن العشرين الميلادي، تعود أصولها الزمنية إلى رواية القرن التاسع عشر، وكان الفرنسي رومان رولان (Romain Rolland) أول من كتبها وأطلق عليها مصطلح الرواية النهرية (Roman fleuve) وهو يعني النهر الكبير الذي له عدة فروع»[36].

•**الثاني**: قد يكون عبارة عن تناص مع المثل اليوناني الذي يقول «لا يمكن أن نستحم بماء النهر الواحد مرتين»[37]، وبالتالي فوطار في هذا التناص يعارض هذا المثل اليوناني، مبرزا ثقافته العالمية.

• **الثالث:** قد يكون تناصا أيضا مع عنوان رواية «النهر المحول» للأديب الجزائري رشيد ميموني.

• **الرابع**: أن للنهر ميزة تشبه كثيرا ميزة المثقف الذي لا ينطفئ نوره بموته، ولا تمحو كلماته لأنه منحها الحياة من روحه، «فالأجيال البشرية تشبه روافد النهر، يجف بعضها وترفده أخرى بالمياه، ويستمر النهر في التدفق، حاملا تجارب البشر»[38]، وتستمر الحياة، وهو الاحتمال الأرجح، خاصة لأنه اقترن مع رموز الفكر العربي في الإهداء .

III- في «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء»:

«إلى الشاعر الكبير سميح القاسم، من رأى منا منكرا فليغيره، بيده، وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلمه، وهذا أقوى الإيمان».[39]

انطلاقا من الروح الوطنية والقومية التي كانت الداعي الأساسي عنده للكتابة، كتب الطاهر وطار هذه الرواية «لم أكن إطلاقا، أنوي كتابة رواية هذا العام... لكن ضغط الظروف العالمية، والوضعية في العراق والعالم العربي والإسلامي فرض علي رواية»[40]، وتجلى هذا أيضا في إهدائه هذه الرواية إلى الشاعر الفلسطيني «سميح القاسم» مخاطبا إياه» من رأى منا منكرا فليغيره، بيده وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطيع فبقلبه وهذا أقوى الإيمان»[41] ، فقوة الإيمان تكمن في إيمانه بما يكتب لأنه يكتب وقائع يعيشها ويتفاعل معها، فيتأثر ويؤثر، يكتب عن قضايا إنسانية حقيقية، تسعى إلى الكرامة والحرية.. وتدافع باختصار عن وجودها، فالشاعر سميح القاسم يعتبر من أهم وأشهر الشعراء العرب والفلسطينيين المعاصرين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة ، كما أنه مؤسس صحيفة (كل العرب) ورئيسها الفخري، «فإحساسه بالمسؤولية دفعه إلى تسخير قلمه لخدمة القضية الوطنية والعربية، حتى أصبح الأمر بالنسبة له على رأي مالك حداد «((محبرتك هي المنبع، هي الإنسان) فإيمانه بما

يكتبه يكتسب قيمته من شواغل الحاضر الذي لا ينبغي أن يحجب شمس المستقبل»[42]، فالكاتب يدرك جيدا قوة الكلمة واستمراريتها، لأن الكلمة لا تموت بموت صاحبها، وبالتالي يستمر جهاده حتى بعد موته ، وتستمر الكلمة معلنة ثورته ،حاملة رسالته، مدافعة عن حقوقه، مقرة بوجوده .

ثالثا–التقديم: نية المؤلف

يُعتبر التقديمُ إحدى عتبات النص التي تشد انتباه القارئ، إنها قراءة يمارسها المؤلف على نصه ليوجه القارئ إلى استراتيجيات الاستقبال لديه، ويحدد مسارات تلقيه»[43]، وهو الخطاب الذي يبرز فيه المؤلف نيته التي هي «جانب أساسي في نظرية التناص»[44].

يقدم الطاهر وطار في ثلاثيته بـ» تقديم» ، كلمة لابد منها» «تأشيرة عبور» في صورة نص مواز للنص الروائي، ويمكن لهذه الثلاثية أن تندرج ضمن ما يعرف بـ»التجريب داخل الكتابة الروائية الحديثة وذلك من خلال لجوء الروائي – على غير عادته– إلى استعمال تلك المقدمة الاستهلالية في الرواية، فكأنما أراد بذلك توجيه القارئ، ووضعه ضمن السياق المراد».[45]

فالخوف من أن يبتعد المتلقى عن المقصود، أصبح هاجس المؤلف لذلك لجأ للتقديم لعمله الأدبي وهو ما يوضحه بقوله» هذا الهاجس يحتم علي أن التجئ إلى عمل، لا صلة له أصلا بالعمل الفني ولا بالعملية الإبداعية إنه المقدمة وما يشبهها، إنارة للقارئ، وللناقد والباحث»[46] ، وهو ما تفرضه الرواية التجريبية على كاتبها، من أن يوضح فنه، رؤيته ومرجعيته:

1- سلطة الواقع (التاريخ)

ظهرت الرواية الواقعية في القرن التاسع عشر، وهي رواية تقوم على نقل الأحداث بصدق وكيفية خاصة عبر قالب لغوي مميز، فهي» «كأي ظاهرة اجتماعية أو أدبية لم تنبع من فراغ» فهناك ظروف اقتصادية، ثقافية وتاريخية تعاقدت فيما بينها لتفرز لنا أسلوب منهج الواقعية الاشتراكية»[47] .

ويعد الطاهر وطار «من رواد الرواية الواقعية، بامتياز، فقد عايش الثورة وكتب عنها وعايش فترة الاستقلال، والبناء وكتب عن ذلك، وعايش العشرية السوداء وكتب عن ذلك، يقول وطار عن ذلك «أنا.. ابن المجتمع الجزائري، ابن ريفه وبداوته ومساجده وعمقه وثورته، وأعرف كل حركاته وسكانه وأتنبأ بها قبل حدوثها، لأني أفهم ما يختلج في داخله»[48]، وهذا ما يميز روايات وطار، فهو يحلل وينقد واقع هذا المجتمع في قالب فني، «فالاقتراب من الشعب والتعبير عن مطامحه وتطلعاته وقيمته الأصلية هي التي تعطى للرواية خصوصيتها ومضمونها الحيوي، لأنها المقياس الأول لفنية الرواية...».[49]

وقد التزم وطار»بهذا الاتجاه إلى غاية فترة الثمانينات ليترافق والتيار التجريبي»[50]، هذا الأخير الذي من سماته أن يقوم المؤلف على غير العادة بالتقديم لعمله الإبداعي» وفي هذا التقديم يصرح الروائي الطاهر وطار»وقائع الشمعة والدهاليز الروائية، تجري قبل انتخابات 92 التي خلّفت ظروفا أخرى لا تعني الرواية في هدفها الذي هو التعرف على أسباب اللازمة وليس على وقائعها، إن كنت وظفت بعضها.. لأنني جزء لا يتجزأ من هذا التاريخ. أؤثر فيه وأتأثر به»[51] ، مضيفا «فالكاتب، أي كاتب هو ظاهرة تاريخية قبل أي شيئ آخر .. فهذه الرواية، رغم مافيها من تجريد ومن سيرالية، هي عمل واقعي يتناول حركة النهضة الإسلامية بكل تجاويفها وبكل اتجاهاتها، وأساليبها أيضا(...) وأنا فخور بأنني كاتب سياسي شبه متخصص في حركة التحرير العربية عامة والجزائرية خاصة».[52] ويكشف أيضا وإذا كانت الظاهرة الإسلامية، هزت العالم، فلم لا تحير العبد الفقير الطاهر وطار؟(...) لم أكن أنوي كتابة رواية

هذا العام·· لكن ضغط الظروف العالمية، والوضعية في العراق والعالم العربي والإسلامي فرض عليّ رواية».[53]

ويعدّ الطاهر وطار من بين بعض الروائيين القلائل الذين اختاروا التأصيل عن طريق التفاعل مع الواقع العربي، عن طريق محاكاة التراث العربي، فالروائي يوظف التاريخ لكتابه الواقع، معلنا كتابة نص متميز وإنتاج عالم روائي له كيانه واستقلاليته· وهدفه من وراء ذلك إعادة قراءة التاريخ، لنستطيع قراءة الواقع» أبذل كل عمري محاولا فهمه«[54]، حيث يرى «إن الفنان فيّ يقرأ التاريخ ومضة»[55] هذه الومضة تسعى، حسب شكري عياد، لكشف حقيقة ما.[56]

2- رؤية نقدية (وجهة نظر):

يرى الطاهر وطار أن النص الروائي··· لا يقبل التجزئة المعمول بها في بعض النظريات الحديثة في النقد الأدبي، كإلغاء المؤلف أو موته، كما يروج له رولان بارت»، فمصطلح موت المؤلفMort» «du sujet مقولة انقلابية مركبة قال بها بارت[57] عام 1968، فأحدث انقلابا على سطلة النص من جهة وسلطة المؤلف من جهة أخرى، وفتح الباب على مصراعيه للتناص والتفكيكية والتأويلية»[58]، وهو ماحز في نفس مؤلفنا يقول:»وبجرة قلم يلغي الناقد العمل أو الكاتب نفسه، وكأنما هو دركي يقف في منعرج طريق، مهمته الوحيدة تسجيل مخالفة ما ·· من منطق واحد هو قانون الطرقات»[59]، فاستهلاله بكلمة (وبجرة قلم ···) يدل على حزن عميق وحسرة كبيرة في نفسية المؤلف، حيث يتساءل» كيف لناقد يلغي المؤلف باسم نظرية نقدية وردت حديثا، ولم يهضمها بعد. لأن العمل الإبداعي بالنسبة للمبدع ينزل منزلة الابن، الذي يحب الأب أن يكون أنجح منه وأحسن أحوالا، لذلك نجد الطاهر وطار يصف هذا الناقد بالدركي الذي لا يهمه سوى تسجيل المخالفات، هذا التشبيه الذي يعتبر خفيفا نوعا ما مقارنة بالوصف الثاني عندما يقول«يحلو لهذا الإرهابي أن يستل خنجره فيغتال هذه القيمة معلنا للعالم، منتشيا، أنه أجهز على هذا الكاتب بعد ترصد أو بالصدفة وأنه حسنا فعل، كما لو أن الهدف كله من عملية النقد هذه هو إثبات وجود الأقدم وليس ممارسة مهمة إبداعية أثارها العمل المنقود، وذلك كله في إطار ممارسة مهمة إبداعية أثارها العمل المنقود، وذلك كله في إطار مسار إبداع أمة برمتها، أي فرق بين إلغاء بالذبح على حافة النيل لأديب عالمي، وبين إلغائه بالكلام السهل في صحيفة أو مجلة؟»[60]، فوطار هنا يوجه نقدا لاذعا لأصحاب مقولة موت المؤلف،التي لايهمها المؤلف ولا تعطي لرأيه أي أهمية، فكل ما يهمها هو النص مجردا من صاحبه وبيئته ، والظروف التي أنتجته ، وهو ما يرى فيه وطار إجحافا وجحودا.

لقد سبقت الإشارة إلى أن نظرية التناص قد أعادت الاعتبار للمؤلف من خلال اهتمامها بالمناص وبنيته على وجه التحديد، رغم أن التناص من النظريات ما بعد البنوية التي تنادي بموت المؤلف، إلا أن جينت أكد على أهمية نية المؤلف في عملية القراءة·[61] وهنا تقع المفارقة، فما المقصود بموت المؤلف؟ · «هو لا يعني ظاهر معناه اللغوي، ولا يعني إلغاء المؤلف وحذفه من ذاكرة الثقافة، وإنما يراد منه تحرير النص من سلطة المؤلف الذي هيمن عليه هيمنة تامة في عصور الشفاهة·· لذلك فإن ما يراد من هذا المصطلح هو إبعاد القارئ عن المناهج السياقية في تأويل النص المفتوح.. فالحياة الشخصية لا تفيد دائما في فهم النص[62].

3- ظهور النص المرجعي:

استحضر الطاهر وطار قصة أهل الكهف في« الشمعة والدهاليز »، إذ يقول في المقدمة «إنه زمن أهل الكهف زمن التذكر، والتنقل من هذه اللحظة إلى تلكم، ومن هذه الواقعة إلى تلك، ولقد تعمدت

حينا واضطررت حينا آخر إلى طي الزمن وجعله وقتا حليما، يقع في مناطق مظلمة ومناطق مضاءة»[63]، إذن هو تناص تآلفي مع النص المرجعي، حيث أن الفتية بالكهف لما استفاقوا من نومهم، لم يدركوا الوقت الذي استغرقوه في النوم، ولا الزمن الذي استيقظوا فيه، لأن أوراقهم النقدية أصبحت دون قيمة في السوق، فقد تغير كل شيء.

كما يستحضر الكاتبُ في الرواية نفسها قصة عصيان إبليس لله عز وجل، ويعطيها معنى مغايرا تماما للمعنى المتفق عليه في القرآن الكريم، وكذا كتب التفاسير، حيث يعتبر امتناع سجود إبليس لآدم، عصيانا صارخا لله الذي أمره بذلك، كما يعد تكبره على آدم خروجا على إرادة الله، إلا أن الطاهر وطار يفسر القصة تفسيرا آخر، وهو أن إبليس رفض أن يسجد لغير الله، ورفضه ليس عصيانا بقدر ماهو رفض للشرك بالله وتعدد الآلهة، وهو ما يعد تفسيرا مستفزا للمتلقي المسلم، دافعا إياه للتفكير وإعادة قراءة تراثه ،لمواجهة مثل هذه الطروحات والتفسيرات بالفهم الصحيح للتراث، لإيجاد الحجة المنطقية المقنعة، والدليل القاطع، والابتعاد عن الكلام الفضفاض العام الخالي من المنطق، أو الكلام من أجل الكلام، كما يدفعه إلى التشكيك في كل شئ، كبداية لطرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة.

الهوامش

1- تتكون ثلاثية هذه الثلاثية من الروايات:أ- الشمعة والدهاليز، ب- الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ج- الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء.

2 - محمد عزام : النص الغائب. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق.ط1 . ص26

3- سليمة عذراوي : شعرية التناص في الرواية العربية . رؤية للنشر والتوزيع.القاهرة .ط1. 2012. ص110

4- محمد فكري الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي . الهيئة المصرية العامة للكتاب.القاهرة.ط1. 1998. ص138

5- جميل حمداوي : السيسيولوجيا والعنونة . مجلة عالم الفكر. مجلة فكرية محمكة.المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. م25.ع3. 1998. ص106

6- محمد فكري الجزار :العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي . الهيئة المصرية العامة للكتاب.القاهرة.ط1. 1998. ص138

7- الطاهر وطار : الشمعة والدهاليز . موفم. الجزائر. ط1 .2004. ص14

8- نفسه: ص22

9- نفسه: ص94

10- نفسه: ص181

11- نفسه: ص52

12- نفسه: ص90

3- نفسه: ص28

4- رقية لحباري: التناص عند وطار. أطروحه دكتوراه.2009/2008 قسم اللغة العربية وآدابها.جامعة الحاج لخضر/باتنة. ص30

5- جميل حمداوي : السيسيولوجيا والعنونة . مجلة عالم الفكر. مجلة فكرية محمكة.المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.م25.ع3.1998. ص106

6- نعيمة فرطاس : سيميائية العنوان عند الطاهر وطار/رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي أنموذجا .مجلة التبيين. ثقافية محكمة منوعة. الجاحظية. الجزائر. ع2010/35. ص54

17- Collectif: Espaces vécus et civilisations /memoires et documents de geographie .Ed CNRS. Paris.1982.p67.

18- زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق . المكتبة العصرية.بيروت.ط1. 1969. ج2. ص117

19- Collectif: Espaces vécus et civilisations .p93.

20- La poétique de l'espace .PUF. Gaston Bachelard : Paris.1984.p46

21- الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي . موفم. الجزائر.ط1 .2004. ص90

22- حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي . المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء/المغرب.ط2. 2009. ص30

23- الواقع والدلالة في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي. جريدة **اليوم**. يومية وطنية. الجزائر. عدد 6جوان 2000. ص21

24- الطاهر وطار : الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي .ص5

25- نفسه: ص7

26- نفسه: ص21

27- نفسه: ص25

28- نفسه: ص25

29- حسين محمد حماد : تداخل النصوص في الرواية العربية/دراسات أدبية . الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ط1. 1998.ص64

30- جراهام ألان: نظرية التناص. تر: باسل المسالمة. دار التكوين. دمشق.ط1. 2011. ص142

31- الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز. ص5

32- رقية لحباري : التناص عند وطار. أطروحه دكتوراه. قسم اللغة العربية وآدابها.جامعة الحاج لخضر/باتنة. 2009/2008.. ص34

33 علي ملاحي : هكذا تكلم الطاهر وطار . كنوز الحكمة. الجزائر.ط1. 2011. ص98

34- هناك خطأ في كتابة اسم المفكر في الرواية حيث كتب حسين عروة والمقصود حسين مروة (1910 _1987): المفكر اللبناني الذي يعتبر من أهم المفكرين العرب ، من بين مؤلفاته كتابه المثير للجدل «تراثنا كيف نعرفه» وفيه تخطي الطريقة السلفية في معرفة التراث بإعتباره قضية الماضي لذاته،بل معرفة بل بإسقاطه على الحاضر وإعادة

إنتاجه ،ليقدم سبل معرفة له ،تنظر إليه في تاريخيته وتصور الحاضر كحركة صيرورة تتفاعل من داخلها منجزات هذا الماضي .

35- الطاهر وطار : الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي . ص5

36- عمر عاشور: بناء الثلاثية في الرواية الجزائرية . رسالة دكتوراه. قسم اللغة العربية وآدابها.جامعة الجزائر2. 2014/2013. ص17

37- نعيمة سعدية : فضاء المناصة في رواية»الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»/عتبات النص بين القراءة والتأويل . مجلة **التبيين**. ثقافية محكمة منوعة. الجاحظية. الجزائر. ع2008/31. ص122

38- زهير محمود عبيدات : رواية الأجيال في السرد العربي الحديث . أزمنة. الأردن.ط1. 2010. ص224

39- الطاهر وطار: الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء . موفم. الجزائر.ط1 .2004. ص5

40- نفسه: ص8

41- نفسه: ص58

42- فاطمة قسول: وطار من واقعية الكتابة إلى تجريب روائي جديد.مجلة التبيين. ثقافية محكمة منوعة. الجاحظية. الجزائر.ع2010/35. ص111

43. حسين محمد حماد: تداخل النصوص في الرواية العربية/دراسات أدبية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ط1. 1998. ص150

44 . جراهام ألان: نظرية التناص . ص146

45- شادية بن يحي : الرؤيا التاريخية الإسلامية عند الطاهر وطار/الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي . الموقع الالكتروني»ديوان العرب/www.diwanalarab.com) بتاريخ:7 أغسطس9 200.

46. الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي .ص7

47-واسيني الأعرج :الطاهر وطار/تجربة الكتابة الروائية . المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر.ط1 .2011.ص9.

48-على ملاحي : هكذا تكلم الطاهر وطار.ص101

49- لينة عوض : تجربة الطاهر وطار الروائية في الإيديولوجيا وجمالية الرواية .جمعية عمال المطابع التعاونية. عمان.ط1 .2004.ص26

50 - نفسه: ص32

51- الطاهر وطار : الشمعة والدهاليز .ص8

52- الطاهر وطار : الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي .ص9

53 -الطاهر وطار: الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء. ص8

54-الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز. ص8

55-الطاهر وطار : الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء . ص10

56- شكري عياد :المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين . عالم المعرفة. سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب. الكويت.1993. ص120

57- جمال غلاب : مقاربات في جماليات النص الجزائري . منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين.الجزائر.ط1.2002.ص14

58- خليل الموسى : جماليات الشعرية. منشورات اتحاد الكتاب العرب.دمشق.ط1. 2008. ص299

59 -الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي . ص7

60- الطاهر وطار: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي.ص9

61- جراهام ألان: نظرية التناص .ص147/146

62- خليل الموسى: جماليات الشعرية .ص300

63- الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز. ص8

قراءة جديدة في مطريَّة السيَّاب

أحمد محمد مشرف الحراحشة
أستاذ مشارك
جامعة آل البيت / الأردن

الملخص:

تَعِدُ هذه القراءة بدراسة المطر في قصيدة "أنشودة المطر" للسيَّاب دراسة تحليليَّة تأويلية ، وإن كانت تتكئ في بعض جوانبها على بعض تفريعات المنهج التاريخي، هادفة إلى مقاربة الحقيقة النصيَّة، وربطها ببيئة العراق الجنوبية ، وبذلك فقد توصلتْ إلى حقائق كبرى لم تفز بها أي من الدراسات السابقة .

الكلمات المفتاحية : المطر؛ الثورة؛ العراق؛ البصرة؛ الكوفة؛ الطوفان.

Abstract

This study aims at investigating " rain" in the ballad of "rain" *anshudat al-matter* by Bader Shaker Assayyab analytically and ecologically on the basis of the integrative and comprehensive approach benefiting from the interpretative approach. The study also purports at approximating reality as intended by the poet. The study concludes with unprecedented results and implications.

Keywords: rain, revolution, Iraq, Basra, Kufa, flood.

تمهيد :

إنَّ لكل بيئة مفاهيمها الخاصة التي تحدد تشابك عناصرها فيما بينها، وكلُّ بيئة تخلو إلى مصطلحاتها وتراكيبها ولهجاتها بمعزل عن الأخرى، والبيئة هي الكون الموجود حول الشاعر بكل ما فيه ومن فيه من كائنات وجماد [1]، وتتمثل الثقافة فيها بالحوار بين إنسانها وغيره من العناصر، والشاعر يستطيع التقاط إحدى دِلالات كلمة ما في طور من أطوار بيئته أو بعض إيحاءاتها ، ويوظفها في سياقاته المختلفة بطريقة لا تحسب على التَّناص، مستحضراً دلالة غائبة تعمل على إلغاء دلالة حاضرة مستعملة ومتداولة، فالشاعر يهيم في أودية البيئة وصورها الذهنيَّة واستشعارها، ولا يريد من الألفاظ التي يستخدمها ظواهر ما وضعت لها في اللغة في أصل وضعها، أو تعارف عليها الناس في بيئتها الأولى، ولكنه يشير بمعانيها إلى معان أُخر[2].

هذا القول يوجب على من يتعاور تفسير النُّصوص الأدبيَّة أن يطلق العنان للبحث عن المعاني المتخفيَّة تحت الألفاظ، وتجاوز المعاني السائحة على السطح، في حال لم يستقم وجه المعنى، و لم يناسب الظاهر أحوال المقام. وأحوال المقام هنا مجموعة المعطيات الخارجيَّة البيئية الخاصة بثقافة مجتمع القصيدة، وَحَدَثها الذي دفع الشاعر للقول، والمعطيات النَّصيَّة الداخليَّة المتعلقة باللغة والقرائن المتوافرة التي تمنع ورود المعنى الظاهر، وتلحُّ على القارئ النبيه للبحث عن معنى آخر يستقيم معه وجه المعنى ويتفق مع أحوال القصيدة .

مسوغات الدراسة :

تتعدد القراءات وتتقاطع دون أن تلغي الواحدة منها الأخرى، ولكلِّ زمان ومكان، قراءة خاصة به تحمل نكهة بيئته، وتعلن عن قدرات ناقديه ، ولون استجابة قارئيه ، وأية قراءة جديدة لا تعقب مضرَّة ، ستكون ذات جدوى في استكناه زوايا النص ، وتسليط الضوء على الخبايا المتوارية تحت الألفاظ .

المطر في الشعر الحديث:

لم يقتصر توظيف الشاعر الحديث للمطر على دلالتي المطر المعروفتين؛ الغيث والعذاب، وإنما كان أغلب توظيفه للمطر ليكون سبباً في محق الأوضاع الاجتماعية والقهر السياسي أي بمعنى الثورة[3] وإنَّ كان يقترب من دلالة الألم والعذاب والتي لم تغب عن عقلية الشاعر القديم الذي تجاوز هو أيضاً دلالة المطر المعروفة التي تحمل معاني الخصب والإمراع وسقيا القبور[4] إلى معاني الانتقام والدمار والخراب كما في لوحة المطر عند امرئ القيس في المعلَّقة .

إنَّ مصطلح المطر بدا أكثر اتساعاً مما كان عليه عند القدامى، وأعظم أهميَّة في الشعر الحديث، حيث رُفع لمعالجة هموم المواطن العربي المعاصر، وسعيه للتحرر من نير الاستعمار وقهره، وممن قام بدور المستعمر من الحكام الذين صادروا الحريات، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وأذلوا الشعوب وقيدوها بدساتير تكفل بقاءهم واستمرارهم في الحكم.

إنَّ تجربة الشعر الحديث مع المطر تجربة أصيلة، أغنت معجم المعاني الشعريَّة بدلالات جديدة للمطر تمحورت حول الرمزية الثوريَّة والنضاليَّة ضد الظلم والقهر والتقييد ، ومن حيث وظيفة الأدب والشعر الأساسية التي تكمن في رتق فتق الأمة ، ودعم مسارها التقدمي، وتعزيز منجزها الحضاري، فكان المطر من المفردات المتشابهة بين كثير من الشعراء ، وكلها تجسد هذا الواقع المتفجر ، وهي لا تخرج عن هذه الكُنى : الثورة و الانعتاق والتجديد والتغيير والتحرر والتفجر والتحول التاريخي ورصاصة الخلاص وتفجير الواقع [5] .

فإذا كانت معاناة العربي قديماً تتمثل في التصحر وانحباس المطر وطلب السقيا للخصب والإمراع؛ لتوفير

أسباب العيش لهم ولأنعامهم، إذ ليس لهم من سبيل للعيش والوجود غيره، فطلب شعراؤهم السقيا والغيث لحاجتهم إليه كحل لمعظم مشكلاتهم، فإنَّ معاناة العربي اليوم لا تكمن في هذا الأمر في ضوء الثروات الهائلة في البلاد العربية التي ربما تغني البلاد العربية عن مصادر الرزق الأخرى ، المتمثلة بالزراعة والرعي لعدم توفر أسبابه أولاً سوى في بعض البلاد العربية التي لديها كفاية من المياه السطحية كالعراق ومصر مما أدى إلى إهمال هذا الجانب على الرغم من أهميته، وأصبح ذات جدوى غير اقتصادية، وثانياً لتوفر الاحتياجات الزراعية في الأسواق بأسعار رخيصة ، في مقابل السلع العربية الأخرى : كالنفط والمعادن والتجارة بهما.

وفي ظل الأوضاع السياسية الحديثة؛ لم يجرؤ الشاعر الحديث بالدعوة إلى الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية جهاراً ، فتدثر بالرمز خوفاً من السجن والأذى والعذاب والنفي والحرمان، كما كان من أحوال بدر شاكر السيَّاب، الذي وجد في الثورة حلاً منشوداً لمشكلات الشعب العراقي ، وهمومه وتطلعه إلى الخلاص والتحرر، مكنيَّاً عنها بالمطر ومتخذاً منه قناعاً للنجاة من مطاردة السلطة وبطشها[6].

ثانياً: المطر عند السيَّاب:

لقد لعبت بيئة العراق الجنوبية دوراً كبيرا في تشكيل مخيلة بدر الثقافيَّة والفنيَّة في لحظات

تكوينه النفسي والعقلي، وكان صوت بيئة الجنوب يصلُّ في وجدانه وعقله، أينما كان؛ بعيداً أو قريباً منها، ووظفها توظيفاً رائعاً عن مصالح سياسية واقتصاديَّة ؟! فيقول في قصيدة «مرحى غيلان» معرفاً علاقته مع أحد مفاهيم البيئة الطبيعية ، وهو نهر بويب ومعترفاً بدوره في بعث الحياة في نخيل العراق وأهله :

أنا في بويب أرقدُ في فراشٍ من رِماله
من طينه المعطور، والدم في عروقي من زُلاله
ينثالُ كي يهبَ الحياةَ لكلِّ أعراق النخيل
والماءُ يهمسُ بالخرير، يصلُّ حولي بالمحار
وأنا بويب، أذوبُ في فرحي وأرقدُ في قراري[7]

وهناك في العراق عشرات الأنهر كبويب، تهب أرض العراق قفيزاً وحنطة وسلالاً من الأسماك . إذن فما حاجة السيَّاب العراقي للإلحاح على المطر في قصيدته التي سمَّاها «أنشودة المطر»؟

وما دِلالات المطر عنده في المقطع المتكرر في قصيدته؟ وكأنَّه لازمة لا يمكن تجاوزها دون أن تختل بنية القصيدة ، ومعمارها الهندسي ، وهل هو قفل نفسي وموسيقي ينهي به مقاطع القصيدة؟ أم كان هو غير ذلك !

وقبل أنْ نقرِّر دِلالة من دلالات القصيدة، علينا أنْ نتوقف لفحصها في ضوء المعطيات الخارجية للنَّص، والداخليَّة أيضاً، وفي ضوء أحوال الشاعر وظروفه ومعتقده ومذهبه واتجاهاته، فضلاً عن ثقافة المجتمع ورؤى عصره.

من المعروف للقاصي والداني أنَّ بدراً كان معارضاً سياسياً لنظام بلاده، وقد تعرَّض للمطاردة والمحاكمة والتنكر والفصل من العمل والسجن والاغتراب في سبيل عقيدة آمن بها مدة ثماني سنوات أو تسع[8].

و عندما يأس بدر من الإصلاح، وأيقن أنَّ الأمر صعب، تمنى غزواً عسكرياً أجنبياً يُحشد بسرعة من بعيد، يأتون عبر البحار، وأن يستبيح الغزاة كلَّ شيء في العراق حتى ابنة الحاكم «بنت بائعة الرقاق» أي المطعم الناس الخبز، والمطعم هو الحاكم ، ولن يصل أي غازٍ إلى الحاكم حتى يدمر كلَّ شيء أمامه؛ لأنَّ الحكام لديهم خطوط دفاع كثيرة، وقد تلفَّع بدر بالرمز تنكراً

و خوفاً من بطش السلطة لإنقاذ حياته، و تحققت أمنيته هذه بعد خمسين عاماً.

يقول في قصيدة «المومس العمياء» :

والله . عزَّ وجلَّ . شاء
أن تقذفَ المُدنُ البعيدةُ والبحارُ إلى العراق
آلاف آلاف الجنود ليستبيحوا، في زقاق
دون الأزقَّة أجمعين
ودون آلاف الصبايا، بنت بائعة الرِّقاق[9]

فلمن يطلب الغيث بدر في قصيدته أنشودة المطر؟ ألتخصب البلاد ، ويزداد الأغنياء

ثراء، والفقراء جوعاً وفقراً وذلاً ! مشيراً إلى أنَّ المطر البيئي الطبيعي ليس هو المقصود ولا يمثل الحل المنشود للأوضاع المتردية في العراق وهو يقول:

ومنذ أن كُنَّا صغاراً، كانت السماءُ
تَغيمُ في الشتاء
وَيَهْطلُ المطرْ
وكلُّ عامٍ حين يعشُب الثرى نجوع
ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليس فيه جوع[10]

لقد ساهمت البيئة العراقية في تشكيل مخيلة بدر الفنية بعد أن اكتملت إدراكاته عن هذه البيئة المحلية الخاصة بالجنوب، وغدت من أهم ذخائره الثقافية ، ونستطيع القول إنَّ كلّ شعر السيَّاب ينضوي تحت سيطرة الطبيعة وتجلياتها، وتسربت مفاهيمها ومسميات مشخصاتها إلى فنه الشعري، فقد استطاعت البيئة العراقية أن تفرض نفسها على أساليب الشعراء العراقيين جميعهم وعلى أدواتهم الفنية ولغتهم الشعرية .

في أرض العراق الخصيبة ، تشبع الغربان في موسم الحصاد، بينما يجوع البشر الدائرون حول الرحى التي تطحن أجسادهم الهزيلة وأرواحهم الذليلة ، فلم يجد السيَّاب بداً من توظيف أحوال البيئة الزراعية وأدواتها للتعبير عن أحوال القهر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ؛ لتسليط الضوء الأخضر على أزمته الشخصية وأزمة الناس من حوله :

وفي العراق جوع
ونثرَ الغلالَ فيه موسمُ الحصاد
لتشبعَ الغربانُ والجراد
وتطحن الشوانَ والحجر
رحى تدور في الحقول ... حولها بشر[11]

ومن قصيدة «أنشودة المطر» التي يرواح فيها الشاعر بين المطر الثورة، والمطر الغيث، فيأتي أحياناً بالمطر الغيث الذي عشب به ثرى العراق وتنثر الغلال فيه مواسم الحصاد دون أن ياتي بقرينة فارقة بين المعنيين إلا ما كان من معرفة القارئ للمعطيات الخارجية للنَّص كقرائن سياقية ، وهي الأحوال السياسية في العراق :

ومنذُ أنْ كُنَّا صِغاراً، كانتِ السَّماءُ
تَغيمُ في الشتاء
ويهطلُ المطر[12]

وسنقتصر على قصيدة «أنشودة المطر» في البحث عن الدلالة المقصودة ، قصيدة الأمطار تتساقط فيكون منها المطر الموت والمطر الحياة [13].

ابتدأت القصيدة بمقطع من أجمل مقاطع افتتاحيات قصائد الشعر الحديث على الإطلاق، وجاء به على سنة الأولين، متخذاً من أثر العيون في النفوس محركاً للإقبال والإصغاء، والعيون تهش القلوب والأفئدة للهوى والصَّبابة والطرب والانجذاب، فتروِّض القلب القاسي العنيد، وترقق الأخلاق الصعبة.

و سيشعر القارئ بعد قليل بخسارة هذا الإحساس،عندما نتعرف إلى كاف الخطاب تلك، وما هما هاتان العينان؟ ولمن تعودان؟ وهل هما عينيا محبوبة آدمية؟ أم غابتا نخيل مدلهمة ساعة السحر!!

فما أن تتجلى النفس وتهش نشوى ببداية المقطع

حتى تصل إلى كلمة «السحر»، عندها يقف الخيال حائراً في إيضاح الصورة، وإيجاد علاقة بين العين وغابة مدلهمَّة عند السحر؛ فالعين حوراء (سواد وبياض)، وإطلالة، وإبصار، وإضاءة، وإحساس غامر، يبعث لحظها في النفس القانطة رسيس الهوى ونشوة المتعة.

أما الغابة وقت السحر فعلى العكس من ذلك كلِّه: مظلمة، بؤرة خوف وسقوط، مخيفة، جامدة الأحاسيس، معدومة الإضاءة ضيقة مجال الإبصار، تبعث على الكآبة والضيق، فلذلك يقول بدر في قصيدة «غريب على الخليج».

هي النخيلُ أخافُ منه إذا أدلهمَّ مع الغروب
فاكتظَ بالأشباحِ تَخطِفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوب
من الدُّروب[14]

لقد حاول بدر تثوير بغداد، برسم الواقع المرير، وكشف مدى فضاعته، و ترديه أمام أعين الشعب، وتحميل الشعب مسؤولية القيام بحركة النضال والثورة ضد المستعمر الحليف لأنظمة الحكم، التي تقوم مقامه في إذلال الشعوب، ومصادرة خيراتها، وحكمها بالحديد والنار، ونشر الفقر والجهل والتخلف والعجز، وإنَّ تراكم الظلم لا بد أن يولِّد الثورة؛ لأنَّ المقاومة تولد من الموت، فالموت الذي يطوق الشعب لا يزيده إلا إصراراً على المقاومة، وأنَّ النصر للمظلومين حتماً، ولا بد للقيد أن ينكسر، وأن يندحر الطغاة[15].

لقد كانت دعوة بدر للثورة في ديوان أعاصير الذي يمثل المدة من 1946-1948م دعوة صريحة موجهة للشعب بحمل مسؤولية الكفاح ضد المستعمر وأعوانه من الحكام، اللذان يُعَدَّان وجهين متشابهين لقطعة نقدية واحدة، يرتبطان بالمصالح والرؤى والمصير، وتجد السيَّاب في ديوان أنشودة المطر يتراجع عن الدعوة الصريحة، ويتخذ الرمز منجاة له من ملاحقة السلطة وبطش رجالها، فعمد إلى الاكتفاء بفضح الأوضاع المأسوية التي ترتسم فيها صورة الطغيان في استخدام السلطة الموت سلاحاً تسلطه على الإنسان، وعلى قضيتة الإنسانية مستفيداً في ذلك من حالات استلاب الوعي الجماهيري[16].

وتلمح الآصرة بين ديوان أعاصير وأنشودة المطر أنَّها تكمن في وحدة الموضوع إلاَّ أن الموضوع في الثاني يبدو أكثر شموليَّة وأشدَّ عمقاً وأكثر تنوعاً في الأساليب التي يتوخى منها أنْ تحقق الهدف في إشعال الثورة، والثورة عند بدر أمر طبيعي [17]، وهي منتظرة وقادمة لا محالة[18].

بعد أن فشل بدر في تثوير عرب بغداد والأكراد، انحدر إلى جنوب العراق، إلى البيئة التى تربى فيها والطبيعة التي شكلت شخصيته وميوله، وصاغت مخيلته، وسيطرت على عقله الفني طيلة عمره الفني ، لجأ إلى حاضرتي الجنوب « البصرة والكوفة « خاصة؛ وإلى الرِّجال الآهلين فيهما ، والبصرة والكوفة حاضرتا العراق زمن الأمَّة الأول .

وقد يوفر النَّص قرائن مفيدة تحمل دِلالات مخبأة تحت الألفاظ، إذا ما عثرنا عليها استقام لنا وجه المعنى:

عَيْنَاكِ غَابَتا نَخيلٍ ساعَةَ السَّحَرْ
أو شُرفَتانِ رَاحَ يَنأى عَنهُما القَمَرْ
عَيْنَاكِ حين تبْسُمانِ تُورِقُ الكُرومْ
وَتَرقُصُ الأضواءُ كَالأقمارِ في نَهرْ
يرجُّهُ المجذافُ وَهْنَاً ساعةَ السَّحَرْ
كَأنَّما تنبِضُ في غَوريهما النُّجومْ.

يقول إحسان عباس: «إنَّ التجربة الإيرانية الكويتية ردَّت السيَّاب رغماً عنه إلى فرديته، حين جعلته يحسُّ بالغربة العميقة، ولكنَّه لم يلبث أنْ ربط بين نفسه ووطنه، فإذا هو والعراق شيء واحد، وتجلَّت الوحدة الكاملة بينه وبين العراق في قصيدة «أنشودة المطر»»[19] ويعلن عن إحساسه الجديد صراحة في قصيدته «غريب على الخليج» :

صوتٌ تفجَّرَ في قرارةِ نَفسي الثكلى: عِراقْ
كالمدِّ يصعد، كالسحابةِ، كالدُّموعِ إلى العيونْ
الرِّيحُ تصرخُ بي! عِراقْ
والموجُ يَعولُ بي عِراقْ، عِراقْ، ليس سوى عِراقْ (20)

لقد جمعت الغربة السيَّاب بوطنه في لقاء حميمي لم يستشعره قبل ذلك ، فرَّ من العراق هارباً إليه ، فقد كان الملتقى مابين روحه ووطنه هناك في الكويت ، والكويت على مسافة غلوة فرس من نهر بويب ، نهره الحبيب ، فإذا هبت رياح الشمال مساءً ، كاد أن يشمَّ رائحة طينه المعطور وهو في شقته ، وتلتمع أطلال جيكور في روحه كما يلتمع السراب في عيني الظمآن.

و تعرَّف السيّاب على وطنه أكثر وهو خارجه ، فقد بدت له الصورة أبشع عندما خرج من إطارها، وشاهد بأمِّ عينه، وقارن كيف تعيش الشعوب حولهم ! فانشغل عند ذلك بهموم وطنه ومشكلات الناس فيه ، وهم يرزحون تحت طائلة الفقر والجوع والحرمان دون ذنب أو جريرة ، سعى سعياً فنياً للبحث عن الحلول الناجعة لهذه الأوضاع التي أرَّقتْهُ ، وأنسته همومه الشخصية ، فغابت « الأنا» في نفسه ، وغابت نفسه هي الأخرى بشهواتها المتسلطة على كيانه قبل ذلك ، ورغباتها الجامحة في أعماقه ، وأخيراً ذابت روح بدر في نسغ وطنه العراق، واتسع العراق في نفسه حتى شمل كلَّ إحساس طيِّب، وغدا رمزاً لكلِّ مجاهدٍ صادقٍ، وشهيد حق ، وعنواناً لكلِّ قيمة إنسانيَّة عالية، فالعراق أصبح المحبوبة:

أحببتُ فيكِ عراقَ روحي – وحبيبتُكِ
أنتِ فيه(21)

وإذا ما عدنا إلى الافتتاحية نحسُّ كلماتها جسَّ الطبيب الماهر ، كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً ، ستنفتح أمامنا مساحات من الاستبصار تضيئها معطيات البيئة الخارجية للنَّص المتعلقة بالشاعر وظروفه النفسية ، وعلاقته مع النظام الحاكم في بلده وموقفه منه :

عَيناكِ غَابتا نَخيلٍ ساعةَ السَّحرْ
أو شُرفَتانِ رَاحَ يَنأى عنهُما القَمَرْ

إنَّ المستقرئ للحالة النفسيَّة لبدر عندما قال هذه القصيدة ، يستقر لديه أنَّه لم يبق لدى الشاعر مساحه للغزل المعروف، ولم يعد له رسيسٌ في صدره الضيق المهموم ، وجسده المنهك من السِّفار، وقلة المال وضيق اليد ، وقد كبر على الهوى والصَّبابة، والصَّبابة مظنة الشباب، الذي فارقه مبكراً مضطراً تحت سياط المرض والجوع والخوف والنفي والحرمان ، وفقد الملاحة في الوجه ومفارقته ماء الشباب .

فعلى ما يعود الضمير «الكاف» الملحق بالعينين؟

يقول إيليا حاوي: «إنَّ ما يعقب هذا المقطع يرجِّح لنا أنَّ المرأة، امرأة الحب والشهوة غائبة عن خاطر القصيدة، وليس وصف العينين إلا نبذة انطلق منها إلى ما دونها، ثم إنَّها تنمحي وتتعفَّى آثارها في الهموم الأخرى التي تتداولها القصيدة»(22).

وبعد التحري عن هاتيك العينين فيما سبق من أوراق البحث يتقرر لنا أنَّه يخاطب العراق، وأن الكاف الملحقة بهما تعود إلى العراق.

يؤيد ما ذهبنا إليه القرائن الآتية:

انقطاع الشبه بين العين الآدمية المبصرة وغابة نخيل مخيفة مظلمة ساعة السحر؛ لأنَّ العينين لا تلتقيان ، على المدى السطحي ، مع الغابة « **غابتا نخيل ساعة السحر** » بعلاقة من علائق التشبيه التقليدية (23)، فلا وجه للشبه بين العين المبصرة والغابة المظلمة بتاتاً، وعلى الرغم من ذلك استخدم الشاعر التشبيه البليغ ، دون استخدام حرف التشبيه أو بيان وجه الشبه؛ وذلك لتقوية المعنى وتوحد المتشابهين في عقله الفني. ويجب أن تكون العلاقة مبررة في المجاز واعتباطية في الحقيقة .

لقد شغفت بيئة الجنوب فؤاد السيَّاب، سكن بها وسكنت فيه، وانعكست في عقله الفني إحساساً وفكراً ورؤى، وكونت أسس ثقافته الأولى، يلجأ إليها كلما حزبه أمر ، وكلما أزفت أزمة وأعيته على الحلِّ؛ فأنسنها وخاطبها شاخصة أمامه كائناً حيَّاً بسكونها وحركتها ومشخصاتها الجامدة والحيَّة أينما كان ؛ أكان داخلها أم خارجها؛ متغزلاً بها معشوقة ، ومشتاقاً إليها محبوبة، وباثاً إليها همومه وآهاته الحرَّى: الشخصية، والوطنية، والقومية، والعالمية ، يحمِّلها ما تنوء بحمله من الرموز السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية ، وهي طيِّعة ومتجاوبة مع تكنياته وتشبيهاته، واستعاراته، وصوره، وناهضة بكل أدواته الفنيَّة، يتدثر بثوبها، ويذوب في رائحة طينها المعطور دون أن يكون الوصف مقصده، ولا عاطفة الإعجاب بجمالها دافعه للنظم .

ففي ضوء هذه العلاقة الحميمة بين السيَّاب والبيئة، وفي ظل هذا العطاء البيئي الفيَّاض، يظهر علينا النَّص بحلَّة جديدة، وبدلالات كانت غائبة تحت ركام الألفاظ في معانيها السطحيَّة المباشرة ، بعيدة عمَّا دار في الشروح المختلفة لهذه المقدمة فيما سبق من أبحاث ودراسات تناولت القصيدة :

وعينا العراق الأوليتان البصرة والكوفة، فالبصرة عين العراق على الشرق، والكوفة عين العراق على الصحراء، وسميت البصرة بأمِّ العراق، ويخاطبها الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم عمر بعين العراق:

ضاقتْ العينُ وكلُّ الخطو فجرٌ يا عراق

سُبُلا في الماء كي يخطو حائر

كلُّ سهلٍ كلُّ رحبٍ فيك ضاق

متُّ يا بصرةُ يا عين العراق

أو لا تدرين عني أي عاثر[24]

البصرة والكوفة حاضرتا العراق في أرض السواد، بلاد النخيل ، وقد مال لونهما إلى السواد من شدة الخضرة، لذلك ربط الغابة بالسحر، فحذف المشبه واستعار بدلا منه المشبه به، فتخيل السيَّاب غابة النخيل في كلِّ مدينة من المدينتين وقت السحر وكأنَّها رجال من أهل الجنوب ، وقد اصطفوا بجانب بعضهم بعضاً كالجند ليلاً في انتظار الأوامر ساعة الصفر، وهم بكامل عددهم الحربيَّة، ومستعدون للحركة، أي حركة الثورة على بغداد، فهو يهدد بغداد بأهل الجنوب مخزن الرجال الأشداء الذين سيشعلون نار الثورة على الطغيان .

عيناك يا بلدي العراق كتيبتا رجال من أهل الجنوب أشداء يشبهون صفوف النخيل ساعة السحر، والسيَّاب بهذا الدفع التعبوي ، يغري الرجال في عيني العراق في الجنوب بالثورة لتوفر العدد والعدَّة والهمة العالية وهي من أهم أسباب النصر والنجاح، ويطمئِن العراق بقدرات شعبه في هاتين المدينتين من جانب آخر، ويشدَّ من أزرهم ويقويهم برفع معنوياتهم ، ويهدد بهما حكام بغداد ، ثم يُخَيِّرهُما مستخدماً في ذلك حرف «أم» ، ومحذِّراً إيَّاهما: فأمَّا أنْ تكونا مستودعين يمدَّان الثورة بالرجال أو شرفتين قد ابتعد عنهما ضياء الحضارة والعلم والتطور، وقد غشيهما الظلام الحضاري :

أو شُرفَتَانِ رَاحَ يَنأى عَنهُما القَمَرْ

ونعلم أنَّ «البصرة والكوفة» كانتا مصدرين للإشعاع العلمي والحضاري، فشبههما بشرفتين، والشرفة مطلَّة ، تحمل معنى العين في الإبصار، والرؤية، والاستشراف.

وإذا ما قبلنا هذه القراءة وانطلقنا منها، فقد استهلَّ لنا وجه المعنى واستقام ، واتلأب بنا الطريق في تأويل كلِّ مقاطع القصيدة .

لقد أُهملت البصرة والكوفة في العصر الحديث، فغرقتا في موجة من التخلف والفقر والحرمان، وما هما إلاَّ كالبحر فيما تزخران به من كنوز، فهما أرض النور

والعلم والفتوح والنخيل والثروة النفطية والسمكية.

إنَّ بإمكان الناقد تأويل كلِّ مقطع من مقاطع القصيدة في ضوء هذا المقام، مقام نشدان الثورة والمقاومة بوصفه حلاً وحيداً للخروج من هذه الأزمات التي يعانيها شعب العراق .

ونصل إلى المقطع المتكرر:

مَطَرْ مَطَرْ مَطَرْ

أزاح بدر مصطلح المطر عن معناه المعروف المتمحور حول الإرواء والسقيا، دون أن يأتي بقرينة لفظية مانعة لورود المعنى الأصلي، إلاَّ ما أورده من أحوال بيئية، ترمز إلى القهر السياسي، والحرمان الاقتصادي، وتقييد الحريات المدنية، وتكميم الأفواه، وسفك الدماء لأبسط سبب .

لم تكن القرائن المانعة من ورود الدلالة الأصلية للمطر عند السيَّاب في هذه الأنشودة واضحة ، واكتفى بدر بالقرائن السياقية التي لم تكن هي الأُخرى كافية ، لذلك لم تصل الدِلالة الجديدة لمطر السيَّاب بوضوح للمستهدفين من أهل الجنوب، وجلُّهم من المزارعين ، والفقراء من متوسطي الثقافة ، وأقنان الأرض والعبيد ، بينما أثبت قرائن كافية في قصائد أُخرى وظف فيها المطر في غير ما وضع له ، حيث يقول في قصيدة « حفار القبور» :

فَلتَمْطُرنَّهم القذائفُ بالحديدِ وبالضِّرام

وبما تشاءُ من انتقام

من حمياتٍ أو جذام (25)

فكان صوته مبحوحاً وكانت دعوته للثورة على نظام بغداد صيحة في واد، ولكن عذيره في ذلك هو خوفه من الملاحقة والعقاب، وإبقاءً على حياته في مآزق الموت الأحمر.

مطر ..... مطر..... مطر

الثورة ثم الثورة ثم الثورة، مكرراً كلمة مطر ثلاث مرات وهو أسلوب التأكيد المعروف والشائع بالكلمة نفسها ؛ فاللفظة الأولى يشير بها إلى الحلِّ للوضع الذي وصفه بالمقطع السابق ، واللفظة الثانية والثالثة توكيد لفظي لها، وتشديداً على أنَّ هذا هو الحل الوحيد الناجع ، وكان أحياناً يأتي بها مرتين حسب فضاعة المشهد الذي يصفه ، كما هو في المقطع الآتي :

كأنَّ طفلاً باتَ يَهذي قَبلَ أنْ يَنَامْ:

بِأنَّ أُمَّهُ التي أفاقَ منذُ عامْ

فلم يَجدْهَا، ثمَّ حينَ لجَّ في السؤالْ

قالوا له: «بعد غَدٍ تَعودْ

لا بُدَّ أنْ تَعودْ

وإنْ تَهامَسَ الرِّفاق أنَّها هُناكْ

في جَانِبِ التَّلِ تَنَامُ نومَة اللُحودْ

تَسفُّ من تُرابِها وَتَشربُ المَطَرْ

كأنَّ صياداً حزيناً يَجمَعُ الشِباكْ

وَيَلْعَنُ المِياهَ والقَدَرْ

وَيَنثُرُ الغِنَاءَ حينَ يأفَلُ القَمَرْ

مَطَرْ

مَطَرْ

لقد مثلت الأُمُّ في كلِّ ثقافات البشرية أسمى المعاني، فهي الحضن الدافئ الصادق، والوحيد، «وكانت الأم حاضرة في أدب وادي الرافدين في الرخاء والشدَّة، وكانت الحضن الدافئ، والحارس الأمين للأبناء ذكوراً، وإناثاً، أدرك ذلك الأدباء والمفكرون، وخلدوه في تراثهم الأصيل»(26).

فما هي الأُمُّ عند السيَّاب؟ ولعل السيَّاب نتيجة يتمه مبكراً تعاظم عنده الإحساس بفقد الأُمِّ، وبفقد الأُمِّ تفقد الحياة أحلى مباهجها، فالأُمُّ مستودع الحنان والعطف والشفقة، والأُمُّ اللطف والصدق والشفافيَّة ، والأُمُّ الفضيلة والأرض والوطن والعطاء والحياة كلُّها،

فالأُمُّ الوطن الذي مات ولكنه سيعود، وإن دبَّ اليأس في نفوس الرِّفاق الثوريين بالنجاح وقرب الخلاص نظراً لصعوبة الوضع ، وقلَّة الإمكانات في مقابل قوة النظام في بغداد، وإحكامه على الأوضاع جميعها، وامتلاكه المال، والرجال، والقوة، ودعم الحلفاء .

ففي هذا المقطع الذي حمل موت الأمِّ إشارة إلى موت الحياة في العراق، ولم يرحم هذا الموت القاسي أحداً، حتى الصياد الفقير، الباحث عن لقمةٍ يسد بها رمق أطفاله الجياع العراة والذي يمثل سواد العراق ، حيث يتحداه القدر المتمثل بالظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، ولا يستطيع أن يبوح هذا الصياد إلاَّ بعد أن يغيب القمر في جوف الليل وحيداً، مبحوح الصوت كالشاعر في دعوته للثورة، لا يسمعه غناءَه أحد .

عندما اكتُشفت الثروات في الخليج العربي، ومنها ثروات العراق النفطية العظيمة ، ظنَّ المستبشرون أنَّ العراق سينهض بهذه الثروة العظيمة ، و ستنقل العراق إلى دول العالم الأول، إلى مصاف الدول الغنيَّة، بكل مواضعات هذه الدول المدنية ؛ كالحرية الاجتماعية ، والاكتفاء الاقتصادي للجميع ، وتوزيع الثروات بعدالة ، واحترام حقوق المواطنة، ولكن ذلك لم يحصل في العراق على الرغم من ثروته النفطية الهائلة، ولمنع الشروق في ربوع العراق دثر بغطاء ثقيل من دماء الناس ومنعت النهضة بالقوة :

وَعِبرُ أمواجِ الخليجِ تمسَحُ البُروق

سواحلَ العراقِ بالنُّجوم والمَحار

كأنَّها تهمُّ بالشُّروق

فيسحب الليلُ عليها من دمٍ دِثار

أصيحُ بالخليج: «يا خليج»

يا واهبَ اللؤلؤ، والمحار والردى»

فيرجع الصدى

كأنَّه النَشيجْ

و راود الشاعر أمل في عقله الفني بالمساعدة من الخليج العربي، فها هو يناشد دول الخليج الأخوَّة العربية لمساعدة العراقيين الفارين من سياط الحكم في العراق ، ومؤازرتهم للسيطرة على ثرواتهم واستعادة حقوقهم، ولكن يرجع الصدى، وكأنَّ الخليج جدرانٌ صماء تردُّ الصدى نشيجاً وتشاؤماً وإحباطاً ، وعندما يأس بدر من وقوف العالم مع شعبه المقهور، وقد وقف هو بشعره مع كلِّ ثورات الشعوب في العالم وآلامها[27]، يأس من إخوة دول الخليج، وقد كانت رِدَته إلى العراق، واتحاد روحه معه بسبب موقف هذه الدول بعد تجربته الكويتية الإيرانية خاصة [28] ؛ لذلك أيقن أنَّ العراق يجب أنْ لا يعتمد على أحد في تحرير أرضه وثروته، فصاح بالخليج مستهوناً فعله وقدرته على مد يد المساعدة للعراقيين، وأنَّ لدى العراق القدرة الكافية للنهوض بأوضاعه وحلِّ مشكلاته عبر الثورة والمقاومة والتحدي :

يا خليج

يا واهبَ المَحَارِ والرَّدى

أكادُ أسمَعُ العراقَ يَذخَرُ الرُّعودَ

وَيَخزُنُ البُروقَ في السُّهولِ والجِبال

حتى إذا ما فضَّ عنها خَتْمَهَا الرِّجال

لم تترُكِ الرِّياحُ مِنْ ثَمود

في الوادي من أثَرْ

ولاح الفرج في عقل السيَّاب الفني ، وبدأ حلمه يتحقق بقبول النخيل (الناس) فكرة الثورة ، وبدأت بوادر الثورة تهلُّ بالبشرى:

أكادُ أسمَعُ النَخِيلَ يَشرَبُ المَطَرْ

وأسْمَعُ القُرى تئنُّ، والمُهاجرين

يُصارِعونَ بالمَجَاديفِ وبالقُلوعِ

عواصفَ الخليج، والرُّعود، مُنشدين

مَطَرْ مَطَرْ مَطَرْ

والأحلام العقلانية التي يمثّلُها الإبداع الفني تبدو لصاحبها وكأنَّها عملية عقلية من عمليات الحياة العقلية أثناء اليقظة[29] وأخيراً بدأ الخليج يردُّ الصدى بالمطر والثورة :

وأسمعُ الصدى
يرنُّ في الخليج
مَطَرْ ... مَطَرْ ... مَطَرْ

ويطمئِن السيَّاب الثوار بأنَّ الثورة لن تُسْرِقَ ، وأنَّ كلَّ جهد فيها مقدَّر، ولن تضيع نقطة عرق أو قطرة دم، فهي رصاصة وصيحة وابتسامة في انتظار غد باسم للعراق وللمعذبين وللفقراء والجياع والصابرين على لظى الثورة فيه ، وما تُخلِفُ من دماء وأشلاء أجساد عزيزة، ونفوس زكية ،كانت حطباً ضرورياً لقيامها ونجاحها ، وأخير... يهطل المطر:

في كلِّ قَطْرَةٍ من المَطَرْ
حمراءَ أو صفراءَ من أجنَّةِ الزَّهر
وكلِّ دَمعَةٍ من الجِياعِ والعُراة
وكلِّ قطرةٍ تُراقُ من دَمِ العَبيد
فهي ابتسامٌ في انتِظارِ مَبسَمٍ جَديدْ
أو حَلمةٍ توردتْ على فمِ الوَليدْ
في عالمِ الغدِ الفتي، واهبِ الحياة
وَيَهْطُلُ المَـطَرْ... [30]

واستُجِيبتْ دعوة بدر للثورة على النظام الحاكم في بغداد بعد أربع سنوات ، حيث أطاحت ثورة 14 تموز 1958 بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم . وهو من أهل الجنوب[31] . بالنظام الملكي في بغداد، ولا أدَّعي أنَّ هذه الثورة كانت بفعل نشدة بدر للثورة في «أنشودة المطر» ، حيث أنَّ بدراً لم يعوِّل بالقيام بالثورة على الجيش ، وإنَّما كانت الفئة المستهدفة التي عوَّل عليها بالقيام أولا بالثورة هي الطبقات الكادحة من الفلاحين وصغار الموظفين والفقراء ، بدافع تردي الأوضاع في جنوب العراق ، وكان بدر يصورهم بأنهم سيكونون وقود الثورة في قصيدته، وحطبها، وأكثر المتضررين ، وسيكونون هم بعد ذلك أكثر المستفيدين بعد نجاحها.

ولهذا وجد بدر في ثورة قاسم حقيقة زوال الكابوس الفادح ، وأحسَّ أنَّ ما تمنَّاه طويلاً ونادى به قد تحقق ، فحيَّاها بقصيدة لم تنشر في واحد من دواوينه ؛ لأنَّه توجَّس خيفة بعد حين من سيطرة العسكر ، وكان يتمنى أن تكون الثورة مدنية؛ ليتسنى له القيام بدور كبير فيها ومن ثم جني شيء من مكتسباتها ، وأخيراً تحقق ما توقع فانحرفت الثورة عن مسارها ، وتهاوت الآمال إثر الانقسامات والحزازت التي عصفت بالمجتمع والدولة آنذاك ، فقد أخذ قاسم يضرِّب فيها بين القوى المختلفة ، ويدفع بموجة من موجات تلك القوى إلى أقصى اندفاعها ، ثم يثير موجة أخرى لتكبحها[32] حتى احتيج إلى ثورة ثانية لإصلاح ما أفسدته الثورة الأولى .

لم يتسرع بدر بنشر قصيدته التي يمالئ بها الثورة ، لإحساسه بأنْ ليس هذه هي الثورة التي يريد ، ولزيف في عاطفته اتجاهها، أخفى قصيدته تلك ؛ لأنَّه لم يرضها في صورتها الأولى ، فهي بحاجة إلى أنْ يُجِيلَ فيها عقله ويقلِّب فيها نظرة خوف النقد من المتربصين به ، وقد كان وقوفه مع الثورة في بداياتها محاولة لضرب الشيوعيين وللانتقام منهم ، حيث حمَّلهم مسؤولية فصلة من عمله هذه المرَّة ؛ ولينأى بالثورة عن اليسار المتطرف .

فاستعاض بالمقالات الصحفية عن الشعر ، فكان أحد كُتَّاب جريدة الحرية ، حيث يقول في أحد مقالاته : إنَّ السياسة التقدميَّة التي يتبعها زعيمنا الأوحد هي خير ضمان بأنَّ الشيوعية لن تجد لها مكاناً مناسباً في

العراق ، إنَّ الفلاح بعد أن وزعت الأرض عليه بموجب قانون الإصلاح الزراعي لن يجد في الشيوعيَّة ما يغريه ... والعامل أيضاً نال حقوقه في عهد الزعيم الأمين .[33]

وأعلن في مقال آخر قطع علاقته الفكرية مع الشيوعية ، حيث يقول : وها أناذا اليوم ...أحارب في رزقي في عهد الزعيم الفذِّ عبد الكريم قاسم ؛ لا لأنَّني ضد الجمهورية ، بل لمجرد أنَّني أحبُّ عبد الكريم قاسم أكثر مما أحب خرشوف أو ماركس أو لينين[34] .

وعندما لم يستطع بدر مؤازرة الثورة بشعره ؛ حيث إنَّ بدراً لم يكن مقتنعاً داخلياً بهذه الثورة ؛ ولأنَّ الشعر يصدر من أعماق النفس ، وهو ينبوع غير مسيطر عليه من قبل العقل الواعي ، تجده ينعى خيبة أمله في هذه الثورة ، وما وصلت إليه أحوال الشعب العراقي من الاضطراب والحيرة والخوف والاستلاب ، ومن تردي الأوضاع كافة ، ملتحفاً بالبيئة ومعطياتها في أنَّ الربيع الذي أقبل ليس هو ربيع الثورة المنشود، فقال متألماً في قصيدة السندباد :

يا أيُّها الربيع ما الذي دَهَاك
جئتَ بلا مَطَرْ
جئتَ بلا زهرْ
جئتَ بلا ثمرْ
وكان مُنتهاك مثلَ مُبتداك
يلفُّه النجيع[35]

وطال انتظار بدر للثورة التي تشبه المطر الذي يريده ، يغسل الأدران والأوحال ويحيي الموات في أرض العراق ، و لم يأت بعد ، فقد أبطئ عليه ربيع الثورات العربية قليلا، ومات غريباً في المستشفى الأميري في الكويت في 24 / كانون أول / 1964 ، ونقل جثمانه إلى البصرة .

عاش بدر محروماً من كل شيء ، ومات محروماً من كل شيء ، حتى أنَّه لم يدفن في قريته جيكور التي طالما تغنى بها ورآها فردوساً في أحلامه ، وكم تمنَّى أنْ يرقد في نهره الحبيب «بويب» ، رمز الخير والصفاء والمحبة ! وأخيراً وريَّ جثمانه في الزبير، من أعمال البصرة ، يرافقه عدد ضئيل جداً من الناس الذين فهموه ، حيث أنَّ الغالبية من أبناء الشعب العراقي وأهل الجنوب خاصة لم يفهموا شعره و لم يستجيبوا لندائه؛ لتلفعه بالرمز وتخفيه تحت الأسطورة تقية .

وا حسرتاه ... فقد بُحَّ صوتك يا أبا غيلان , وأنت تستنهض الفقراء صباح مساء ، ولكن لا حياة لمن تنادي ، فالناس كانوا أشبه بالأموات والنيام ، فنم بينهم بسلام وقد حققت أمنية وحيدة من أمنيات كثر كنت تتمناها وهي النوم في أرض العراق ، ونصب له تمثال على شطِّ العرب في البصرة قائماً يحمل ديوان شعره، شاهدته وقد اخترقت الديوان الذي يحمله بيده رصاصة مشحونة غضبى من أثر الحروب، وقد كُتِبَ على قاعدة التمثال الرخامية أمنيته الشعرية:

وا حسرتاه متى أنامْ
فأحسُّ أنَّ على الوسادةِ
من ليلِكَ الصيفيِّ طلاً فيه عِطرُك يا عراق ؟ [36]

الخلاصة :

تنفرد أنشودة المطر بين قصائد مرحلتها ببعدها عن الأسطورة ، على الرغم مما صدرت عنه بعض الدراسات وخرجت به في أنَّ القصيدة عبارة عن ترجمة شعرية لأسطورة تموز أو عشتار ، وعدتْ المخاطَب في مطلع القصيدة هي عشتار إلهة الخصب عند البابليين[37].

وتتميز أيضاً بانضوائها الكامل تحت سعف البيئة العراقية في الجنوب، وبقربها من الواقعية والمباشرة ، ولولا التدثر بأخلاق البيئة وأرديتها الخضراء خوفاً من البطش والملاحقة ، وأنَّ التصريح بالشعر يزري لكانت القصيدة عبارة عن أوامر و ومواعظ ومناشدات

وصيحات استغاثة وتحريض، مترجمة حالة الشاعر الانفعالية وحاجته في إيصال ما ينتويه من هذه القصيدة إلى أناس متوسطي الثقافة من الفلاحين والعبيد وأقنان الأرض والصيادين والفقراء من أهل البصرة والكوفة، المنسيتين منذ زمن ، واللتين بدأت أضواء الحضارة بالابتعاد عنهما في هذا الزمن، كشرفتين راح ينأى عنهما القمر، فعاد إليهما الظلام ، وكانتا قبل ذلك شرفتين للعلم والمعرفة ، انبلج منهما في صدر تاريخ هذه الأمة وهج أضاء السبل للسالكين في دروب العلم والمعرفة في العالمين العربي والإسلامي .

وتنفرد أيضاً بغياب طيف المرأة المعشوقة منها ، وارتفاعها عن الأنا الخاصة المتمثلة بتعلقه الشديد بجيكور وأبي الخصيب ونهر بويب ، وملاعب الطفولة والصِّبا ، فلا يذكر منها شيئاً على غير عادته عند ذكر المطر ، حينما كان المطر مطراً للفرح واللعب والشقاوة ، وكان الأطفال يرددون معه أهازيج الحارات الشعبية:

يا مَطَرْ يا حَلَبي ... عبِّر بنات الجلبي

يا مَطَرْ يا شَاشَا ... عبِّر بنات الباشا[38]

فإنَّ أجمل فوائد المطر في أرض الجنوب فرحة الصبيان، أمَّا وقد تغير منظر المطر ودوره عندما وعى بدر الحياة وأفاق من الصِّبا , إذ هي غول ، تغتال الفقراء والضعفاء والمساكين ، و تغورهم «خطية» دون رحمة أو رفق أو شفقة .

وقف الغريب في الكويت يسرح البصر إلى بلاده وأهله في جنوب العراق في محافظتي البصرة والكوفة ، فهاله ما رأى من البؤس والفقر والضيق والقهر والقلَّة والحرمان وامتزجت تلك المشاهد بحبه الجارف لتلك الديار وتلك التربة التي درج عليها ، وفيها أجمل ذكرياته ؛ وطالما تذكر وهو يقبض بيد على أطراف ثوب أُمِّه حتى أنه يكاد يعيقها عن الحركة ، ويمسك بيده الأُخرى تمرة برحيَّة من نخل بلاده الحنون، يقتات بها حتى ينضج الطعام للجميع ، ولا عيب في هذه السنوات غير أنَّها كانت قصيرة ، فغافلته الحياة واغتالت منه أُمَّه في غفلة منه ، فسأل عنها ، فقالوا له : غداً تعود لعل القلب يسلوها ، ولكن أنَّى له ذلك . فكيف يسلوها ، وهل يسلو الإنسان أمَّه ! ويسلو هذه الأرض التي سفت من ترابها في لحدها هناك، وتشرب من مطرها كلما غامت السماء وهطل المطر، وهو بعيد يلوب :

بينَ القُرى المتهيِّبات خُطاي والمُدنِ الغريبة
غنَّيْتُ تُربتكِ الحبيبة [39].

كيف سيعود من كان تنقصه النقود ، وهو مطارد ومطلوب للنظَّارة في أول مخافر العراق ، مخفر سفوان [40]، وما الحلُّ يا ترى ؟ وما الذي يطفئ حنينه الجارف إلى بلاده ؟ فجال في عقله الباطني ، فأجابه عقله الفني بالدعوة إلى الثورة ، بحيث تبدأ أولاً من الجنوب ليعبر الحدود دون اعتقال وامتهان وحبس ، ثم ليكون له شرف المشاركة بها .

فبدأ بإعداد العدَّة الفنيَّة للثورة ، واستعرض الوضع التعبوي، ففكر وقدَّر أنَّ رجال البصرتين(البصرة والكوفة) عيني العراق ، بهم سيتحقق الأمل المنشود ، وفيهم كفاية وبأس وعزيمة ، ثم لكي يدفع المدينتين للانخراط في الثورة حذرهما ؛ أمَّا الثورة والشرف أو الموت بسكون ومذلَّة :

عيناك مستودعا رجالٍ يشبهون غابتي نخيل وقد اصطف بجانب بعضه بعضاً ساعة السحر، فهو منظر مرعب ومخيف في الليل المدلهم ، وله رهبة في النفس، لا خوف من قلَّة في العدد ، وسيكون هولاء الرجال مدد الثورة، ولهم قدرة هائلة ، والتحذير المبطن « أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر» .

هذان هما الخياران المتوفران ، وكلاهما مرٌّ ومرعب ومخيف . ثم يؤملهما بالنجاح والنصر، وعندئذٍ سيفرح العراق كلُّه ؛ الناس والطبيعة .

وبعد ذلك يبدأ باستعراض الأوضاع ، وكأنَّ الناس

في هاتين المدينتين يشكون له الأوضاع البائسة ، وضعاً وضعاً ، فيقول لهم الحل الوحيد : الثورة ... الثورة ، مطر... مطر ، ولم يترك بؤساً في العراق إلاَّ ساقه لدفعهم إلى الثورة دفعاً؛ لتخليصهم من عذابهم وبؤسهم وحرمانهم ، وكأنَّ الإصلاح السلمي لا يجدي في مثل حالة العراق ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، ولا بد من الثورة ، ثورة شاملة تجهز على كلِّ شيءٍ ، لا تبقي ولا تذر، وتطهر كلَّ ما يبقى من الأرجاس على أرض العراق . كطوفان نوح(عليه السلام) . منطلقاً من أرض نوح في جنوب العراق ثم تنبعث الحياة من جديد ، وتتورد الحلمة على فم الوليد ، في الغد الفتي ، واهب الحـــياة .

الهوامش :

1 بدران ، أبو الفضل : النقد الأدبي البيئي، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات، 2005م، ص215

2 عصفور ، جابر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب،المركز الثقافي ، بيروت ، ط1، 1992 ، ص356 و357.

3 خريوش، حسين؛ المطر ودلالاته في القصيدة الحديثة، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، المجلد الثالث،العدد الأول ، كانون أول ، 1992م ، ص164.

4 المرجع السابق، ص165.

5 خريوش، حسين، المطر و دلالاته في القصيدة العربية الحديثة، ص175 .176.

6 خريوش، حسين، المطر و دلالاته في القصيدة العربية الحديثة ، ص 176 .

7 السيَّاب، بدر شاكر، الديوان، الأعمال الشعرية الكاملة ، دراسة وتقديم سمير بسيوني، مكتبة جزيرة الورد ، القاهرة ، 2009 ، ص308.

8 عباس، إحسان: بدر شاكر السيَّاب، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1983م، ص243.

9 السيَّاب، بدر شاكر: الديوان، مرجع سابق، ص431.

10 المرجع نفسه، ص405.

11 السيَّاب، بدر شاكر: الديوان، مرجع سابق، ص404.

12 المرجع السابق، ص405.

13 الخبو ، محمد : مدخل إلى الشعر العربي الحديث « أنشودة المطر لبدر شاكر السيَّاب نموذجا « دار الجنوب للنشر ، تونس ، ص151 .

14 السيَّاب، بدر شاكر، الديوان، ص303.

واطرحي عنك باردات الصفاح عربد الثأر فاهتفي يا ضحايا

فغصت بدمعها النضَّاح كلما ألهب الدجى حزن بغداد

انظر: ديوان أعاصير: «قصيدة أعاصير»، ص148.

ضيه إلا أن يعصف الأحرار فاعصفي يا شعوب فالكون لا ير

وثوري فالفائز الثوار واحطمي القيد فوق هام الطواغيت

فانتفاضة فثورة فانتصار همسة، فانتباهة، فهتاف

انظر: ديوان أعاصير: قصيدة»دجلة الغضبى»، ص152.

تلمح العين ما وراء الستار ذوبِ الَّليلَ يا شعاع النهار

فما زال واقفاً بانتظار ذوب الليل يبصر الشعب صرعاه

على الحِّر دونه كلُّ عار أيها الشعب واحتمالك عارٌ

فانهض ... كفاك طول اصطبار طالما قد صبرت يا شعبي المظلوم

انظر: ديوان أعاصير: قصيدة « صحيفة الأحرار»، ص157.

بوق النضال ومنبر الأحرار الشعب يعلم عن يقين أنَّها

حمراء في صدر الحليف الضاري حان الكفاح فأنزلتها طعنة

من عين يعرب ضحكة استبشار ضم الشتات بها (فكاوا) يتجلى

15 السيَّاب، بدر شاكر، الديوان، ص141.

انظر: ديوان أعاصير: قصيدة «عربد الثأر فاهتفي يا ضحايا»

هيهات نشكو سطوة الجبـار إنَّا لنُغمَد في اللظى أقدامنا

كاوا: كلمة كردية تعني الأخ.

16 حسن، عبد الكريم، الموضوعية البنيوية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1983م، ص176.

17 عباس ، عبد الجبار : السيَّاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، 1971 ، ص 204 .

18 انظر: للتمثيل على ذلك من ديوان «أنشودة المطر»: من قصيدة «غريب على الخليج»، ص305.

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!
أيخون إنسان بلاده؟
غنيت ترتبك الحبيبة
وحملتها فأنا المسيح يجر في المنفى صليبه
فسمعت وقع خطى الجياع تسير، تدمى من عثار
فنذر في عيني، منك ومن مناسمها، غبار.

انظر من قصيدة «مرحى غيلان:، ص310. والموت يركض في شوارعها ويهتف: يا نيام

هبوا، فقد ولد الظلام
وأنا المسيح أنا السلام

19 عباس، إحسان: بدر شاكر السياب، ص244.

20 السيَّاب، بدر شاكر، الديوان، من قصيدة غريب على الخليج، ص303، 305.

21 السيَّاب ، بدر شاكر : الديوان، ص304.

22 حاوي، إيليا: بدر شاكر السياب، مرجع سابق، ج4، ص71.

23 الشرع ، علي : قراءة في « أنشودة المطر « للسيَّاب ، ص67

24 عمر، عبد الرحيم، الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات مكتبة عمان ، ص145

25 السياب ، بدر شاكر : الديوان، ص 449 .

26 حوَّر، محمد: الأم في الشعر المعاصر، دار الثقافة ، ط1، 2011، ص38.

27 انظر: «قصيدة اللعنات»، ومنها غضبة إبليس، الديوان، ص294، مالئ بإحدى مقاطعها الشاعر الثائر التركي ناظم حكمت، وانظر قصيدة «حاطم الأغلال»، ص111، يخاطب المغني الزنجي الشهير «روبسن» إثر قيام الولايات المتحدة بتعذيب الزنوج وطردهم عام 1946م.

وانظر: قصيدة (أعاصير) يساند بها الثورة البلشفية في روسيا، وانظر قصيدة «من رؤيا فوكاي»، و»حقائق كالخيال»، يشارك فيهما هورشيما مأساتها، و لم يتخل بدر عن واجبه القومي تجاه تونس في «يوم الطغاة الأخيرة» وتجاه الجزائر في «إلى جميلة بوحيرد» و»رسالة من مقبرة» إلى المجاهدين الجزائريين» وإلى دول المغرب العربي في قصيدته «في المغرب العربي، وتجاه مصر في «بور سعيد» وتجاه فلسطين في يوم فلسطين ، و ورد كثير من أسماء المدن الفلسطينية في قصائد أُخرى عديدة .

28 عباس، إحسان: بدر شاكر السيَّاب، ص244.

29 كمال، علي: أبواب العقل الموصدة (باب النوم وباب الأحلام)، دار واسط، ط2، 1990م، ص711.

30 السياب، بدر شاكر، الديوان، ص407.

31 جده ، عبد الكريم : ثورة الزعيم المنقذة ، مطبعة

البرهان ، بغداد ، 1959 ، ص5

32 عباس ، إحسان : بدر شاكر السياب ، ص298

33 عباس ، إحسان : بدر شاكر السياب ، ص298 ، نقلا عن الحرية ، العدد : 1451

34 المرجع السابق ، الصفحة السابقة ، نقلا عن الحرية ، العدد : 1444

35 السيَّاب، بدر شاكر، الديوان، ص398.

36 السياب، بدر شاكر، الديوان ، من قصيدة « غريب على الخليج « ، ص305 .

37 عوض، ريتا : أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي ، 1978 .وانظر وقراءة إلياس خوري في كتابه : دراسات في نقد الشعر ، 1979 ، وانظر : رزوق ، أسعد : الأسطورة في الشعر المعاصر . الشعراء التموزيون ، منشورات مجلة آفاق ، بيروت 1959 ن ص85. 94 ، حيث نأى بالقصيدة عن مؤثرات الأساطير .

38 السيَّاب، بدر شاكر، الديوان ، من قصيدة « شناشيل ابنة الجلبي « ، ص612 .

39 السياب، بدر شاكر، الديوان ، من قصيدة « غريب على الخليج « ، ص304 .

40 سفوان : بلدة على الحدود العراقية الكويتية .

عتبة الغلاف الروائي، صورة للجسد الأنثوي
في رواية «شهقة الفرس» للروائية «سارة حيدر»

وفنارة مفيدة,
أستاذة مساعدة، قسم أ
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1,

Abstract

This research studies the paratexte of the modern Algerian novelist especially "The paratexte of the Cover" as the most striking and influential visual space in the reader. We choose a novel of the author Sarah Haidar called " **The Craving of the horse" to** study how the privacy of the female was dropped on the geometry of the visual space, which usually reflects the unconscious reservoir of the woman's psychology, as well as several depressions that competed with the male visionary, especially by employing the female body as an expression of the female imagination.

Key words:The cover paratext; the visual space; the female body; the contemporary Algerian novel

الكلمات المفتاحية: عتبة الغلاف؛ الفضاء الصوري ؛ الجسد الأنثوي ؛ الرواية الجزائرية المعاصرة.

مقدمة:

تعتبر عتبة الغلاف لوحة فنية ذات دلالات إيحائية تعمل على تحفيز المتخيل الذهني وهذا بالكشف عن حيّز ما من مضمون النص السردي بصفة قصدية، فالغلاف الخارجي ما هو إلا امتداد للمتن بل وجزء لا يتجزء منه، إنه الواجهة الأمامية والخلفية التي لا يمكن لأي كتاب أن يستغني عنه كونه «يحوي مضمونه فهو يحوي بالضرورة عناصر ليست أيقونية فحسب، بل إن اسم المؤلف، وجنس الكتاب (الرواية)، وعنوان الرواية تشكل عناصر لسانية في الخطاب نفسه، فإذا ظل المعنى خفيا بين طيات الصور، والتباسها فإن هذه العناصر تضيف للقارئ اقتراحات واضحة المقاصد، والوظائف لجعل التعاقد يحصل بين المؤلف ذاته والقارئ (...) من إمكانية إضافية لفهم النص الأدبي «[1]

لقد أسهمت ثقافة الصور في إضافة دلالات جديدة للنص السري إذ تعجز اللغة في كثير من الأحيان عن التعبير عمّا تفصح عنه «خاصة أمام العجز في التحكم فيها زمكانيا بعدما استباحها الجميع، يشاهدها الداني والقاصي، والكبير والصغير، والمثقف والحدود الثقافية قياساً بالنّص الملفوظ الذي تتحكم فيه زمكانية إلقائه، أوقياساً بالنص المكتوب الذي يتوجه إلى النخبة القارئة فلا يكاد يتعدى فعل القراءة «[2]

ولأن الغلاف الخارجي هو جملة الأيقونات البصرية، والعلامات التشكيلية، واللوحات الفنية، والخطوات الكاليغرافية، فهذا يعني أنه خطاب حامل لرؤية لغوية، ودلالة بصرية، ولأن أغلب جمهور المتلقين صار يملك القدرة على تأويل الصورة حسبما يراه هو، وحسب معرفته الثقافية بدلالات الصور والألوان والرموز، فإن النص يشكل الباب الثاني الذي لايمكن فتحه إلا بقراءة نصه الموازي ليس هذا فحسب، فالقراءة العادية لاتمكن من الوصول إلى الدّلالات المتطابقة مع ما ترمي صورة الغلاف الوصول إليه، بل إن فعل القراءة لكلا النّصين يتطلب خبرة فنية عالية لتمكن القارئ من الرّبط بين مختلف عتبات النص وبين النصّ أصله.

وإذ كان المتلقي لعتبة الرواية الجزائرية قد تعوّد على طقوس إخراجية محدّدة لعتبات النص السردي، فإن التطور الذي شهدته الرواية الجزائرية استطاع أن يظهر لمسات فنية تثبت الخبرة بعلم العتبات، وللمرأة الروائية نصيب في ذلك لما لها من خصوصية هندسية تبني عليها كتابتها المختلفة عن خصوصية الرجل، وتعكس-عتبات-الرواية النسوية جانب فنيا جماليا تميزه اللّغة الشاعرية، والإغرائية، وللغلاف نصيب من هذه الخصوصية إذ يعكس الغلاف جانبا من المكامن اللاشعورية لنفسية المرأة كما يفصح عن عدة مكبوتات نافست بها الرّجل الرّوائي نفسه خصوصا بتوظيفها لجسد الأنثى كتعبير عن المتخيّل النسائي.

1. صورة الجسد في غلاف رواية «شهقة الفرس» للروائية «سارة حيدر» :

لا يمكننا أن نخوض في صفحة عتبة الغلاف دون أن تستوقفنا الرواية النسوية في الجزائر، إذ لها من القيمة الفنية ما يدرجها في مصاف الروايات الناجحة، أعني بالنجاح -خصوصا- عنايتها بالعتبات النصية، إننا بحاجة إلى هذا النسق من الكتابة «الكتابة النسوية»، وهذا راجع للحاجة إلى عتبات تختارها المرأة طبقا لما يتماشى مع روحها وقضاياها، فإن كانت اهتمامات الرّجل مرتبة فرضا كالآتي: العمل، السلطة، المال ، الزواج، السياسة ،الحب، السفر، الثقافة...،فإن اهتمامات المرأة مرتبة فرضا كالآتي: الزواج، العمل، الصداقة، الحب، الفن،...،فلكل جنس أولوياته،ولأننا بحاجة إلى رؤية أنثوية للعتبات تعكس واقع وضعها البيولوجي المختلف عن الذكر، فإن انعكاس التأثير البيولوجي سيؤثر حتما في شكل الكتابة ومضمونها.

سطرت الرواية الجزائرية على «الجسد» باعتباره فضاء رحبا يشي بالذات الأنثوية ضمن خطاب أدبي إنساني يهدف إلى كسر حاجز الصّمت الذي أسكتها عن البوح ردحاً من الزمن فكانت رؤية «شهقة الفرس» للروائية الشابة «سارة حيدر» أنموذج الكتابة النسوية المعبّرة عن الجسد.

2.صورة الغلاف..الجسد الأنثوي:

يعد إدراج الجسد داخل فضاء الغلاف ضرورة أفضى إليها خطاب الأهواء الذي فرضته الرّوح الإبداعية اللاهثة وراء تجسيد مكنونات النفس الشاعرية، فالجسد الأنثوي مصدر للتعبد العاطفي أولا ومبعث لإثارة الفتنة والغواية، إنه مبعث هذه الانفعالات، وجامح لها «لذلك تنظر سيمائية الخطاب إلى الجسد باعتباره أولا وقبل كل شيء مكانا للدلالة، تلك الدلالة التي ترسم من خلال الأحاسيس والانطباعات التي يجربها الجسد خلال اتصاله بالعالم «[3]

يُصنّف التشكيل الصوري لرواية «شهقة الفرس»» ضمن ما يسمى بالغلاف الجسدي l'enveloppe corporelle[4]،إذ احتوت صورة الغلاف على فتاة [5] مستلقية على الأرض بفستان بنفسجي اللون كاشفة مفاتن الصدر والذراع اليمنى فيما لم تُظهر الصّورة ذراعها الأخرى، تنظر الفتاة نحو الجهة اليمنى،وتبدو عليها الرّاحة والاستكانة تستنبط هذا من ابتسامة مشدودة للجهة اليسرى من ثغرها فيما تخفي يدها اليمنى والجهة اليمنى من ابتسامتها إذ لا تبدو الابتسامة واضحة، فللإبتسامة عدة أنواع! ممّا يعني أن لها عدة دلالات! كما يبدو شعرها مرمياً إلى الوراء يظهر أذنها الأيسر، وهذا يعني بروز الحواس على صورة جسد الفتاة.

– من هي هذه الفتاة؟ ؟وهل لصورة الغلاف علاقة بالمتن السّردي؟.

إنّ بداية النّص الرّوائي لا تكون إلا بالواجهة الخارجية التي تستقبل المتلقي منذ الوهلة الأولى، وقد أعطت هذه الصّورة عدّة رموز، وإيحاءات عن مضمون المتن السردي، فكان الجسد جسد بطلة الرواية.

لقد شكّل هذا الجسد الناضج رمزا لعذابات الأنثى التي سأمت من بروتوكولات الحياة الأسرية وفسيفسائها، إنّ راحة الجسد في استلقائه لم تتحقق إلا رغبة وتوقا إلى التحرر من قيود المرآة، حالما بعالم يغمره الهدوء « أتناول ما تبقى من قناع المرأة الناضجة، وأحاول تثبيته على وجهي لكنه يتساقط متهرئا متعبا من الاستعمال المتكرر... أرمي به بعيدا، وأوجه نظرة شرسة إلى المرآة.. أحاول أن أحدث المرأة التي أراها في الضفة الأخرى من الحقيقة .. تبتسم لي بمكر ثم شيئاً فشيئاً تشتغل ملامح وجهها وسط غمامات من الضباب والخوف..»[6]

لقد مثّل الجسد للراوية عزاءها الوحيد في تذكر ماض قد فات شكّل الموت الجزء الأكبر فيه، فقد أفقدتها الأيام زوجها وعادت بها الذاكرة لتتحسّس جسده «كل ما حدث بعد ذلك يستعصي على الذاكرة... غمر الجسد بتراب نيسان الدافئ حفل التأبين «[7] .

إنّ لاستلقاء الفتاة على الأرض دلالات عدة منها خيبة الفقدان في زوجها، وفرسها «كولومبيا «، ووالد زوجها الــ «رائع في صمته ووقاره «[8] إنّ هذا السرد انتقل بنا من حقل الحقيقة إلى فضاء المتخيل إذ تبدو الشخوص الروائية غير مكتملة النّمو فقد شكلت حركة السرد حركة أفقية خلت من تطور الأحداث، وتأزمها فكانت النهاية هي موت للكائن المثلث [الزوج، والده الفرس]، أو حلم الراوية بالموت.

مثّل الجسد سطحا شبه عاري يظهر مفاتن ما أضمرته الذاكرة «حيث تسم هذه الذاكرة الجسد بميسمها، وتطبع كيانه بخصائصها وتفرض عليه حضورها فيه كبصمة دائمة تعلم بوجودها، وكنقش يدعوا لقراءة

تاريخية كل من يحسّن فك سنن الكتابة»[9]

وقد برز الجسم ناقصا غير مكتمل الظهور، وهذا النقص لا ينبئ عن عاهة جسدية إنما قصدية إظهار النقص الرامي إلى إثبات العجز أو الخيبة، خيبة الحب بعد الخيانة، وخيبة الواقع الوهمي، وخيبة الحياة والموت، كل هذا جعل من البطلة شخصية تعاني من النقص الداخلي لهذا يسعى جسدها لأن يلحق بهذا النقص حتى يسرع في طمسه.

إن غياب بعض الأجزاء من الجسد من على فضاء لوحة الغلاف يرمي إلى «وجود افتقار على صعيد ما، يدفع الذات إلى السّعي لسده، راسمة في سبيلها ذاك توجها يشق سديم التوتر ويسمح بانطلاق شرارة المعنى»[10]

أُخفِي من الجسد اليد اليسرى، الأذن اليمنى والخد الأيمن، الأصابع، الخصر، والقدمان كل هذه الأعضاء هي أعضاء ترمز للحركة، للإنصات، للقدرة على الإنجاز، للفعل، للإيجابية،وهو الأمر الذي غاب عن جسد البطلة، إنّها الكاتبة بداخلها لكنها لم تسمح لهذه الرّوح بالظهور للعلن، فقد آثرت الكلام على الإنصات، والسّكون على الكتابة، وهو الأمر ذاته الذي غاب عن حبيبها الكاتب الروائي الذي يكتب لكنه لا ينشر...، إنها سلطة الذات على الجسد، وعجز الجسد عن الفعل «يشعر بأن الكلمات تزدحم في ثغرها بحثا عن فرصة للخروج .. يستغل فرصة سعادته بعالمه الكتابي الجديد ويسألها بتحبّب.

–هل تريدين شيئا يا ملهمتي الحبيبة؟

نعم، كانت من ألهمُه فكرة العالم المقلوب في إحدى الليالي الحارة من شهر آب الخانق»[11]

كما أن الصورة قد غطّت بالسواد الأعضاء المخفية ،ولهذا الإخفاء بصمة جمالية أيضا إذ يجعل من الجسد جسدا عذبته الأيام، فجعلت منه جسدا منقوصا يبتعد عن الكمال التام للشخصية، إن هذا النقص في الجسد «يستتبع تشويشا في التّصور الجسدي schémacorporel الذي تكونه كل ذات عن جسدها، والذي لا ينظر إلى الجسد على أنه كتلة من الأعضاء المتمايزة المتراصة في فضاء محدّد، وإنما يعتبره وحدة غير قابلة للتجزيء»[21]

أما التجزيء الأكبر فيها فكان مستهدفا للجزء السفلي من الجسد مما يعني خيبة الراوية في إنجاز ما طمحت إلى تحقيقه، وقد أسدّل عليه راسم اللوحة الغطاء الأسود دلالة على الحزن، لأن الموت هو من حرمها من تحقيق مرادها «فمنذ انطفاء سنوات الطفولة، والنسيان كنت أعرف أن هناك رواية تنتظرني لأنفض عنها الغبار وأنشرها في دار الشمس، بطلها الوحيد هو رجل انقسم إلى اثنين إلى أب وابن..

بطل اعتقدت أنه لن يموت قبل أن يسير بروايتي إلى نهايتها إلى خلودها..

وها هو يموت واحدا تلو الآخر... أما الرواية فلم تصل إلى أي مكان... بل تنام الآن بين خلايا كولومبيا التي ستموت هي الأخرى دون أن تقول لي شيئا»[31].

مثّلت صورة الغلاف مزيجا لونيا غلب عليه اللون القاتم أسهم في تركيز النّظر على الجسد فحسب دون الاهتمام بجوانب الصورة، وهي دلالة تعطي أبعادا فنية للعمل الأدبي لتظل لغة الجسد بألوانها هي اللغة المخاطبة للمتلقي منذ الوهلة الأولى لاقتناء الكتاب أو ملاحظته.

إنّ توظيف الألوان باعتبارها رموزا لغوية توسيعا لمدى « الرؤيا في الصورة الشعرية وتساعد على تشكيل أطرها المختلفة لما تحمل من طاقات إيجابية، وقوى دلالية، وبما تحدثه من إشارات حسّية وانفعالات نفسية في المتلقي»[41]

لقد ارتبط اللّون الأسود في الغالب بالحداد والحزن والموت، وهو أيضا خوف من المجهول، فالسواد الذي غلب على لوحة الغلاف مدعاة للانتباه والتأويل، إذ أنه يجمع بين مقاطع عديدة من النص حملت في طياتها حزن

الفراق والبكاء والأسف والافتراق، كما أنّ السّواد عبر عن فلسفة الحياة، والموت «وهناك في الرّكن المعتم الذي مازال يحتفظ بأنفاس توليستوي.

– **الموت**: أظن أن البشر لم يفهموا بعد سبب وجودي في حياتهم.

– **الحياة**: وأظنهم لم يفهموا كذلك سبب وجودهم في حياتي.

– متعبون حقا أحيانا أفكر أنهم يريدوننا معا في قبضة يدهم ليخلقوا عالما جديدا.

– يقولون أنت جميلة ورائعة فيتشبتون بي كما الغريق بقشة النّجاة ولكنهم يريدون اكتشافك أنت أيضا... ربما بدافع الفضول»[51].

الفتاة على اللوحة هي الراوية النابضة بروح الحياة، وهي الحياة الخالدة التي فقدت جميع أحبائها، ليدّل سواد اللوحة المستحوذ على المساحة الواسعة على الفضاء العاتم الذي غطى جو الرواية، فجعله فضاء إنسانيا تغلب عليه أصوات الليل، فالليل بيت تفتح فيه الأسرار، والليل زمان يكثر فيه الموت، والليل فضاء مهبط لوساوس الشيطان، والليل فضاء إنساني اغترابي قال فيه الشاعر صلاح عبد الصبور:

الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير

ويطلق الظنون في فراشي الصغير

ويثقل الفؤاد بالسواد

ورحلة الضياع في بحر الحدّاد[٦١]

لقد جسدت صورة الغلاف لافتة ورسالة سردية مكملة للنص أحسن اختيارها المؤلف ليبرز معارفه السردية، ويوظف لعبة الخفاء والنور «بوصفها علامة أيقونة وافدة على جسد الرّواية، وهي تحتل فيها فضاء نصيا مبرزا للإعلان عن حركة زمنية دخيلة عن زمن الحكاية التي تحكي وللإشارة إلى وضعية انتقال من حدث إلى آخر»[71]

لقد تماهت الرواية داخل جسد الفتاة، فكانت الفتاة الشابة الطفلة الناضجة الاكتمال الجسدي، وكثيرا ما نجد الروائيين يخفون أنفسهم داخل الرّواية وراء شخصية الراوي بحجة موت المؤلف، وهو الحال مع رواية «شهقة الفرس» أما الجديد فيها فهو طبعا من جهة العتبات، إذ نجد الرواية نفسها تمثل صورة الفتاة الممتدة على الأرض، فيتداخل بذلك الجسدين معبرين عن فلسفة الحياة لـ «يتداخل صوت السارد مع صوت المؤلف الذي يصير في نفسه السارد، ويمتزج الواقعي بالمتخيل امتزاجا كليا له سمت لفظي، ما يوسم بانصرافات المؤلف التي هي بالفعل انصرافات من الحكاية إلى القراءة، أو هي تعليق للحكاية الأصلية بسبب تدخلات المؤلف وتعليقاته على الحكاية، أو بمناسبة مخاطبة المؤلف لقارئه، ودعوته لولوج عالم الحكاية»[81].

إن وضع الفتاة يدها على ذقنها، ونظرتها الذابلة وابتسامتها الخفيفة تحيل إلى الثقة التي صورتها لنا الروائية في شخصية البطلة، التي جعلت منها مركزا للتوازن الخارق «امرأة متوازنة ولكنها تريد لأحد العناصر أن يطغى على البقية، ويقودها إلى غيمتها الضائعة... تسطيع الكتابة عن كل هذا لكنها تصّر على الإيمان بأنها ليست كاتبة... ويفكر برعب أية خسارة كان سيجشمها الأدب إن امتنع ميشوا مثلا عن الكتابة، لأنه مقتنع بأنه ليس كاتبا.. انطباعات واهمة عن أنفسنا تقودنا إلى خسائر فادحة لا ندركها إلا بعد أن يفوت أوان كل شيء حتى النّدم...»[91]

3.حضور الحواس في الصورة:

لقد برز وجه الفتاة بكامل تفاصيله عدا جزء من الخد الأيسر، والأذن اليسرى، مما تبدو عليه الغبطة والحُسن،إذ يشكل مرآة يعكس عليها الجانب النفسي

للمتلقي.

يرى علماء النفس أن التواصل بالوجه يحقق التطابق بين الاثنين، فالتكشير يستلزم التكشير والضحكة تفتعل الضحكة، والابتسامة مردّها ابتسامة ثانية، يتجسد على الوجه أغلب الحواسالخمسة، وهي النظر (بالعين)، والشم (بالأنف)، والتذوق (باللسان)، والسمع (بالأذن).

فالعين تعبير عن مكنونات النفس والجوارح، وهي أعلى الحواس مكانة ومرتبة ودلالة «ولعل ما يعلي من شأن هذه الحاسة المهيمنة على الاستعمال الإدراكي الإنساني هو كونها تستجيب لجميع أنماط الاشتغال الحواسي، فهي تعمل وفق نظام الغلاف اللمسي حين يقف البصر على خشونة أو ليونة ملمس الأسطح، فتبدو العين وكأنها مزودة بأيد»[02].

أما (السّمع) فقد غُيّبت إحدى وسائله والأخرى لا تكاد تبدو تفاصيلها، وهي دلالة على التركيز على حاسة دون الأخرى، وهنا التركيز على حاسة النظر أكثر من السماع، ففضاء الرواية عالم جمع بين الطبيعة والحيوان، صورة الحبيب، الغيمة، المرآة... وكل هذه العناصر تعوّل على حاسة النظر أكثر من تعويلها على حاسة السمع، وفي ذلك قول الشاعر بشار بن برد:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة

والأذن تعشق قبل العين أحيانـــا

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم

والأذن كالعين تؤثر القلب ما كان[12]

أما الحاسة الخامسة التي لا يشملها الوجه فهي حاسة اللمس- طبعا - التي برزت في الصورة باليد المقبوضة إلى الأعلى، فاليد رمز للسلم، والبطش والنجدة والاستعطاف... لها من الدلالات ما تفرضه حركة اليد في حالتي القبض والبسط، وقد جاءت اليد مقبوضة وهي دالة على الكرم والشكر، والمسالمة وقد ذهرت شخصية البطلة ضمن ثنايا النص السردي شخصية مسالمة متقبلة لفضائها الأليم، إذ لم تحاول أن تُغيّر منه، ولكنها تصالحت معه، وتقبلته «أجمل ما في الألم أنه يفتح لنا بابا من بعيد، ندري أن الحياة تنتظرنا خلفه، ونركض للوصول إليه.. ولكنه يبتعد.. نستمر في الركض.. ولأول مرة نعرف جيدا أننا سنصل .. فالألم وحده قادر على الالتزام بفكرة البداية والنهاية»[22].

سارت بنا الرواية مسارا أفقيا محمّلا بآلام، وكأنها تبغي مشاركة المتلقي آلام الكتابة، ولا يمكننا أن نتجاوز هذه الأفكار دون أن ننظر من زاوية أخرى لهذا الجسد الأنثوي على أنه جسد يشكل رغبة جنسية.

4. صورة الجسد والجنس:

كثيرة هي توظيفات الجسد لأغراض جنسية، وهو ما تظهره اللوحات الإشهارية المعلقة في الشوارع، أو على أغلفة الملابس، إذ صار جسد الأنثى يقحم في عديد من الأعمال كرمز دال على الإثارة، وهو وسيلة لجذب المتلقي، وقد جُسِد في رواية «شهقة الفرس» أيقونة، ولغة فالروائية حالها كباقي الروائيات الأخريات امرأة تعتريها ذات الحاجات الشهوانية التي يملكها الرجل، وقد جاءت لغة الرواية إغرائية «فالإغراء قوة جذابة»[32]، تستهوي الرّوح المتلقية نظرا وقراءة، فقد صرّحت الصورة بجسد فتاة تملؤه الأنوثة والجمال، وقد جاءت لغة الرواية أداة تعبيرية عن هذا الجسد «فالأدب فن أداته اللغة»[42]، لهذا حملت اللغة الشاعرية بكلمات إثارية جنسية تهدف للتأثير في الآخرين للتتحول إلى عملية إغرائية مستهوية المتلقي للنظر إلى الصورة مرات متكررة، دون أن يحس بالملّل، تليها قراءة متفحصة عله يجد ما يروي ضمأهُ الجنسي داخل فضاء الرواية وهو الأمر المقصود من «العتبات»،»يمتد بيده إلى المناطق المكهربة، يشعرني بحرارة جسده وهو يلتصق بي، يتجول كعالم آثار بين الحواس القديمة يفحصها بحياد

وحده يتقنه، ينظر إليها كما كل مرة بنفس الفضول ونفس الدهشة، يتجول في مدينة يبنيها الخراب بعد حرب... يستمر ببطء صامت وحين يتيقن من أن كل خلية في جسدي صارت تشتهيه ينسحب بهدوء مبتسما كالعادة»[52].

وتتو إلى اللغة الجنسية عبر المتن الروائي مظهرة أنه رغبة جسدية وضرورة بيولوجية « إنه الظمأ الأبدي يا عزيزتي..الجنس بالنسبة لك هو الطريق الوحيدة للخلود، في كل مرة تمارسين فيها هذه الأشياء يخيل إليك أنك ابتلعت كمية إضافية من رحيق الحياة»[62].

لقد استطاع المتن الروائي قراءة الصورة، أو قد استطاعت الصورة قراءة المتن الروائي، مما أثمر عن عمل واع، يهدف لإثارة وإذكاء خيال القارئ، مما تيسر له عملية إدراك الدلالات من خلال قراءة تأويلية للصورة والمتن، كل هذا أضفى على الغلاف كصورة، والمتن السردي لمسة شعرية اختلط فيها «حب اللغة بحب الجسد وصارت اللغة جسدا للمغازلة والملامسة والاحتفاء، صارت اللغة والكلمات موضوع عشق ومحبة ومصدر متعة وروعة وجمال ونشوة بجمالية لا نجدها إلا عند كبار من قالوا بالدّهشة والغرابة في الأدب»[72].

أوشكت لوحة الغلاف أن تفضح المتن الروائي بسبب تمظهر الجسد الذي أوشك من حدود المطابقة السردية، لولا ما نعتقده من فرق بين نص وعتبة معروضة عرضا فنيا، حيث كشفت صورة الفتاة المستلقية عن آخر صفحة من صفحات الرواية «الصفحة «142»»، فكانت عتبة الغلاف بداية النهاية التي تمثلت في موت الفرس «كولومبيا» ، ورغبة الراوية في الشرب من النبع، ثم الاستلقاء على الأرض، «وأخيرا الفرس التي لم يعرف أحد منذ متى وهي تركض خلف الريح..

لم نسمع صهيلها لكنني سأصل يوما إلى نبع ماء في آخر البرية، سأشرب منه أنا الأخرى ثم أستلقي على الأرض وأهدي للريح ابتساماتي الأخيرة...»[82]، تعبيرا ورمزا عن الموت الآتي لا محالة.

من آخر كلمات النص جاءت قصدية الكاتب، أو الناشر قصدية واعية كشفت عن روح إبداعية شابة تضاف إلى قائمة الرّوائيين الجزائريين المدركين لقيمة العتبات.

الهوامش و المراجع:

1 فطيمة الزهرة بايزيد: التشكيل الجماعي لصورة الغلاف والعنوان – دراسة سيميائية – محاضرات الملتقى الوطني الثاني للسيمياء، ص:42

2 أبوبكر مرزوق: سيميائيات الفضاء النصّي-قراءة في رواية الزيني بركات - لجمال الغيطاني- منشورات الحياة الصحافة، ط1، الأغواط ، الجزائر،2006، ص:08.

3 دليلة زغودي: سيميائية الجسد في ثلاثية أحلام مستغانمي(مخطوط دكتوراه في النقد الأدبي الحديث والمعاصر)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (2013 – 2014)، ص:12.

4 المرجع نفسه، ص:71.

5 انظر لوحة الغلاف الأمامي: سارة حيدر، شهقة الفرس، منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون – منشورات الاختلاف -الجزائر، ط 1،2007.

6 سارة حيدر: شهقة الفرس، ص:28.

7 المصدر نفسه، ص:08.

8 المصدر نفسه، ص:09.

9 دليلة زغودي: المرجع السابق، ص:79.

10 المرجع نفسه ، ص:79.

11 سارة حيدر: المصدر السابق، ص:83.

12 دليلة زغودي: المرجع السابق، ص: 80

13 سارة حيدر: المصدر السابق، ص ص: 103،104

14 ظاهر محمد هراع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر، الشعر الأردني نموذجا، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص: 18.

15 سارة حيدر: المصدر السابق، ص: 140.

16 صلاح عبد الصبور: الديوان العودة، بيروت، 1998، ص:07.

17 ليندة خراب: شعرية السرد في الرواية العربية الجزائرية خط الاستواء، مقامة ليلية، سرادق الحلم والفجيعة أنموذجا، مخطوط درجة دكتوراه العلوم في الأدب الحديث، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، 2011-2012، ص:426.

18 المرجع نفسه، ص:08.

19 سارة حيدر: المصدر السابق، ص:76.

20 دليلة زغودي: المرجع السابق، ص:123.

21 انظر بشار بن برد: الديوان، دار المعارف، بيروت.

22 سارة حيدر، المصدر السابق، ص:99.

23 عبد السلام صحراوي: أسئلة الحداثة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001، ص:255.

24 المرجع نفسه، ص:253.

25 سارة حيدر: المصدر السابق، ص:13.

26 المصدر نفسه، ص:14.

27 عبد السلام صحراوي: أسئلة الحداثة العربية، ص:257.

28 سارة حيدر: المصدر السابق، ص:142.

الرواية: اللعبة الزمنية ومنطق السرد

د.عمر عاشور
أستاذ محاضر، قسم أ
المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة

Résume :

Les méthodologies formalistes considèrent le roman comme un jeu temporel qui se construit sur deux ordres : l'ordre des évènements et celui de la narration. Chacun des deux est régi par son propre système. La structure de chaque roman est déterminée en fin de compte par la manière dont l'écrivain manipule ces systèmes. Autrement dit, le roman se distingue par sa structure temporelle. Et c'est de cette idée qu'il s'agit dans le présent travail qui tente d'apporter de nouveaux éclairages concernant la structure du roman, genre très répandu à notre époque, avec le recul de la poésie.

Mots clés: temps, narration, structure narrative.

اللعبة الزمنية

يعدّ النص الروائي، في منظور النقد الحديث، لعبة زمنية تقوم على تصريف زمنين داخل بعضيهما، إلا أن اللعب يحتاج قواعد تضبط حركة القائم بالفعل المطالب باحترام انتظام وتسلسل المراحل التي تضمن للمتفرج / الملتقي عنصرَ التشويق.

والحكاية مثل اللعب، مجموعة أحداث متسلسلة وفق رباط زمني ومنطقي حيث يخضع الأول لصيغ ربط هي:

–التسلسل: هو تموضع المتتاليات الواحدة بعد الأخرى دون تداخل.

–التضمين: ورود متتالية بكاملها داخل متتالية أخرى.

–التداخل: هو دمج عدة متتاليات.

أما الرباط المنطقي فيطرح جملة إشكاليات، لأن القائم بالسرد مطالب في كل مرة بإخراج إحدى الإمكانيات الكثيرة من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، مع احترام الضرورة المنطقية التي تقيّد حريته بثلاثة شروط هي:

– تعلق السابق باللاحق

– جنس الحكاية

–أفق الاستقبال (العادة والعرف)[1]

والهيكل الزمني للنص الروائي يقوم على زمنيتين:

–أزمنة داخلية

–أزمنة خارجية

وإذا كان دور الزمن الخارجي يعد ثانويا في بناء نسيج النص، فإن الزمن الداخلي الذي يشيّد هيكل النص، يطرح بدوره ثنائية زمنية مضطربة، حيث أن للقصة زمنين، الأول هو زمن الحدث المخبر به (زمن الرواية)، والثاني هو زمن الإخبار (زمن الكتابة)، و يرجع هذا التذبذب إلى تعاصر الأحداث من جهة وبروز عدة شخصيات مرة واحدة، من جهة أخرى، واستحالة تقديمهما دفعة واحدة، وهو ما يدفع الكاتب إلى استعمال عدة تقنيات، كالحذف والتقديم والتأخير، مما يعرض هذه الزمنية إلى نوع من الخلط الناتج عن هذه التصرفات التي أوجد لها النقد قواعد تُعرف بنظام الزمن.

كما أن معالجة مدة زمنية قصيرة، داخل مساحة نصية طويلة، يفرز إيقاعا مختلفا عن معالجة مدة طويلة من الزمن داخل مساحة نصية قصيرة، ويسمى هذا الإيقاع بالسرعة السردية، ومنه فإن العلاقة بين خط الزمن الذي يتحرك خطيا وخط السرد الذي يسير وفق حركة متعرجة، تؤدي إلى دمج الأوضاع الزمنية، وخلط مستويات الزمن من ماض، حاضر ومستقبل، لذلك فإن دراسة كل من المفارقات الزمنية(Anachronies temporels) ومظاهر السرعة السردية (الديمومة Durée–)يجب أن تمر عبر ضبط محوري الزمن (Contrôle de deux axes temporels) حتى يتم تحديد كل من:

–**نظام الزمن** الذي يحكم المفارقات.

–**نظام السرد** الذي هو أساس السرعة السردية.

إلا أن الطابع النسبي للإحساس بالسرعة وتداخل مظاهر السرعة بشكل يمحو الحدود الفاصلة بينها لن يعطي قيّما ثابتة وإن كان سيعطي نتائج هامة.[2]

أولا: نظام الزمن (المفارقات)

يرى الناقد الفرنسي جيرار جنيت أنه» حين يبدأ مقطع سردي في رواية ما، بإشارة كهذه « قبل ثلاثة أشهر» يجب أن ندرك أن هذا المقطع قد أتى متأخرا في نقل الخبر وقد كان يجب أن يحل مقدّما في الرواية»[3] أي أن السرد أورده متأخرا، لذلك فإن المفارقة الزمنية أسلوبان، الأول يسير باتجاه خط الزمن، أي حالة سبق

الأحداث، والثاني يسير في الاتجاه المعاكس، أي حالة الرجوع إلى الوراء، وذلك قياسا بالنقطة التي بلغها السرد، ويصطلح على هذين الأسلوبين بالاسترجاع (Analèpse)والاستباق(Prolepse) .

ويخضع تحديد طبيعة ونظام المفارقة إلى افتراض نقطة انطلاق (نقطة الصفر)، تمثل التقاء زمن السرد بزمن الرواية، أي التقاء زمن الوقائع بزمن إخبارها، من خلال عملية قطع يقوم بها الكاتب في لحظة من حياة إحدى الشخصيات، وتسمى هذه النقطة بالافتتاحية، وهي نقطة وهمية لها قيمة وظائفية هامة، من حيث أن « المفارقة في نظام السرد تفرض تحديد نقطة انطلاق سردية يلتقي فيها زمنا السرد والرواية وهي مفترضة أكثر منها حقيقية تساهم في تحديد المفارقة، أي أن الاستباقات والاسترجاعات في السرد تنطلق من هذه النقطة بالذات».[4]

ومن هنا يصبح الاسترجاع والاستباق أساس المفارقة الزمنية، وكل مفارقة تتسم بالمدى والاتساع، حيث أن المدى هو المسافة الزمنية، التي تفصل بين لحظة توقف الحكي ولحظة بدأ المفارقة، أما الاتساع فهو المسافة الزمنية التي تستغرقها المفارقة.[5]

ويستنتج من هذا أن دراسة نظام الزمن، تعني مقارنة ترتيب المقاطع الزمنية بترتيب المقاطع النصية، الناتج عن ازدواجية الزمن الداخلي (زمن الوقائع المتخيلة)، ويمكن للمقارنة أن تتم داخل المقطع السردي الواحد الذي يشكل بنية صغرى(Micro- structure) أو داخل الرواية كبنية كبرى(Macro- structure).

I – الاسترجاع:

الاسترجاع عملية سردية تعمل على» إيراد حدث سابق للنقطة الزمنية التي بلغها السرد، وتسمى كذلك هذه العملية بالاستذكار«Rétrospection» .[6]

وبما أن في القصة مستويين من السرد: سرد أولي (Récit premier) وسرد ثانوي. R) (Second، حيث أن الأول يتولّد عن الثاني وظيفة سببية (Fonction causale) والثاني هو في خدمة تفسير الأول (F . Explicative) ، علما أن الأول يتموقع بعد نقطة الافتتاحية، والثاني قبلها، لذلك فإن أنواع الاسترجاع تصنف انطلاقا من العلاقات التي تربطه بمستويات السرد، وهي أربعة أنواع:

1– استرجاع خارجي : (A. Externe) وهو الذي يعود إلى ما وراء الافتتاحية، وبالتالي لا يتقاطع مع السرد الأولي الذي يتموقع بعد الافتتاحية، لذلك نجده يسير على خط زمني مستقل وخاص به، ومنه فهو يحمل وظيفة تفسيرية لا بنائية.

2– استرجاع داخلي : (A. Interne) وهو الذي يلتزم خط زمن السرد الأولي وينقسم بالنظر إلى علاقته مع هذا المستوى إلى:

أ– استرجاع داخلي متباين حكائيا.A) : (Hétéro diégétiqueوهو الذي يسير على خط زمن الحكي لكنه يحمل مضمونا سرديا مخالفا لمضمون السرد الأولي: حالة إدخال شخصية روائية جديدة يقوم السارد بتوضيح خلفيتها.

ب – استرجاع داخلي متجانس حكائيا : (A. Homo diégétique)وهو الذي يسير تماما على خط زمن السرد الأولي.

3– استرجاع مزجي :(A. Mixte) ضرب من الاسترجاع تكون نقطة مداه قبلية(Antérieur) وسعته بعدية (Postérieur) وذلك بالنسبة للسرد الأولي، وبالتالي فهو يجمع بين الاسترجاع الداخلي والخارجي.

4– استرجاع جزئي :(A. Partielle) هو« نمط ينتهي بقطع دون الرجوع إلى الحكي الأول».[7]

5–استرجاع تام :(A. Complète) هو الذي

يعود ليتصل بالحكي الأول دون فصل الاستمرارية بين مقطعي الرواية».[8]

أما فيما يخص المستوى الوظائفي للاسترجاع فإن الداخلي هو الذي يحمل وظيفة، وينقسم انطلاقا من هذه الوظيفة إلى:

1- استرجاعات متممة(A . Complétive (وهي بمثابة إحالات(Renvois) وهي مقاطع تعمل على سد ثغرات زمنية لإسقاطات زمنية سابقة ومؤقتة.

2- استرجاعات مكررة(A. Répétitive) وهي بمثابة تذكير(Rappel) .

وهي مقاطع نصية ساكنة زمنيا تحمل وظيفة دلالية متعلقة بتقدم العملية السردية، سواء قصد تأويل وضعية أو شخصية من وجهة نظر كمية، أو من وجهة نظر نوعية (إعادة تأويل)، لأن تأجيل الدلالة يلعب دورا هاما في ميكانيكية الحكي (اللغز مثلا)، وتكون الاسترجاعات المكررة ذاتية (A. Subjective) حين تكون في خدمة إحدى مكونات السرد، وموضوعية.A) Objective) حين تتعلق بالعملية السردية نفسها.

وهذه ترسيمة الاسترجاع:

II – الاستباق:

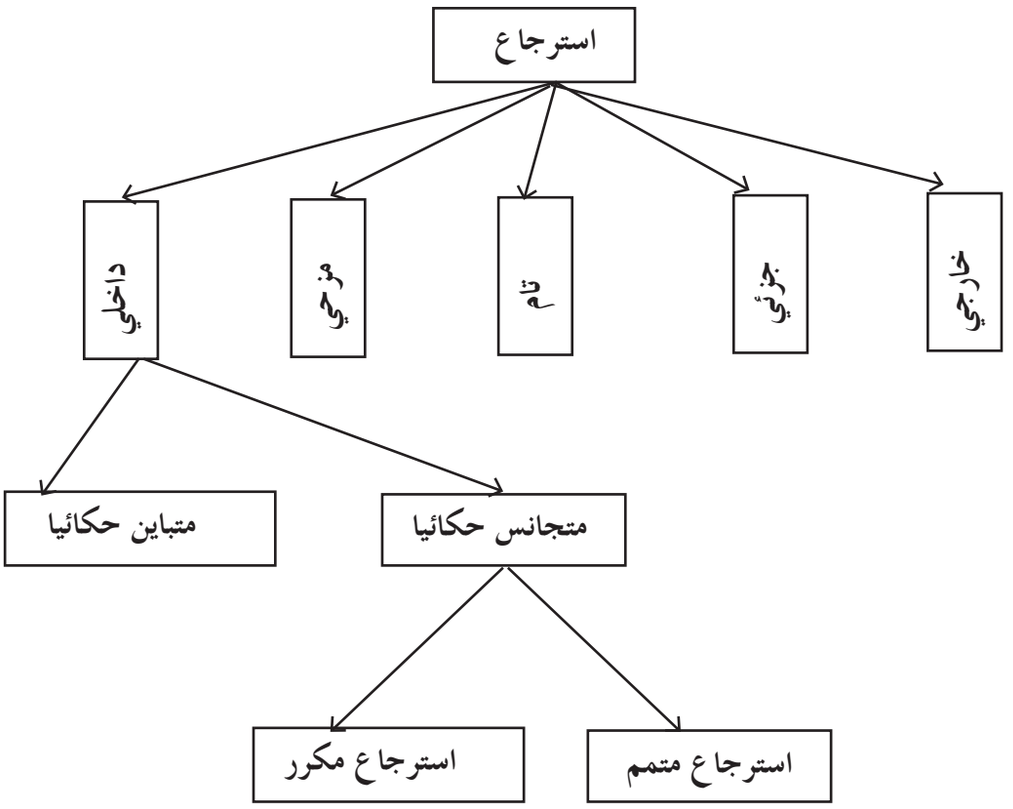

يعد الاستباق» عملية سردية تتمثل في إيراد حدث آتٍ، أو الإشارة إليه مسبقا، وهذه العملية تسمى في النقد التقليدي سبق الأحداث«Anticipation .[9]

وهو إحدى تجليات المفارقات الزمنية على مستوى نظام الزمن، ويطرح في تقسيماته الإشكالية نفسها التي يطرحها نظيره الاسترجاع، وعليه سأكتفي بذكر أنواعه في الترسمية اللاحقة، لأقف عند وظائفه التي تختلف . بالضرورة . عن وظائف الاسترجاع.

فإذا كانت الاسترجاعات المتممة تسعى إلى سد ثغرة سابقة في زمنية النص الحكائي، فإن الاستباقات المتممة التي هي إحدى تفرعات الاستباقات الداخلية المتجانسة حكائيا تَرد من أجل نفس الوظيفة مسبقا، أو من أجل «مضاعفة مقطوعة سردية آتية»[10]، وتسمى هذه الحالة الأخيرة بالاستباقات المكررة التي تؤدي دور أنباء (Annonces) وهي تختلف عن الفواتح (Amorces) التي تلعب دور مؤشرات (Indices)، انطلاقا من أن « الفاتحة – خلافا للأنباء – هي في مكانها وسط النص مثل « بذرة بلا معنى» نكاد لا نشعر بها ولا ندرك قيمتها كبذرة سوى لاحقا وبصفة استذكارية».[11]

ومن هنا، فإن الاستباق يشيع في روايات الذاكرة، كروايات السيرة الذاتية (Autobiographie) ، لأن السارد المتجانس حكائياNarrateur Homo diégétique( ) مؤهل لإدراك مسار الأحداث منذ لحظة بدء الحكي، كونه « حينما يشرع في حكي جزء من حياته الخاصة يعرف الآن ما ستؤول إليه هذه الحياة، لهذا من حقه أن يسبق سير الأحداث» [12]، ويمكن للاستباق أي ينطلق من العنوان المقرون بصفة، لأن الصفة هنا ستطبع متن الحكاية، بينما الاسترجاع يضطرد في الروايات بنت لحظتها، كاليوميات والمراسلات التي يُجهل ما ستؤول إليه أحداثها مستقبلا.

وإذا كان الاستباق يعد من الحيل الفنية التي يلجأ إليها الكاتب قصد خلق حالة انتظار لدى المتلقي، إلا أن تحققه لاحقا غير إلزامي في شيء، فهو لا يحمل أي ضمان بالوفاء، لأن ما تطرحه أو تُبيّت عليه الشخصيات من تطلعات يمكن أن يصيب أو يخيب، ولاسيما حين يقصد الراوي التضليل تمويها لخطة السرد، مما يوجد نوعا من الاستباق الكاذب الذي يطلق عليه الناقد جيرار جنيت تسمية الفواتح الخادعةFausses) .[13] Amorces)

وبين مؤكد وغير مؤكد، يقسّم الاستباق وظيفيا إلى فاتحة وإعلان، والفرق بينهما أن الفاتحة لا تحمل أي التزام بالثقة، فهي مرشحة – في الوقت نفسه –إلى التحقق من عدمه، بينما يشترط في الإعلان أن « يخبر صراحة عن سلسلة الأحداث التي سيشهدها السرد في وقت لاحق».[14]

أما إذا تم الإخبار ضمنيا، فإن الإعلان في هذه الحالة يتحول آليا إلى فاتحة، لأن الاستباق هنا يصبح حالة انتظار مجردة من كل التزام تجاه القارئ.

في الأخير لابد من الإشارة إلى أن الحضور الكمي للاسترجاع، مقارنة بالاستباق، أو العكس، لا يمكن أن يدل على قيمة إضافية، لأن لكل أسلوب من المفارقة الزمنية قيمته البنائية والدلالية.

وهذه ترسيمة الاستباق:

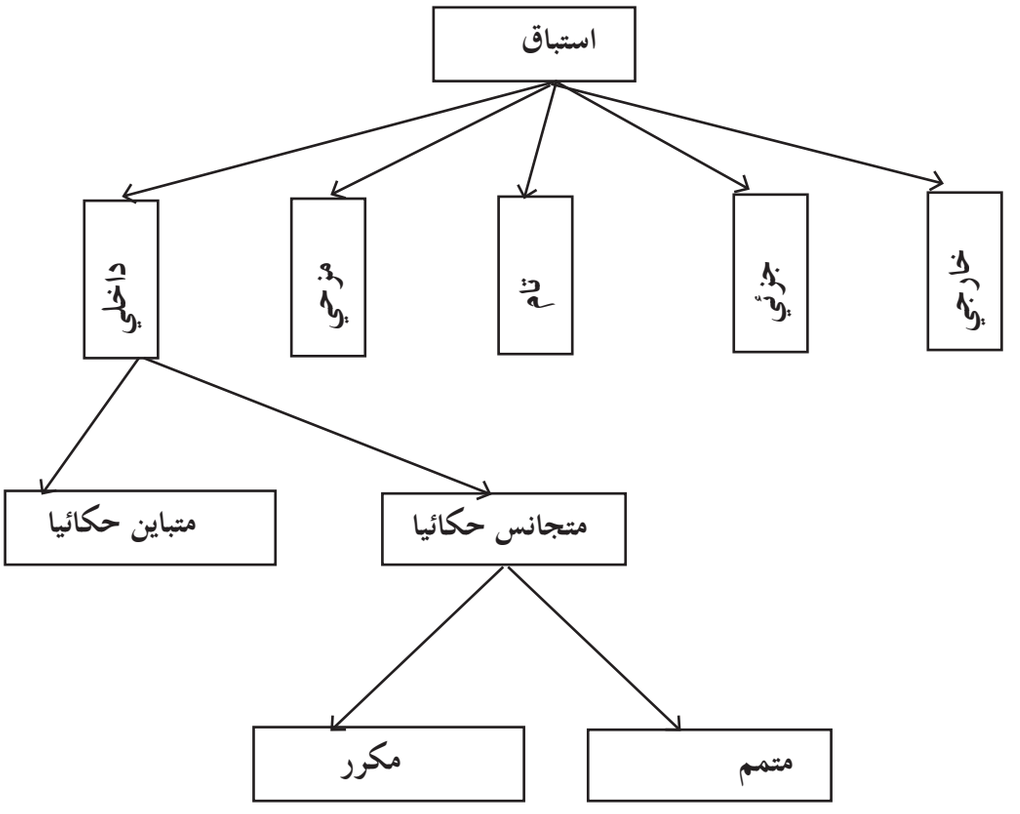

ثانيا: نظام السرد (الإيقاع)

إذا كانت دراسة نظام الزمن تُعنى بالمقارنة بين ترتيب المقاطع الزمنية وترتيب المقاطع النصية، فإن دراسة نظام السرد تعنى بدراسة العلاقات بين زمن الحكي وطول النص، حيث أن الزمن يقاس بالثواني والسنين، والطول بالجمل والصفحات، وذلك قصد استقصاء التغيرات التي تطرأ على سرعة السرد من تعجيل وتبطئة، وهو ما يسمى بالديمومة التي رصد فيها جنيت حالتين من التوافق وحالتين من التقابل:

I– المشهد:

المشهد (Scène) هو حالة التوافق التام، بين حركة الزمن وحركة السرد، حيث يتحرك السرد أفقيا وعموديا بنفس حركة الحكاية، فتتساوى بذلك المسافة الزمنية (مستوى الحكاية) والمسافة الكتابية (مستوى النص)، وهذا لا يتأتى في الحقيقة، إلا في حالة الخطاب بالأسلوب المباشر (الديالوج والمنولوج)، لذلك يسمى المشهد بالطريقة الدرامية في كتابة القصة.

وبما أن الرواية سرد درامي، فإن الأحداث القوية فيها تتحول تلقائيا إلى مشهد والثانوية تؤول إلى ملخص (إيجاز)، وإذا كان الحوار يعد التجلي الخالص للمشهد، فإن ذلك لا يحدث إلا في حالة الحوار المجرد الذي يلتزم حدود الموقف، أما الأسلوب المباشر الموجز الذي ينقل الأحداث أو الأسلوب الواصف الذي يصف الأشياء، فإنه يخل بعلاقة التساوي نوعا ما، حيث تقْصر المسافة السردية وتطول المسافة الزمنية، والعكس في حالة الأسلوب المباشر المحلل، مما يعيد للمشهد توازنه.

مشهد: زس= زح

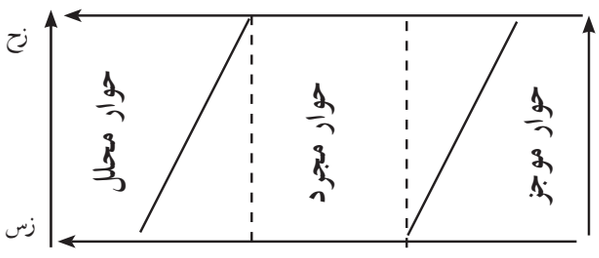

ويمكن للمشهد أن يحتوي على المفارقات الزمنية والوصف وتدخلات الكاتب الموجهة للعملية السردية وتعليقات السارد الأخلاقية والفلسفية.... الخ، لذلك فإن ما يقصد بـ (احتواء المشهد) هو احتواءه على هذه القضايا التي تجعله قريبا من الإيجاز، وبما أن المشهد هو الحدث لحظة النمو لا تقرير السارد عنه، فإنه يتطلب من الوقت « بالقدر الذي لا يكون فيه أي تغيير في المكان، أو أي قطع في استمرارية الزمن» [15]، علما أنه « لا عبرة بزمن القراءة في تحديد زمن الاستغراق».[16]

II – الإيجاز:

يعد الإيجاز (Sommaire) إحدى حالات عدم التوافق بين زمن الحكاية وزمن السرد، حيث يتم تلخيص عدد من السنوات في بضع جمل أو صفحات، فتسبق حركة الزمن حركة السرد، أي أن الحركة العمودية لزمن السرد تصبح أسرع من الحركة الأفقية، وهو ما يتطلب على مستوى الخطاب الأسلوب غير المباشر، ويكون قريبا حين يختصر حدثا أو حوارا، وبعيدا حين يختصر أحداثا يطول مداها الزمني.

ويطرح الإيجاز عدة تقاطعات مع المشهد تسمى باحتواء المشهد، وهو» مراحل زمنية في الكتابة مقابلة بين الإيجاز والمشهد يكون فيها الثاني تفصيلا وتوضيحا للأول، والأول اختصارا للثاني مع أن للواحد منهما من الناحية البنائية وظيفة تختلف عن وظيفة الآخر».[17]

إيجاز: زس < زح

أحداث

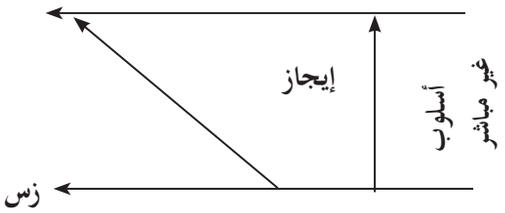

III – القطع:

يمثل القطع (Ellipse) إحدى حالات عدم التوافق بين محوري الزمن في الرواية، حيث يتجه زمن الحكاية نحو ما لا نهاية، وتؤول المسافة السردية نحو نقطة قريبة من الصفر « ويتعلق الأمر بمدة من الحكاية يُسكت عنها تماما من طرف الحاكي، ويجب أن تكون هناك إمارة دالة على الحذف كحذف أو أن يكون على الأقل قابلا للاستنتاج من النص، ويكون وظيفيا بدرجة أعلى أو أدنى» [18] ، ويفهم من هذه المقولة أن القطع (الحذف) أنواع، وهي عند جنيت:

1–القطع المحدد E. Déterminé : وهو الذي ينص على مدته كقولنا « بعد مدة كذا.«

2–القطع غير المحدد E. Indéterminé : وهو الذي يشار إليه ولا ينص على مدته، كقولنا «بعد مدة.«

وهذان النوعان يحتويان أسلوبين هما:

أ– القطع الصريح E. Explicité : ينص عليه النص صراحة.

ب– القطع الضمنيE. Implicite : يفهم من السياق.

حيث يرى **ج. جنيت** أن ثمة « نوعان من القطع، القطع الصريح ويتضمن المحدد وغير المحدد، أما الثاني فلا يتضمنه السرد بل يتحسس القارئ وجوده من خلال العمل الروائي، وعليه يسمى القطع الضمني»[19]، ومن حالات القطع الضمني البياضاتُ التي يتركها الكاتب بين المقاطع المتتالية.

إضافة إلى أن « القطع يحمل أحيانا مضمونا روائيا كقولنا « بعد مرور سنين سعيدة»، فهذا النعت يرقى بالقطع إلى وظيفة الإيجاز مختصرا في الحكاية أحداثا سريعة».[20]

وبما أن مسافة السرد في القطع تنتهي قريبا من نقطة

الصفر، لذلك فهو يتطلب على مستوى الخطاب حالة اللا- خطاب، وهذه معادلته وترسيمته:

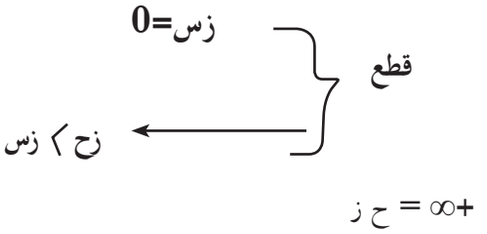

+∞ = ح ز

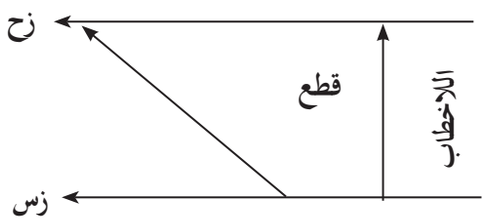

IV – التوقف:

يعد التوقف(Pause) مظهرا من مظاهر عدم التوافق بين محوري الزمن، الناتج عن تعليق سير الأحداث والمرور إلى الوصف أو التحليل النفسي، مما يُحدث نوعا من القطع الزمني، تطابقه ديمومة معدومة في حالة الوصف وديمومة قريبة من الصفر أثناء التحليل النفسي، وهذا يرجع إلى « أن الراوي عندما يشرع في الوصف يعلّق بصفة وقتية تسلسل أحداث الحكاية أو يرى من الصالح، قبل الشروع في سرد ما يحصل للشخصيات، توجيه معلومات عن الإطار الذي ستدور فيه الأحداث، لكن من الممكن ألا ينجر عن الوصف أي توقف للحكاية، إذ أن الوصف قد يطابق لحظة تأمل لدى شخصية تبين لنا مشاعرها وانطباعاتها أمام مشهد ما، وهذا ما يسمى بالوصف الذاتي»[21]، ويفهم من هذا أن مدة تعليق الزمن أثناء الوصف حين تطول ينتج عنها وصف مبأر وتكون الصورة الوصفية هنا ساكنة، وحين تقصر مدة تعليق الزمن تكون الصورة متحركة من جراء عدم التبئير، وتسمى الصورة الأولى بالوصف الاستقصائي الذي يغرق في تفاصيل وجزئيات الموصوف، ويكون الوصف انتقائيا في الصورة الثانية نتيجة قلة التفاصيل، لذلك أثناء التوقف يتحرك السرد أفقيا فتطول مسافته، ويراوح الزمن مكانه فتؤول مسافته إلى الصفر في الوصف، وإلى نقطة قريبة منه أثناء التحليل النفسي:

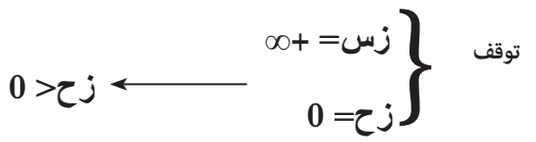

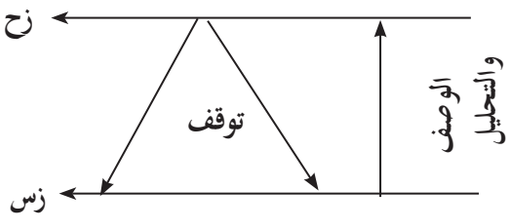

ثالثا: التواتر السردي

إن ما يسمى بالتواتر السردي(Fréquence narrative) أو ببساطة التكرار هو «علاقات التواتر بين الخبر والحكاية»[22]، لأن الخبر ليس مؤهلا للحدوث فقط، بل قادرا على التكرار من جديد، فنحن حين نقول « تشرق الشمس كل يوم» فعملية الشروق ليست نفسها كل صباح، لكن السرد يذكرها مرة واحدة كافية للدلالة على المرات الأخرى المتكررة في الحكاية Diégèse.[23]

وبغية تحديد نماذج التواتر السردي ننطلق من هذه المقولة النظرية للناقد جيرار جنيت ثم نفصّلها « .. هو نظام علاقات يمكن رده إلى أربعة نماذج مضمرة، تقسم قسمين: أحداث مكررة أو غير مكررة ثم بيان سردي مكرر أو لا، وعليه يمكن القول أن السرد مهما

كان نوعه قد ينقل مرة ما حدث مرة أو عدة مرات، وينقل أيضا عدة مرات ما حدث مرة واحدة أو عدة مرات»[24]:

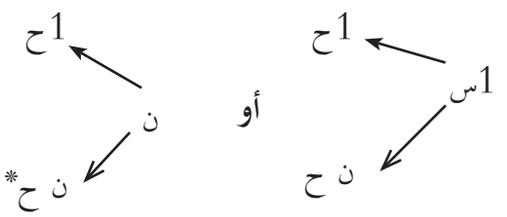

I– التواتر المفرد:

يقصد بالتواتر المفرد (F. SingVulatif) أن « نحكي مرة واحدة ما وقع مرة واحدة (أو عدة مرات ما حدث عدة مرات) ، ولا فرق بين الحالتين، فالحكاية والمحكي يتطابقان»[25]، أي مرة في السرد ومرة في الحكاية أو مرات في السرد ومرات في الحكاية، وذلك كقولنا « أمس نمت باكرا» (الحالة الأولى) أو قولنا « يوم الاثنين نمت ساعة، يوم الثلاثاء نمت ساعة ويوم الأربعاء نمت ساعة... الخ» (الحالة الثانية): [26]

II– التواتر المكرر:

الحالة الأولى : 1 س ⟵ 1س

الحالة الثانية : ن س ⟵ ن ح

التواتر المكرر (F. Répétitif) هو الذي « نحكي فيه أكثر من مرة ما حدث مرة واحدة وهو إجراء شائع في الرواية بالمراسلة...».[27]

وهذا معناه أن الرسالة في حد ذاتها تحمل قيمة إنجازيه، ومثال هذا الضرب من التواتر، كأن يكرر الكاتب هذا الخبر « أمس نمت باكرا» ثلاث مرات، أي مرة في الرواية وثلاث مرات في السرد:[28]

1ح ⟵ 3 س

III – التواتر المؤلف:

التواتر المؤلف (F. Itératif) نموذج « حكي فيه مرة واحدة ما حدث مرات عدة»[29] أي مرات في الحكاية ومرة في السرد، كأن نقول «» كل الأيام» أو «كل الأسبوع» أو « كل أيام الأسبوع» نمت ساعة مريحة»[30]:

1س ⟵ ن ح (تواتر مؤلف)

خلاصة:

ختاما يمكن الوصول إلى أن الرواية هي الزمن، وهو ما يعطي هذا المكون السردي وظيفة بنائية أساسية انطلاقا من أن نظام الزمن ونظام السرد والمنطق الذي يحكم به الروائي هذين النظامين هو الذي يعطي للرواية هذه البنية أو تلك، أو بعبارة أخرى أن الروايات تتمايز ببنائها الزمني.

هوامش

(1) مج. مؤلفين: الرواية العربية واقع وآفاق . دار ابن رشد للطباعة والنشر .1981 .بيروت. ط1.ص241-249

(2) حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي). المركز الثقافي العربي. 1991. بيروت. ط1. ص21

(3) Gérard Genette : **Figures III** . Collection poétique .Ed-Seuil .Paris.1972.P79

(4) Ibid : p79

(5) مج مؤلفين : نظرية السرد (من وجهة النظر إلى التبئير) ترجمة: ناجي مصطفى . منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي. 1989. الدار البيضاء. ط1.ص 124

(6) سمير المرزوقي وجميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة (تحليلا وتطبيقا) . ديوان المطبوعات الجامعية و الدار التونسية للكتاب. (د.ط).ص80

(7) G. Genette : **Figures III**.P101

(8) Ibid : P 101

(10) G. Genette : **Figures III**.P109

(11) Ibid : P 113

(12) مج مؤلفين : نظرية السرد . ص 125

13)) G. Genette : **Figures III**.P114

(14)حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصية). المركز الثقافي العربي، 1990 الدار البيضاء. ط1. ص 137

(15) ليون سرميليان: بناء المشهد الروائي " الثقافة الأجنبية" . وزارة الثقافة والإعلام (بغداد) . السنة السابعة العدد:1987/03.ص 78

(16) حميد لحمداني : بنية النص السردي. ص 76

(17)G.Genette : Figures III.P12

18) (مج. مؤلفين : نظرية السرد . ص 127

G.Genette : Figures III.P140 (19)

Ibid : P140 (20)

سمير المرزوقي وجميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصة. ص 90. 91 (21)

(22) G.Genette : Figures III.P145

(23) Ibid : P 145

(24) Ibid : P 146

* يجب أن ندرك أن الوسيط ن أكبر دوما من العدد1.

(25) مج مؤلفين : نظرية السرد. ص 128

(26) G.Genette : Figures III.P147

(27)مج. مؤلفين : نظرية السرد. ص 128

(28) G.Genette : Figures III.P147

(29) مجموعة مؤلفين : نظرية السرد. ص 128

(30) Genette : Figures III.P147

دور الرياضيات في التصور العقلي للطبيعة

بـــطـــــاش مـــنـــانـــة
أستـــاذة مســـاعـــدة «أ»
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

Résume :

Cet article vise à tirerau claire le rôle fondamentale qu'ont joué les mathématiques dans l'explication rationale de la nature et mettre en évidence l'impossibilité de fonder les lois scientifiques sans avoir recours au rôle des mathématiques.

Mots clés : mathématiques – physique – induction – déduction – méthode

مقدمة:

تدرس الابستمولوجيا العامة مختلف المشاكل المشتركة للعلوم سواء الفيزيائية منها أو الإنسانية، نظرا لما فيها من ترابط وتداخل ومن بين هذه المشاكل بعضها متعلقة بالذات الدارسة وبموضوع الدراسة، والبعض الآخر متعلق بالأدوات المعرفية[1] المختلفة، التي تعتمد عليها هذه العلوم في البحث وضبط نتائجها، ومن بين هذه الأدوات المعرفية الرياضيات التي هي لغة التواصل بصفة عامة ولغة العلوم بصفة خاصة.

لأن هذه العلوم لا تكمل إلا بتحول نتائجها إلى مقادير كمية في شكل معادلات وخطوط بيانية. إنها كتابة مختصرة موجزة ودقيقة تناسب الوصف الكمي لهذه العلاقات المجردة بين الظواهر التي تحدث في الطبيعة، والرياضيات هي التي تناسب هذه العملية إلى درجة أن كثير من المعارف الرياضية ابتكرت من أجل خدمة العلم، الأمر الذي جعل أغوست كونت A.comte (1798-1857) يرى أن الرياضيات هي الآلة الضرورية لجميع العلوم وعلى أساسها تصور الإنسان الطبيعة تصورا عقليا منذ آلاف السنين (الفلسفة الطبيعية اليونانية) لذلك فالإشكال الذي نطرحه في هذا المقال هو ما دور الرياضيات في تصور الإنسان العقلي للطبيعة وإلى أي مدى ينسجم هذا التصور مع التصور التجريبي؟

التصور العقلي للطبيعة: تعريف الرياضيات:

الرياضيات عبارة عن علم عقلي مجرد يدرس الكميات المنفصلة وهي الجبر والحساب والكميات المتصلة وهي الهندسة، عرفها الفيلسوف الفرنسي أندريه لالاند بقوله: «الرياضيات هو اسم عام يشمل كل العلوم التي تأخذ العدد والنظام العددي والامتداد

موضوعا لها»[2] أما جميل صليبا فهو عرفها بقوله: «يطلق هذا الاسم على الحساب والجبر والهندسة ونحوها، وموضوعها الكم»[3].

وهو علم قديم جدا يشهد تاريخه أن البابليين والمصريين استخدموا العمليات الحسابية منذ آلاف السنين قبل الميلاد لتقدير الضرائب وحساب الفوائد ثم تطورت عند اليونانيين الذين كاد ينحصر دورهم في مجال علم الرياضيات وحده وخاصة الهندسة التي بناها إقليدس على أساس نظام البديهيات، المسلمات والتعريفات، وقد أكد أرسطو (384 ق.م/332 ق.م) أن اليقين الرياضي الذي تحدث عنه أفلاطون مستمد من الرياضيات كعلم برهاني يقوم على أسس ومبادئ ننطلق منها أثناء البرهنة على مجموعة من القضايا، وهذه المبادئ لا يمكن تبريرها إلا في الميتافيزيقا التي سماها بعلم المبادئ الأولى[4] وقد أصبح المنهج الإقليدي منهجا رياضيا لا بديل له وهذا لقرون عدة و لم تتغير الأمور إلا انطلاقا من القرن التاسع عشر.

استعانت أهم نظرية في تاريخ العلم البشري القديم بهذا النسق الإقليدي واعتمدت على الاستدلال الهندسي، وهي نظرية بطليموس (حوالي 100م/170م) الفلكية القائلة بمركزية الأرض التي أثبتت أن الأرض ثابتة وكل الأجرام السماوية تدور حولها.

سادت هذه النظرية من القرن الثاني الميلادي إلى القرن السادس عشر، وهي كانت أساسا لكثير من البحوث العلمية و لم يثبت خطأها إلا في القرن السابع عشر، وذلك بعدما استطاع العقل البشري التحول من الاستدلال العقلي إلى العلم التجريبي وأدرك أن التجربة العلمية أداه مهمة للمعرفة لأنها تعزل العوامل عن بعضها البعض وتسهل عملية البحث، وهذا يعني أن الرياضيات كانت منذ بداياتها الأولى إحدى الأدوات الأساسية في الطريقة العلمية، لكن تبين فيما بعد أنها غير كافية وحدها وإنما يجب الاعتماد أيضا على طريقة تجريبية تجعلنا نحتك بالواقع وما يحمله من ظواهر مختلفة.

من هذا المنطلق بدأ العلم الحديث مرحلة جديدة استهلت بأبحاث كوبر نيكوس (1543/1473) الذي وضع النظام الفلكي المرتكز على مركزية الشمس، وبأبحاث غاليلي الذي جمع بين التجربة والصياغة الرياضية تقول فراسوانباليبار:«... حيث لأن معيار البساطة هو الذي يجعل عند غاليليو التجارب بالفكر والرياضيات متجانسة فإنه يمنح الرياضيات دورا منتجا للمعارف الفيزيائية»[5] أما هانرريشنباخ فهو يقول:« لقد كان أفلاطون كما ذكرنا من قبل ينظر إلى الرياضيات على أنها أسمى صورة للمعرفة وقد أسهم تأثيره بدور كبير في الرأي الشائع القائل أن المعرفة لا تكون معرفة على الإطلاق إن لم تتخذ صورة رياضية، غير أن العالم الحديث وإن لم يتخذ الرياضيات أداة رئيسية للبحث لا يقبل هذا الحكم دون قيد أو شرط، وإنما يؤكد على أن الملاحظة لا يمكن إغفالها في العلم التجريبي[6]».

وهذا يدل على أن أفلاطون (429 ق.م/347 ق.م) لم يكن يعلم ما يمكن تحقيقه عن طريق الجمع بين المنهج الرياضي والتجربة وإنما كان يعتقد أن معرفة الطبيعة لا تحتاج إلى ملاحظة، وإنما يمكن دراستها وفهمها بالعقل وحده واعتبر الظواهر الطبيعية كائنات طبيعية وهو يرى في كتابه **الجمهورية**: بدلا من ملاحظة النجوم علينا أن نحاول الاهتداء إلى قوانين دورانها بالعقل، فمن واجب الفلاكي أن يترك السماء المحتشدة بالنجوم جانبا،[7]أي أن الرياضيات تمثل في نظر الفيلسوف العقلاني الصورة المثلى للمعرفة.

لكن لا ننسى أن هناك صورة أخرى للمعرفة منذ العهد الإغريقي، وهي القائمة على الملاحظة الحسية التي اعتبرت المصدر الأول للمعرفة، وهي التي كانت تسمى في الفلسفة اليونانية بالفلسفة الطبيعية، فلسفة ديمقريطس (460ق.م/370ق.م)وبارمنيدس (حوالي

515 ق.م/450 ق.م)، ثم تطورت هذه النظرة عند فلاسفة عظام مثل فرانسيس بيكن (1626/1561) ولوك (1704/1632) وهيوم (1776/1711)، وبدأ المذهب التجريبي يتخذ أبعادا عميقة وهكذا توالت الاكتشافات العلمية بفضل أداتين مهمتين هما:

1. المنهج التجريبي الذي وضع أسسه فرانسيس بيكن في كتابه الأرغانون الجديد الذي تضمن ثلاثة أجزاء، خصص الأول لنقد الأرغانون الأرسطي، والجزء الثاني لنقد الأخطاء الشائعة التي يقع فيها العقل البشري وسماها بالأوهام أما الجزء الثالث فعرض فيه أسس المذهب التجريبي الذي اعتبره أهم وسيلة للاكتشاف
2. المنهج الرياضي الذي يقوم على أساس الاستدلال العقلي والتكميم والدقة بحيث ينظر إلى الظواهر الطبيعية كمجرد قوانين ومتغيرات، داخل معادلات رياضية لتصبح الطريقة العلمية قائمة على أساس إمكانية الملاحظة الحسية والتجربة ومعقولية الطبيعة.

نتج عن هذا الوضع ربط الفيزياء بالرياضيات التي أصبحت علما دقيقا وذلك بانتقالها من النظرة الكيفية للظواهر الفيزيائية إلى النظرة الكمية التي تعتبر مصدر قوة لكل علم، لأن استخدام الرياضيات كمنهج في البحث، والذي يتمثل في المنهج الفرضي الاستنباطي وكلغة والتي تتمثل في الأرقام ومنحنيات وأشكال... أدى إلى نقل العلم الحديث من مرحلة التخمين والوصف إلى مرحلة التكميم والترييض والدليل على ذلك ما وصل إليه كل من كبلر (1630/1571) وغاليلي (1642/1564)ونيوتن (1727/1642) من نتائج في أبحاثهم الفيزيائية التي أدت إلى تطور غير مسبوق في الفيزياء.

لقد استعمل غاليليهذه الرياضيات لغة ومنهجا فقاس الزمان والفضاء والحركة وسقوط الأجسام وهو يقول: « لقد كتب الكون بلغة رياضية وأحرفه مثلثات ودوائر وغيرها من الأشكال الهندسية، التي دونها يستحيل على الإنسان فهم أية كلمة منه»[8] كما أدرك أيضا نيوتن أن نجاح قانونه في الجاذبية متوقف على المنهج الرياضي الجديد الذي اكتشفه وهو حساب التفاضل والتكامل ولقد كانت الحاجة إلى هذه الطريقة جد مهمة في ذلك الوقت إلى درجة أن اكتشاف هذا الحساب التفاضلي تم في وقت واحد على يد نيوتن في بريطانيا ولايبنتز (1716/1646) في ألمانيا وكل واحد مستقل عن الآخر وهذا يدل على مدى تطور الرياضيات لخدمة العلم.

كما اعتمد أيضا على التكميم والتقدير الرياضي في مختلف أبحاثه حول الزمان، المكان، الحركة وكتابه المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية لدليل على أن الهندسة وحساب التناسب، هو أساس العلم الطبيعي، وأن هدف كتابه يتمثل في السماح باستعمال الرياضيات في مجال الظواهر الحسية، واستعمال لغة رمزية دقيقة تضمن عملية المساواة وما يرتبط بها من حساب وجبر وهندسة، لكن هذا لا يعني أن نيوتن يرفض البعد التجريبي في العلم الطبيعي، وإنما اعتمد عليه في مختلف أبحاثه الفيزيائية.

لأن معطيات الملاحظة على الرغم من أنها أساسية في المنهج التجريبي إلا أنها غير كافية لذا فالتفسير الرياضي هو الذي يكملها ويسهل عملية البحث والتجريب ثم يعطى لنتائجها طابعا عقلانيا وتعبيرا رياضيا، أما بوانكاري فهو يعتبر أن الرياضيات تستند إلى الاستنباط، لكن هذا لا يعني أنها تعتمد على التحليل فقط وإنما تعتمد أيضا على التعميم الذي يمثل البعد الإبداعي ويسمي بوانكاري هذا النوع من الاستدلال التعميمي بالبرهان الإسترجاعيraisonnement par récurrence الذي يتميز بالخصوبة[9] لأن النتيجة فيه أعم من المقدمات، وهذا النوع من المنهج

ساعد كثيرا الدراسات الفيزيائية القائمة على أساس تعميم النتائج.

يتضح أن الاستنباط الرياضي المقترن بالملاحظة والتجربة هو سر نجاح العلم الحديث وتطوره لأن هذا المنهج الرياضي هو الذي جعل الفيزياء تتميز بالقدرة على التنبؤ، إذ لا يمكن للملاحظة والتجربة أن تؤديا دورهما إذا لم تقترنا بالاستنباط الرياضي. وهكذا أصبح القانون الرياضي أداة للتنبؤ وليس أداة للتنظيم والحساب فقط، لأن التعبير عن القوانين الفيزيائية تعبيرا رياضيا جعل تلك الضرورة البرهانية تتحول إلى ضرورة فيزيائية،فانتقل اليقين الرياضي إلى تلك الظواهر الفيزيائية، وصدق غاليلي عندما قال أن الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية وأثبتت كل الأبحاث العلمية هذه المقولة، لأن كل القوانين الطبيعية أصبح لها تركيب وضرورة وشمولية ودقة ويقين القوانين الرياضية يقول هايزنبرغ: «على الرغم أن المفاهيم الرياضية يمكن تحديدها تحديدا دقيقا من حيث ارتباطها، والحق أن هذا يحدث حين تصير المفاهيم جزءا من نظام بديهيات وتعريفات نستطيع أن نعبر عنها في مخططات رياضية تعبيرا خاليا من التناقضات»[10].

ونظرا لنجاح المنهج الرياضي في الفيزياء ظهرت الحتمية فيها أيضا بنجاح لأن إذا استطعنا تصور القوانين الفيزيائية على أنها معادلات رياضية وأن هذه القوانين تنبؤنا بالحالات المستقبلية فإنه من الضروري وجود نظام رياضي وراء الظواهر الطبيعية التي تظهر وكأنها غير منتظمة، وهذا النظام الرياضي نظام سببي وحتمي عبر عنه العالم الفيزيائي الفرنسي لابلاس قائلا:« لو وجد عقل فوق البشر يستطيع ملاحظة موقع كل ذرة وسرعتها وحل جميع المعادلات الرياضية لكان المستقبل كالماضي حاضرا بالنسبة لهذا العقل فوق البشر ولأمكنه أن يحدد بدقة التفاصيل الدقيقة لكل حادث سواء كان يقع بعدنا أو قبلنا بألاف السنين».[11]

هذه الحتمية هي أهم مبدأ في المنهج التجريبي وأهم نتيجة لفيزياء نيوتن تجعل العالم الفيزيائي مثل الساعة وكل ما يحدث فيه يحدث بطريقة آلية قائمة على أساس توفر الشروط التي تؤدي دائما إلى النتائج ذاتها. حققت هذه الحتمية تقدما ليس في الفيزياء فقط بل وحتى في البيولوجيا ومن هنا بدأ الصراع بين التصور العقلي للطبيعة والتصور التجريبي:

- يمثل كل من ديكارت ولايبنتز التصور العقلي واعتقدا أنه يمكن رد الفيزياء إلى الرياضيات وأن (العقل البشري) يولد بأفكار فطرية الأمر الذي يجعل القانون العلمي في نظرهم قانونا عقليا،يضفيه العقل على الطبيعة أثناء البحث.
- ويمثل كل من لوك وهيوم وجون ستيوارت ميل (1873/1806)التصور التجريبي للطبيعةواعتقدوا أن الملاحظة والتجربة هما أهم أدوات المعرفة بحكم أن القانون العلمي قانونا تجريبيا موجودا في الطبيعة وما على العقل سوى اكتشافه وصياغته، أدى هذا الوضع إلى ظهور نزعتين:

نزعة تجريبية ونزعة عقلية اللتان أحدثتا ثورة في البحث العلمي رغم ما تعرضت له النزعة التجريبية من انتقادات من طرف هيوم والتي لم تصمد أمامها وأدخلت العلم الطبيعي في أزمة سميت بأزمة الاستقراء في العلم الطبيعي، يقول إيتيان وولف: «إن ظاهرة ما لا تكرر أبدا مرتين ضمن نفس الشروط لأن شروط الظاهرتين في الحالتين تكون مختلفة، وذلك لمجرد أن الظاهرتين المعتبرتين متطابقتين لا تحدثان في نفس الزمن، وأن ليس لهما سوابق مختلفة فليس من الممكن إذن صياغة قوانين ذات قيمة عامة وبذلك تنتهي إلى فكرة نوع من الحوار في قوانين الطبيعة»[12].

التصور التجريبي للطبيعة:

لا يزعم الفيلسوف التجريبي أنه ابتكر نوعا جديدا من المعرفة أثناء البحث وإنما يؤكد دائما أنه اكتشف المعرفة. عن طريق الملاحظة الحسية والتجربة ويرفض تفسيرها على أنها من إبداعه الخاص اعتقادا منه أن القانون العلمي موجود في الطبيعة وما على الباحث سوى اكتشافه وصياغته فجون لوك مثلا يرى أن الذهن يبدو وكأنه صفحة بيضاء والتجربة هي التي تنقش علىهذه الصفحة مختلف الأفكار والمواضيع.

ويظهر من خلال هذه الفكرة أن دور العقل في نظر هذه النزعة دور ثانوي إنه يكتفي بالتقاط المعلومات عن طريق الحواس المختلفة الأمر الذي يجعله ليس معيارا للحقيقة وأن الإدراك الحسي هو الذي يحكم على أية معرفة أنها صحيحة أو خاطئة لأن صاحب النزعة التجريبية لا يقبل من المعارف سوى ما تقدمه له الملاحظة الحسية والتجربة يقول دافيد هيوم: «فإن كل مواد التفكير هي مشتقة إما من إحساس الداخلي أومن إحساسنا الخارجي. وإنما إلى الذهن والإرادة وحدهما يرجع مزجهذهوتركيبتها. بعبارة فلسفية سأقول إن كل أفكارنا، وهي أضعف إدراكاتنا هي نسخ من انطباعاتنا وهي أقوى تلك الإدراكات»[11].

إن اعتبار التجربة معيارا للمعرفة الصحيحة هو الذي جعل هيوم ينتقد بشدة التفسير الاستقرائي الذي ينتقل من الجزء إلى الكل أو من الملاحظة ودراسة ظاهرة واحدة أو أكثر إلى تعميم النتيجة على كل الظواهر المتشابهة،ورفض هيوم قدرة التجربة على إخبارنا بما يحدث في المستقبل لأن ما يصدق على الجزء لا يصدق بالضرورة على الكل، فعندما نأخذ أي قانون فيزيائي فلا شك أن حسب اعتقادنا بصحة هذا القانون هو التجربة لكن التجربة حدثت في الماضي أما أن يمتد أثرها إلى المستقبل فهذا ما لا تقدمه هذه التجربة وهذا يعني عدم وجود أي ضامن لصدق هذا القانون في المستقبل.

وضع كهذا جعل العلم يفقد مصداقيته وقدرته التنبؤية وهذا ما يعبر عنه بأزمة الاستقراء في العلم التجريبي كما أشرنا إلى ذلكمن قبل. وهذا ما سمي باستحالة تبرير الاستقراء التي تمثل خطورة كبيرة على العلم، لأن إذا كان ما ذهب إليه هيوم صحيحا فالعلم يفقد قدرته على التنبؤ مثلا، فقد عرفنا حتى الآن أن الماء يغلي في درجة مائة ونعتقد أنه سيغلي غدا وبعد غد، لكن ليس لاعتقادنا أي ضامن فهذا هو المأزق الذي وقعت فيه النزعة التجريبية وهو إما أن يكون الباحث تجريبيا ولا يقبل من النتائج سوى التي تقدمها التجربة وبالتالي يستحيل تعميم وصياغة القوانين، لأن من صفة القانون العلمي الكلية والشمولية، وإما أن يقبل بالاستقراء ويلجأ إلى تعميم النتائج التي استخلصها من التجربة وبالتالي فهو يضطر إلى الرجوع إلى مبادئ عقلية مثل السببية والحتمية وهذا من أجل إنقاذ العلم من الانهيار.

هذا المأزق اعتبره ريشنباخ مثل الخطأ الذي ارتكبته النزعة العقلية عندما نظرت إلى المعرفة الرياضية على أنها نموذج كل معرفة وجعلت من العقل مصدرا لها[14] لأن مقابل هذه الأزمة بقيت النزعة العقلية تؤكد دور وأهمية الجانب الرياضي في بناء وتفسير العالم الفيزيائي وتقدم المعلومات المتوفرة بشكل مفهوم وبطريقة واضحة لكون كلماتها لا تزيد ولاتنقص عن كون الأفكار التي تعبر عنها لأن الكون والفساد لا يدخلان على الكائنات الرياضية.

توالت اكتشافات كثيرة في الرياضيات لتواكب كل تطور يطرأ على الفيزياء وهذا ما يؤكد اكتشاف كل من نيوتن ولايبنتز للحساب اللامتناهي في الصغر الذي استعمل في حل كثير من المشكلات الفزيائية واعتقد أن نجاح المناهج الرياضية في دراسة الطبيعة

يؤدي إلى رد كل علم إلى الرياضيات كما اعتبر أن القوانين الفيزيائية قوانين رياضية لأن الفيزيائي يستعمل المعادلاتالتفاضلية لدراسة كل الظواهر الطبيعية.

لكن ما حدث أن لايبنتز أدرك فيما بعد بأن هذه الرياضيات استعملت بشكل مفرط وهذا ما لاحظه في الميكانيكا الديكارتية التي انتقدها وتجاوزها وذلك بوضع حد لاستعمال المفرط لهذه الرياضيات ثم فسح المجال للميتافيزيقا لتكمل الميكانيكا التي امتدت إلى اعتبار كل من الحيوان وجسم الإنسان مجرد آلات متقنة الصنع، هدف لايبنتز من ذلك هو وضع حدا لهذه الآلية الكونية القائمة على التصور العقلي والرياضي للكون والانتقال إلى الإيحائية الكونية Animisme universel التي تتمثل في غرس الحياة في كل جسم.

إن ما نشير إليه في آخر هذه الفكرة هو أن التفسير العقلي للفيزياء الكلاسيكية لم يقم بحل المشكلات التي أثارتها النزعة التجريبية، وأن التفسير التجريبي أيضا لم يستطع حل المشكلات التي أثارتها النزعة العقلية وهذا ما جعل الفيزياء الكلاسيكية في مأزق كبير أدى إلى انبثاق فيزياء جديدة وسار العلم بالرياضيات نحو اكتشافات عظيمة من بينها اكتشاف الطاقة النووية من طرف أنشتين الذي وصف أفكاره وصفا دقيقا معتمدا على الرياضيات لتبقى الطريقة العلمية تفترض مقدما إيمانا عظيما بإمكانية الملاحظة بالحواس وكذلك بمعقولية الطبيعة[15].

أما النتائج التي تربت عن هذين التصورين للطبيعة العقلي والتجريبي فتمثلت فيما يلي:

- أصبحت الطبيعة منذ الثورة الكوبرنيكية تفسر تفسيرا رياضيا مجردا، كما اعتبرته عالما لا متناهيا وليست كونا مغلقا كما اعتقد اليونانيون، وكان أول من ساهم في تحطيم ذلك النظام القديم وفتت الكون كنظام بديع هو غاليلي.
- طبع كتاب نيوتن **المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية** لأول مرة سنة 1687 والذي طرح فيه قوانينه الثلاثة في الحركة وقانونه في الجاذبية واستخدم هذا النظام في الميكانيكا لتفسير حركة النظام الشمسي وأدى النجاح الكبير الذي حققه نيوتن إلى قبول نظريته في الأوساط العلمية وتبنيها عمليا وهذا نتيجة إيمان نيوتن بالمنهج الاستقرائي والدليل على ذلك تلك التجارب التي قام بها لتبرير مختلف قوانينه الفيزيائية التي صاغها صياغة رياضية دقيقة.
- أصبحت التجربة في الفيزياء ليست مجرد ملاحظة لظاهرة معينة وإنما بالإضافة إلى ذلك فهي تأويل نظري لهذه الظاهرة.
- استخدام الأدوات والوسائل التقنية الأمر الذي جعل العلاقة بين العلم الطبيعي والتقنية علاقة تأثير وتأثر لأن التقدم التقني وظهور آلات حديثة وأجهزة مراقبة وقياس أدت إلى دقة أكثر في العلم التجريبي لأن تفسير الطبيعة تفسيرا تجريبيا وعقلياوصياغة قوانينها صياغة رياضية فتح المجال لإستخداماالتقنية[16] في العلم فاختراع المنظار مثلا مكن علماء الفلك من قياس حركات النجوم والكوكب بصيغة رياضية دقيقة.

إن هذه العلاقة التي جمعت بين العلم الطبيعي والتقنية عن طريق الرياضيات جعلت العلم يتقدم أكثر وسيطرة الإنسان على العالم المادي يظهر أكثر وبقوة، وتغلغل علم الطبيعة في كل مجالات الحياة.

الخاتمة:

مهما تطور الفكر البشري ومهما تغيرت المفاهيم والمناهج وكيفما كانت الإنتصارات والاكتشافات تبقى الرياضيات القلب النابض للعلم الطبيعي دونها يستحيل تحقيق أي انتصار للعلم. ونظرا لهذه الأهمية

القصوى للرياضيات لجأ بعض العلماء والفلاسفة إلى استعمالها المفرط في بعض الأحيان لكن أمر كهذا لا ينقص أبدا من دورهاو من ضرورة توظيفها كآلة ضرورية لجميع العلوم، فحتى الفلاسفة التجريبيون و; الحسيون منهم عقليون لأن كل أبحاثهم أصبحت مرتبطة بالعقل والعقلانية، وأساس هذه العقلانية هو الترييض وهذا يدل على مدى تجسد استعمال الرياضيات في العلم الطبيعي. وأن البعد التجريبي لا يكفي للوصول للفيزياء إلى اليقين لأن الحقيقة التجريبية هي حقيقة محتملة وعرضية.

لذلك يجب توظيف الرياضيات فيها حتى يتجسد التصور العقلي لها وتكون نتائجها نتائج دقيقة ويقينية ليبقى التصور العقلي للطبيعة المرتبط بالرياضيات أساس كل بحث علمي لكن بشرط أن ينسجم مع التصور التجريبي ولا يناقضه، لأن التاريخ يشهد على أن أبرز الاكتشافات العلمية ظهرت عندما جمع أصحابها بين الملاحظة الحسية والتجربة والصياغة الرياضية مثلما فعل غاليلي ونيوتن وغيرهما...

الهوامش:

1. محمد وقيدي، الإبستمولوجيا التكوينية للعلوم، الدار البيضاء إفريقيا الشرق 2010 ، ص.20.
2. A. Lalande vocabulaire technique et critique et de la philosophie .paris, puf 1988 article 1
3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الأول، بيروت دار الكتاب العربي، دار الكتاب المصري 1998، ص. 631.
4. عبد القادر بشتة، الإبستمولوجيا مثال فلسفة الفيزياء النيوتونية، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1995، ص.66.
5. فراسوازبالیبارأنشتینغالیلوونیوتنالمكانوالنسبية، ترجمة دسام يأدهم. المؤسسةالجامعيةللدراساتوالنشروالتوزيع1993 ،ص.5.
6. هانز رايشنباخ، الفلسفة العلمية ،ترجمة فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر 1962، ص. 38.
7. أفلاطون الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب السابع، ص. 440.
8. غاليلي غاليليو in l'essayeur ألكسندر كوري، دراسات غاليلية ترجمة يوسف بن عثمان تونس، سيناترا 2008 ،ص. 51.
9. عبد القادر بشتة، الإبستمولوجيا مثال فلسفة الفيزياء النيوتونية، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1995، ص.71.
10. فوزهايزنبرغ، الفيزياء والفلسفة ترجمة صلاح حاتم اللاذقية دار الحوار للنشر والتوزيع 2001 ،ص. 95.
11. p.slaplace essai philosophique .sur les probabilités 1920 ,p. 67
12. اتيان وولف،الاستدلال التجريبي وتطبيقاته في العلوم البيولوجيا ضمن المنهج التجريبي في العلوم الحديثة ،باريس مطابع العلم والصناعة بدون تاريخ، ص. 145. 146.
13. دافيدهيوم، تحقيق في الذهن البشري ترجمة محمد محجوب، مركز دراسات الوحدة العربية 2008، ص. 41.
14. هانرريشنباخ،نشأةالفلسفةالعلميةترجمةفؤادزكرياالقاهرة،دارال كتابالعربيللنشروالتوزيع1962 ،ص. 89.
15. المكتب العالمي للبحوث الرياضيات لغة العلم بيروت للطباعة والنشر 1989، ص.15.
16. دونلدجيليز، فلسفة العلم في القرن العشرين ترجمة د. حسين علي، التنوير للطباعة والنشر 2009، ص. 207 .208.

الألعاب الرومانية في المغرب القديم
دراسة تحليلية للمصادر

الدكتور رضا بن علال
قسم التاريخ والجغرافيا
المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة-الجزائر)

Résume :

L'épigraphie ainsi que les textes traitant des jeux romains dans le Maghreb antique sont nombreuses. De ce fait, nous nous efforcerons de dresser une liste de ses sources, ainsi qu'une critique objective de ce que les anciens pensaient de ses jeux.

Les mots clés Pline l'ancien ; Tite live ; Ovide ; Martial ; Tacite ; Valère Maxime ; Tertullien ; l'Évêque Augustin ; Strabon ; Suétone.

ملخص

تعتبر الألعاب الرومانية من بين المظاهر الحضارية التي تميّزت بها الحضارة الرومانية عن بقية الحضارات الأخرى المنتشرة على ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو المظهر الذي قام الرومان بنشره في أنحاء الأراضي التي سيطروا عليها والتي من ضمنها المغرب القديم. وقد وصلنا صدى هذه الألعاب عن طريق النقوش التي خلّفها لنا المستعمر الروماني على ركائز مادية مختلفة، أو عن طريق مؤلفات ألّفها أدباء ومؤرخون لاتينيين ومغاربة.

الكلمات المفتاحية بلينوس الأكبر؛ تيتوس ليفيوس؛ أوفيديوس؛ مارتيال؛ تاكيتوس؛ فاليريوس ماكسيموس؛ ترتوليانوس؛ القس أوغسطين؛ سترابون؛ سويتونيوس.

النقـوش

يمكن اعتبار النقوش اللاتينية من بين أهم الركائز التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة الألعاب الرومانية، فهي تعرّفنا بمختلف جوانب الحياة اليومية للمغاربة القدامى، بالإضافة إلى تسليطها الضوء على السياسة الاستيطانية الرومانية التي رسّخت النظام البلدي في المنطقة.

وفي الوقت الذي نلاحظ فيه كثرة النقوش المنوهة بالألعاب الرومانية في مقاطعتي إفريقيا البروقنصلية ونوميديا، نصطدم بشحّ هذه المادة في أراضي المقاطعات الغربية للمغرب القديم. كما يمكن اعتبار هذه الدعائم الأثرية هي أعمال تشهّر بأسماء الوجهاء والأثرياء الذين نظّموا ألعابًا على نفقتهم الخاصة. غير أنه من الناحية العملية، تظل هذه النقوش في معظمها مادة أثرية جافة. أولاً لأنها نقشت لتخليد ذكرى متوفى أو تخليد عمل خيري تطوعي كتشييد مبنى عمومي، أو مد قناة مياه إلى داخل المدينة أو بناء أو ترميم معبد. وكان المراد من وراء هذا العمل، هو الارتقاء الاجتماعي والسياسي. ومع هذا، فهي لا تمدنا بتفاصيل تلك الإنجازات. غير أنها تعتبر خزانًا هامًا من المعلومات حينما يتعلّق الأمر بتعريف القارئ بمختلف الألعاب التي كان يمارسها المغاربة القدامى أثناء الاحتلال الروماني للمغرب القديم، والمناسبات التي ارتبط بها هذا النشاط الحضاري.

وتعتبر النقوش، التي من ضمنها الجزء الثامن من مدوّنة النقوش اللاتينية[1]، ومدونة النقوش اللاتينية لتونس[2] والنقوش اللاتينية للجزائر التي قسمها ستيفان قزال إلى قسمين جمع في الأول نقوش البروقنصلية وضمّن الثاني نقوش الكونفدرالية الكيرتية وكويكول وقبيلة السبربور[3]، مصدرًا هامًا من المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في التعريف بالألعاب الرومانية في المغرب القديم.

النصـوص

لقد اهتم أصحاب المصادر الأدبية الإغريقية واللاتينية بالألعاب الرومانية لكونها تعتبر من بين الأنشطة الحضارية للرومان. ومن بين هذه المصادر كتاب التاريخ الروماني لتيتوس ليفيوس (Tite Live)[4] وحياة القياصرة الاثني عشر لسويتونيوس (Suétone)[5] والتاريخ الطبيعي لبلينوس الأكبر(Pline l'ancien)[6]. وكذلك قصائد التهكم لمارتيال (Martial)[7] وهجاء بيترونيوس (Pétrone)[8] وفن الحب لأوفيديوس (Ovide)[9] وحوليات تاكيتوس (Tacite)[10]، والأفعال والكلام الخالد لفاليريوس ماكسيموس (Valère Maxime)[11].

يفيدنا تيتوس ليفيوس بمعلومات هامة عن أصول الألعاب الرومانية، لاسيما في كتابه الأول، الذي يرجع فيه أصولها إلى البطل الأسطوري رومولوس (Romulus) الذي سنّها احتفالا بالإله كونسوس، وأطلق عليها اسم «الألعاب الكنسوالية». وتعود أسباب إقامة هذه الألعاب، حسب الأسطورة التي وردت على لسان تيتوس ليفيوس، إلى محاولة استمالة رومولوس لهذا الإله تحسبًا لحرب محتملة مع شعوب لاتيوم (Latium) المجاورين له بعد رفض هؤلاء الأخيرين مصاهرة الرومان[12].

كما يشير تيتوس ليفيوس إلى أن سبب إقامة الألعاب المسرحية، التي يرجع تاريخها إلى سنة 364 ق.م، إنما هو إبعاد وباء الطاعون الذي أهلك الكثير من سكان روما في السنتين السابقتين للاحتفالات، وقد أقيمت هذه الألعاب مرافقة للمآدب استلطافا للآلهة[13]. أما عن الاحتفالات

النذرية المعروفة عند الرومان باسم «ألعاب الثور»، فنستشف من الكاتب أن أصولها إتروسكية. إذ أقيمت بإيعاز من تاركينوس الأكبر الذي سنها بغرض تهدئة آلهة الجحيم، بسبب مرض نسوة روما بعد استهلاكهن للحم الثيران[14].

وهكذا فقد أحاط الرومان نشأة الألعاب عندهم بأساطير عديدة امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، فارتبطت المعلومة التاريخية في كتابات تيتوس ليفيوس بالميثولوجيا والأساطير. وهو المسلك الذي سلكه الكثيرون من أصحاب المصادر الأدبية، نذكر من بينهم الشاعر أوغسطينوس أوفيديوس. إذ نستشفّ من أشعاره ما مفاده أن رومولوس وأخوه ريموس (Remus) وبقية أصدقائهم من شباب الرومان كانوا يتمرّنون عراة الأجسام في السهل، فيلقون الحراب والأحجار الثقيلة لتقوية عضلاتهم، تحسبًا للمواجهة المحتملة مع شعوب لاتيوم المجاورين لهم[15].

وإذا ما تمتزج الحقيقة بالخيال في أشعار أوفيديوس، فإنه سرعان ما يمدنا بمعلومات قيمة حول يوميات الرومان داخل مرافق الألعاب الرومانية التي من ضمنها المسارح والمدرّجات وميادين سباق العربات، على أن نواياه لم تكن بريئة. فقد اهتم بهذه المرافق باعتبارها ميادين اللقاءات الغرامية أكثر منها ميادين ترفيه عن النفس، ولم يكن يتوانى في تقديم النصائح للرجال في كيفية مغازلة النساء داخل هذه المرافق.

وفي الحقيقة، تعدّ أشعار أوفيديوس ذات أهمية كبيرة لمن يريد التعرّف على الألعاب المائية المعروفة بالمعارك البحرية الصورية (La Naumachie)[16]. كما يمدّنا الشاعر بمعلومات هامة تتعلّق بالأخطار التي كانت تحدق بقواد عربات السباق حينما كانوا يحاولون تجنّب صخور حدود الحلبة ومحاولاتهم إحراز التقدم في المرحلة الأولى من السباق، وتحاشيهم خدع بقية المتنافسين[17].

وفي إطار حديثه عن ألعاب الحظ والميسر، يشير أوفيديوس إلى أن الرومان كانوا يجتمعون للعب النرد باستخدام ثلاثة قطع مكعبات صغيرة. كما ينصح الرجال بترك المرأة تفوز في ألعاب الحظ، بغرض الإيقاع بها في شباك الحب. وهكذا فإنه يعرّفنا بلعبة الخطوط الاثني عشر، وهي لعبة رومانية تزاوج بين الاستراتيجية والتمعّن وبين الحظ الذي يرتبط بإلقاء النرد على طاولة اللعب[18]. فضلاً عن ذلك، فهو يبدي إعجابه الشديد بلعب أطفال الرومان بحبات الجوز، ويمدّنا بسبعة طرق في ممارسة هذه اللعبة[19].

وإذا ما يعرّفنا أوفيديوس بأقسام مبنى ميدان سباق العربات (Le Cirque)، الذي يذكر من ضمنها اصطبلات فرق السباق التي يصفها بالاصطبلات المقدّسة[20]. فإنه سرعان ما يمدّنا بمعلومات قيّمة تتعلّق بمجالسة الرجال للنساء في هذا المرفق العمومي، وهو أمر كان شائعًا في الفترة التي سبقت سنّ الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس (Octave Auguste) لقانون توزيع مقاعد مرافق الألعاب على طبقات المجتمع الروماني[21]. ونحتكم على نص لسويتونيوس، ينوه بحرص الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس في المحافظة على النظام العام داخل مرافق الألعاب، فخصص الصفوف الأولى من مرافق الألعاب الرومانية إلى أعضاء مجلس الشيوخ، في الوقت الذي أجلس الجنود في معزل عن بقية الشعب، كما قام بتخصيص صفوف مقاعد للمواطنين المتزوجين وأخرى لغير المتزوجين[22].

ويعتبر كتاب القياصرة الاثني عشر لسويتونيوس والتاريخ الطبيعي لبلينوس الأكبر من بين المصادر الأدبية التي تسلط الضوء على

ممارسة الرومان للألعاب، فهي تمدنا بمعلومات هامة حولها. فهما يعرّفاننا بالأخطار المحدقة بالجمهور المتابع لفعاليات الألعاب، من ضمنها المناوشات التي كانت تتحوّل إلى عراك[23]. وفي نفس المنوال، يدعّم تاكيتوس رأي سويتونيوس وبلينوس الأكبر بخصوص الأخطار التي كانت تتربص بالجمهور المتابع لفعاليات الألعاب. إذ نستنتج من كلام هذا الكاتب أن أحد المعتقين تسبب في كارثة، حينما قام ببناء ميدان مصارعة روماني (Amphithéâtre) بدعائم ضعيفة جعلته ينطبق على مرتاديه[24].

وتعتبر كتابات سويتونيوس بخصوص شغف الرومان بممارسة ألعاب الحظ والميسر هامة جدًا[25]، بحيث نتعرّف من خلالها على هذه الألعاب والمبالغ التي كان يراهن بها الأباطرة الرومان عند ممارستهم لها. فضلاً عن ذلك، فهو يعرّفنا بألعاب السيرك وألعاب المصارعة[26]. كما يمدّنا بمعلومات قيّمة عن المصارعين ولباسهم وعدّتهم القتالية، من ضمنهم المصارعون ذوي التسليح الثقيل الذي كان يشتمل على السيف والشبكة والترس والمذراة[27]، ومصارعو الاستعراض[28].

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، فإننا نتعرّف من نصوص سويتونيوس على أنه كان بإمكان ممارسي المصارعة الرومانية التقاعد، وذلك بمجرد حصولهم على سيف خشبية كانت تستخدم في تدريب المصارعين[29].

ويشير سويتونيوس إلى انحياز الأباطرة الرومان إلى فرق المصارعين وفرق سباق العربات، ففي الوقت الذي كان فيه كليغولا (Caligula) وتيتوس (Titus)[30] من بين مناصري إحدى فرق المصارعين ذوي عدّة القتال الثقيلة، إذ جعل كليغولا قادة حرسه الخاص منهم ونكّل بخصومهم[31]. ناصر الإمبراطور دوميتيانوس (Domitien) ذات الفريق الذي نكّل به كليغولا، وألقى بأحد أنصار الخصوم إلى الكلاب المسعورة نظير سبّه لفريقه وحاميهم[32].

كما أننا نستفيد من الرجوع إلى كتابات سويتونيوس في التعريف بفرق سباق العربات التي أضافها الإمبراطور دوميتيانوس لمنافسة الفرق المعروفة في ميادين سباق العربات، وهما الفريق الأرجواني والفريق الذهبي[33].

ويتضمّن كتاب حياة القياصرة الاثني عشر معلومات عن الاحتفالات المائية التي انطلقت في روما في منتصف القرن الأول قبل الميلاد، إذ نستشف من خلاله أن يوليوس قيصر (Jules César) وهب مواطني روما ألعابا مختلفة من ضمنها أول معركة ملاحية صورية[34]. كما نتعرّف من خلال نصوص هذا الكاتب على تحية المصارعين: «تحيّة ممن سيموتون» (Ave, morituri te salutant !)، فهم كانوا يؤدونها لمنظم الألعاب قبل انطلاق العرض[35]. والغريب في أمر هذه التحية، أنه لم يرد ذكرها في نصوص المصادر الأدبية اللاتينية، إلاّ عند سويتونيوس.

وبخصوص ألعاب المسرح، يشير صاحب كتاب حياة القياصرة الاثني عشر إلى أن الإمبراطور نيرون (Néron) كان مولعًا بالفنون، إلى درجة أنه تقمّص أدوار شخصيات مسرحية صاغها سنيكا (Sénèque) في كتاباته التراجيدية[36]. كما أننا نستفيد من الرجوع إلى كتابات سويتونيوس في التعرّف على ظهور القراءات العامة (Récitations) في الحياة الأدبية في روما، وقد كان ذلك في عهد الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس، الذي كان يجلس للاستماع إلى قراءة الأشعار ومؤلفات التاريخ والخطب والمحاورات[37]. وهي العادة التي اتبعها الإمبراطور

كلاوديوس (Claude)[38] ودومتيانوس[39].

كان أكثر أصحاب المصادر الأدبية اللاتينية اهتماما بميدان السباق الكبير في روما تيتوس ليفيوس[40] وديونيسيوس الهليكرناسي (Denis d'Halicarnasse)[41]، فهما يعتبران من بين أصحاب المصادر الأدبية الموثوق في معلوماتهما المتعلّقة بهذا الصرح العظيم. ويبدو أنه في الوقت الذي أقام فيه اليونانيون سباق العربات في العراء، شيّد الرومان ميادين سباق العربات بعد احتكاكهم بالإتروسك. إذ يشير تيتوس ليفيوس في سياق حديثه عن تاركينوس الأكبر (Tarquin l'ancien)، أنه نظّم سباقًا للعربات في ميدان أقامه بمناسبة انتصاره على أعدائه من اللاّتين[42].

وحسب فاليريوس ماكسيموس، فإن أعضاء مجلس الشيوخ الروماني كانوا يجلسون في مرافق الألعاب جنبًا إلى جنب مع بقية طبقات المجتمع الروماني، وذلك لأزيد من خمس مائة وثمانية وخمسون سنة. ثم استقلوا بجلوسهم في الصفوف الأمامية انطلاقًا من سنة 194 ق.م، وذلك عملاً بنصيحة سكيبيو إيميليانوس (Scipion Emilien) «الإفريقي»[43].

ويتطرّق كل من مارتيال (Martial) وجوفينال (Juvénal)[44] وهوراسيوس (Horace)[45] إلى معلومات قيمة حول ممارسة الألعاب والتمارين الرياضية في الحمامات، كاعتماد مرتادي هذه المرافق العمومية على ميادين ملحقة مجهّزة بالكرات والأثقال. وكان مارتيال يعتقد أن ممارسة هذه التمارين هو مضيعة للوقت، وأنه لا فائدة من ورائها[46]. إلاّ أنه سرعان ما يفيدنا بأن الملاكمة كانت محبّذة لدى الشباب، فكانوا يتوددون إلى من يعلّمهم إياها[47]. وقد نوّه جوفينال[48] وهوراسيوس[49] بهذه التمارين، وأولوها عناية خاصة في كتاباتهم.

ونتعرّف من كتابات بترونيوس على لعب الرومان بكرة المثلث، التي كان يمارسها ثلاثة أشخاص يتقاذفونها بسرعة وبدون سابق إنذار[50]. أما لعبة الراحية التي ورد ذكرها عند مارتيال، فمن المرجّح أن يكون قد مارسها لاعبان[51].

ومع أننا نعرف يقينًا بأن المصارعة هي ابتكار إيطالي، ظهر عند الكمبانيين في القرن السادس أو القرن الخامس قبل الميلاد. إلاّ أننا نستشفّ من نص ورد في كتاب هيرودوت (Hérodote) الرابع يتعلق بممارسة عذارى قبيلتي المخليس (Makhlyes) والأوسيز (Auses) لطقوس دينية قاسية[52]، يحتمل أنها كانت السبب المباشر في عملية تقبّل سكان جنوب تونس وشمال ليبيا للمصارعة.

و في الوقت الذي يفيدنا فيه سترابون (Strabon) بمعلومات عن الخيول الإفريقية، التي كانت لها صفات الشهرة[53]. وعدم تصور بوليبيوس (Polybe) لوجود بقعة من الأرض تحوي ما بليبيا من الخيول والأبقار والأغنام[54]. يرى تيتوس ليفيوس بأن الخيول الإفريقية كانت قبيحة المظهر وسريعة الركض[55]. كما يتعرض تيتوس ليفيوس إلى صفقات الملك ماسينيسا (Massinissa) التجارية، التي زوّد بموجبها حلفائه الرومان بعدد معتبر من الخيول خلال القرن الثاني قبل الميلاد[56].

زيادة على ما تقدم يلفت صاحب كتاب الحمار الذهبي والأزاهير[57] انتباهنا إلى معلومات هامة تتعلّق في مجملها بالألعاب المسرحية، إذ ما فتئ أبوليوس لوكيوس (Apulée) يشيد بالمسرحيات

التي كانت تنظم في مسرح مدينة قرطاجة. فضلاً عن ذلك، فهو يعرّفنا بفناني الخشبة الذين يذكر من بينهم: ممثّل الإيماء والبهلوان والمشعوذ[58].

وبينما تناولت المصادر الأدبية الوثنية موضوع الألعاب الرومانية بشكل عام، فعرّفتنا بأهم أنشطتها في روما. فإنه يمكن اعتبار المصادر الأدبية المسيحية ذات أهمية، من حيث اهتمام أصحابها بالألعاب الرومانية في المغرب القديم، وخاصة منها كتابات ترتوليانوس (Tertullien)[59] والقس أوغسطين (l'Évêque Augustin)[60]. ولكونهما من بين منظري المسيحية، ولأن أصولهما من المغرب القديم، فإنهما يتطرقان إلى الألعاب الرومانية بنظرة النصرانيين الغيورين على ديانة المسيح. فلقد حاول كلاهما صرف أتباع الديانة المسيحية عن متابعة فعاليات الألعاب التي كان ينظمها الرسميون الرومان أو أعيان وأثرياء المغرب القديم.

وفي حين يعتبر القس أوغسطين، الذي عاش في الفترة ما بين عام 354م و430م، متسامحًا مع ألعاب المسرح، لأنه اهتم في شبابه بمجال الكتابة المسرحية[61]. كما أنه كان يتفاعل مع المسرحيات، بذرفه للدموع[62]. يصف ترتوليانوس المسرح على أنه معبد الربة فينوس[63].

وكان ترتوليانوس من أشدّ أعداء حكم الإعدام بالإلقاء إلى الوحوش، فنعت هذا العمل بالجريمة[64]. كما أنه يرى بأن الرومان هم الورثة الشرعيون للحضارة الإتروسكية، لتأثرهم بالعادات الثقافية لهذا الشعب أكثر من غيرهم[65]. فضلاً عن ذلك، فإننا نتعرّف من المنظر المسيحي على سباق العربات، من خلال يوميات أفراد مجتمع المغرب القديم[66].

ويعرّفنا القس أوغسطين بالأعياد الدينية الوثنية، فيذكر من ضمنها أعيادًا كان يحتفل بها الرومان مرّة واحدة كل مائة سنة[67]، وهي ذاتها التي ورد ذكرها عند سويتونيوس[68] وفي حوليات تاكيتوس[69].

ولم يشهد القس أوغسطين ألعاب المصارعة في المغرب القديم، فقد تخلى عنها المغاربة القدامى قبل منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. إلاّ أنه تعرّف عليها عن طريق أصدقاء له زاروا روما وزوّدوه بمعلومات عنها. وعلى الرغم من أن الديانة المسيحية تدعو إلى التسامح والتكافل، فإننا نلاحظ سلوكًا منافيًا لتعاليمها في اعترافات أوغسطين، إذ لم يكن يكترث بمصير المصارعين إطلاقا[70]. وهو يتفق مع لوكيوس أبوليوس بخصوص اعتبار المصارعة عملا شائنا، ربطه بعمل المومس[71].

الهوامش

1 Wilmanns (G.), Mommsen (T.), Cagnat (R.), Schmidt (I.) et Dessau (H.), *Corpus Inscriptionum Latinarum (C.I.L.)*, Berlin, à partir de 1863 avec ses 4 volumes suppléments, Vol. VIII, Inscriptiones Africae Latinae : partes I-II, 1881; suppl. I, 1891; Suppl. III (Mauretaniae et miliaria), 1904; Suppl. IV (Proconsularis), 1916; Suppl. V, 1-2 (indices), 1942-1959.

2 Merlin (A.), *Inscriptions Latines de Tunisie*, Paris, 1944.

3 Gsell (S.), *Inscriptions Latines de l'Algérie : tome I, Inscriptions de la Proconsulaire,* Paris, 1922; *tome II, Inscriptions de La Confédération Cirtéenne, de Cuicul et de la tribu des Suburbures*, recueillies par Stéphane Gsell, préparées par E. Albertini et J. Zeiller, publiées par H.-G. Pflaum, Paris, 1957

4 Tite Live, Histoire romaine, traduit par E.Lassere, Paris: Librairie Garnier frères, 1950

5 Suétone, Vies des douze césars, préface de Marcel Benabou, traduction et notes d'Henri Ailloud, Cher: Gallimard, 2009.

6 Pline l'Ancien, Histoire Naturelle, dans collection des auteurs latins, publiée sous la direction de M. Nisard, Paris, 1948.

7 Martial, les Epigrammes, traduction nouvelle de Pierre Richard, Paris: Garnier, 1931

8 Pétrone, *Le Satiricon*, Ouvrage présenté par Aicha Kassoul, Alger: Edition ENAG, 1993.

9 Ovide, les Amours, texte établi et traduit par H. Bornecque, Paris : Les belles lettres, 1930; Id., l'Art d'aimer, texte établi et traduit par H. Bornecque, Paris : Flammarion, 1998

10 Tacite, *Annales*, traduit par H. Goelzer, Paris: Les belles Lettres, 1946; Id., Œuvres Complètes, textes traduit, présentés et annotés par pierre Grimal, Paris: Gallimard, 1990.

11 Valère maxime, *Faits et dits mémorables*, texte établi et traduit par Robert Combes, Paris: Les Belles Lettres, 1995 (Tomes I: Livres I-II), 1997 (Tome II: Livres IV-VI).

12 Tite Live, Histoire Romaine, I, 9, 4-6

13 Tite Live, Histoire Romaine, VII, 2, 1-3

14 Tite Live, Histoire Romaine, XXXIX, 20

15 Ovide, Fastes, II, vers 359 et suiv.

16 Ovide, l'Art d'aimer, I, vers 167-190

17 Ovide, l'art d'aimer, II, v. 425-434

18 Ovide, l'Art d'aimer, III, 365 sqq.

19 Ovide, Nux, vers 73-86.

20 Ovide, Les Amours, III, 2, vers 1-16

9, 4-6

41 Denis d'Halicarnasse, Antiquités Romaines, III, 68, 2-4

42 Tite Live, Histoire Romaine, I, 35, 8

43 Valère Maxime, Faits et dits mémorables, II, 4, 3

44 Juvénal, Satires, texte établi et traduit par H. Clouard, Paris : Garnier, S.D

45 Horace, *Odes et Epodes*, texte établi et traduit par François de Villeneuve, Paris : Les belles lettres, 1927; Id., *Satires*, Texte établi et traduit Par F. Villeneuve Paris : Les Belles Lettres, 1932.

46 Epigrammes, IV, 19; XIV, 43

47 Martial, Epigrammes, VII, 32

48 Juvénal, Satires, III, 421

49 Horace, Odes, III, XXIV, v.51-62

50 Pétrone, Satiricon, 27

51 Martial, Epigrammes, IV, 19

52 Hérodote, Histoires, IV, 180

53 Strabon, Géographie, XVII, 3, 7

54 Polybe, Histoire, XII, 3, 3-4

55 Tite Live, Histoire Romaine, XXX, 6, 9; XXX, 11, 7-1

56 Tite Live, Histoire Romaine, XXXI, 19, 14; XXXII, 27,8; XXXVI, 4,8; XLII, 62; XLIII, 6

21 Ovide, Les Amours, III, 2, vers 21-24; L'Art d'aimer, I, vers 157-164

22 Suétone, Auguste, XLIV

23 Pline l'Ancien, Histoire Naturelle, XXXVI, 116; Suétone, Auguste, XLIII

24 Tacite, Annales, IV, LII et LXIII

25 Suétone, César, XXXII ; Auguste, LXX-LXXI; Néron, XXX; Claude, III

26 Suétone, César, XXXIX; Auguste, XLIII.

27 Suétone, Claude, XXXIV; Caligula, XXX; XXXV

28 Suétone, Auguste, XLV; Claude, XXX

29 Suétone, Caligula, XXXII ; Claude, XXI

30 Suétone, Titus, VIII

31 Suétone, Caligula, LV

32 Suétone, Domitien, X

33 Suétone, Domitien, V, 1

34 Suétone, César, XXXIX

35 Suétone, Claude, XXI

36 Suétone, Néron, XXIV-XXXIII

37 Suétone, Auguste, LXXXIX

38 Suétone, Claude, XLI

39 Suétone, Domitien, II

40 Tite Live, Histoire Romaine, I,

57 Apulée, Apologie-Florides, texte établi et traduit par Paul Valette, 3eme tirage, Paris: Les Belles Lettres, 1971.

58 Apulée, Florides, XVIII, 3-4

59 Tertullien, *Contre les spectacles*, traduit par M. de Genoude, seconde édition, Paris : Louis Vivès, 1852; Id., *l'Apologétique*, traduction littérale par J.-P. Waltzing, Paris: Librairie Bloud et Gay, 1914.

60 Augustin, Confessions, texte établi et traduit par Pierre de Labriolle, Paris : Les belles lettres, 1941-1947, 2 volumes; Id., La cité de dieu, texte latin et traduction française, avec une introduction et des notes par Pierre de Labriolle et Jacques Perret, Paris: Librairie Garnier frères, 1960, 2 tomes.

61 Augustin, Confessions, IV, 2, 3

62 Augustin, Confessions, III, 6, 11

63 Tertullien, Contre les spectacles, X

64 Tertullien, Contre les spectacles, X

65 Tertullien, Contre les spectacles, V

66 Tertullien, Contre les spectacles, XVI

67 Augustin, Cité de dieu, III, 18

68 Suétone, Domitien, 4, 3; Claude, 21, 4

69 Tacite, Annales, XI, 11, 1

70 Augustin, Confessions, III, 8 ; VI, 8

71 Apulée, Apologétique, XCVIII, 7

دراسات تاريخية
في ضوء نصوص أوراق البردي العربية

اد جميلة بن موسى
أستاذة و باحثة في التاريخ الإسلامي
بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

الملخص:

ساهمت العديد من نصوص البردي العربية بتنوع وثراء موضوعاتها، في امداد الباحثين والدارسين وفي مختلف التخصصات بمعلومات نادرة لا نجدها حتى في المصادر التاريخية، إضافة على ميزة هذه المعلومات التي تدفع الطالب او الباحث إلى دراسة الأحداث التاريخية بدقة ، خاصة تلك المتعلقة، بالإدارة الإسلامية وتنظيماتها. والرسائل المدرجة ضمن هذه الدراسة تؤكد تنوع هذه النصوص وأهميتها بالنسبة للباحث في التاريخ واللغة والاجتماعيات وحتى الدراسات الاقتصادية .، خاصة باستخدام هذه النصوص كوثيقة يؤكد بها على فرضياته أو استنتاجاته.

الكلمات مفتاح:

البردي – أوراق البردي العربية – البريد الإسلامي – البريد السريع – الرسالة – البقط – العبيد – النوبة – الضريبة – الصلح – موسى بن كعب – كابيل – حوائج عروس –.

Résume :

RESUME :

De part la diversification et la richesse des sujets traités, les textes du papyrus arabe ont considérablement contribué au développement des études et recherches menées par des historiens dans différentes spécialités, en leur procurant un contenu quasiment inexistant par ailleurs dans le reste des sources historiques, en plus de leur immunité du fait de leur caractère infalsifiable, outre la précision qu'offre ces derniers aux chercheurs et historiens, pour appuyer leurs hypothèses, notamment en ce qui concerne l'administration islamique et son organisation, les langues et les sciences sociales et même les études économiques.

يطلق اسم البردي على نبات طبيعي مائي عرفته مصر منذ الاف السنين , كان و مازال ينبت على شواطئ نهر النيل و حول ضفاف البرك و المستنقعات و حقول الأرز , و مازالت بعض مدن مصر تعرف زراعته اليوم. ذكر البردي في العديد من النصوص و الكتابات المصرية القديمة خاصة عند استخدامه كعلامة هيروغليفية . و لقد حظي البردي بالعديد من الأسماء منها كلمة «' محو '' mhw و التي اشتق منها كلمة '' تا محو '' T_3_Mhw و التي تعني ارض البردي او الوجه البحري . كان يشار إلى البردي في اللغة العربية بكلمة '' قرطاس '' المشتقة من اليونانية عن طريق الكلمة الآرامية'' قرطيس '' . و ذكرى كلمة قرطاس في القران الكريم له دلالة واضحة على استخدامه في العصر الإسلامي[1].

قال تعالى ﴿ **لو انزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين** ﴾ [2] أما علميا فلقد صنف ضمن أجناس الفصيلة السعدية ذوات الفلقة الواحدة Family Cyperaceae [3] . و يمكن تقسيم نبات البردي من خلال تكويناته إلى ثلاثة أقسام رئيسة: **القسم الأول** : و هو الجزء السفلي المغمور في المياه ، و هو عبارة عن ساق أرضية تعرف باسم الرازيوم تمتد في الغرين المستنقعي و للسياق جذور بأهداب و شعيرات طويلة تتخلل طبقات الطين لامتصاص الغذاء من أعماق التربة ، يصل طوله أحيانا الى أربعة امتار .

القسم الثاني: و هو الجزء الظاهر فوق سطح الأرض ، و الذي هو عبارة عن ساق طويلة تكون غليظة من الاسفل ثم تصغر تدريجيا كلما اتجهنا الى زهرة النبات في قمة الساق و التي يطلق عليها الاغصان الهوائية ، يخلو هذا الساق من العقد المعروفة عند النباتات الأخرى ، مما سهل عليه أن يصبح مادة للكتابة بامتياز ، أي صناعة ورق البردي.

اما القسم الثالث: و الاخير يتمثل في الزهرة التي تعلو النبات ، سماها ابن البيطر ‹› القيقلة ‹› و هي على شكل ‹› هيئة الخيمة الزهرية ‹› [4].

دخل نبات البردي في عدة استخدامات حتى ميز الحياة اليومية للمصريين القدماء الذين اكتشفوا خصائصه و مميزاته منذ الوهلة الأولى التي عرفوه فيها ، و يبقى اهم استخدام له متمثلا في مسطحات الكتابة ، حيث أصبحت ‹› لفائف البردي ‹› في مقدمة السلع التي شملتها الصادرات المصرية. تنوعت الاستخدامات نبات البردي في المجتمع المصري بشكل واسع : فجزئه السفلي استخدم كطعام بسبب احتوائه على كميات قليلة من السكريات و هذا بطبخه في فرن المحمي، كما استخدم كلبان ، اما سيقانه الجافة استخدمت في صنع القوارب و السلال و النعال و الحبال و الحصير لتغطية أرضية البيوت و حتى المساجد بعد الفتح الإسلامي لمصر ، و استخدم أيضا كدواء و كرماد في تبييض الاسنان و تلحيم الجروح و قطع الدم ، و في معالجة تقرحات العيون و الحروق و معالجة الروائح الكريهة الصادرة من الفم بمضغه[5] و بعد تحويل البردي الى مصدر للكتابة كورق، شكل أهمية كبرى بالنسبة للدولة الإسلامية خاصة بعد فتح مصر و توسيع مهام الدولة الإسلامية و إدارتها و توسيع زراعته خلال فترة دامت ثمانية قرون الأولى للهجرة .

اما اليوم تعرف البرديات على أساس انها نصوص وثائقية نادرة كتبت على نوع من الورق يسمي ورق البردي ، و المتأمل في نصوصها العربية بصفة عامة يجد ان موضوعاتها تشمل تقريبا جميع نواحي الحياة في الدولة الإسلامية ، كالمراسلات الديوانية و هي المكاتبات التي كانت تتم عادة بين الولاة و الخلفاء و العمال و رجال القضاء و سائر المكاتبات الصادرة عن دواوين الدولة في العهد الراشدي مرورا بالعهد الاموي ثم العباسي ، كما حملت لنا هذه النصوص

صورة عن ايصالات الجزية و الخراج ، و السير و المغازي و كشوف و قوائم العمال و الصناع و الحرفيين ، إضافة الى نصوص الوقف و الهبة و فض المنازعات وعتق الرقاب و مجالس الصلح ، و المراسلات الشخصية للاطمئنان و طلب الحوائج و العقود بشتى أنواعها منها : عقود البيع و الشراء و الايجار و العمل ، و عقود الزواج و الخلع و مجالس القضاء، إضافة الى التدوين و كشوف الإيجارات و العقارات ، و أسماء الجنود و العمال والحرفيين و الاقباط و المزارعين و دافعي الجزية و الخراج و اعمال المحتسبين رجال الحسبة واهم ما وجد في هذه البرديات أيضا : النصوص التي تضمنت معلومات وفيرة من التراث العلمي العربي و الإسلامي ، منها وصفات طبية و قوائم تتعلق بشراء العديد من النباتات والأعشاب الطبية و العطرية ، إضافة الى تركيبات كيماوية دوائية [6].

و الملاحظ على هذه الأوراق ان معظمها تسرب نحو الخارج حيث احتفظت به المعاهد و الجامعات العالمية الاوربية والامريكية منذ أكثر من 150 سنة ، و أكبر مجموعة محفوظة اليوم في مكتبة البرتينا بفيينا بنمسا أين تم فهرسة ما يقارب 40000 بردية عربية معظمها كاملة النصوص و في حالة جيدة و محفوظة بشكل تقني متميز . في الوقت الذي تحتوي المكتبات العربية في المشرق والمغرب سوى على 5000 بردية بين مصر والحجاز والشام واليمن و العراق وشمال افريقيا، أغلبها غير كاملة النصوص و في حالة غير جيدة.

كما يمكن لنا القول ان معظم من اهتم بهذه البرديات دراسة و تصنيفا هم مجموعة من المستشرقين الذين أولوا اهتماما كبيرا لهذا النوع من الوثائق ، فنظمت لها الندوات و عقدت لها المؤتمرات الدولية لإبراز أهمية مضامينها التاريخية ، فيما تفتقر الجامعات العربية والإسلامية لمثل هذه النصوص في دراسة التاريخ الإسلامي مشرقا و مغربا ، دون أن توليها اهتماما بفتح أرشيف تقني لها بتصوير النصوص التي تشكل سندا و مصدرا للدراسات التاريخية الإسلامية التي تعتمد على المصادر التي نقلت شفويا بغض النظر عن العديد من الأخطاء التي أصبحت الدراسات الحديثة تكشف عنها يوميا، بما فيها المعلومات التي حملتها لنا نصوص البردي العربية .

من خلال هذه الدراسة أردنا الاعتماد على نماذج متنوعة من النصوص العربية التي نقلتها لنا أوراق البردي و التي سوف نحاول الاختصار في تقديمها دون الاعتماد على تحليلها بغرض تقديمها كمادة خام يمكن استخدامها من طرف العديد من الباحثين في مختلف الدراسات.

إن أهم ما وقع عليه اختيارنا في هذه الدراسة هو عينات من البرديات العربية التي امدتنا بمعلومات عن العديد من المواضيع التي نراها قيمة بالنسبة للدراسات التاريخية في الفترة الإسلامية، أولها البريد: الذي يعود مصطلحه إلى جذور فارسية معربة، أي من أصل كلمة (برده دم) والذي يعني مقصوص الذنَب ، نسبة للبغل مقصوص الذنَب المخصص للبريد عند الفرس ، تمييزا له عن الدواب الأخرى . أما ابن منظور فلقد أشار إلى الكلمة قائلا: أنها تعني الرسول أو الثابت ويقال ما برد لك عليا فلان ...، أي ما ثبت وجب، و البريد الرسول على دواب البريد والجمع برد، و برد بريدا أي أرسله [7]. كما اهتم الروم أيضا بنظام البريد ، و هنا ذكر بعض الباحثين أن كلمة البريد يمكن أن تكون مشتقة من الكلمة اللاتينية veredus والتي تعني الخيل [8].

أما في التاريخ الإسلامي تكفي الإشارة إلى تلك الرسائل التي أرسلها محمد إلى الملوك والامراء يدعوهم فيها إلى الإسلام انطلاقا من السنة السابعة للهجرة. و عن البريد ذكر صاحب الفخري قائلا: «البريد ان يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها و قد تعب

فرسه، ركب غيره فرسا مستريحا و كذلك يفعل في المكان الآخر و الآخر حتى يصل بسرعة ...[9]»

وكان الغرض من نشأة البريد في الإسلام هو توصيل أوامر وتوجيهات الخلفاء إلى ولاتهم وعمالهم، وكذلك نقل أخبار الولاة والعمال إلى الخلفاء، حتى أصبح صاحب البريد يمينا للخليفة، ثم أصبح رقيبا على العمال، كما أصبح جاسوسا على الأعداء ليتعرف على ما عندهم من اخبار وبعد تطوره استخدمه الناس لنقل أخبارهم والتعرف على أحوالهم.

ومما ذكر في البريد: «ومن جملة الأشياء وضعهم البريد في كل مكان طلبا لحفظ الأموال وسرعة وصول الاخبار ومتجددات الأحوال فكان البريد مقصورا على أغراض الدولة ثم أبيح فيما بعد للرعية لكي ينتفعوا به في نقل رسائلهم «. و كان معاوية بن أبي سفيان أول من اعتنى بالبريد في الدولة الإسلامية حين أصدر قرارا، بإحضار رجالا من دهاقن الفرس و اهل أعمال الروم فعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد. ثم تطور في عهد الملك عبد الملك بن مروان الذي شهد عصره تعريب الدواوين و اصدار السكة العربية الإسلامية الخالصة (الدينار الذهبي الإسلامي الصرف). وفي العهد العباسي تطور البريد على درجة أن أصبحت له مكانة عند الخليفة، فخصص له وقت يصل فيه بانتظام حتى قرأ عليه مرتين في اليوم الاولى بعد صلاة الصبح والأخرى بعد صلاة المغرب، مما دفعه إلى أن يلم بأحوال دولته إلماما تاما، كما تطور حتى أسس له ديوان مركزي كبير في بغداد لتسلم البريد والتقارير المرسلة من كافة أنحاء البلاد حيث تفرز عند وصولها ويعرض الهام منها على الخليفة وترسل الأقل أهمية إلى الدواوين المختلفة للنظر فيها والرد على أصحابها. كما استخدم البريد الجوي بالاعتماد على الحمام الزاجل الذي تطور بشكل سريع أيام الخليفة العباسي المهدي (محمد بن منصور) والذي سمي بالحمام الرسائلي. أما البريد السريع فلقد تمثل في استخدام المسلمين للمناظر والمنائر التي تشبه الأبراج العالية بإشعال النيران ليلا والدخان نهارا من برج إلى برج [10].

ولا يسعنا المكان هنا لذكر كل تفاصيل البريد و دوره في تنظيم أمور الدولة الإسلامية بقدر ما يهمنا الأمر في ذكر ما احتوته البرديات العربية من عينات لذلك البريد الذي عرفته الادارة الإسلامية. أن الدارس لنصوص البرديات العربية خلال القرون الأولى للهجرة يجد انها قد احتوت على موضوعات عدة، كالمراسلات الديوانية الصادرة عن دواوين الدولة ورسائل الولاة للعمال والقادة إضافة الى التوجيهات والأوامر التي كانت ترسل لعمال الخراج ورسائل تتعلق ببعض المنازعات والفصل في القضايا لبعض اهل الذمة، دون أن ننسى الرسائل الشخصية المتعلقة بالاطمئنان وطلب الحوائج وصلة الرحم و[11].

و أول رسالة يمكن إدراجها ضمن هذه الدراسة: تلك التي تتعلق بجزء من بداية رسالة تنسب لعهد الوالي الاموي عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، و هي عبارة عن جزء من طراز (بروتكول) او ما يسمى باللصق الأول .

1) بسم الله الرحمن الرحيم
2) لا إله إلا الله وحده لا شريك له
3) لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد
4) محمد رسول الله ارسله بالهدى و دين الحق
5) عبد الله الوليد امير المؤمنين
6) هذا ما أمر به الأمير عبد الله بن عبد الملك
7) في سنة ثمان و ثمنين [12]

من المهم جدا معرفة الديباجة الأصلية التي ميزت

الرسائل الإسلامية خاصة الرسمية منها في العصر الاموي و التي تقودنا إلى فترة عبد الملك بن مروان الذي استطاع أن يغير وجه الطراز (البروتوكول) الحامل لشارات الصليب و التثليث التي ترمز إلى النصرانية ولقد تم التخلص منها بعد ان تلقى تهديدا من الامبراطور البيزنطي الرافض لهكذا قرار حيث ضرب الدينار الذهبي الإسلامي الصرف الذي حقق للدولة الإسلامية الاستقلال الاقتصادي بالمرة بعد ما كان التعامل بالدينار الذهبي البيزنطي و الدرهم الفضي الفارسي [13].

الرسالة الثانية:

1) [بسم الله الرحمن الرحيم]
2) [من قره جن شريك الى سبيل]
3) [صحب اشقوه فإنى أحمد]
4) [الله الذى] لا اله الا
5) هو أما بعد فإن ا
6) لقاسم بن سيار صا
7) حب البريد ذكر لى
8) أنك أخذت قر
9) ا في ارضك بالذى
10) عليهم من الجزية فإذا
11) جاك كتبي هذا
12) فلا تعترض أحدا
13) منهم بشي حتى أحدث
14) اليك فيهم ان شاء
15) الله و السلم
16) على من اتبع
17) الهدى وكتب مسلم
18) في شهر ربيع الأول
19) سنة إحدى و تسعين[14]

أشار نص الرسالة إلى الوالي المصري في العهد الأموي قرة بن شريك، الذي كثيرا ما ورد في النصوص التاريخية خاصة المصادر منها على أساس أنه حاكم ظالم ومستبد لرعيته و غير عادل[15]. بينما أشارت إليه هذه البردية على أساس أنه حاكم يرعى أمور رعيته بالعدل، حيث تبين الرسالة التي أرسلت من صاحب البريد يدعى القاسم بن سيار فيها معلومات للوالي قرة بن شريك يخبره بأمر الجزية و الخراج و التي يتضح من خلالها عدم موافقة طريقتها لأوامر الوالي، و الذي شدد على عماله لكي لا يحدث تجاوز يرهق الرعية. و مثل هذه النصوص استخدمت من طرف العديد من الباحثين لتصحيح ما ورد في المصادر التاريخية من معلومات غير صحيحة عن الحكام و الولاة الذين عرفتهم الدولة الأموية.

الرسالة الثالثة:

1) بسم الله الرحمان الرحيم
2) مـــ(ـــن ..) ... إلى صحب
3) فاحمل صلح و هو امرد ازغ ابيض رسول
4) محمد بن سليم على دابتين من البريد احداهما
5) دابه فرانق و كتب محمد في جمادى الا (خر) سنة
6) oo
7) ... صحب بريد اشمون [15]

رسالة أرسلها الوالي وعامل الخراج عبد الملك بن يزيد الذي ولاه صالح بن علي العباسي على صلاة مصر سنة 133هـ . و قد أورد العامل وصفا كاملا لهذا الرسول بأنه أمرد، أي أن الشاب طَر شاربه و لم تنبت لحيته، أما صفة أزغ يقصد به الخفيف من الناس، و ذكر مثل هذه التفاصيل يدخل في توخي الحيطة و الحذر في

ارسال الرسائل كتلك المتعلقة بالجانب المالي كالجزية و الخراج ،و يكون صاحب هذه الصفات معروفا عند استلامه للطرود التي ينقلها العامل خشية ان تسلم لشخص اخر غيره فيستولي عليها. و ارسال دابتين هو إشارة ان احداها هي الخاصة بالبريد و هي الفرانق ، التي يركبها الرسول، أما الثانية التي لم يذكر اسمها من المحتمل أن تكون تلك التي خصصت لحمل الطرود ، أما اسم محمد ابن سليم يعتقد ان يكون الشخص الذي ارسل صلح لحمل البريد من مدينة اشمول المصرية .

الرسالة الرابعة :

هي عبارة عن رسالة أرسلها موسى ابن كعب الى مالك النوبة: اكتشفت هذه الرسالة من طرف جمعية الاستكشاف المصرية سنة 1972 م في قصر ابريل جنوب اصوان ، يبلغ طولها : 264،5 سم و عرضها 53،5 سم. و هي عبارة عن رسالة طويلة أرسلها والي مصر في العصر العباسي الى ملك النوبة ، و لقد نشرت دراسة مختصرة لهذه الرسالة في الكتاب التذكاري المهدى الى احسن عباس سنة 1981 م .

الرسالة كانت من موسى ابن كعب الوالي العباسي على مصر الى ملك النوبة الذي ذكره يقوت الحموي باسم : كابيل ، بينما يرى كل من سكوت و هانز أن اسم الملك النوبي المذكور في البريدية و وفق تاريخ كتابة البردية هو" قرياقوس "Cyriacis. تعتبر الرسالة في غاية من الأهمية من حيث الصيغة التي كتبت بها و مضمونها، الذي أشار إلى العلاقة التي كانت تربط الفاتحين المسلمين في مصر بالنوبة من جانب ، و من جانب آخر الإشارة إلى تلك الجزية التي كانت تؤخذ على شكل « بقط» أي العبيد الذي كان يقدم سنويا من طرف النوبة لمصر وفق الصلح الذي تم الوصول إليه بين الطرفين.

ولقد اثارت هذه القضية العديد من التساؤلات، خاصة المتعلقة بالعبيد وسبب وجودهم في الأراضي الإسلامية بكثرة بعد الفتح. وهل حقيقة وجد أن عمال الدولة الإسلامية والدين الإسلامي الذي حملوه ونشروه في العديد من الأمصار التي فتحوها أقر استعباد بنو البشر. مما دفع بالعديد من الباحثين القيام بالمقارنة بين نص هذه البردية و النصوص الواردة في المصادر التاريخية.

الرسالة الرابعة:

1) بسم الله الرحمن الرحيم

2) من موسى ابن كعب الى صاحب مُقُرَ(ة) و نوبة سلم على

1) اوليا الله واهل طاعته . و احمد إليهم الله ا

2) لذي لا اله الا هو

3) اما بعد فقد عرفت الذي صولحتم عليه و الذي جعلتم على

4) أ نفسكم من الوفى به فاحرزتم بذلك دماكم و اموالكم ان

5) انتم وفيتم و الله تبارك و تعالى يقول في كتابه [اوفوا

6) بعهد الله اذا عهدتم ، و لا تنقضوا الايمان بعد

7) توكيدها و قد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله

1) يعلم ما تفعلون] و قال : [اوفو بعهد اوف بعهدكم

و اياي فرهبوني] و قال : و قد وفينا لكم بالذي جعلنا لكم علينا من ا

51) و بعث اليكم سلم رسولا له منذ تسعة

اشهر و رسولا منذ أربعة

52) اشهر، فحبستموه معما عندكم من ارقى اهل الاسلم

53) و اهل ذمتنا و ما عليكم من البقة فانه قد ذكر

54) لي أن عليكم بقة سنين لم تودوه و ما بعثتم به من البقط

55) بعثتم بما لا خير فيه بين اعور او اعرج او كبير ضعيف

56) او صبي صغير

57) فانظر فيما كتبت اليك به و عجل

58) البعثة الينا بما بقي عليكم من البقة لسنين التي

69) قبلكم و لا تبعث بما لا خير فيه ، فلا نقبله ، و ابعث

60) الينا بتاجر محمد ابن زيد و بما كان معه من المال ، الا ان

61) قد قتل، فتبعث بالف دينر دية و بما كان معه

62) من مال، وابعث الينا بسعد التاجر الذي قبلكم و لا توخر

63) من ذلك شيا ، ان كنتم تحبون ان نفي لكم بعهدنا

64) و نكون على ما كنا عليه من الاستقامة لكم . و عجل

65) ذلك و لا توخره ، و ان انت لم تمتثل ، رأيت فيما

66) بيني و بينكم راي، ان شاء الله ، فاني أحببت ان اعذر

67) اليكم، و اتخذ الحجة عليكم ، و السلام على اوليا

68) الله و اهل طاعته ، و كتب ميمون يوم الاحد

69) لاحدى عشره ليله بقيت من رجب سنة احدى و أربعين و ماية

تحمل هذه الرسالة التي نقلتها لنا نصوص البرديات العربية العديد من المسائل المطروحة تاريخيا والتي تستحق الدراسة، والاهتمام من طرف الباحثين الراغبين في كشف العلاقات التي كانت بين البلدان الإسلامية والبلدان غير إسلامية، خاصة تلك المبنية على أسس اقتصادية مقيدة بمعاهدات او صلح يمكن حلها متى خرج أحد الطرفين عن البنود المتفق عليها.

وهذا ما اوضحته البردية في السطر 63ـ 64 ـ65، حيث كان محور هذه الرسالة يدور حول البقط الذي عرفه المقريزي: أنه ما يقبض من سبي النوبة في كل عام و يحمل الى مصر ، ضريبة عليهم أي ان الضريبة ارتبطت بالعبيد او من يقومون بالخدمة .

كما أشار مضمون الرسالة الى التهديدات التي أرسل بها موسى ابن كعب الى حاكم النوبة يذكره فيها بما تم الاتفاق عليه بين البلدين، وفي حالة مخالفة الامر سوف يكون له شأن أخر.

و ما يثير الانتباه أيضا في هذا النص هو تلك الشروط التي اشترطتها مصر في صفات العبيد المرسل من النوبة اليها ، و الذي يثبت انهم كانوا يعتمدون عليهم في خدمة المزارع و البيوت و من النوايا الحسنة التي يمكن ذكرها هو الاعتماد على بعض التحليلات التي ذكرتها العديد من الدراسات التاريخية و التي قالت: ان اهل النوبة كانوا يرسلون أبنائهم الى مصر لكي يعتنقوا الإسلام و ينتفعوا بمبادئه ضمانا لحياتهم و دينهم عكس الاطروحة التي ذكرتها الدراسات الاستشراقية التي علقت على هذه الرسالة مؤكدة ان الإسلام لم يأتي ليخلص العباد من العبودية التي انتشرت في المجتمعات

عبر العصور بل عززها و قننها . دون أن ننسى حالة التجار الذين أرسلوا من مصر و لم يعرف مصيرهم والذي يبدو من خلال نص الرسالة، أنهم قتلوا من طرف أهل النوبة أو أسروا و لذا جاء طلب دفع الدية في حالة قتلهم مع استرجاع كل أموالهم .

الرسالة الخامسة:

بسم الله الرحمن الرحيم حوائج العرس

عود نصف قيراط ما ورد قيراطين

أفواه خاره قيراط خروب قيراط .

حنا قيراط شمع قيراطين أبزار.

قيراط و هو فلفل و دار صيني حوائج .

الحمام قيراط در قيراط شيرج.

قيراط زعفران شعر قيراط .

نعل سندي بزمام تنيسي بربع دينار[17].

نص البردية عبارة عن قائمة لحوائج العرس تستخدمه العروس في تحضيراتها. رسالة في هذا المستوى تطلعنا على المواد المستخدمة في تلك الفترة و التي كانت تستحضر من بلاد بعيدة و التي ربما ثمنها كان غاليا مثل النعل السندي و الذي ثمنه بربع دينار مقارنة بتلك الفترة. كما تبين هذه البردية أن الحمام كان مستخدما باستحضار حوائجه. لكن يمكن لنا تصور أن هذه الحوائج خاصة بعروس من الطبقة الراقية.

الهامش:

1) وفيقة نصحى وهبة – عبد اللطيف حسن أفندي: تكنولوجيا صناعة أوراق البردي، ندوة البردي و المخطوطات العربية في افريقيا، 26-27 ديسمبر 2001م، معهد البحوث و الدراسات الافريقية، قسم التاريخ، ص 1.

2) سورة الأنعام، الآية 7.

3) فيقي تاكهلم و محمد دراز : نبات مصر، نشرة كلية العلوم، جامعة القاهرة، 28، القاهرة، 1950م ،3/2.

4) سعيد مغاوري محمد : البرديات العربية في مصر الاسلامية ، مطبوعات الهيئة الهيئة لقصور الثقافة، ط3، القاهرة 1998م.

5) وفيقة نصحي وهبة : المرجع السابق ، ص 3.

6) سعيد مغاوري محمد : التراث العلمي في نصوص البرديات العربية، مكتب ، برو للطباعة و النشر ، ط 1، القاهرة ، 1433هـ / 2012م ، ص ،ح ط.

7) ابن منظور (جمال الدين محمد بن أبي العز المصري) : لسان العرب ،ج 1 ، دار الجيل ، ط1 ، بيروت ، 1408هـ/ 1988م، ص 190.

8) سعيد مغاوري محمد: بحوث و دراسات في البرديات العربية، ج1، مطابع مجلس الأعلى للآثار ، مصر ، 2009م ، ص 501.

9) نفسه ، ص 505.

10) نفسه ، ص 523.

11) محمد سعيد مغاوري : بحوث و دراسات في البرديات العربية، ص 500.

12) جزء الرسالة محفوظ : في المتحف البريطاني بلندن، رقم : (Briti.Mus, pap ,inv 1515).

13) حسان حلاق : تعريب النقود و الدواوين في العصر الأموي- الحياة المالية و الاقتصادية و الإدارية- ، دار النهضة العربية ط1، 1408هـ/1988م،بيروت ، ص 38-39.

14) الرسلة محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، برقم سجل (الطراز رقم 328) مؤرخة بشهر ربيع الأول 91هـ، يناير – فبراير 710 م. أطوالها : 3،20/ 2،48 سم.

15) الرسالة محفوظة في مجموعة جون رايلاندز بمدينة مانشستر في إنجلترا برقم سجل ((D.v.OLdNumber ,3

16) جاسر خليل أبو صفية : رسالة موسى بن كعب إلى ملك النوبة ،ندوة البردي والمخطوطات العربية ،، ص 232 – 233 .

17) البردية محفوظة ضمن مجموعة الأرشيدوق راينر في قيينا بالنمسا برقم سجل .PERF .Arab (No 1014).

الموريسكيون ونكبة سقوط الأندلس

د/عبد الرحمان أولاد سيدي الشيخ
أستاذ محاضر، قسم أ
جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله

Abstract

Moriscons and the fall of Andalusia:

The fall of Andalusia is one of the darkest periods of Arab Islamic history. The year 1492, which dates back to the collapse of the Andalusian period of Granada, bears witness to the period of weakness that added the Arab political system to the Iberian Peninsula. And the characteristics of its power were expressed. Andalusia was the icon of the era of prosperity in the era of Arab Islamic history where the wind and its nectar and its strengths went. The small entities, which were named after the period of the kings of the Tawaif (Bani Amer, Bani Abbad, Beni Ziri, Ben Hammoud, were established in the regions of Belenesia, Seville, Granada, Malaga and Al Jazeera.

Keywords: Andalusia, Moriscos, Granada, Inquisition, Iberian Peninsula.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الموريسكيون، غرناطة، محاكم التفتيش، شبه الجزيرة الإيبيرية.

توطئة:

لقد كان الفردوس المفقود شاهدا على ما وصلت إليه الحضارة العربية الاسلامية من تقدم وازدهار لما جادت به من عطاءات مرموقة في شتى الجوانب الحضارية، ليس كحاضرة عربية فحسب وذلك لما ساهمت به في مجالات عديدة كالعمران والعلوم... أثرت به السجل الانساني فكانت علامة فارقة جسدت أبرز وأسمى معالم الحوار بين الحضارات في شبه الجزيرة الايبرية وعبرت عن سماحة الدين الاسلامي وأتباعه وربطت جسور التعاون والتلاقح المثمر بين المسلم والمسيحي وكذا العبري، إلى أن تحرك بعبع الفكر الصليبي بعد اتحاد مملكة أرغون وقشتالة الذي انبثق عن زواج الملكة ايزابيلا وفرديناند، ولقد اغتنم هذا القران الكاثوليكي المقدس الاوضاع التي آلت إليها الأندلس من تشتت وفرقة وتناحر لتدشين عمليات التطهير العرقي والديني الذي سوف تباشره مؤسستي الدين والسياسة أي الكنيسة والملك والذي نجم عنه فيما بعد ممارسات قمعية تمثلت في القتل والتعذيب والتهجير وممارسة سياسة مصادرة الأراضي والاستحواذ على ممتلكات المسلمين والعمل تنصيرهم الشيء الذي يوحي بأن هذه الخطوات تمثلت في مخطط شامل وكامل هدفه إنهاء الوجود العربي الاسلامي بهذه الرقعة التي تعايشت حضاريا لمدة قاربت الثماني سنوات.

وقد ولى عصر الازهار الذي شهدته الاندلس على عهد عبد الرحمان الناصر 961 م والمعين وغيرهم، ودبت مؤشرات وإرهاصات الانحطاط، بدأ الصراع الحفر بين البربر والغرب والذي أقرر نظام الدويلات، وانتقل الحكم من الأموي إلى المرابطي والموحدي، تغلغل الأفعى اليهودية في غياهب منظومات أساسية في الأندلس – نتيجة سياسة التسامح الإسلامي — وبداية فتور دينامية التطور على كافة الأصعدة، وبروز أولوية الصراع والشرف على الإتحاد والبقاء والإستعداد للعدو والمولود الصليبي المتربص.

لقد سقطت كل تلك الكيانات و لم يبق سوى واسطة الحواضر الأندلسية غرناطة بعد أن تناثرت حبات العقد الأخرى، فكانت شاهدا أوحدا يوثق لسنوات التحدي الذي باشرته هذه الإمارة وكذلك عبارة عن سجل يؤرخ للوهن والضعف استشرى في جسم منظومة الحكم العربي في شبه الجزيرة الإيبرية، هذا الحكم الذي وقعت شهادة وفاته عام 1492. لقد شهدت الاندلس موجة نزوح انساني رهيبة نتيجة للوحشية التي مارستها الدولة الكاثوليكية المتحدة التي عمدت بالقداس الكنس وأعلنت حربها القذرة بشتى الوسائل تجاه هؤلاء الأبرياء (القتل، التنصير، الإجتثات، الحرق، البتر والإغتيال على الهوية).

أمام هذا الوضع الكارثي شهدت سواحل المغرب العربي أمواجا سرية هاربة من الجحيم والمحرقة الصليبية، فكانت جزائر الهعد العثماني احدى الحاضنات للمورسكيين الفارين الذين استوطنوا في العديد من مدنها وباتوا عنصرا فعالا فيها. ومن هنا نطرح الإشكالية المركزية التالية، وهي كيف حدثت نكبة الأندلس والمتمثلة في سقوط غرناطة، ما هي الإجراءات التي مارسها أزلام الحكم الكاثوليكي الجديد وما هي تأثيراتها على هذا العنصر الموريسكي الفعال حضاريا؟

1– الأندلس بعد سقوط غرناطة :

بعد استحواذ المملكة المتحدة (قشتالة وأرغون) على كل حواضر الأندلس، مغتنمة الصراع بين الملوك لم يبق سوى غرناطة التي قاومت المد المسيحي حتى آخر رمق،و تم تسليم قصر الحمراء [1] بعد مفاوضات ماراطونية دامت أسابيع توجت بمعاهدة 1491/11/25 وتضمنت أكثر من سبعة وستون شرطا تقر كلها بحتمية المحافظة على احترام الإسلام ومقدساته [2]، وقد سلم

ابو عبد الله مفاتيح غرناطة للملك قائلا «هذه المفاتيح هي آخر ما بقى من سلطان العرب في اسبانية خذها فقد اصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته» [3] باستسلامه سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس[4] وبدأ الاسبان في انتهاك شروط معاهدة التسليم، حيث شرع الرهبان في تمسيح مسلمي وذلك باستخدام شعار الغاية تبرر الوسيلة اي الترغيب والتهديد وقد استلم المهمة الراهب هيرناندو والكاردينال خيمينيس وقام هذا الأخير بالتحريض على احتلال حواضر المغرب وتنصير مسلمي المنطقة، وكان هذا الكاردينال المتوحش قد خير مسلمي غرناطة وضراحيها بين اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد وكان ذلك بمثابة بداية لتراجيديا المسلمين بالأندلس على يد هذا الخيمينيس ابن قشتالة الذي ولد عام 1436م، شغل منصب أمين سر الملكة بداية من 1492م ثم كاهنا لطليطلة سنة 1495 وبعدها حاكما لقشتالة حتى عام 1504 ومهندس عمليات التنصير واجتثات المسلمين من الأندلس[5].

لقد كان سقوط غرناطة بمثابة بالنسبة النكبة الكبرى بالنسبة لأمة الإسلام قاطنة لأنها كانت الحصن العربي الأخير في الأندلس، وكانت حدثا عظيما للمسيحية جمعاء، بحيث هللت وأقامت الأفراح الدينية والقداس الأعظم بروما وانتهجت قصور اوروبا لهذا واعتبرت ذلك مقابلا لسقوط القسطنطينية عام 1452، اصبحت ملكا للشبه الجزيرة الايبيرية، فرديناند وايزابيلا عنونا للفخر والتنويه كونهما حققا اماني اوروبا النصرانية[6].

2- مظاهر محاربة الموريسكيين :

لقد اصبح للموريسكيين – أعداء المسيحية – عرضة لحملات التشهير والمضايقات والملاحقات وللمراقبة والتفتيش من قبل الإسبان، بحيث تتم محاكمة أي شخص لمجرد الشك أنه لا زال يمارس تعاليم الدين الإسلامي وليس طقوس المسيحية الذي اجبر على اعتناقها قسرا، فبات الإضطهاد والتعسف ومحاكم التفتيش والتمسيح الإجباري والتهجير والنفي وطمس شخصيتهم بمحاربة دينهم ولغتهم تمثل يوميات الموريسكيين [7].

يمكننا ان نتوقف عند بعض الأمثلة التي تمثل جلة الإجراءات التعسفية وذلك من خلال هذه الإطلالة، لقد تم اتخاذ قرار الطرد الحاسم الإجباري النهائي للموريسكيين في 22 سبتمبر 1609، نتجه لثلاث أسباب رئيسية هي:

– عدم قدرة الكنيسة على تنصير الموريسكيين.

– خطر تواجد الموريسكيين على المملكة [8]

– الزيادة الديمغرافية للموريسكيين مقابل الإسبانية (1565-1572) إلى غاية 1609 بلغت 44.7 للإسبان و69.7 للموريسكيين الشيء الذي سبب قلقا كبيرا لدى المملكة وحكامها ووجد الحل الأخير في الطرد الأخير[9].

– اقامة الموريسكيين لتعاليم دينهم الإسلامي خاصة في القرى والمناطق المنعزلة كأداء الصلوات الخمس داخل المغارات الصخرية ويصومون رمضان ويحتفلون بيوم الجمعة كعيد ديني ويحفظون القرآن ويتعلمون العربية [10]

– البعد الصليبي الحاقد الذي طبع مسيرة فيرديناند وايزابيلا بداية من الزواج إلى إتحاد قشتالة وارغون إلى مباركة الكنيسة الكاثوليكية إلى دور الرهبان في محاكم التفتيش والتنصير إلى متابعة ابنه فليب الثالث (1598 – 1621) سياسة التعصب الديني الشديد والقمع والمراوغة وتوجها بقرار الطرد النهائي عام 1609 [11].

وعلى الرغم من قرار الطرد النهائي الإجباري الجماعي الذي أقره الملك طيب الثالث فإن الآلاف من الموريسكيين لم يهاجروا وذلك راجع لاستحالة اجتثاثهم كمسلمين من الأندلس، ومنع مغادرة الآلاف

من أطفال المورسكيين قصد اذابتهم في المجتمع الإنساني الكاثوليكي اضافة إلى عدم قدرتهم على دفع تكاليف ابحارهم وخوفهم من ويلات وقوعهم في أيدي القراصنة الأوروبيين. وقد نجم عن ذلك بقاء الإسلام في غرناطة إلى منتصف القرن 18م، وهذا استنادا للوثائق الإسبانية التي أقرت أن محاكم ودواوين التفتيش قد وجدت ان عددا كبيرا من الإسبان يمارسون شعار الدين الإسلامي سرا في 1727 في مدينة غرناطة [12]، كما ان أمرية الملك الصادرة بتاريخ 23 ماي 1610 والتي جاءت بحتمية اخراج المورسكيين الذين يضمرون الإسلام في قلوبهم في اراغون وسرقسطة ومدن قشتالة كان لها دورا في احتجاج كثير من الأهالي لاسيما أصحاب الأرض حيث بلغوا الملك بأن بعض البلاد ستصبح قاعا صفصافا اذا أخرج الموريسك منها، فتضمن الأمر الملكي أن الموريسكي الذي يكون متزوجا بمسيحية أصلية يجوز بقاء امرأته وأولاده اذا شاؤا البقاء وكذلك المسيحيون الأصليون المتزوجون بمورسكيات، اذا ارادوا هم ونسائهم البقاء في البلاد فلهم ذلك، وكذلك الموريسك الذي تحقق انهم ارتدوا عن الإسلام ارتدادا صحيحا لا شائبة فيه فهؤلاء لهم أيضا حق البقاء[13].

كما كان للبقية دورا كبيرا في الحفاظ على الشخصية الإسلامية وذلك بالتظاهر بإتباع المسيحية علنا وممارسة شعائر الإسلام سرا[14]. لقد طالت حملة الطرد والتهجير والنفي الجماعي في الفترة مابين سقوط غرناطة حتى عهد فليب الثالث زهاء 3 ملايين نسمة [15]، هؤلاء المورسكيين اشعلوا بعض الثورات التي تم اخمادها بعد ان قتل منهم الكثير و في الأخير استقر رأي زعمائهم وفقهائهم مثل بلنسية على الرحيل خاصة وأنه لا أمل في المقاومة [16] ووصلت دفعة تقدر بثمانية وعشرين ألف مورسكي إلى سواحل المغرب الإسلامي الذي كان حينها تحت السيطرة الإسبانية وانتشرت اعدادا كبيرة من المورسكيين في بقاع عديدة من العالم الإسلامي [17] وقد عاد معظم المورسكيين المنفيين في شمال افريقيا والمشرق إلى الإسلام دين ابائهم و لم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب جدو الإسلام في أنفسهم[18].

لقد ساهم اجراء الطرد النهائي الإجباري في تعميق مأساة المورسكيين وأصبحت نكبة الأندلس دليلا ساطعا وثاقبا لكل متشدق بالحوار الحضاري، التسامح الديني، فهذه الصفحة من التاريخ شاهدا على أفول حضارة التسامح في الأندلس وميلاد البعبع الصليبي والكنيسة المتعصبة في شبه الجزيرة الايبيرية .

لابد أن نشير بأن عملية الطرد قد سبقتها إجراءات تعسفية كثية أهمها التنصير ومحاكم التفتيش، فقد خاض الملك فيرديناند حملة التنصير الإجباري للمورسكيين مباشرة بعد خرقه لمضامين معاهدة التسليم التي كانت بتاريخ 1491/11/25 بحيث ضرب عرض الحائط كل البنود القاضية باحترام حقوق المورسكيين، تبلور ذلك في منعهم من أداء شعائرهم الدينية وتم غلق المساجد وفق خطة كنسية محكمة تهدف إلى محاربة لغتهم ودينهم وبالتالي شخصيتهم [19].

يعد خيمينيس من أهم الكاردينالات التي اعتمد عليها الملك لأجل نجاح عملية التنصير فكانت البداية من غرناطة عام 1499، بحيث أمر الفقهاء باعتناق المسيحية وأغرقهم بالهدايا فأقبل بعضهم على التنصير وتبعهم عدد كبير من العامة، [20] كما مارس الكاردينال أسلوب الترهيب والتهديد والوعيد والتنصير العسري الإجباري على عشرات الألوف من المسلمين واضرم النار في المصاحف والآلاف من كتب الآداب والعلوم في باب الرملة أكبر ساحات مدينة غرناطة، و لم يستثنى سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم التي حملت إلى جامعة أنشأها في مدينة الكالادي هينارس [21] وبهذا أتلفت عشرات الألوف من الكتب العربية وهي خلاصة ما بقي من ثرات الفكر الإسلامي في

الأندلس[22]. ويهدف هذا الإجراء الهمجي إلى إلغاء أي رابط يربط المسلمين بعقيدتهم ويفصلهم عن تراثهم لتسهيل عملية تنصيرهم، ومما لا شك في أن الملكين الكاثوليكيين كانا على اتفاق مع خيمينيس للقيام بهذه الإجراءات [23].

قامت الكنيسة بتعبئة الإسبان بالنزعة الصليبية من أجل القضاء على الأقلية المتبقية في اسبانيا عامة وغرناطة بشكل خاص كونها تشتمل على اعداد كبيرة من الموريسكيين، كان وجود هذه النسبة المسلمة في قلب اسبانيا النصرانية يشغل السياسة الإسبانية التي اضحت أداة لينة في يد الكنيسة ذات القوة والنفوذ [24].

لم تتوان السلطات الإسبانية عن شن العديد من الإجراءات والقرارات القمعية لضرب الشموخ والصمود الموريسكي في حفاظه على عقيدته ودينه وثقافته وبالتالي شخصيته العربية الإسلامية وتمثل ذلك في الزام الموريسكيين بالسكن في أحياء خاصة بهم تسمى «موريريا» أو ما تعرف الآن «بالغيتوهات» وتفصل الأسوار الكبرى بين أحياء الموريسكيين وأحياء النصارى [25] إضافة إلى حتمية إقامة شعائر الصلاة والذهاب إلى الكنائس بدلا من المساجد ومنع حمل واستخدام السلاح وتحريم استخدام اللغة العربية ومنع ممارسة العادات والتقاليد العربية وكذا اقتناء الملابس العربية، تحريم الإحتفال كالزواج إلا وفق الطقوس المسيحية الكاثوليكية وان نفتح البيوت ليلة الزفاف مع منع استخدام الحناء والتزيين بها وعدم استعمال الحمامات العربية، الزام الموريسكيين بعدم غلق منازلهم وأن تذل مفتوحة طوال اليوم، في الأعياد والحفلات والعطل الرسمية وأيام الجمعة والسبت [26].

كما باشرت محاكم التفتيش، ديوان التحقيق أو الديوان المقدس وهي تسميات متعددة لهيئة واحدة[27] مهامها منذ تأسيسها في قشتالة بناء على طلب ايزابيلا وفيرديناند وبتزكية من البابا في ملاحقة ومطاردة الموريسكيين [28] والزج بهم في السجون السرية الشنيعة بتهم عديدة أكثرها الزيغ والكفر مع مصادرة أملاكهم وعزلهم عن أسرتهم طيلة مدة المحاكمة التي تدوم ما بين عام إلى ثلاثة أعوام وتدفع عائلاتهم نفقات سجنهم أو من أملاكهم التي تمت مصادرتها، وكانت عقوبة الكفر الموت حرقا [29].

ولقد كانت قائمة طويلة للممنوعات على الموريسكيين منها ذبح الدواجن والحيوانات، رفض كل الحيوانات الغير مذبوحة، القيام بشهر رمضان، الاحتفال بعيد الأضحى، ختان الأبناء الحلف بالآيات القرآنية، تقديم الصدقات، الوضوء، الزواج على النهج المحمدي، تغسيل الموتى وتكفينهم في قماش أبيض، واذا قالوا أن المسيح كان نبيا، منع الأسماء العربية فقد طلبت من كل المواطنين الإسبان الإخبار عنها لمحاكمة أصحابها بالسجن أو التغريم أو التهجير والإستيلاء على الأملاك وسلب الحقوق المدنية وحرق الموريسكي المتهم حيا [30].

لم تتوقف الدواوين المقدسة أو محاكم التفتيش كما هو معروف عن اهانة الموريسكيين بكل النعوت، بحيث اعتبرتهم السم والحشرات الطفيلية والنبتة في حقل الكنيسة الإسبانية، وفرضت أسماء اسبانية على رجال العلم والفقهاء لتجسيد القطيعة مع تراثهم وثقافتهم الإسلامية، وأقرت عقوبات رادعة للجراحين المختصين في عملية الختان ومنها النفي خارج المملكة، إضافة إلى التهجير القسري للموريسكيين الغرناطيين إلى قشتالة بعد ثورة البشرات (ثمانون ألف موريسكي) [31]، واتبعت سياسة التسامح مع الموريسكيين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية الكاثوليكية المقدسة، وعلى أن لا يبقى عربي واحد ولا كافر ما عدا الأشخاص المسجونين [32].

ان بشاعة هذه الإجراءات الزجرية لم تكبح جماح المقاومة والتصدي ووازع الجهاد ضد التنصير

الإجباري، الشيء الذي جعل أسقف بلنسية يبعث بتقريرين جديدين يوضح فيهما خطر المورسكيين على البلاد وأنهم على صلة تكاد لا تنقطع مع مجاهدي البحر المغاربة [33] وقد ذهب في نفس الرأي الدوق ليرما وذكر بحتمية تطهير مماليك اسبانيا بواسطة اقصاء المورسكيين عنها وذلك بتهجيرهم أو تنصيرهم الشيء الذي جعل مجلس الدولة الإسباني يصادق على القرار القاضي بطرد جميع المورسكيين بداية من 1906 مغتنما الظروف الدولية [34].

ويمكننا تلخيص وضع المورسكيين بعد تسليم غرناطة في هذا القول الفيصل لفارس غرناطي [35] «أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع لأشد ما تخطئون، إنهم جميعا ظمئون لدمنا والموت خير ما تلقون منهم، ان ما ينتظركم شر الإهانات والانتهاك والرق، ينتظركم نهب منازلكم واغتصاب نسائكم وبناتكم وتدنيس مساجدكم، تنتظركم المحارق الملتهبة لتجعل منكم حطاما هشيما».

خلاصة:

لقد أفرزت هذه الاوضاع ظاهرة الهجرة الجماعية الإجبارية الاضطرارية خوفا من الأهوال والمصير المجهول، إلى سواحل المغرب الإسلامي وكذا نحو بقاع عديدة من العالم الإسلامي [36] ومنها الجزائر التي استقبلتهم في حواضرها وفحوصها وقراها وقد اثروا بمهاراتهم جميع المجالات مثل التعليم والزراعة، الاقتصاد، العسكرية، والورشات الحرفية، الموسيقى، والخياطة والطبخ وانصهروا في المجتمع الجزائري، فكانوا رافدا حضاريا ثريا دعم المحروسة التس كانت ملاذا لهم من أخطبوط الكنيسة ومحاكمها وبطش وتنصير المملكة الإيبيرية، فشاركوا في دفع موجة التمسيح والاحتلال عنها وعن الحوض الغربي الإسلامي للبحر الأبيض المتوسط.

الهوامش:

(1) محمد الهادي العابري: تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والدبول (تونس الشركة الوطنية للتوزيع 1974) ص 186 انظر تفاصيل سقوط غرناطة في:

- حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس (دار الرشاد القاهرة 2004) ص 154

- محمود عبد الفتاح شرف الدين : تاريخ السياسة الإسلامية على الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (مكتب الأدب القاهرة ب ت) ص 267-269

- محمد رزوق : الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16- 17 (ط 3 دار افريقيا ص 54

- شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس (بيروت 1983 ص 270-272)

(2) أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفخ الطيب في عصن الأندلس الرطيب شرح مريم قائم طويل، يوسف علي طويل (ط1، بيروت 1995 ج 6 ص 270-271)

(3) أرسلان : المرجع السابق ص 227

(4) العامري: المرجع السابق ص 186

(5) محمد رزق: المرجع السابق ص 57-58 وانظر أيضا

- أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1797) (الجزائر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية 1985) ص 49-50 وأيضا

– سيام العسلي خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470 -1547 (بيروت 1983 ص 44-45)

(6) عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (القاهرة مكتبة الخانجي 1997) ص271

(7) المرجع نفسه ص 312 و315

(8) السجل العلمي لندوة الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات القسم الثاني الموركيون ،الكتابات الاستشراقية والجغرافية والرحلات (ط1 الرياض مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة 1997) ص 13-14

(9) رزق: المرجع السابق ص 121

(10) السجل العلمي لندوة الأندلس ص 9-11

(11) علي أمير سيد احمد: مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ترجمة رياض رأفت (ط 1 القاهرة دار الآفاق العربية 2001)

(12) عبد الجليل التميمي: تطبيق مورسكيين الأندلس للشعائر الاسلامية (زغوان منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات 1991) ص 49-50

(13) شكيب أرسلان ،الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (ط 1، مصر، الطبعة الرحمانية 1936) ص 166 -167

(14) انظر جمال يحياوي « دور التقنية في الحفاظ على الشخصية الموركية للأندلس 1492-1610) ضمن كتاب سعيدوني نصر الدين – دراسات مهدات إلى الدكتور أبو القاسم سعد الله، (بيروت، دار الغرب الاسلامي من 2000 ص 350-351

(15) علي أمير سيد احمد: المرجع السابق ص 472-473

(16) عنان المرجع السابق ص 397

(17) عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، معرب الأرض والشعب (بيروت، دار الغرب الاسلامي 1996) ص 185

(18) عنان المرجع السابق ص 402

(19) المرجع نفسه ص 315

(20) محمد حسن العيدروس: تاريخ العرب الحديث (الكويت دار الكتاب الحديث 2001) ص 57

(21) رزق: المرجع السابق 57-58

(22) عنان المرجع السابق ص 316

(23) رزق: المرجع السابق ص 58

(24) عبد الجليل التميمي (الخلفية الدينية للصراع الانساني العثماني في القرن 16م المجلة التاريخية المغربية ع 12 (تونس) جويلية 1978 ص 6

(25) عنان المرجع السابق ص 326

(26) التميمي: تطبيق الموريسكيين ص 41، 42 وانظر التفاصيل أيضا: العيدروس المرجع السابق ص 54، 55

(27) للمزيد أنظر: محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الإسبانية (1480-1516 م) (الأردن دار زهران للنشر والتوزيع، د ت ص 18

(28) عنان: المرجع السابق ص 332

(29) المرجع نفسه ص 333

(30) التميمي : تطبيق المرجع السابق ص 41 – 42 وانظر أيضا يحياوي المرجع السابق ص 351

(31) التميمي: تطبيق مرجع سابق ص 41 – 45

(32) لوي كارديا المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية 1492 – 1640 م (زعوان: منشورات مركز دراسات البحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات 1989) ص 109 – 111

(33) انظر حملات الانقاد والاتصال بمجاهدي البحر، مذكرات خير الدين بربروس ترجمة د محمد دراج (ط 1 شركة الأصالة للنشر والتوزيع الجزائر 2010) ص 139 – 141 و158

(34) التميمي: المورسكيون المرجع السابق ص 110

(35) السجل العلمي لندوة الاندلس مرجع سابق ص 211-212 وانظر طرق التعذيب البشعة في السجون والادارة في سليمان مظهر « بارباروسا سيد البحار وحامي العقيدة « مجلة العربي ع 73 (جوان 1984) ص 126

(35) عنان مرجع سابق ص 315

(36) غلاب : المرجع السابق ص 185 ولأكثر تفاصيل انظر محمد الهادي الشريف : تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش، ومحمد عجينة ط 2 سراس للنشر 1985) ص 75 – 77 وأيضا : ناصر الدين سعيدوني والنسيج المهدي بوعبدلي :الجزائر في التاريخ – العهد العثماني- المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984) ص 44 و97- 99، وكذا حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس الدار التونسية للنشر 1983) ص 162- 163.

تجارب الائتلاف السياسي في الحركة الوطنية الجزائرية
1954 – 1919

د. مراد بوعباش
أستاذ محاضر- أ -
المدرسة العليا للأساتذة . بوزريعة

مقدمة:

بعد فشل المقاومات الشعبية في الجزائر إثر الاحتلال الفرنسي للبلد عام 1830 ن اتجهت الجزائر مع مطلع القرن العشرين إلى شكل جديد من المقاومة عرف في أدبيات الحركة الوطنية بالمقاومة السياسية حيث ظهرت تيارات عديدة وفق برامج مختلفة و أهداف أقل ما يقال عنها متقاربة « الاستقلال «.

وبناء عليه ،فقد ظهرت على الساحة الوطنية تيارات عديدة كلها تهدف إلى جلب الجزائريين وفق برامج وتوجهات وايديولوجيات مختلفة في الشكل و متقاربة في المضمون.

إلا أنّ هذا الاختلاف لم يمنع من حين لآخر مبادرات من أجل الوحدة ضد العدو كما حدث في المؤتمر الإسلامي سنة 1936 ، أو ضمن أحباب البيان و الحرية سنة 1944 ، أو ضمن الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات و احترامها سنة 1951.

إنّ أهمية هذه الدراسة تكمن في الإجابة عن سؤال مهم كون العمل الوحدوي هل هو نتاج لظروف أملتها المرحلة ام تطور طبيعي في نسيج الحركة الوطنية. ومن ثم ما هي المظاهر والإشكال التي اتخذها العمل الوحدوي ؟ وهل بلغ هذا العمل إلى أهدافه الإستراتيجية التي أنشأ من أجلها ؟

حركة الأمير خالد و النواة الأولى للوحدة الوطنية .

تجلى دور الامير خالد في انشاء نجم شمال افريقيا في مواقفه من الاستعمار الفرنسي حيث برزت توجهاته الاستقلالية مع العريضة التي سلمها للرئيس الامريكي ولسن عام 1919 ، و لقد جائت مطالب هذه العريضة استقلالية تهدف الى فصل الجزائر عن فرنسا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.
و مما جاء فيها :

« رغم كل هذا فاننا ناتي باسم مواطنينا لنستعطف المشاعر النبيلة لرئيس امريكا الحرة و نطلب ارسال ممثلين نختارهم نحن بكل حرية ليقرروا مصيرنا في المستقبل تحت اشراف عصبة الامم. إنّ شروطكم الاربعة عشر من اجل سلم عالمي .... قد قبلها الحلفاء والقوات المركزية ، ولهذا ينبغي ان تكون اساسا لانعتاق كل الشعوب المضطهدة دون تمييز لا في الجنس ولا في الدين»[1]

لقد جاء مضمون المذكرة التي رفعها الامير خالد شاملة لكل القضايا التي يعيشها الشعب الجزائري، اذ شرح من خلالها الجرائم الفرنسية في حق الجزائريين

وخرق الاستعمار لمعاهدة 5 جويلية 1830 ، ومن ثم اعطى الامير خالد حقيقة الاحتلال و نتائجه على الشعب الجزائري ، وانه قد حان الوقت للاعتراف بالمطالب المشروعة و الشرعية للجزائريين مع حق تقرير المصير تحت وصاية عصبة الامم.

وكان هدف هذه العريضة التعريف بحال الاهالي المسلمين بالجزائر و لفت انتباه الى معاناتهم باعتباهم مستعمرين منبوذين[2]

لقد كانت محاولات الامير خالد ايجاد صلاة و ترابط بين المقاومة الريفية التي تقلص دورها الى حد كبير و بين المواطنة الحضرية التي كانت في اول عهدها في حالة من الاضطراب [3]

أضف الى ذلك خطابه امام الرئيس الفرنسي « ألكسندر ميليران «* يوم 20 افريل 1922 التي يقول فيها : « بان الجزائريين يطالبون في الحال بالحريات المدنية و بتقلد المراكز في العائلة الفرنسية بدون شروط «[4]

كما يمكن ان نجد نفس المطالب في برقية الى رئيس الوزراء « ادوارد هوريو «** التي جاء في دباجتها : « سيدي الرئيس، استبشر المسلمون الجزائريون خيرا لدى وصولكم الى الحكم و اعتبروا ان عهدا جديدا قد بدا من اجل الحرية و الانعتاق ، وباسمي الشخصي المتواضع وكمدافع عن قضية اهالي الجزائر فرض علي اللجوء الى الخارج بسبب اني تجرأت عن الدفاع الصريح عن اخواني المسلمين . يشرفني ان اضع بين الرئيس الجديد للحكومة الفرنسية برنامج المطالب التي نراها اولوية ...»[5]

كما كانت لزيارة الامير خالد لفرنسا و القائه محاضرة يوم 12 جوان 1924 والتي ركز فيها على المسائل السياسية مثل التمثيل النيابي و الغاء القوانين الاستثنائية والمسائل الاقتصادية مثل مشاركة المسلمين الجزائريين في استغلال الاراضي التي يسيطر عليها المعمرون وذلك بصفة عملية الى جانب المسائل الاجتماعية .

كما اقترح اثناء خطابه انشاء حركة سياسية لابناء شمال افريقيا و اطلق على الحركة اسم « نجم شمال افريقيا « و طلب الموافقة على الاقتراح فنال الاغلبية .[6]

كما اشرف الامير خالد في باريس على تاسيس لجنة من ابناء الشمال الافريقي و منهم الحاج عبد القادر والحاج احمد مصالي و المنور عبد العزيز و على الحمامي واحمد بهلول و اكلي بانون و غيرهم.[7]

كما كانت دعوة الامير خالد للتضامن بين الجزائريين حيث اسسفي 23 جانفي 1922 جمعية الاخوة الجزائرية مع نخبة من رجال العلم منهم زهير بن سماية و يوسف حميدة و الذين اطلق عليها جمعية الاخوة الاسلامية. و كان من اهدافها خدمة القضايا السياسية و الاجتماعية و الثقافية للشعب.حيث يقول : « ان الاخوة الجزائرية من واجبها الاول بيان تضحيات الاهالي الجزائريين المسلمين في الحرب العالمية الكبرى .... إنّ الاخوة الاجزائرية تتقدم بطلب الغاء جميع القوانين الاستثنائية التي لا يزال يرزخ تحتها الاهالي المسلمون ، في اقرب وقت ممكن والرجوع الى القانون العام ...»[8]

ومن اشهر ما قاله الامير خالد امام الرئيس الفرنسي ميلران يوم 22 ماي 1922 « لا بد من اعادة مجد اجدادنا و لو بقطع نصف رقاب الجزائريين«[9]

و تعدى عمل الامير خالد من العمل ضمن حدود الوطن الى حدود المغرب العربي حيث استطاع غرس فكرة العمل المشترك بين اجزاء المغرب حيث شارك في اول مؤتمر مغربي انعقد في باريس يوم 07 ديسمبر 1924.[10]

المؤتمر الإسلامي 1936

اعتبر عقد الثلاثينيات من القرن الماضي منعطفا

هاما في تاريخ الجزائر نظرا للاحداث التي ميزته اهمها احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلالها الجزائر، وتاسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مرورا بالمؤتمر الاسلامي لعام 1936 ، وانتهاء باندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939.

ورغم ما كانت تعاني منه الحركة الوطنية في هذه الفترة من مضايقات الا انها استطاعت ان تتبلور في تيارات مختلفة تجسدت في تيار الادماج وتيار الاستقلال وتيار الاصلاح .

وبميلاد هذه التيارات يمكن القول بان الحركة الوطنية قد اكتملت من حيث التنوع وتشعبت في اتجاهات مختلفة ايديولوجيا و سياسيا لا يجمع بينها سوى كون زعمائها جزائريون.

كما شهدت هذه الفترة وصول الجبهة الشعبية الى الحكم في فرنسا يوم 4 جوان 1936 والتي علقت عليها شعوب المستعمرات و منها الجزائر آمال كبيرة في تحسين اوضاعها المزرية[11].

كما يضيف بعض المؤرخين ان فكرة المؤتمر الاسلامي هي امتداد للمؤتمرات الاسلامية التي كانت قائمة في تلك المرحلة و اهمها مؤتمر الخلافة الاسلامية بالقاهرة المؤتمر الاسلامي في القدس ،و مؤتمر مسلمي اوروبا بجنيف و هذا ما اشار اليه الاستاذ سعد الله بقوله : « لا نستبعد ان الفكرة قد اختمرت في ذهن بعض القادة الجزائريين عندئذ .... و الذي يطالع مجلة الشهاب من 1930 – 1936 يجد فيها مجموعة من الاراء الداعية الى التجمع و تكوين الاحزاب ، و عقد اللقاءات ، و تنظيم الشعب على نطاق جديد لمجابهة التطورات الجديدة في الجزائر ..»[12]

و لقد جاء في جريدة البصائر قولها : « هبت الامة الاسلامية الجزائرية بجميع طبقاتها على تلك الدعوة الجامعة التي اذاعها الاستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و الدكتور بن جلول رئيس جمعية النواب بعمالة قسنطينة الى عقد مؤتمر اسلامي جزائري عام تعرض فيه مطالب الامة و حقوقها و تتبادل فيه الاراء بين علماء الامة و نوابها و ذوي الراي منها فيما يتفق من هذه المطالب و الحقوق مع الاوضاع الحكومية الحاضرة ، و لقد هبتالامة كلها على صوت الداعي فاعلنت يقظتها و شعورها و استعدادها و تضامنها و اتحادها ....»[13]و يرى الاستاذ محمد الميلي بان فكرة انشاء حزب او تجمع سياسي اسلامي جزائري ترجع الى اعقاب الحرب العالمية الاولى في اطار الحركة التي قام بها الامير خالد ن كما ان فكرة مؤتمر اسلامي جزائري يضم كل التيارات السياسية و الاصلاحية الدينية كانت قد خطرت في ذهن الشيخ ابن باديس منذ مطلع الثلاثينيات ليتجسد ذلك سنة 1936.[14] و إذا عدنا الى قرارات المؤتمر فان الملاحظ ان المطالب و ان كانت لا تعرقى الى مطلب الاستقلال الا ان الاجماع الذي حدث خلال المؤتمر هو الاهم في مثل تلك الظروف. و لقد تمت المصادقة بالاجماع على المطالب التالية :

1 – القرارات :

أ – ثقة المؤتمر بالحكومة الشعبية الجديدة وشكرها على عواطفها نحو الامة الجزائرية.

ب – الغاء جميع القوانين و القرارات الاستثنائية الخاصة بالمسلمين.

ج – تخويل المسلمين الجزائريين جميع الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون مع المحافظة التامة على المميزات الاسلامية التي يتمتع بها المسلم الجزائري في احواله الذاتية الشخصية مع ادخال اصلاحات عليها.

د – تخويل المسلمين الجزائريين حق التمثيل في البرلمان الفرنسي على هذه الصورة :

1 – انتخاب مشترك بين المسلمين و الفرنسيين.

2 – تعميم في المنتخبين المسلمين على الصورة

الجارية الآن في انتخاباتهم المحلية.

3 – تاكيد في المحافظة على الاحوال الشخصية الاسلامية.

هـ – تاسيس لجنة تنفيذية للمؤتمر على الوجه الآتي بعد.11

ثم جاءت القرارات التي صادق عليها المؤتمر على النحو التالي :

1 – إلغاء جميع القوانين الاستثنائية التي لا تطبق الا على المسلمين.

2 – الارتباط المطلق بفرنسا مع حذف كل الاجراءات الخاصة مع الغاء النيابات المالية ، الولاية العامة

3 – المحافظة على على الحالة الشخصية مع اعادة تنظيم الادارة الشرعية الاسلامية على كيفية معقولة تتفق و قانون الفكر الاسلامي ، مع فصل الدين عن الدولة ، و تطبيق كل قوانينه المقررة حسب منطوقه و مفهومه واسترجاع كل المؤسسات الدينية الى المجتمع المسلم الذي يمكن له وحده ان يتصرف فيها و يستغلها بواسطة الجمعيات الدينية التي تؤسس بصفة قانونية.

صيانة المؤسسات الدينية و رجالها بواسطة مداخيل الاوقاف ، الغاء كل الاجراءات الخاصة باللغة العربية و التي جعلتها في وضع لغة اجنبية .حرية تعليم اللغة العربية ، و حرية التعبير و الصحافة العربية

4 – المطالب الاجتماعية :

التعليم الاجباري لكل الاطفال من الجنسين ، بالبداية فورا في بناء المدارس ضمن برنامج واسع.

ضم التعليمين للاوربيين و الاهالي.

تنمية مشاريع المساعدات

اقامة مطاعم شعبية

انشاء صناديق البطالة لكل العاطلين

5 – المطالب الاقتصادية :

تساوى الاجر اذا تساوى العمل – تساوى الرتبة اذا تساوت الكفاءة – تقسيم المساعدة التي تقدمها الميزانية الجزائرية الى الفلاحة و التجارة و الصناعة و الحرف على حسب الاحياجات و دون تفريق بين الجنسين.....

6 المطالب السياسية :

العفو العام على كل الجنح السياسية – توحيد هيئة الناخبين في كل الانتخابات – حق الترشح للنيابة لكل المنتخبين – التصويت العام – النيابة في مجلس الامة .[15]إذا هذه هي مطالب الاجماع العام الذي شهدته الجزائر ن لكن فرنسا الاستعمارية لم تعرها ادنى اهتمام وهي التي وعدت فاخلفت ف يالعديد من المرات. « فما ان رجع الوفد – من باريس – الذي اعتبره الراسخون في السياسة انه عاد يحمل الخيبة الكاملة ، و اعتبره المجموع انه عاد –و لو ظاهرا – منتصرا حتى تحركت رؤوس الافاعي تنفث سمومها، و اندغعت الادارة الاستعمارية في الجزائر تنصب المكائد و تثير الشكوك و تنشر الشائعات ..»[16]

و رغم الحماس الذي شهده المؤتمر الا ان القرارات كانت متواضعة لا ترقى الى طموحات الشعب الا هو الاستقلال عن فرنسا.الا ان المطالب – كما تقول البصائر – « أنها كانت نتيجة مؤتمر عمومي جامع ، و مقررات نخبة الامة كلها . و مهما كان في بعض هذه المطالب من ضعف ، و مهما كان من نقص فلا يسع الانسان الا الاعتراف بانها مطالب الامة بصفة حقيقية ، و ان ارادة الشعب هي التي املتها، و ان نواب الشعب هم الذين حملوا مهمة النضال عنها و الدفاع عن فكرتها الى ان تتحقق «[17]

اجمالا فان المؤتمر الاسلامي جاء بنتائج مهما كانت فهي ايجابية على مستويات عدة :

1 – يعتبر المؤتمر الاسلامي اول ائتلاف سياسي منذ

بروز الظاهرة الحزبية في تاريخ الجزائر المعاصر ، و الذي عبر عن روح العمل الجماعي لدى الطبقة السياسية الجزائرية بكل اطيافها رغم اختلاف المرجعيات الايديولوجية المعتمدة لدى كل تيار.

2 – لقد سمح المؤتمر الاسلامي بتصميم مطالب ضمت توجهات الحركة الوطنية قدمها الوفد الجزائري الى رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم ، حيث مزجت بين المساواة في الحقوق مع الفرنسيين و خاصة التعليم و مطالب وطنية و اخرى خاصة بالهوية .

3 – اكد المؤتمر تمسك الشعب الجزائري من خلال زعمائه بمقومات الشخصية الوطنية المتمثلة في اللغة العربية و الدين الإسلامي ، و اعطى دفعا جديدا للحركة الوطنية لاعادة النظر في وسائل المقاومة ضد الاحتلال ، كما قيم المؤتمر حصيلة ما يقارب عقدين من النضال السياسي ضد الاستعمار.

4 – بين المؤتمر و ما تلاه من زيارة الوفد الى باريس ان الاستعمار يراوغ و يتهرب من التزاماته رغم الآمال التي كانت لدى الجميع من افراد الوفد الى اشعب الجزائري و زعمائه الذين اجتمعوا لاول مرة للدفاع عن طموحات.

5 – لم يكن الاخفاق الذي تبع المؤتمر الاسلامي نابع من كون زعماء الحركة الوطنية لم يكونوا في المستوى و إنما يعود الى كون الطرف الفرنسي لم يكن راغبا في التعامل مع السياسة الاهلية بجدية رغم طرحها لمشروع « بلوم – فيوليت – و الرامي الى تجنيس طائفة من الشعب الجزائري ، و هذا المبدأ الذي اعتبرته جمعية العلماء المسلمين ردّة عن الدين الاسلامي لانه « يقبل طوعا و اختيارا الخروج عن احكام الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بحالته الشخصية ..»[18]

6 – ان تلاشي مطالب المؤتمر الاسلامي هو في حد ذاته انتصار للحركة الوطنية فيرى الاستاذ احمد توفيق المدني : « فما عمت فكرة المؤتمر حتى تلاشت ن و اخذت الفكرتان الاساسيتان الجزائريتان في النمو و الانتشار . فكرة الشعب الاستقلالية ن و فكرة جمعية العلماء العربية الاسلامية ن الفكرتيتن واحد ألا و هو انشاء المجتمع الجزائري الذي يسير نحو الاستقلال تحت راية العروبة و الاسلام «[19] – سمح المؤتمر الاسلامي بتأصيل وعي سياسي لدى عموم الشعب الذي تابع المؤتمر و تفاعل معه ن و ظهر ذلك جليا من خلال التجمعات و خاصة منها تجمع 2 اوت 1936.

8 – سمح المؤتمر ببروز تقارب بين النواب و العلماء و الطرقيين» فالاطراف التي حضرت المؤتمر تعرفت بعضها الى بعض ، و ساهمت في اللحظة ذاتها في صوغ فلسفته و المطالب التي تمخضت عنه و لاول مرة حاولت القوى الاهلية ان تمتحن قدرتها على الاقناع و التعرف الى محدودية الاهداف التي رسمتها في برامجها و ما تدعو اليه في خطابها « [20]باستثناء نجم شمال افريقيا الذي سمح له المؤتمر من البروز في الجزائر و التعرف عن الواقع الجزائري و خاصة بعد خطاب مصالي الحاج في الملعب البلدي ببلكو يوم 2 اوت 1936.

9 – لقد حقق المؤتمر الاسلامي بكل ما احتواه اجماعا وطنيا لدى عامة الشعب بكل معانيها فجريدة الامة لسان حال نجم شمال إفريقيا تصرح : « في هذا المؤتمر بدأ الشعب الذي طالما تعرض للتفتت و الانقسام ،يستعيد وعيه بالوحدة «[21]

ائتلاف احباب البيان و الحرية

شهدت الفترة التي تلت المؤتمر الاسلامي تراجعا كبيرا في العمل السياسي فمن جهة سقوط الجبهة الشعبية في فرنسا و من جهة اخرى بوادر الازمات الاوروبية و خاصة ظهور هتلر و موسيليني على الصعيد الاوروبي و ما تلا ذلك من السياسات ادت في النهاية الى اندلاع الحرب العالمية الثانية.[22]

الهوامش

1 الامير خالد . رسالة الى الرئيس الامريكي و نصوص اخرى. ترجمة محمد المعراجي . الجزائر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،2006 ، ص 40.

2 محمد عباس . الامير خالد الاهلي المتمرد. جريدة الشروق اليومي ، العدد 2584 ، 14 افريل 2009. ص

3 مصطفى الاشرف ، الجزائر الامة و المجتمع .... ص 247

* الكسندر ميلران (1859 – 1943) حكم فرنسا من 23 سبتمبر 1920 ال 11 جوان 1924.

4 عبد الرحمان بن ابراهيم بن العقون. الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر 1920- 1936 الجزء الاول. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.ص 77/76.

5 نفسه ، ص 77.

6 نفسه ، ص 83.

7 محفوظ قداش ، محمد قنانش. نجم شمال افريقيا 1926-1937 . الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،ط2 ،1994. ص 99

8 ابو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية الجزائرية .. ج3 بيروت. دار الغرب الإسلامي.ط4 1992، ..ص 152

9 جريدة البصائر ، العدد 23 . 12 جوان 1936 ، ص 2

10 محمد الميلي . المؤتمر الاسلامي الجزائري. الجزائر ، دار هومة 2006 . ص 435.

11 بن العقون ....ج2 ص 24/23.

12 بن العقون . مرجع سابق ص27/26

13 بن العقون مرجع سابق ص 35.

14 البصائ ، العدد 30 ، 31 جويلية 1936. ص....

15 احمد توفيثق المدني . هذه هي الجزائر . القاهرة مكتبة النهضة المصرية .د ت ، ص 171

16 نفسه ، ص 172/171.

17 نور الدين ثنيو. إشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. الدوحة . المركز العربي للابحاث و دراسة السياسات.ط1.2015 ص408

18 El ouma , n°40 , juin – juillet 1936 19

سي امحمد بوقـرة في قيادة الولاية الرابعة ما بين

1956 – 1959

أحمد بن جابو (محاضر أ)
المدرسة العليا للأساتذة

الولاية الرابعة بعد مؤتمر الصومام

لقد كانت سنة 1956 حافلة بالأحداث و التطورات السريعة للثورة الجزائرية الأمر الذي تطلب انعقاد مؤتمر الصومام الذي أحدث هيكلة و تنظيما جديدين للثورة على مستوى الولايات الست التاريخية وهكذا فان الولاية الرابعة التاريخية كبقية الولايات الأخرى قد عرفت ديناميكية نوعية في التنظيم الثوري بعد مؤتمر الصومام مباشرة بدءا من شهر سبتمبر 1956.

انطلق تطبيق قرارات المؤتمر ميدانيا، و ذلك في تشكيل مختلف المصالح و هيكلة الولاية من أعلى هيئة إلى أدناها، و التي تتمثل في المجالس المختلفة بدءا من مجلس الولاية إلى مجلس المنطقة، ثم مجلس الناحية، ثم مجلس القسم [1].

و هنا بدأ سي امحمد بوقرة يبرز نشاطه الجديد عقب مؤتمر الصومام بترقيته إلى رتبة رائد في أول مجلس للولاية الرابعة [2] و بقي يمارس نشاطه كعضو في مجلس الولاية إلى أن أسندت له رئاسة الولاية في شهر أفريل 1957، و هذا بعد أن تولى قيادة الولاية كل من العقيدين عمر أعمران، وسليمان دهيليس، فاحتل بذلك سي امحمد بوقرة في توليه رئاسة الولاية المرتبة الثالثة بعد مؤتمر الصومام وهذه الفترة التي قضاها كعضو في مجلس الولاية مكنته من اكتساب خبرات كبيرة أهلته لاحتلال الصدارة في تنظيم الولاية.

1–1 عمر أوعمران في قيادة الولاية الرابعة (سبتمبر 1956– ديسمبر 1956)

تشكلت قيادة الولاية الرابعة بعد مؤتمر الصومام مباشرة من قائد الولاية عمر أوعمران برتبة عقيد سياسي و عسكري ينوبه في مجلس الولاية كل من السادة:

الرائد: سي امحمد بوقرة (سياسي).

الرائد: سليمان دهيليس المدعو سي الصادق (عسكري).

الرائد: محمد زعموم المدعو سي صالح (الأخبار والاتصال).

وكان الهدف الأساسي لهذه القيادة العمل على ترجمة قرارات مؤتمر الصومام في ميدان الهيكلة و التنظيم العسكري والمدني وشرعت في تنصيب قادة المناطق فكان لها أول اجتماع بالمنطقة الأولى بجبال الزبربر في شهر سبتمبر 1956 فتم تنصيب قيادة هذه المنطقة مشكلة من السادة [3]:

النقيب علي خوجة رئيسا (عسكري سياسي).

رابح مقراني المدعو سي لخضر مساعدا (عسكري).

عبد القادر عمر موهوب (سياسي). – عبد الرحمن لعلا مساعدا (الأخبار و الاتصال).

وبتنصيب هذه القيادات الجديدة على مستوى المناطق تواصل تنصيب القيادات على مستوى النواحي و الأقسام و هنا نجد سي امحمد بوقرة ينتقل إلى كل جهات الولاية و يعقد الاجتماعات فيستمع لكل الاقتراحات و الآراء بدقة متناهية و يجيب عليها و يعطي التوجيهات الثورية خاصة في الجانب السياسي (4) الذي كان يراه سي امحمد بوقرة بأنه هو العامل الاستراتيجي الذي يعمق مفهوم الثورة في أوساط الشعب الجزائري في المدن و الأرياف و يلعب هذا الدور الأساسي بالدرجة الأولى كل مسؤول سواء كان على مستوى المنطقة أو الناحية أو القسم أو الدوار الأمر الذي يعطي المصداقية و ينمي الثقة بين المسؤول و عامة الشعب فبدأ سي امحمد بهذا العمل في إرساء أسس العمل الثوري المتميز في الولاية الرابعة كما يرويه الكثير من القادة الذين عايشوه و عرفوا خصائصه عن قرب و منهم من قال عنه « كان بوقرة يحتوي المجاهدين كما تحتوي الشجرة ثمارها و كان دوما معنا كالنهر مع مجراه كان الشهيد سي امحمد بالنسبة لي أخا و قائدا و معلما و لن تبرح صورته خيالي ما دمت حيا ... الخ » [5].

ونستخلص من الروايات المتعددة من رفقاء الرجل الذين عايشوه قبل و أثناء الثورة بأنه كان دائما يفضل في نشاطه الجانب الأخلاقي قبل الانطلاق في العمل لاعتقاده بان العمل الثوري له سلوك معين يعطيه القوة و الدفع في الميدان إذا كان رجاله متمسكين بالأخلاق الثورية سواء كان هذا الأمر بين عناصر جيش التحرير الوطني أو بين المجاهدين و عامة الشعب في الأرياف و المدن [6].

1-2- سليمان دهيليس في قيادة الولاية الرابعة (ديسمبر 1956 أفريل 1957)

تولى سي الصادق دهيليس قيادة الولاية الرابعة في ديسمبر 1956 خلفا للعقيد عمر أوعمران الذي التحق بالخارج في نفس الشهر [7] و بهذا يصبح الصادق دهيليس ثاني قائد للولاية الرابعة بعد مؤتمر الصومام ينوبه ويساعده في قيادة الولاية الرابعة كل من السادة:

الرائد سي امحمد بوقرة (عسكري). – الرائد سي صالح زعموم (سياسي).

الرائد عمر أو صديق المدعو سي الطيب (الأخبار والاتصال).

وتواصلت أعمال التنظيم الثوري في تطبيق قرارات مؤتمر الصومام و تدعم هذا التنظيم في الولاية بعد إضراب الثمانية أيام في 28 / 01 / 1957 بعدد كبير من الشباب خاصة الفئات التي كانت تتحمس للعمل الثوري في هذه المرحلة.

أما في مجال التنظيم العسكري فقد تشكلت في هذه الفترة وحدة عسكرية كبيرة هي كومندو الولاية الذي قام بعملية كبيرة و ذات أهمية هي كمين الداموس في 28 / 02 / 1957 الذي تمكن فيه جيش التحرير الوطني من اغتنام عدد لا بأس به من الأسلحة ولأسباب استراتيجية حلّت هذه الوحدة مباشرة بعد انتهائها من هذه العملية ليوزع عناصرها على الوحدات في المناطق والنواحي [8].

كما تواصل تكثيف العمليات الفدائية و التخريبية لمنشآت العدو الاقتصادية و مواجهة العناصر المضادة للثورة سواء المندسة منها أو التي شكلت حركات مسلحة ضد جيش التحرير الوطني.

سي امحمد في تنظيم الولاية الرابعة:

تولى سي امحمد بوقرة قيادة الولاية خلفا للعقيد سليمان دهيليس الذي التحق بالخارج في ربيع 1957

في شهر أفريل على الأرجح و دام في قيادته للولاية الرابعة إلى غاية استشهاده في 05 / 05 / 1959 بأولاد بوعشرة بالمنطقة الثانية [9].

اعتمد سي امحمد بوقرة في قيادته للولاية الرابعة على استراتيجية النشاط الثوري في جميع الميادين وذلك من حيث التنظيم السياسي و العسكري والصحي و مواجهة الحركات المضادة للثورة لكل من المصاليين و حركة بلحاجيست و حركة شريف بن سعيدي و تطعيم إطارات الثورة بالشباب من طلبة ومثقفين والتنسيق والتعاون مع الولايات الأخرى لأنه كان يرى بأن ميدان الثورة الجزائرية كلها رقعة واحدة و المجاهد الحقيقي في نظره هو الذي يقوم بالمهمة في أي جهة من الجزائر [10].

وبهذا فإن سي امحمد بوقرة قد بدأ في إرساء قواعد التنظيم الثوري بمختلف أنواعه منذ مؤتمر الصومام قبل أن يعين على رأس الولاية في 1957 بالانتقال إلى مختلف جهات الولاية في المناطق والنواحي والأقسام و هو الذي أشرف على تنصيب رؤساء المناطق الثلاث (الأولى و الثانية و الثالثة) بحكم إيمانه الراسخ بالعمل الميداني و حبه لمتابعة العمل و الاطلاع على مختلف المشاكل و معرفة خصوصيتها و معالجتها في عين المكان قبل أن تصبح هذه المشاكل صعبة الحل، والحيلولة دون تطورها [11] و بتوليه قيادة الولاية الرابعة في ربيع 1957 زاد شعور الرجل و إحساسه بالمسؤولية التاريخية التي كلف بها، و بدأ في استكمال تطبيق قرارات مؤتمر الصومام و تعزيز النظام الثوري بالشباب الذي كان يرى فيه الطاقة الحية و المتجددة، و لم تكن نظراته في التنظيم و التنسيق في العمل الثوري تتوقف عند حدود الولاية الرابعة بل كانت عيناه وفكره ينظران إلى كل شبر من أرض الجزائر بنظرة متأنية وفكر متبصر يراعي خصوصيات كل جهة الأمر الذي اكسب سي أمحمد بوقرة الاحترام والتقدير وحسن التدبير في تسيير الثورة بالولاية الرابعة التاريخية.

2-1- التنظيم السياسي:

انطلق سي أمحمد بوقرة في تنظيمه السياسي مباشرة بعد أن عين في مجلس الولاية في شهر سبتمبر 1956، ومفهومه للقيام بهذه المهمة كان نابعا من اعتقاده أن المسؤولية تكليف وليست تشريف فأقام النظام السياسي على أخلاقيات ثورية تواجه مشاق الحرب فالجميع فيها متساوون من رؤساء ومرؤوسين وكان ذلك يتم في إطار الهياكل المحددة في التنظيم السياسي بدءا من مجلس الولاية إلى مجالس المناطق ثم النواحي ثم الأقسام ثم أنصاف الأقسام والدواوير[12].

وكانت هذه الهياكل تتكامل فيما بينها سواء بالاتجاه التصاعدي من القاعدة إلى القمة أو من القمة إلى القاعدة وكانت المهام السياسية فيها والعسكرية والأخبار والاتصالات تضم جميع جوانب الكفاح وليس هناك انفصال فيما بينها فهي محددة بالنسبة لكل مسؤول وسي أمحمد بوقرة هنا كان ينطلق في نظرته للثورة من مبدأ أساسي هو أن مطالب الشعب الجزائري سياسية حضارية في أساسها وجبهة التحرير الوطني أعدت لهذا الأمر الوسائل والرجال خلال سنوات الثورة المسلحة والمعركة هنا سياسية عسكرية يتجاوز مضمونها استعادة السيادة الوطنية وهنا تبرز مكانة المحافظ السياسي الذي كان حاضرا على مستوى الدوار أو المنطقة أو الولاية وكانت له مهام عديدة أساسها التنظيم السياسي [13] الذي كان يقوم بهيكلة الشعب في خلايا وأفواج وفرق في الدواوير وفي السهول وفي المراكز العمرانية كان التنظيم السياسي سريا ومنفصلا عن بعضه في شكل خلايا أو أفواج متخصصة في مهام محددة كجمع المال أو جمع الأدوية أو تنظيم المراكز، أو ترصد الأخبار والمعلومات المتعلقة بحركات العدو أو الخونة أو الاتصالات وبعد إضراب الثمانية أيام

سنة 1957 انتهج جيش وجبهة التحرير الوطني فصل فروع النظام عن بعضها في شكل خلايا صغيرة عقب تحطيم النظام بالمدن والمراكز العمرانية.

فأصبحت المسؤولية بيد المحافظ السياسي مباشرة قرب المدن أو في المراكز المهيأة داخل المدن وأكبر فراغ في التنظيم عرفته مدينة الجزائر العاصمة نتيجة للتضييق التي مرت بها عقب الإضراب (8أيام) من مداهمات وقمع أعمى فبادرت قيادة الولايتين الرابعة والثالثة بعد اجتماع في شهر ديسمبر 1957 حضره عمر أوصديق المدعو سي الطيب عضو مجلس الولاية مفوضا من طرف العقيد سي أمحمد بوقرة مع ممثل الولاية الثالثة عميروش فتم اتخاذ القرار الذي يقضي بإعادة التنظيم بمنطقة العاصمة [14].

أما الولاية الرابعة التي يمتد نفوذ منطقتيها الأولى والثانية إلى نواحي العاصمة، فقد أوفدت إليها السادة خليفة بوخالفة محمد صغير سعيداني، أحمد شيشة فشرع كلا منهما في إعادة التنظيم المتصدع بالعاصمة في شهر جانفي 1958 وبعد أربعة أشهر استشهد خليفة بوخالفة قرب شارع ديدوش مراد وأحمد شيشة في الشراقة أما محمد صغير سعيداني فألقي عليه القبض وأعدم إلا أن سي أمحمد بوقرة كعادته بادر إلى إعادة تنشيط النظام بالعاصمة في شهر 1958 تفاديا للفراغ السياسي الذي لحق بها فعين أحمد فخار[15] الذي أسند له مهمة إعادة التنظيم بالعاصمة وهكذا فإن الولاية الرابعة بحكم حزامها النصف الدائري الذي يحيط بالعاصمة من جهة الجنوب وأن قيادتها العليا التي كان على رأسها العقيد سي أمحمد بوقرة الذي كان يرى في المحافظة على النظام بالعاصمة أمر بالغ الأهمية سواء من الناحية السياسية أو العسكرية التي ترتبط بتسيير الثورة على الرغم من أن العاصمة كانت قبل ذلك تمثل منطقة حرة.

وبصفة عامة فقد امتاز التنظيم السياسي في الساحل ومتيجة وفي المدن بنشاطه الكثيف الأمر الذي يفسر لنا نشاط العمل العسكري خلال سنة 1957 الذي انتقل إلى مختلف مدن الولاية الرابعة [16].

2-2- تنظيم الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية:

عملا بمبدأ تطبيق قرارات مؤتمر الصومام واصل سي أمحمد بوقرة مبدأه الاستراتيجي المتمثل في سياسة ربط الشعب بالثورة الذي يلعب فيه الدور الأساسي دائما المحافظ السياسي الذي يعمل على إعادة بناء ما هدمه العدو من منازل فعمل على تشجيع مبدأ التويزة [17] وإسعاف المحتاجين وتشجيع الفلاحين على العمل وذلك بتقديم المساعدات لهم في خدمة الأرض ففي ميدان التربية كان يشرف المحافظ السياسي على تسيير مدارس القرآن الكريم، ويعمل على تعميمها إلى كل الجهات، وتمويلها كمدرسة الزبيرية بالمدية ومدرسة الإرشاد بالبليدة [18] كما عمل بعض المناضلين في جهات مختلفة من الولاية خلال سنتي (1957-1958) على تشكيل هيئة خماسية محددة المهام تكون مسؤولة أمام المحافظ السياسي المتكون من رئيس الدوار (رئيس اللجنة).

مسؤول الأمن والمراقبة. - مسؤول القضاء والإدارة.

مسؤول الشؤون الدينية والثقافية. - مسؤول المالية والتموين.

و بتحديد المهام لكل عنصر في اللجنة بعد تشكيلها فإن نشاط هذه الهيئة كان يهدف في مجمله على تفنيد كل مغالطات العدو وفضح ممارساته العدوانية [19].

2-3- تنظيم الإعلام و الدعاية:

لقد احتل الإعلام والدعاية المكتوبة والمسموعة أثناء الثورة المسلحة مكانة استراتيجية الأمر الذي

تطلب وضع هيكل خاص من طرف قيادة الولاية عرف باسم مصلحة الإعلام والدعاية في شهر فبراير 1957 تطورت هذه الهيأة بعد ذلك في تأدية مهامها المتمثلة فيما يلي: [20].

- العمل على تعميم النظام الثوري على مستوى مجال تراب الولاية الرابعة وذلك بتنظيم المجموعات السكانية لإقناع المترددين والتشهير بالخونة والتنديد بهم في أوساط الشعب.
- لجوء أعداد كبيرة من المتطوعين للولاية الرابعة بعد إضراب الثمانية أيام في العاصمة وجهلهم بأهداف جبهة التحرير الوطني وتنظيمها فاستقبلت الهياكل السياسية والعسكرية هؤلاء الشباب وكان لمصلحة الإعلام والدعاية الدور الهام في التكوين السياسي لهؤلاء المجندين، ودحر مشاريع العدو[21].
- نتيجة للعمليات الكبرى التي خاضها جيش التحرير الوطني والتي تمكن فيها من امتلاك زمام المبادرة في ضرب العدو خلال سنتي 1957-1958 وحقق فيها نتائج معتبرة في غنم الأسلحة وإلحاق الهزائم بالعدو فكان لمصلحة الأعلام والدعاية دورا في نشر التحقيقات والبيانات والبلاغات تضمنتها جرائدها ومنشوراتها الأمر الذي جعل العدو الفرنسي يعمل على توسيع عمليات الاكتساح والتمشيط العسكري، فكان رد مصلحة الأعلام والدعاية بالولاية الرابعة دورا هاما بتحليلاتها الدقيقة لمشاريع العدو في كشف زيغها وخدعتها.

ومصلحة الإعلام والدعاية لها منشورات باللغتين العربية والفرنسية للرد على ادعاءات العدو وتفنيدها نذكر منها [22]:

- مجلة الثورة التي كان شعارها (هدم السدود وتحطيم القيود) وهي تصدر بحجم ثلاثين صفحة تقريبا توزع على المجاهدين والمواطنين في الأرياف والمدن بالولاية الرابعة.
- نشرة داخلية تصدر من حين لأخر موجهة للإطار المجند في جبهة وجيش التحرير الوطني، تبرز مزايا التنسيق وأخلاقيات الثورة.
- المناشير والملصقات التي تحتوي على نداءات للسكان أو التنديد بقمع وجرائم العدو أو إحياء عمل بطولي لجيش التحرير الوطني.

وكان من رجال هذا النشاط الإعلامي، أحمد أرسلان (حاج حمدي أحمد)، عبد الرحمن العيشاوي خليل و قدور العربي دكتور في الحقوق والمختار السايحي والسعيد عصمان تحت إشراف السيدين: بوعلام أوصديق، وأحمد زميرلين.

وهكذا فقد قامت مصلحة الإعلام والدعاية بخدمة الأهداف الكبرى للثورة على الرغم من قلة الوسائل التي كانت بحوزتها.

التنظيم الصحي بالولاية:

لعب النظام الصحي بالولاية الرابعة دورا هاما في تدعيمه للثورة وذلك من خلال الخدمات التي قام بها في معالجة الجرحى والمرضى من المجاهدين والمواطنين وتحسيس أفراد الشعب في القرى و المداشر باهتمام الثورة بالرعاية الصحية. فأعطت قيادة الولاية الرابعة في عهد العقيد سي أمحمد اهتماما خاصا للتنظيم الصحي، فتركز البحث حول اختيار المواقع الأكثر أمنا وكذا اختيار الطبيب والممرض الذي يؤمن بعدالة الثورة لكي يقوم بهذه المهمة الصعبة والشاقة في ظل ظروف الحرب، والعمل على توفير وسائل العلاج فكانت البداية مع انطلاق الثورة بالقرب من المراكز العمرانية أو المدن كمركز بوركيكة ومركز برج البحري [23].

و تدعم التنظيم الصحي بعد إضراب 19

ماي 1956 بإطارات في المجال الصحي منهم حسن يوسف الخطيب سنة ثانية طب، إسماعيل دهلوك محفوظ سنة خامسة طب، فاطمة حسين المدعو فريدة ممرضة، ومسعودة باج المدعو مريم ممرضة، وهذه العناصر تكونت منها المراكز الصحية بالجبال كمركز أولاد بن عصمان بجبل الزبربر بشرق الولاية ومركز تمزقيدة الواقع بين موزاية والعفرون، وكانت هذه المراكز متنقلة قد تكون في بيت مواطن بالقرية خاصة القرى القريبة من الغابة، ومدة المركز في مكان لا تتجاوز 20 يوما وفي بعض الأحيان أقل من أسبوع فينقل المركز من قرية إلى أخرى أو من منزل لآخر مع مواصلة عمل إسعاف المرضى من المجاهدين والمواطنين بنظام وعزيمة قوية [24].

3-1- التنظيم الصحي بالولاية بعد مؤتمر الصومام:

تطبيقا لقرارات مؤتمر الصومام 1956 عقد بعده اجتماع بجبل الزبربر بالمنطقة الأولى تحت إشراف أعضاء مجلس الولاية حضره الأطباء والمساعدون على مستوى الولاية الرابعة تم خلاله وضع نظام صحي يواكب تطورات التنظيم الثوري الذي أحدثه المؤتمر فصار لكل منطقة مركز صحي يشرف عليه طبيب، وكل ناحية مركز يشرف عليه ممرض أو أكثر، ولكل كتيبة ممرض يقوم بتقديم الإسعافات الأولية. وتولى الإشراف الطبي على المناطق الثلاثة كل من السادة: [25].

- الطبيب حرموش سعيد على رأس المنطقة الأولى.
- الطبيب إسماعيل دهلوك محفوظ على رأس منطقة الثانية.
- الطبيب يوسف الخطيب المدعو سي حسان على رأس المنطقة الثالثة.

ويقوم كل طبيب أو ممرض بتقديم تقرير شهري يحتوي على ما يلي:

- الأعمال التي قام بها، وعدد المجاهدين والمواطنين الذين استقبلهم وعالجهم.
- الأدوية التي نفذت أو وصلت إلى المركز إضافة إلى التغذية، النظافة، المصاريف، ثم إبداء ملاحظات عامة تتعلق بالصعوبات التي واجهت الطبيب والممرض في أداء مهامه.

غير أن التنظيم المحكم في تموين وجلب الأدوية ساعد المصالح الصحية في تأييد دورها كاملا قبل 1957 لأن الشعب كان موجودا في كل مكان ووسائل الاتصال كانت ميسورة الأمر الذي ساعد على ايصال الأدوية إلى مراكز العلاج في وقتها وبكميات معقولة كما أن تموين المراكز بالمواد الغذائية كان مقبولا، وأيضا وهذه الشروط ساعدت على إجراء عمليات خطيرة وعلاج المئات من المجاهدين والمواطنين إلا أن بعض العمليات استحال علاجها بالمراكز الصحية فاضطرت قيادة الولاية إلى توجيه هذه الحالات لمعالجتها في الخارج بالتوجه نحو تونس أو المغرب وحتى بلدان صديقة كألمانيا الشرقية يوغسلافيا، روسيا، وتنقل هذه الحالات على ظهورالأ حصنة أو على حمالات خشبية وتستمر الرحلته أياما وشهورا فمنهم من شفي وعاد إلى ميدان المعركة واستشهد في أرض الوطن [26].

3-2- التنظيم الصحي بالولاية بعد إنشاء المنطقتين الرابعة والخامسة:

عرفت المصالح الصحية تطورا في تنظيمها نتيجة لاعتماد العدو أسلوب حرب الإبادة، وترحيل السكان من المناطق الريفية بداية من السداسي الأول لسنة 1957، وصار توزيع المركز الصحية بعد إنشاء المنطقتين الرابعة والخامسة [27] على الشكل التالي [28]:

المنطقة الأولى: بها مركز أولاد عصمان بجبل الزبربر يشرف عليه سي محمد، ومركز الشطايبية يشرف عليه الطيب سي محمد والممرضان سي الجيلالي، وسي محمد الوزان، ومركز البلاشة يشرف عليه الممرض الشهيد حميدو.

المنطقة الثانية: مركز متنقل بأولاد بوعشرة يشرف عليه الطبيب سي يحيى، ومركز آخر متنقل بين الفرنة ومركز الأمان بتبرقنت يشرف عليه الطبيب سي جمال.

المنطقة الثالثة: بها مركز الطيابين يشرف عليه الممرضان المدني وبوعلام ومركز الناحية الأولى يشرف عليه الممرض حكيم.

المنطقة الرابعة: بها مركز جبل بستة، ومركز جبل زكار ومركز الهواورة ومركز بوهلال.

المنطقة الخامسة: بها مركز المرجانة يشرف عليه مصطفى خالي، ومركز المراشدة يشرف عليه الطبيب على الألماني، ومركز جبل جراح خاص بأمراض السل.

وللحفاظ على السرية أنشئ مركز للفرز يمر به المصاب، فإن كانت حالته المرضية خفيفة يعالج بعين المكان، وذلك حفاظا على مكان المخبأ في حالة وقوع المريض في الأسر، وإن كانت حالته الصحية تتطلب البقاء في المركز سيرسل إليه.

وعلى الرغم من أخذ هذه الاحتياطات فإن عددا كبيرا من المراكز الصحية اكتشفها العدو ودمرها واستشهد عدد كبير من المرضى والجرحى نذكر منهم على سبيل المثال، اكتشاف مركز بني عكاس بنواحي العمارية يوم 16 جوان 1957 استشهد به ثلاثة وعشرون جريحا، كما اكتشف مركز الوزانة في جويلية 1957 كانت به ثلاث ممرضات مع الممرض عمارة رشيد، فاستشهد عمارة رشيد وأسرت الممرضات الثلاث الأمر الذي جعل قائد الولاية سي أمحمد بوقرة يأخذ قرارا يبعث البنات الممرضات إلى الخارج (*).

3-3- تعاون الولاية الرابعة مع الولايات الأخرى في المجال الصحي:

كان للولاية الرابعة علاقة تعاون في المجال الصحي كبقية المجالات الأخرى وهو الأمر الذي كان يراه العقيد سي أمحمد بوقرة كبعد استراتيجي للثورة المسلحة، وفي هذا السياق التعاوني فإن الولاية الخامسة طلبت من الولاية الرابعة تقديم المساعدات في المجال الصحي وذلك لعدم وجود مراكز صحية وممرضين وأطباء بالمنطقة فما كان من طبيب المنطقة الثالثة يوسف الخطيب والممرضة الشهيدة مريم باج والممرض حكيم بتقديم المساعدات الصحية للمنطقة السابعة من الولاية الخامسة في جويلية 1957 فعملوا على تكوين ممرضين يقومون بالإسعافات الأولية وتقديم بعض الأدوية للأشخاص المصابين بالسعال والصداع والإسهال ومرض الأسنان...إلخ.

كما كان التعاون أيضا مع المنطقة الرابعة من الولاية الخامسة المحاذية للحدود الغربية من الولاية الرابعة علي الرغم من الظروف الصعبة والقاسية جدا خاصة بعد أن شرع العدو في تطبيق عملياته العسكرية الكبري التي كانت تدوم في بعض الأحيان لمدة شهرين [29].

وكان يرافق هذه العمليات الكبرى الطبيب والممرض الذي يعمل بنجاح في ظل ظروف صعبة يحركه في ذلك إيمانه العميق بالقضية الوطنية وشرعية الجهاد والروح الوطنية الصادقة التي تتصف بالإيمان الراسخ والاعتقاد برعاية الله وحفظه في كل حركة وسكينة.

4-التنظيم العسكري:

بعد التحاق العقيد سليمان دهيليس بتونس في أفريل 1957 خلف سي امحمد بوقرة في قيادة الولاية لأطول فترة في تسييرها أثناء الثورة إلى استشهد في

5 ماي 1959 بأولاد بوعشرة جنوب مدينة المدية. وشرع مباشرة في تشكيل مجلس الولاية الرابعة الذي عرف تغيرات خلال قيادته كانت كما يلي:

أول مجلس للولاية تشكل من أفريل 1957 إلى أفريل 1958 كان من السادة [30]:

- العقيد سي أمحمد بوقرة رئيسا للولاية (سياسي عسكري).
- الرائد مقران المدعو سي لخضر (عسكري).
- الرائد سي صالح زعموم (سياسي).
- الرائد عمر أوصديق المدعو سي الطيب (الأخبار والاتصال).

واستمر هذا المجلس بهذه التشكيلة إلى غاية استشهاد الرائد سي لخضر في ١٩٥٨/٠٣/٠٥ ومن أفريل ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٥٨ تشكل مجلس الولاية من القادة:

- العقيد سي أمحمد بوقرة رئيسا (عسكري سياسي)
- الرائد رابح زراري المدعو عز الدين (عسكري).
- الرائد سي صالح زعموم (سياسي).
- الرائد عمر أوصديق المدعو سي الطيب (الأخبار والاتصال).

و دام هذا المجلس إلى غاية تشكيل الحكومة المؤقتة في شهر سبتمبر 1958 فتوجه عمر أوصديق إلى الخارج إثر تعيينه كاتب دولة في الحكومة المؤقتة، وبعدها كان إلقاء القبض على الرائد عز الدين في 17 نوفمبر 1958[31] ثم التحق بالخارج.

ومع بداية 1959 أصبح مجلس الولاية يتكون من العقيد سي أمحمد رئيسا وسي صالح سياسي، والجيلالي بونعامة المدعو سي محمد الذي خلف عمر أو صديق (أخبار واتصال)، وهكذا رفقة هذه التشكيلات المتتالية لمجلس الولاية الرابعة من 1957 إلى استشهاد العقيد بوقرة، كان التنظيم العسكري في إطار هياكل التنظيم التي أحدثها مؤتمر الصومام والاستفادة من التجارب السابقة فكان التنظيم العسكري حسب تطورات تطورات الأوضاع في الميدان[32].

4-1- تنظيم الوحدات بجيش التحرير الوطني:

ان طلق جيش التحرير الوطني في تشكيل كومندو الولاية الرابعة منذ بداية 1957، ودام لفترة قصيرة إلى غاية صائفة 1957 حيث كان ينتقل عبر تراب الولاية، ثم أصبح جيش التحرير بالولاية الرابعة يتشكل من الوحدات التالية [33]: كومندو في كل منطقة، فصيلة أو أكثر في كل قسم، مسبلين وفدائيين.

أما في السداسي الثاني من سنة 1957 فقد أصبحت الكتائب تتجمع أحيانا لتكون فيلقا في حالات خاصة بغية ضرب هدف محدد ثم تعود إلى تشكيلتها الأولى وذلك تجنبا لاكتشافها من طرف العدو.

وبصفة عامة فإن وحدات جيش التحرير الوطني بالولاية الرابعة خلال سنتي 1957-1958(34) أصبحت تتكون في المناطق من كومندو علي خوجة على مستوى المنطقة الأولى وبنواحي المنطقة الأولى تشكلت كتيبة العمرية بالناحية الأولى، وكتيبة الرحمانية بالناحية الثانية، وكتيبة العثمانية بالناحية الثالثة، وكتيبة السليمانية بالناحية الرابعة.

أما بالمنطقة الثانية فتكون بها كومندو سي محمد، وبنواحي المنطقة الثانية تشكلت كتيبة العمرية بالناحية الأولى وكتيبة اليوسفية، بالناحية الثانية وكتيبة الحمدانية بالناحية الثالثة، وكتيبة النربيرية بالناحية الرابعة، وكتيبة العز الدينية بالناحية الخامسة، إضافة إلى أفواج من الفدائيين بناحية الساحل.

أما المنطقة الثالثة فتكون بها كومندو سي جمال على مستوى المنطقة وكتيبة الحسينية بالناحية الأولى، وكتيبة الحمدانية بالناحية الثانية، وكتيبة القوادرية

بالناحية الثالثة وكتيبة الكريمية بالناحية الرابعة، وكتيبة الحسينية بالناحية الرابعة.

أما المنطقة الرابعة التي تشكلت من الجزء الشمالي للمنطقة الثالثة فكانت بها كتيبة الحكيمية بالناحية الأولى، والكتيبة الجلولية بالناحية الثانية، والكتيبة الزعبانية بالناحية الثالثة، وبهذا يكون عدد الكتائب 26 كتيبة كل واحدة منها تتكون من ثلاث فصائل يقسم عليها 105 أو 110 جنديا وضابطا ونلاحظ هنا أن توزيع عناصر جيش التحرير الوطني كان شبه متساوي على مختلف جهات الولاية في السداسي الثاني من سنة 1957 إلى نهاية السداسي الأول من سنة 1958 الأمر الذي أدى إلى تكثيف العمليات العسكرية من كمائن واشتباكات مع العدو غنم من خلالها جيش التحرير الوطني أسلحة عديدة مكنته خلال فترة محدودة من التحكم في زمام الأمور في يدان المعركة (*).

4-2- التسليح والتدريب والتكوين والتموين:

أخذ جيش التحرير الوطني في تطوير سلاحه منذ سنة 1957 وذلك بفضل الكمائن والاشتباكات مع العدو هذا إلى جانب الكميات القليلة من السلاح الجماعي الذي جلبته الدوريات من الحدود التونسية والمغربية ويمكن تقدير عدد الأسلحة التي وصلت إلى الولاية الرابعة من دوريات الحدود بأنها تتراوح مابين 900 إلى 1000 قطعة حربية [35].

غير أن قيادة الولاية الرابعة أوقفت إرسال الدوريات إلى الحدود لجلب الأسلحة نتيجة لتعرضها إلى الإبادة خاصة وأن هذه الدوريات كانت تذهب بدون أسلحة ولا يسلم منها إلا القليل ومع نهاية سنة 1958 فإن الأسلحة النصف ثقيلة الواردة من الحدود قدتم تخزينها في مخابئ نتيجة لنفاذ ذخيرتها وبداية من عام 1959 أصبح المصدر الرئيسي لتسليح الوحدات في الولاية الرابعة هو غنم و افتكاك الأسلحة من يد العدو وهذا ما جاء في المقولة المشهورة لسي امحمد بوقرة الموجهة للشباب المجندين قائلا :» أن سلاحكم يوجد في الطريق لدي العدو» أو أن مستودع سلاحكم أيها الشباب موجود عند عدوكم» [36].

أما التدريبات فكانت إما لاستعمال السلاح أو تنظيم الكمائن والتمرين عليها، كما كان التدريب أيضا على أنواع تشكيلات القتال وتطورها، وكان ينم ذلك على مدرب مختص، أو مسؤول الكتيبة أو من تتوفر فيه الخبرة الحربية، والشخصية القوية المؤثرة فكانت أول نشرة بعنوان « من الحرب إلى الثورة « للقائد العسكري سي لخضر أضاف بعدها سي أمحمد بوقرة دليل الفدائي سنة 1958 الذي أكمله وأثراه سي محمد بونعامة 1960 و كان لكل كتيبة مرشد يقدم لها دروسا سياسية ودينية، كما يرافق كومندو المناطق محافظ سياسي يهتم بمحو الأمية والتكوين السياسي [37].

أما فيما يخص تموين الكتائب فكان من اختصاص المحافظين السياسيين و المسؤولين في الأقسام والنواحي التي كانت تواجههم صعوبات عديدة وذلك بحكم الموقع الجغرافي في الولاية الرابعة في وسط البلاد وقربها من العاصمة وتركز المعمرين بها، فإن الولاية وقع عليها ثقل كبير في تركيز قوات العدو بها الأمر الذي زاد في صعوبة التموين للوحدات.

4-4- استراتيجية جيش التحرير الوطني وتكتيكه:

إن التباين الكبير بين قوات العدو الفرنسي وجيش التحرير الوطني كان شائعا في العدد والعدة الأمر الذي فرض أسلوب حرب العصابات فالكتيبة التي عددها 110 مجاهدا مثلا تواجه عددا ما بين 2000 إلى العتاد العسكري والأسلحة المتطورة، فرض

ذلك التباين الكبير على وحدات جيش التحرير الوطني استراتيجية تتمثل في العناصر التالية:

- الحضور في كل مكان لإرغام العدو على تشتيت قواته.
- العمل على فرض حالة الأمن وذلك بالهجومات، وضرب المراكز المعزولة وتحطيم المنشآت الاقتصادية...إلخ
- القيام بعمليات لغنم الأسلحة بغرض تعزيز القدرة الهجومية على العدو.

انتقاء الأهداف الأقل خسارة بالنسبة لوحدات جيش التحرير الوطني إضافة إلى المبادرة في اختيار الزمان والمكان، وتقدير قوات العدو، ومفاجآته من ضوابط صارمة تعتمد المباغتة وكثافة النيران، والسرعة في التنفيذ والانسحاب [38].

غير أن وحدات جيش التحرير الوطني منذ خريف 1957 أصابها الإعجاب بالانتصارات العديدة فصارت تبحث عن العدو وتشتبك معه بكتيبتين أو ثلاثة في الوقت الذي كان عليها أن تتفادى ذلك و تواصل العمل بهذا الأسلوب إلى صائفة 1958 حين أصدرت قيادة الولاية تعليمات إلى كافة المناطق بالرجوح إلى الخطة السابقة [39].

5- التنسيق والتعاون مع الولايات المجاورة:

لقد سبقت الإشارة إلى أن قائد الولاية الرابعة سي امحمد كان يرى بأن الكفاح المسلح على أي شبر من أرض الجزائر بأنه يمثل عملا واحدا الأمر الذي يفرض التنسيق والتعاون بين قادة الولايات على المستوى الداخلي بهدف توحيد الصفوف والتنسيق في الأعمال، ودراسة الأوضاع السياسية والعسكرية داخل التراب الجزائري، فكان التنسيق والتعاون مع الولاية الثالثة بصورة مستمرة فكانت الهدايا بين الولايتين تتم بأحسن الرجال في الميدان السياسي أو العسكري [40].

كما كان الاتصال والتعاون بصورة دائمة مع المنطقتين الرابعة والسابعة من الولاية الخامسة على الحدود الغربية للولاية الرابعة لأن قادة الولاية الخامسة كان تمركزهم بالمغرب الأقصى [41] هذا إلى جانب مكاتبته لقادة الولايات بالداخل بصورة مستمرة مع تقديم المساعدات لهم من مال وسلاح وجنود وإطارات نذكر منها على سبيل المثال [42]:

1. توجه السي الطيب الجيلالي ومحمود باش للولاية السادسة قصد مساعدة سي الحواس في قيادة الولاية رفقة كومندو سي جمال.
2. توجه كومندو سي علي خوجة، وكومندو سي محمد للولاية الأولى التي عرفت مشاكل داخلية، فكان الغرض هو التغلب على هذه المشاكل ومن نتائج ذلك فقد استشهد الكثير من جنود وإطارات الولاية الرابعة بالولايات الأخرى مثل استشهاد سي الطيب الجيلالي ومحمود باشن بتراب الولاية السادسة.

ومن ذلك فإذا كان التوجه إلى الولايات في الداخل هو لمواصلة الجهاد، فإن هناك توجه آخر يتم نحو الخارج، ونظرة العقيد سي أمحمد بوقرة هنا كان لا يجبر أحدا على البقاء في الداخل بل كان يفضل الذهاب للبعض ويترك الحرية للبعض الآخر ويمكن تصنيف الذهاب إلى الخارج كما يلي [43]:

1 نوع عجز على مواصلة العمل المسلح بسبب الإصابات أو كبر السن.

2 نوع هبطت معنوياته.

3 نوع خاص بالمسؤولين كان توجههم إلى الخارج بغرض تموين الولاية فأعجبهم المقام فبقوا هناك، ومنهم العقيد سي الصادق، وخلاصة القول هنا أنه من أراد الذهاب إلى الخارج ذهب بدون شرط.

6- موقف سي امحمد من الحركات المضادة

للثورة:

ظهور الحركة المضادة للثورة كان متعددا سواء في شكل أفراد أو جماعات، وكان تطور هذه الحركات بعد اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954 فتمكنت بعدها من تشكيل جماعات مسلحة ذات تأثير كبير خاصة في بعض الجهات من الولاية الرابعة، وتشير هنا بأن أهم هذه الحركات المضادة لجبهة وجيش التحرير الوطني التي واجهتها قيادة الولاية الرابعة في عهد سي أمحمد بوقرة هي حركة بللونيس و حركة البلحاجين بالمنطقة الثالثة و حركة شريف بن سعيدي، فاتخذ سي أمحمد بوقرة موقفا تمثل في تمهيل هذه الحركات ودعوتها بالرجوع إلى خط الثورة أو محاربتها عند فقدان الأمل في عودتها.

6-1- حركة بللونيس:

أنشئت حركة بللونيس [44] ضمن الاستراتيجية الفرنسية في القضاء على الثورة من الداخل فاستعمل بللونيس اسم مصالي الحاج لتمويه موقفه الحقيقي المعادي للثورة، وهذا ما أكده جاك سوستال في نوفمبر 1955 حين قال بأن مصالي الحاج هو آخر ورقة رابحة لديه [45].

ونشير هنا إلى العوامل التي جعلت حركة بللونيس تتمركز في المناطق الحدودية بين الولاية الرابعة والولاية الخامسة ومدى التواطؤ والعمل المنسق مع قوات العدو الفرنسي في القضاء على جبهة وجيش التحرير الوطني ،كما أن التوجه نحو المناطق الصحراوية يعود إلى عوامل عديدة أهمها [46]:

- اتساع رقعة الثورة وانتشارها وشموليتها.

- الموقع الاستراتيجي للمناطق التي تمتد ما بين الاغواط والجلفة و بوسعادة وسيدي عيسي وهي مناطق تشكل خطرا على المواصلات البرية التي تربط المناطق الشمالية بالجنوب.

- اتساع رقعة المناطق التي تمركزت فيها حركة بللونيس وصعب علي العدو الفرنسي السيطرة عليها.

وهذه العوامل جعلت المخابرات الفرنسية تدعم حركة بللونيس المضادة للثورة بهذه المناطق الشبه الصحراوية، كما تعد هذه المرحلة امتدادا للعمل الذي قام بللونيس في الولاية الثالثة، عمل في المرحلة الأولى تحت غطاء مصالي الحاج وفي المرحلة الثانية عمل باسمه الخاص (الجنرال محمد بللونيس) و استمر في تعاونه السري مع السلطات بعد عام 1956، فكان لقاؤه في شهر ماي 1957 في بني يلمان مع ضابط المخابرات الفرنسية النقيب بينو((pineau فتم الاتفاق بينهما علي النقاط التالية [47] :

- محاربة جبهة التحرير الوطني وكشف خلاياها.

- تنفيذ العمليات العسكرية تحت إشراف المخابرات الفرنسية وبالتنسيق المباشر مع ضابط الشؤون الأهلية (SAS).

- التدخل العسكري لمساعدة بللونيس تحت قيادة الضباط الفرنسيين ،وتدعيمه بأجهزة اللاسلكي ووسائل النقل ومنحه أسلحة أمريكية .

ونتيجة لهذه العوامل والمساعدات المقدمة له من طرف القوات الفرنسية ازداد عدد أتباعه فبلغ عددهم حوالي 1200 بين مجندين ومتعاونين [48].

وحركة المصاليين مع الولاية الرابعة التاريخية تبدأ من خريف 1956 حين كلفت قيادة الولاية الشهيد علي زويوش بالاتصال والتعاون مع المصاليين على صيغة التعاون المشترك ضد العدو الفرنسي، فتوجهت فصيلة مكونة من 35 مجاهدا إلى حدود الصحراء وتزامن ذلك مع اختطاف طائرة الزعماء الجزائريين الخمسة فانصب الحديث حول قضية اختطاف الزعماء،

فأصدر سي امحمد بوقرة حينها أمرا بتكثيف العمليات العسكرية ضد العدو للثأر للزعماء المخطوفين، وفي غمرة الهجمات على أهداف العدو عاد أحد المجاهدين وحيدا فطلب الاتصال بالقائد العام للولاية وأخبره بغدر المصاليين للفصيلة وقائدها فذبحوهم جميعا، كما قاموا بذبح أحد عشر أسيرا في شهر سنة 1959 من جيش التحرير الوطني جنوب غرب قصر البخاري، وأهداف المصاليين كانت تتركز في أحكام السيطرة علي دوائر العاصمة والأماكن الاستراتيجية المتحكمة في التموين والتزود بالعتاد [49].

غير أن سى امحمد بوقرة واجههم بالقوة ووضع الحواجز في الحدود المشتركة بين الولايتين الرابعة والسادسة الأمر الذي أعطى دعما لمهاجمتهم في الولاية السادسة من وحدات جيش التحرير الوطني .

6-2- حركة كوبيس:

ظهرت حركة بلحاج عبد القادر المدعو كوبيس (50) في نهاية 1950 بعد تكوينه لجماعات مسلحة مدعما في ذلك من طرف المصالح الفرنسية السرية، وقام بتجنيد أتباعه من نواحي شلف وضواحي العاصمة الشرقية وبئر الخادم من أتباع مصالي الحاج وبلغ عدد قواته في بداية عام 1957 حوالي 400 رجل (51) وبعدها تفطن بعض أتباعه من أن كوبيس لا يقوم بأي نشاط عسكري ضد العدو الفرنسي الأمر الذي جعل العديد من أتباعه يلتحقون بجيش التحرير الوطني سنة 1957[52] في شهر رمضان حيث نظمت عملية عسكرية من طرف كومندو سي جمال تحت قيادة سي محمد بونعامة رئيس المنطقة الثالثة فكانت نتيجة الهجوم هو تدخل الطيران الفرنسي إلى كوبيس وبهذه العملية تأكد أتباعه والشعب في نواحي تواجده بالمنطقة الثالثة تواطؤ كوبيس مع العدو الفرنسي ضد ثورة التحرير الأمر الذي أدى إلى تصفية بعض العناصر المقربة من كوبيس من بينهم بلقاسم الذي قتله كوبيس بيده وتكشف الاتصالات بين مسؤولي المنطقة الثالثة والبلحاجيين خاصة رشيد بوشوشة مسؤول الأخبار الاتصالات [53]، فاتخذ بعد ذلك سي امحمد بوقره قائد الولاية الرابعة موقفا من كوبيس هو قتله والإتيان برأسه فشكل مجموعة من جيش التحرير تحت إشراف رشيد بوشوشة وامحمد بلحاج صهر كوبيس فرصدت تحركاته وأماكن تواجده، فتمت مهاجمة موقعه بعد محاصرته وتنفيذ العملية يوم 16 أفريل 1958.

وتزامن ذلك مع اجتماع عقده قائد الولاية سي امحمد بوقره في نواحي سد اغريب تحدث فيه عن ظروف تشكيل كومندو المنطقة الثالثة وتحديد المقاييس التي يجب أن يتم على أساسها اختيار عناصر فرقة الكومندو ،كما تحدث أيضا عن الوفد الذي توجه إلى الحدود المغربية الذي ضم كلا من السادة: أحمد بن شريف، وبشير رويس، وعبد الرحمان مامي)، وخلال الاجتماع فإذا ببرقية تصل من المنطقة الثالثة سلمت إلى القائد سي امحمد بوقرة فقرأها على الجميع، ثم أمرهم بالتوجه إلى مكان العملية لمعاينة الحقيقة فإذا بكيس يحوي رأس كوبيس، وحينها ألقى سي امحمد بوقرة كلمة جاء فيها [54]:" إخواني أنبهكم ألا تعجبوا لهذا المشهد الذي أمامكم، إذا قلت لكم أن صاحب هذا الرأس هو شخص كان ذات يوم مسؤولي المباشر أيام فترة نضالنا قبل اندلاع الثورة ..."

وكان الهدف من القضاء على كوبيس يتمثل في النقاط التالية:

- ضمان مستقبل الثورة وذلك بتخليصها من العملاء وظلمهم.
- إبراز قدرة الثورة على قهر العملاء وتدميرهم.
- السيطرة على النواحي التي يتمركز فيها كوبيس وأعوانه بحكم موقعا الاستراتيجي وتطهيرها من الخونة والمنحرفين.

6-3- حركة شريف بن سعيدي:

ظهرت حركة شريف بن سعيدي [55] في نهاية مارس 1957 كون وحدات عسكرية بنواحي سور الغزلان، سيدي عيسي، عين بوسيف، شلالة العذاوة وكان استقراره في نواحي جواب وذلك عقب عمليات قام بتنفيذها أباد فيها عددا من المجاهدين بما فيهم قائد الولاية السادسة علي ملاح المدعو سي الشريف الذي تم اغتياله في 28 ماي 1957بناحية دراق [56]، شريف بن سعيدي كان على رأس كتيبة بالولاية السادسة يتكون معظم عناصرها من أقاربه الأمر الذي مكنه من تكوين عصابة تولت مهمة تصفية عناصر من جيش التحرير الوطني [57].

وفي شهر ماي 1957، تدخل قائد الولاية الرابعة سي امحمد بوقرة ومعه الصاغ الأول الحاج لخضر، والضابط الثاني عز الدين على رأس الكومندو علي خوجة فضعفت جماعات بن سعيدي، والتحق هو ورجاله بالجيش الفرنسي فمنحه رتبة عقيد وانتشر تمرده في معاداته للثورة خاصة بعد أن تمكن كومندو علي خوجة من إلحاق أضرار بجماعة شريف بن سعيدي بالكاف الأخضر فرب أولاد سلطان أين تتواجد جماعاته المعادية للثورة فأعيدت الثقة للشعب، وبعدها أشرف سي امحمد بوقرة على هيكلة الولاية السادسة فنصب سي الطيب الجغلالي على رأس الولاية السادسة مع عبد الرحمن مقلاتي، ثم جاء عمر إدريس خلفا لسي زيان الذي كان يرأس جيش التحرير الوطني بالصحراء بالولاية الخامسة، فتكونت بذلك المنطقة التاسعة بالولاية السادسة [58].

ومما سبق ذكره نستخلص بأن سي أمحمد بوقرة اتخذ موقفا من هذه الحركات المضادة للثورة وذلك بإقناعها في العدول عن الخيانة والتواطؤ مع الاستعمار أو محاربتها بالقوة إذا لم تستجيب للنداء الذي يدعوها إلى خط الثورة.

والخلاصة هي أن سي امحمد بوقرة يعد بحق القائد الفذ الذي أرسى قواعد تنظيم الثورة في الولاية الرابعة التاريخية الذي تولى فيها أطول مدة في قيادته للولاية وبقي في الميدان إلى أن ستشهد في ميدان المعركة بناحية اولاد بوعشرة بولاية المدية بتاريخ 5 ماي 1959 كما دلت على ذلك كل الشهادات الحية من طرف الذين عايشوه عن قرب أو عن بعد.

الهـــوامش:

(1)- أنظر : CHAID , HAMOUD : sans haine ni passion , Ed , DAHLEB , Alger – 1992 – PP (103 – 105)

(2)- مجلس الولاية كما حدده مؤتمر الصومام هو أعلى هيئة تسير شؤون الولاية سياسيا و عسكريا و المجلس الولائي يكون مسؤولا أمام المجلس الوطني للثورة الجزائرية .

(3)- المنظمة الوطنية للمجاهدين : تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل وقائع و أحداث الثورة التحريرية – الولاية الرابعة الجزء الأول – التقرير السياسي – من أوت 1956 إلى نهاية 1958 – ص . 28 .

(4)- مجلة أول نوفمبر ،المنظمة الوطنية للمجاهدين العددان : 104- 105 ماي – جوان 1989.

(5)- أنظر : لخضر بورقعة شاهد على اغتيال الثورة مذكرات لخضر بورقعة تحرير الصادق بخوش دار الأمة – الطبعة

(6)- شريط سمعي بصري : متحف المجاهد – ندوة حول حياة سي امحمد بوقرة – 3 ماي 1998الجزائر .

(7)- أنظر: محمد عباس: ثوار... عظماء ، مطبعة دحلب ، حسين داي ، الجزائر (بدون تاريخ) ص : 187 .

(8)- المنظمة الوطنية للمجاهدين التقرير السياسي الولاية الرابعة ج 1 ص . 31 .

(9)- مجلة أول نوفمبر المنظمة الوطنية للمجاهدين : العددان (104 – 105) ماي جوان 1980 . ص.31 .

الثانية ماي 2000 ص : (311 – 312) .

(10)- مجلة الجيش- مؤسسة الجيش الوطني عدد:290 جويلية 1998- ص. (42).

(11)- المرجع السابق لخضر بورقعة: المرجع السابق، ص (310-311).

CHAID, HAMOUD: op cit p-p 104-130. (12)- أنظر:

(13)- المرجع السابق: المنظمة الوطنية للمجاهدين: الملتقى الوطني لتاريخ الثورة- المرجع السابق، ص-ص: (82-83).

(14)- المنظمة الوطنية للمجاهدين الولاية الرابعة- الجزء الأول التقرير السياسي ص.35.

(15)- أحمد فخار: أول مسؤول للنظام في مدينة المدية بعد اندلاع الثورة 1954 كان قبلها مناضلا في حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

(16)- المنظمة الوطنية للمجاهدين – الولاية الرابعة- المرجع السابق. ص-ص: 36-37.

(17)- التويزة : تعني التعاون الاجتماعي بين أبناء الدوار الواحد، وذلك بتحديد يوم يجمع فيه رجال الدوار لبناء منزل أو جني محصول كحصاد الزرع مثلا.

(18)- المنظمة الوطنية للمجاهدين الولاية الرابعة- التقرير السياسي ج1 المرجع السابق. ص 38.

Mohamed Tequia : L'Algérie en (19)- أنظر (188-cit. P.guerre, op 189-P.)

(20)- منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954- الإعلام ومهامه أثناء الثورة (سلسلة الملتقيات) الجزائر، ص: 96.

(21)- EVENOPATRIK , JEANPLANCHAIS : LA GUERRE D'ALGERIE , LAPHONIC LA

DECOVERTE,LE MONDE, ALGER .1989. P 245

(22)- أنظر الملحق رقم.() الذي يبرز سواعد الرجال في تحطيم حواجز العدو ورفع مشعل الثورة الجزائرية.

(23)- مجلة أول نوفمبر العددان: 102-103 مارس- أفريل 1989 ص. 37.

(24)- نفسه: ص 38.

(25)- مجلة أول نوفمبر عدد: 102-103، المرجع السابق: ص.38.

(26)- نفسه .ص. 40.

(27)- أنشأت المنطقة الرابعة في جويلية 1958، وتضم زكار والظهرة وأنشأت المنطقة الخامسة في نهاية 1957، وتضم عين وسارة وقصر البخاري وعين بوسيف وصور الغزلان والبرواقية.

(28)- مجلة أول نوفمبر. مرجع سابق: ص. 41.

(*)- أنظر الملحق رقم (7) : نموذجان من رخصة المرور موقعتان بخط قائد الولاية الرابعة سي أمحمد بوقرة بعد اتخاذه قرار إرسال المجاهدات والممرضات إلى الخارج.

(29)- مجلة أول نوفمبر، المرجع السابق. ص. 42.

(30)- دليل الولاية الرابعة- مطبوعة خطية في شكل شهادات تبين التنظيم الثوري منذ إنطلاق الثورة 1954 إلى الاستقلال 1962- ص: (12-13).

(31)- أنظر Philippe Tripier : Autorise de la guerre d'Algérie Editions France, Paris, Editions 1 er 1972, (354: P.P-356).

(32)- HENRI LE MER HISTOIRE MILITAIRE DELA GUERRE, D'ALGEIRE, DE ALBIN MICHEL, (143 : .p.p ,1992 ,PARIS-153).

(33)- تقرير ملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث الولاية الرابعة- ج1 التقرير السياسي فترة أوت 1956 إلى نهاية 1958، ص: (74).

(34)- أنظر: المرجع السابق : تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث الولاية الرابعة- ج1 التقرير السياسي من 20 أوت 1956 إلى نهاية 1958- ص. 75

(35)- تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الثالث لتسجيل وقائع وأحداث الثورة التحريرية، (ولاية4)، ج1 تقرير سياسي ص:77.

(36)- أنظر: مجلة الجيش عدد 290-1988، المرجع السابق: ص: 42.

(37)- مجلة أول نوفمبر عدد خاص- 1987- ص: 44.

(38)- صحيفة : EL MOUDJAHID 1989/05/05

(39)- تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث الولاية الرابعة ج1 التقرير السياسي. ص: 81

(40)- مجلة أول نوفمبر (م.و.م) العددان 104-105، ماي- جوان 1989، ص. 31.

(41)- مجلة أول نوفمبر (م.و.م) العددان 102-103، ماي- جوان 1989، ص. 42.

(42) نفســه: ص : 34.

(43)- مجلة أول نوفمتبر (م.و.م)، مرجع سابق، ص.

.31

(44)- محمد بللونيس: ولد ببرج أم نايل ناضل في حزب الشعب الجزائري، ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ثم عضوا ثم في مجلس بلدية برج أم نايل أدخل السجن وهناك ربط علاقة مع رئيس البلدية الفرنسي فوضع في غرفة منفردة تتوفر على المرافق: تزوره عائلته في كل وقت، وبعد خروجه انتقل إلى فرنسا، ثم عاد إلى عاد إلى الجزائر بعد اندلاع الثورة، فكون جيشا باسم الجيش الوطني الشعب الجزائري.

(45)- المنظمة الوطنية للمجاهدين: الملتقى الجهوي الثالث لتاريخ الثورة- منظمة الجزائر المستقلة (1956-1958)- الجزائر- 1958.(بدون ترقيم).

(46)-histoire magazine :op.cit (la guerre d'Algérie) no .238 Aout .1972.p-p.1312-1313.

(47)-Ibid :p.330.

(48)- Ibid :p.339 -

(49)- لخضر بورقعة ،مرجع سابق. ص. 85.

(50)- بلحاج عبد القادر(كوبيس) من دوار زدين بعين الدفلة، ولد عام 1921 تخرج من مدرسة ضباط الصف بشرشال برتبة عريف، ناضل في (ح .ا.ح .د) ثم عضوا في المنظمة الخاصة ألقي عليه القبض سنة 1950، سجن بالبليدة وحكم عليه بثلاث سنوات ثم أطلق سراحه.

(51)-Historia magazine:(la guerre d'Algérie) no.237.p-p.1313-1314

(52)- أنظر .ENA. Cdt Azzedine :les fellaga .Édition. Alger.1997.p-p.234-240.

(53)- أنظر التقرير الجهوي للملتقى الوطني الثالث لتسجيل وقائع أحداث الثورة (الولاية الرابعة) ج1 ص .159.

(54)- لخضر بورقعة، مرجع سابق. ص .89.

(55)- شريف بن سعيدي: ولد بأولاد العقون بلدية سواقي، انخرط في الجيش الفرنسي شارك في الحرب الهند الصينية مدة سنتين، جند بجيش التحرير الوطني في النصف الثاني من سنة 1956، ونظرا لخبرته العسكرية السابقة رقي إلى ضابط صف، ثم ضابط أول عسكري، تولى رئاسة كتيبة بالولاية السادسة فكان من أحد الضابط الستة أو السبعة التي تكون نواه الولاية السادسة، وبعد قيامه بقتل عدد كبير من المجاهدين واكتشاف خيانته، التحق بالجيش الفرنسي الذي رقاه إلى رتبة عقيد، محاولا استعماله لتشكيل القوة الثالثة.

(56)- Messaoud Maadad : op cit. P .75 .

(57)- مجلة أول نوفمبر عدد: 104-105: مرجع سابق. ص. 34.

أهمية الدراسة السكانية والاجتماعية في التخطيط السياحي

دراسة حالة سكان ولاية باتنة – شرق الجزائر

علوات محمد
أستاذ محاضر (أ)
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة،

رزاز محمد عبد الصمد
أستاذ محاضر (ب)
جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا- الجزائر

خرور الوردي
أستاذ محاضر (أ)
جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا- الجزائر

Résumé :

Le tourisme étant directement lié aux résidants locaux et aux touristes, pour cela la planification touristique vise à atteindre divers objectifs, notamment sociaux, qui vise à fournir des services de loisirs à la population locale et à satisfaire les souhaits à des expatriés.

Quels éléments de la population peuvent être étudiés dans la planification touristique ? Pourquoi l'étudiant-nous ? Quel est l'avantage de l'étudier ? Dans cette étude, nous décrirons et analyserons les éléments qui sont abordés par la géographie de la population, particulièrement en ce qui concerne la planification et la conception des sites et des zones touristiques, nous étudions les phénomènes avec une perspective sociale. Le but de cette étude est de connaître les données démographiques essentielles pour déterminer l'offre et la demande des touristes et d'analyser un ensemble d'objectifs économiques et sociaux d'une grande importance pour les planificateurs dans divers domaines, servant ainsi le développement touristique multiforme selon les variables démographiques actuelles et futures.

Nous avons choisi la wilaya de Batna dans l'Est de l'Algérie pour la spécificité de sa communauté, dont l'environnement culturel est varié dans sa longue, ses coutumes et traditions, sa répartition démographiques entre villes et zones rurales et un taux de croissance démographique de 1,4% selon le dernier recensement de la population en 2008. A la lumière de tout cela, l'utilisation des données démographique doit être cohérente avec le plan souhaité, ce qui soulève la question d'importance scientifique et pratique.

Mots clés : étude de la population, la planification touristique, les facteurs humains, la population, les zones touristiques, les caractéristiques sociales et culturelles, Batna.

الكلمات المفتاحية: الدراسة السكانية، التخطيط السياحي، العوامل البشرية، السكان، المناطق السياحية، الخصائص الاجتماعية والثقافية، باتنة.

مقدمة:

إن التخطيط للتنمية السياحية لا يقل أهمية عن التخطيط لباقي الأنشطة الاقتصادية في الإقليم ، وذلك لما للسياحة وتنميتها أهمية كبرى في تحقيق التنمية المستدامة على كافة المستويات الوطنية الإقليمية والمحلية (محمد خميس الزوكة، 1991)، وقد ازداد الاهتمام في الآونة الأخيرة بصناعة السياحة نظرا لأهميتها الاقتصادية ولكونها تحقق أرباحاً كبيرة تدعم الاقتصاد الوطني لبعض الدول على اعتبار أنها مصدر من مصادر الدخل الوطني (محيا زيتون، 2002)

فقد ازدادت المساعي التي تهدف إلى رفع مستوى السياحة علمياً وفنياً وعمليا، فاستعانت ببعض العلوم الانسانية، كالجغرافيا وعلم الاجتماع ، والاقتصاد، وغيرها من العلوم ذات الصلة بالنشاط السياحي، و كل ذلك لابد ان يقترن بالتخطيط السياحي(ماهر عبد الخالق السيسي،2006).

تكمن أهمية الدراسة السكانية في التخطيط لقطاع السياحة في جمع ونشر المعلومات الديموغرافية والاجتماعية للسكان بهدف توفير متطلبات الدولة واحتياجات المخططين والباحثين من البيانات الأساسية التي تتطلبها خطط التنمية السياحية ، كما تهدف إلى توفير إطار حديث لكافة الأبحاث الإحصائية المتخصصة التي تجرى بأسلوب العينة من أجل معرفة الخصائص الديموغرافية والاجتماعية للسياح (شريفة بنت هيازع عبدالله البارقي، 2011)

وتهتم جغرافية السكان بالعلاقات المتعددة القائمة بين الانسان وبيئته، والسكان هم المحور الرئيسي الذي تدور حوله ومن خلاله كثير من عمليات التنمية، بالإضافة إلى اهتمامها بأساليب التحليل الديموغرافي لأنها تكون الأدوات الرئيسية التي تساهم في استكمال البناء المنهجي لجغرافية السكان (فتحي محمد أبو عيانة، 1993) والبحث الذي نحن بصدده هو من هذا النوع من الدراسات، حيث يهدف

إلى معرفة الحقائق السكانية التي تعد أساسية في تحديد الطلب والعرض السياحي، وأيضا تحديد مجموعة من الأهداف الاقتصادية والاجتماعية ذات الأهمية الكبرى للمخططين في شتى المجالات مما يخدم التنمية السياحية المتعددة الجوانب وفق متغير السكان الحالي والمستقبلي، بالإضافة إلى دراسة علاقة السكان بالنشاط السياحي الذي يعتبر دعامة الاقتصاد المحلي و الوطني، وبالتالي معرفة العلاقات الارتباطية بين متغيرات السكان وتنمية السياحة في إقليم الدراسة.

لأنه من الحقائق الهامة في السياحة أنها ترتبط بالسكان المحليين و الوافدين معا، وأن التخطيط السياحي يعمل على تحقيق مجموعة من الأهداف ومن أهمها الاجتماعية كتوفير تسهيلات ترفيه واستجمام للسكان المحليين و إشباع رغبات الوافدين. فماذا ولماذا ندرس السكان في التخطيط السياحي؟ هذا السؤال يوحي بأن دراسة السكان ذات أهمية قصوى في هذا النوع من التخطيط. وبالتالي نقوم بوصف وتحليل العناصر التي يتناولها علم الديموغرافيا ولكن فيما يهم تخطيط وتهيئة المواقع والمناطق السياحية، أي أننا ندرس الظواهر بمنظور اجتماعي وبالتالي نربط بين الدراسة السكانية والتخطيط السياحي.

وقد اخترنا إقليم ولاية باتنة الواقع في شرق الوطن بمساحة قدرها 12038,76 كم^2، أي بنسبة 0,5 % من مساحة القطر التي تبلغ 2381741 كلم2، ليكون نموذجا لمثل هذه الدراسات نظرا لخصوصية مجتمعه الذي يتنوع بين الأمازيغ بنسبة تزيد عن 95

%والعرب بنسبة تقل عن 5 %(بشير مسعودان، 2009) وفي توزيع سكانه بين المدن والأرياف بنسب 63 % حضريين مقابل 37% ريفيين على التوالي وبمعدل نمو سكاني يقدر بـ 1.4 % (RGPH 2008). وعلى هذا كله فإن توظيف المعطيات السكانية يجب أن يتوافق مع الخطة المرجوة، مما يزيد موضوع البحث أهمية علمية وتطبيقية.

مشكلة الدراسة وفرضياتها:

تشكل دراسة السكان موضوعا محيرا بالنسبة للجغرافي والديموغرافي والاقتصادي، وتعتبر مؤشرا هاما للتنمية، وذلك بقياس كافة العناصر الديموغرافية، لكن تحديد عناصر الدراسة تدخل ضمن تصور الباحث حسب الخطة المرسومة ، ولكي يكون البحث ذا جدوى علمية فإن دراسة سكان إقليم ولاية باتنة من حيث العناصر الديموغرافية كمعدل النمو والتركيب العمري والنوعي، وكذا التركيب الاقتصادي و الخصائص الاجتماعية والمادية. كل هذا يفرض علينا طرح السؤال الرئيسي التالي:

– ماهي عناصر السكان التي يمكن دراستها في التخطيط السياحي ولماذا ندرسها؟

وللإجابة على هذا السؤال هناك فرضيات لابد منها لتفسير التحليل المتبع والنتائج المتحصل عليها و هي كما يلي:

- نمو السكان له علاقة بالتخطيط السياحي
- التركيب العمري والنوعي مهم في التخطيط السياحي
- التركيب الاقتصادي للسكان يبين ضرورة مساهمة نشاط السياحة في خلق مناصب شغل
- الخصائص الاجتماعية والثقافية للسكان عنصر مهم في الجذب السياحي
- مستوى الدخل للسكان يلعب دورا هاما في نجاح الحركة السياحية.

في الحقيقة هذه فرضيات ننطلق منها لعرض الموضوع حسب تصورنا كجغرافيين مهيئين وباحثين في التخطيط السياحي ، لعلنا نساهم في إضافة ما كتبه الاقتصاديون وعلماء الاجتماع في مثل هذه المواضيع.

هدف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على السكان كأحد المقومات البشرية التي تلعب دورا هاما في ممارسة النشاط السياحي في منطقة باتنة وبالتالي التخطيط لها، كما تهدف الدراسة أيضا إلى تبيان ضرورة دراسة السكان لممارسة نشاط السياحة من خلال السؤال المطروح في الإشكالية.

منهجية البحث:

اعتمدنا في دراستنا على منهجين رئيسيين: المنهج الوصفي و الإحصائي و ذلك حسب طبيعة الموضوع المعالج.

المنهج الوصفي: اتبعنا هذا المنهج لجمع المعطيات الخاصة بإقليم ولاية باتنة من خلال مختلف البيانات والإحصائيات المتعلقة بالسكان كنموهم وتركيبهم العمري والنوعي وكذا تركيبهم الاقتصادي.

المنهج الإحصائي: ونقصد به الطريقة الإحصائية التي استخدمناها في هذه الدراسة والمتعلقة بتحليل البيانات الإحصائية المبينة في الجداول، المتعلقة بالسكان وخصائصهم التي يمكننا بعد تحليلها إلى تبيان تأثير العوامل المختلفة حتى يسهل فهم الظواهر. وللوقوف على

اتجاهات تطور الحياة الاجتماعية، لجأنا إلى جمع معطيات إحصائية من خلال عدة مصادر وقمنا بدراسة هذه الإحصائيات وتحويلها إلى نسب مئوية مما يسمح لنا بالمقارنة و التحليل و الربط و التعليل.

السكان والنشاط السياحي:

يعد السكان في النشاط السياحي العامل الإنتاجي والاستهلاكي في آن واحد، فهم المستقبلون للزوار، ويعطي للسياحة مدلولا في تسخير الإمكانيات الطبيعية والبشرية مستغلا في ذلك قدراته في العمل وتوفير السلعة السياحية الكمية والكيفية (**إلياس شاهد** و **عبد النعيم دفرور، 2017**)، لذلك كان من الأهمية دراسة سكان منطقة البحث من حيث عددهم وتركيبهم حسب الجنس والنوع وكذا تركيبهم الاقتصادي، مما يمكن إعطاء صورة واضحة عن مدى توافر الأيدي العاملة ونوعيتها، وكذا مدى منافسة السياح الوافدون للسكان المحليين في استهلاك حاجاتهم اليومية من غذاء ومياه وطاقة، وبالتالي تتبع العلاقة بين الزيادة السكانية والزيادة في توافد السياح، لذا من الضروري تقديم معطيات حول سكان منطقة البحث، على أن تشكل هذه المعطيات قاعدة بيانات للتخطيط السياحي في منطقة الدراسة وهذا على النحو التالي:

تطور السكان:

جدول رقم(01) النمو السكاني في ولاية باتنة خلال الفترة 1966- 2008

تعداد 1966	تعداد 1977	تعداد 1987	تعداد 1998	تعداد 2008	تقديرات 2012
373.086	556.898	757.059	968.820	1.119.791	1 209 500
معدل نمو السكان	3,6	3,04	2,2	1,4	

المصدر: http://www.ons.dz/IMG/pdf/pop9_national.pdf

يتبين من خلال هذا الجدول أن حركة النمو السكاني في ولاية باتنة قد ازدادت خلال مدة 42 سنة بمقدار746705 نسمة أي بزيادة سنوية تقدر بـ: 17779 نسمة .

ولتفسير ظاهرة النمو هذه حسب الفترات المبينة في الجدول المشار إليه فإننا نجد ما يلي:

فترة 66– 77:

بلغ عدد سكان الولاية في سنة 1966 أي بعد الاستقلال بأربع سنوات بنحو 373086 نسمة، ليزداد بوتيرة سريعة خلال 11 سنة إذ وصل عدد السكان سنة 1977 م نحو 565898 نسمة أي بمتوسط زيادة سنوية تقدر بـ: 16710 نسمة وهكذا يقدر معدل النمو السكاني بـ: 3,6 %. إن ارتفاع معد النمو في هذه الفترة يرجع إلى الإقبال على الزواج بعد خروج الاستعمار الفرنسي، وكذا عدم مراعاة تحديد النسل في هذه الفترة، رغبة في إنجاب الذكور من طرف أرباب العائلات لعدة اقتناعات اجتماعية واقتصادية.

فترة 77– 87:

وصل عدد سكان الولاية في عام 1977 م بنحو 556898نسمة، ليصبح عدد السكان عام 1987 م نحو 757059 نسمة، أي أن الزيادة خلال هذه الفترة بلغت 200161 نسمة، بما يعادل 20016 نسمة سنويا و بمعدل نمو سنوي يقدر بنحو 3,05 %.

إن انخفاض معدل النمو السكاني في هذه الفترة وإن كان بنسبة قليلة لا تتجاوز 0,5 % يرجع إلى عاملين رئيسيين ، أولهما أن العائلات شرعت في تعليم بناتها بصورة كبيرة وهذا بداية من سنة 1976 م مما يؤخر عملية الزواج وبالتالي تأخير الإنجاب ، أما السبب الثاني فيعود إلى الهجرة من الريف إلى المدن بحثا عن العمل في المجالين الصناعي والتجاري، وبالتالي لابد للعائلة من

مواجهة الحياة في المدن التي تتطلب مصاريف أكثر، مما جعلها تفكر تلقائيا في تحديد النسل.

ج- فترة 87- 98 :

وهي فترة العشرية السوداء، إذ شهدت فيها الجزائر مشاكل اجتماعية كثيرة ناجمة من جرم الإرهاب والانسداد السياسي والفراغ الأمني، كل هذا جعل الشباب يهجر مكرها محل إقامته ويعزف عن الزواج. إن هذه الأسباب جعلت النمو السكاني ينخفض في ولاية باتنة كما يتضح من الإحصائيات المبينة في الجدول السابق، حيث وصل معدل النمو في هذه الفترة إلى 2,2 %.

د- فترة 98- 2008:

من خلال ملاحظتنا لمعدل النمو في هذه الفترة، يظهر أنه قد أنخفض عن معدل الفترة السابقة، وذلك لأن الوضع الأمني لم يستقر بمنطقة الدراسة إلا في السنوات الأخيرة من الألفية الأولى، كما أن هذه الفترة تتسم بارتفاع معدل البطالة حيث بلغت 40% في بداية هذه الفترة وبالتحديد في سنة 2000 م، ومشكلة البطالة هذه يعاني منها الشباب في ولاية باتنة، سواء المتخرجين من الجامعات أو غيرهم، نتيجة للظروف الصعبة التي مرت بها البلاد، كعدم توفر الأمن وهجرة الكثير من سكان الريف وتركهم لأراضيهم الزراعية وهجرتهم إلى المدينة، مما جعلهم يساهمون بشكل كبير في خلق أزمة سكن، وهذا ما جعل ازدحام عدة أسر في مسكن واحد. كل هذه الأسباب تلزم العائلات إتباع في هذه الفترة سياسة تنظيم النسل والتقليص من نسبة الإقبال على الزواج وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى انخفاض نسبة المواليد.

من خلال تحليلنا لتطور السكان بولاية باتنة نستطيع القول بأن هناك زيادة سكانية معتبرة، وإذا استمر النمو بالوتيرة الأخيرة أي بمعدل نمو 1,4 % فإن عدد سكان الولاية سيصل في غضون عام 2030 م إلى1520449نسمة، ويمكن أن يكون عددهم أكثر إذا كان هناك تغييرات كبيرة خلال السنوات القادمة، هذه التغييرات تؤثر في نسبة معدلات النمو السكاني مثل ارتفاع عدد المواليد وقلة الوفيات وحركة السكان من جهات أخرى إلى ولاية باتنة كالهجرة والتوافد السياحي. لذا يجب أخذ تطور عدد السكان في الحسبان عند التخطيط السياحي بالولاية لتقدير الاحتياجات اليومية من خدمات وأمن غذائي ومائي.

السكان حسب الجنس والعمر:

تعد دراسة التركيب العمري والنوعي للسكان من العناصر الهامة في خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بهدف الاستفادة الكاملة من الموارد المتاحة في ضوء الإمكانيات البشرية المتوفرة ، ففي التنمية السياحية تمكن هذه الدراسة من تحديد ملامح النشاط السياحي حسب فئات العمر وتهيئة المناطق السياحية للصغار والشباب وكبار السن، لأن الراحة والتسلية تهم كل فرد من المجتمع، كما تستفيد خطة التنمية السياحية من هذه الدراسة في تحديد قوة المجتمع من الفئة العاملة ودمج العاطلين عن العمل في النشاط السياحي وإسهام الإناث في النشاطات التربوية والصناعات التقليدية، خاصة في المناطق الريفية.

من هذا المنطلق نشير في هذا البحث إلى التركيب العمري والنوعي لسكان ولاية باتنة، كما يوضحه الجدول التالي:

جدول رقم (02): التركيب العمري والنوعي لسكان ولاية باتنة سنة 2008 م

فئات العمر	ذكور	إناث	المجموع	النسبة %
0 - 5	50075	47254	97329	7,8
6 - 12	101308	96737	198045	17,68
13 - 19	118242	113132	231374	20,66
20 - 49	236238	235657	471895	42,14
50 - 59	30230	29487	59717	5,33
60 - 64	10363	10513	20876	1,86
65 و أكثر	20125	20430	40555	3,62
المجموع الكلي	566581	553210	1119791	100

المصدر: انجاز الباحث وفقا لمعطيات مديرية البرمجة وإعداد الميزانية لولاية باتنة.

فئة الصغار:

وتشمل هذه الفئة كل فرد يتراوح عمره بين الصفر والخمس سنوات، وهي الفئة التي تتطلب عناية خاصة وتهيئة حدائق للتسلية والترفيه تضم فضاءات مجهزة بمقاعد تخصص للأولياء والمرافقين لهذه الفئة من العمر، وقد بلغ عددها 97329 نسمة تمثل نسبة 8,71 %من سكان الولاية. فالترفيه بالنسبة لهذه الفئة لا يحتاج إلى تذكرة سفر ولا إلى حقائب وحجوزات فندقية، وبالتالي تكفيهم تجهيزات بسيطة وأدوات اللهو تناسب سنهم، ويكتسبون من خلالها مجموعة مهارات وسلوكيات ومعارف لازمة لنضوجهم. ويمكن لكل بلدية من بلديات الولاية إنشاءروضة لترفيه هذه الفئة. علما بأن هذه الفئة وخاصة الذين تتراوح أعمارهم بين 4-5 سنوات يمكن تلقينهم الثقافة السياحية كالمحافظة على المساحات الخضراء ومنع رمي النفايات.

فئة الأطفال:

يدخل في عداد هذه الفئة الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين ستة سنوات و 12 سنة، فالسياحة بالنسبة لهذه الفئة تؤسس على مبدأ اكتشاف معالم وأماكن بعيدة تسبح فيها مخيلتهم، وتحلق بهم إلى فضاءات يرسمون أبعادها بأيديهم. فولاية باتنة يوجد بها نسبة معتبرة من هذه الفئة، إذ تمثل 17,68% من سكان الولاية، لذا يتطلب العناية بهم وتوفير لهم المساحات الفسيحة التي ترضي طاقة الطفل فهو يدخلها بقصد الركض فيها حينا والمشي حينا آخر، مع تجهيز ميادين التسلية بوسائل تنمي مواهبهم الثقافية،على أن تتنوع الأنشطة في مخيمات صيفية أو رحلات التعرف على الطبيعة وزيارة المدن أو الأماكن التاريخية، لأن هذ الفئة ترغب كثيرا في التعرف إلى مهارات مثيرة ومشاركة الآخرين، مع ضرورة التأكيد على أن تكون الألعاب شاملة لشروط السلامة وعدم التهاون في الأمر.

فئة المراهقين:

إن هذه الفئة تنظر إلى النشاط السياحي من وجهة البحث عن الإثارة والحياة الاجتماعية المتجددة وتكوين الصداقات، وهي فئة تضم كل فرد يتراوح سنه بين 13 و19 سنة ، إن هذه الشريحة حاضرة بولاية باتنة وبنسبة 20,66 % كما يتبين من خلال الجدول السابق ، لذا يتطلب على السلطات مراعاة برامج الراحة والتسلية لهذه الشريحة الاجتماعية التي تشعر بشكل طبيعي إلى بذل المجهود لتحقيق غايته، وأن الأشخاص في هذه المرحلة في حاجة ماسة للنشاط

البدني وبرامج تنشيطية لإنمائهم صحيا وعقليا، بكون الشاب مازال يحتاج إلى من يوجهه ويراقب تصرفاته كي لا تحدث أمور لا تحمد عقباها.

فئة الراشدين:

وهي الشريحة التي ينتمي إليها الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و 49 سنة ، و يتبن من خلال الشكل رقم (04) بأن هذه الفئة هي السائدة في مجتمع ولاية باتنة وبنسبة كبيرة تقدر بـ 42,14 % من إجمالي السكان، والتخطيط السياحي لابد أن ينتبه إلى هذه الفئة من زاويتين ، تتمثل الأولى في أخذ البطالين في الحسبان لاستفادة من مناصب شغل ضمن القطاع السياحي وبالتالي تقليل نسبة البطالة، أما القضية الثانية والتي تهم هذه الطبقة الاجتماعية هي الأنشطة السياحية التي تقوم بها طوال أوقات الفراغ أثناء عطل نهاية الأسبوع أو أثناء العطلة السنوية. لذا فالتهيئة السياحية على مستوى بلديات منطقة البحث يجب أن تهتم بهذه الفئة الناضجة، بتجهيز مناطق ومواقع سياحية من أجل الاسترخاء من عناء العمل والإرهاق طوال العام، فهي بذلك لابد أن تركز على الاستمتاع بالمناظر الطبيعية و هدوء جبال الأوراس و حياة الأرياف والتعرف على منعرجات وادي عبدي وشرفات غوفي الطبيعية وكل الاختلافات الموجودة عبر كامل تراب الولاية وعلى عادات وتقاليد سكان الأوراس.

الشكل رقم (01): الهرم العمري والنوعي لسكان ولاية باتنة سنة 2008

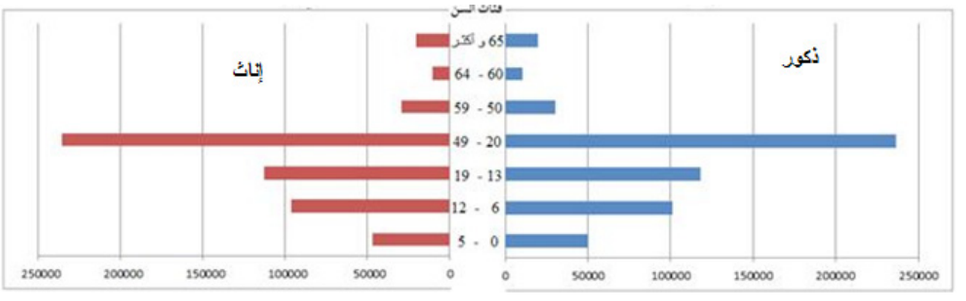

فئة الشيوخ:

إن الهدف من النشاط السياحي هو تحقيق الرغبة الترفيهية لجميع الفئات العمرية، بمعنى أن السياحة تعزز الاندماج الاجتماعي والعلاقات بين جميع مراحل الحياة، فالكهول وكبار السن في ولاية باتنة رغم قلة عددهم، إذ يشكلون 10,81 % فقط من عدد سكان الولاية، إلا أنه من الضروري الأخذ بعين الاعتبار تطلعاتهم في المجتمع.

إن هذه الشريحة الاجتماعية في الحقيقة تضم الأفراد المتقاعدين أو ما قبل التقاعد، لذا فسياحة هؤلاء تكون على نوعين أحدهما يقدم عليه أفراد هذه الشريحة فور تقاعدهم، وهو يتميز بالبحث عن الاستجمام والراحة والهدوء ولذلك يتم اختيار الأماكن التي تبعد عن المدن المزدحمة والحياة الصاخبة والأجواء التي تذكر السائح بالاكتئاب ومتاعبه. وثانيهما يتميز بزيارة الأماكن التي كان يحلم بها السائح طيلة حياته ولكنه لم يكن لديه الوقت الكافي للقيام بها قبل تقاعده، وهذه الفئة من السياح غالبا ما تتكون من الزوج والزوجة والأبناء.

ويتطلب تجهيز المواقع السياحية لهذه الفئة بمرافق توفر لكبار السن شروط الراحة، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بالإقامة، حيث يتطلب إنشاء بيوت أو شقق التقاعد (maisons de retraite)، تكون مكيفة وفقا للأحوال الجوية لمقاومة برد الشتاء وحرارة الصيف، كما يتطلب توفير الغذاء الجيد، وتجهيز المراكز السياحية لهذه الفئة أيضا بمرافق الجلوس الجماعي،

لأن هذه الفئة تحتاج إلى المؤانسة أكثر، كما يتطلب تجهيز المواقع السياحية بأنشطة رياضية ملائمة وتوفير مساعدات طبية عند الضرورة.

التركيب الاقتصادي للسكان:

تعد دراسة التركيب الاقتصادي للسكان من العناصر الهامة في التخطيط السياحي ، فيمكن من خلال هذه الدراسة تحديد ملامح النشاط الاقتصادي وأهمية عناصره وارتباطها بظروف البيئة الجغرافية، كذلك يمكن الوقوف على نسب اليد العاملة ومدى مساهمة قطاع السياحة في الشغل وامتصاص البطالة، لذا وجب علينا التطرق لهذه الدراسة في منطقة البحث وذلك على النحو التالي:

إن سكان الولاية الداخلين في سن العمل عرفوا خلال الفترات 1987، 1998، 2008 تطورا كبيرا، كما يتضح من خلال الجدول رقم (03).حيث بلغ عددهم في سنة1987 م حوالي 168993 نسمة منهم 39659 عاطل عن العمل ،أي أن نسبة البطالة في هذه السنة كانت تساوي 23,46 % وفي عام 1998 م وصل عدد السكان في سن العمل نحو 219540 نسمة منهم 74860 فردا عاطلا عن العمل، مما يدل على أن نسبة البطالة كانت 34 %، و في عام 2008 ارتفع عدد السكان النشطين إلى 552488 نسمة منهم 307067فردا يعملون فعلا،(الوكالة الوطنية للتنمية والاستثمار سنة، 2013) وبالتالي كانت نسبة البطالة في هذه السنة تساوي 44,42%.

جدول رقم (03): سكان الولاية في سن العمل النشطين وغير النشطين خلال 1987 -2008

1987		1998		2008	
سكان في سن العمل	العاطلون عن العمل	سكان في سن العمل	العاطلون عن العمل	سكان في سن العمل	العاطلون عن العمل
168993	39659	219540	74860	552488	245421

المصدر: إنجاز الباحث وفقا لمعطيات كل من مديرية التخطيط والبرمجة لولاية باتنة، و الوكالة الوطنية للتنمية والاستثمار

من خلال الجدول رقم (03) والشكل المرفق له، نلاحظ أن عدد السكان العاطلين عن العمل شهد ارتفاعا ملحوظا من عام1987إلى غاية 2008، وتعود الأسباب الهيكلية للبطالة خلال هذه الفترة إلى سببين رئيسيين هما:

- العوامل الخارجة عن سيطرة الحكومة.
- العوامل التي تدخل في نطاق سيطرة الحكومة بصفة مباشرة أو غير مباشرة.

العوامل الخارجة عن سيطرة الحكومة:

من أهم العوامل الخارجة عن نطاق سيطرة الحكومة ولها الأثر الواضح على زيادة نسب البطالة في الجزائر ما يلي:

- اعتماد الاقتصاد الجزائري على المحروقات كمصدر أولي لتمويل إيرادات الدولة، ما أدى إلى ارتباط إيراداتها من العملة الصعبة بشكل كبير بعائدات هذه الصادرات التي تتميز بعدم استقرار أسعارها، وهذا ما أدى إلى الانكماش الاقتصادي، خاصة في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي، حيث أنخفض مستوى الدخل وقلت مناصب الشغل.
- النمو الديموغرافي خاصة وأن الزيادة السكانية في الجزائر لا تتناسب والزيادة في عدد الوظائف المطروحة في سوق العمل، ومن الجدول السابق يتضح أن عدد السكان في سن العمل بولاية باتنة قد تضاعف أكثر من ثلاث مرات في فترة 87- 2008.

– نقص مصادر التمويل لإنعاش وتمويل المشاريع الاقتصادية، وهذا راجع لضعف أداء الجهاز الإنتاجي وقلة الادخار لمختلف الفاعلين الاقتصاديين بسبب انخفاض القدرة الشرائية للعائلات.

– أزمة المدفوعات الخارجية التي عرفتها الجزائر والتي تأزمت بعد سنة 1986، بسبب انخفاض أسعار البترول، وتفاقم أزمة المديونية الأمر الذي نتج عنه عجز في الاقتصاد الوطني وعجز في المؤسسات الاقتصادية، وهذا أدى إلى زيادة الضغوط التي تفرضها المؤسسات المالية الدولية وما صحبها من تسريح جزئي وجماعي للعمال نتيجة لإعادة هيكلة الاقتصاد الوطني.

العوامل الداخلة في نطاق سيطرة الحكومة:

تتعلق مجمل هذه العوامل بالاختلال الهيكلي للوحدات الاقتصادية، التوزيع السكاني وكذا ما يتعلق بدرجة تأهيل اليد العاملة، وعليه يمكن حصر هذه العوامل فيما يلي:

- عدم التوافق بين مخرجات التكوين واحتياجات التشغيل، سواء كان هذا التكوين جامعيا أو مهنيا نظرا لضعف الوساطة في سوق العمل ووجود اختلال بالنسبة لتقريب العرض من الطلب في مجال التشغيل.
- نقص في اليد العاملة المؤهلة وضعف تطورها في الحرف، إذ بالرغم من توفر مناصب شغل ذات امتيازات عالية خاصة بالمؤسسات الأجنبية الناشطة في الجزائر إلا أنها تجد صعوبات في إيجاد أشخاص يتوفرون على الكفاءات المطلوبة.
- انعدام المرونة في المحيط الإداري والمالي الذي يشكل عائقا أمام الاستثمار، إذ يواجه الشباب البطال صعوبات جمة في الحصول على قروض بنكية أو مساعدات مالية من طرف الدولة، ما أدى بالشباب إلى ترجيح النشاط التجاري الذي لا ينشئ مناصب شغل كثيرة على حساب الاستثمار المولد لمناصب الشغل والذي من شأنه دفع عجلة التنمية.
- العامل الاجتماعي– الثقافي الذي يدفع إلى تفضيل العمل المأجور وعقود ما قبل التشغيل، مما أدى إلى إضعاف روح المبادرة التعاقدية الدائمة، لاسيما لدى المقاولين الشباب، وهذا بدوره أدى إلى ظهور ما يعرف بالبطالة الفكرية.
- الاختلال الهيكلي الناجم عن نقص إنتاجية القطاع الزراعي والصناعي مع تقلص دعم الاستثمارات الإنتاجية، وعدم وجود تكامل بين التكوين والتشغيل.

إضافة إلى ما سبق ذكره، فلا أحد ينكر أن ارتفاع عدد السكان العاطلين عن العمل خلال عشرين سنة الأخيرة، سواء في ولاية باتنة أوفي الجزائر ككل، كان نتيجة للظروف الصعبة التي مرت بها البلاد، كعدم توفر الأمن وهجرة الكثير من سكان الريف وتركهم لأراضيهم الزراعية.

توزيع القوى العاملة على الأنشطة الاقتصادية:

لا تقتصر أهمية التركيب الاقتصادي للسكان على حجم القوى العاملة فيها فقط، بل على توزيع تلك القوى على الأنشطة الاقتصادية المختلفة أيضا، فعدد العاملين في ولاية باتنة حسب آخر إحصاء للسكن والسكان الذي تم عام 2008 قد بلغ 307067 عاملا، مما يبين أن نسبة النشاط الاقتصادي تعادل 55,57 % لكن هذا ليس كافيا لوحده لتقدير قوتها الاقتصادية أو وزنها التنموي إذ ينبغي معرفة نسبة العاملين في كل قطاع من قطاعات الإنتاج المادي كالزراعة والصناعة والتعدين وفي قطاع الخدمات أيضا.

جدول رقم(04): توزيع اليد العاملة على

القطاعات الاقتصادية في ولاية باتنة حسب تعداد السكن والسكان 2008

القطاعات	عدد العمال	النسبة %
الأشغال العمومية والبناء	71 874	23,4
الإدارة	69 423	22,6
الزراعة	68 878	22,4
التجارة	46 119	15
الخدمات	26 401	8,6
الصناعة	372 24	8
المجموع	307 067	100

المصدر: مديرية البرمجة وإعداد الميزانية لولاية باتنة

تتميز ولاية باتنة، كما يتبين من الجدول رقم (04) بارتفاع نسبة القوى العاملة وبحصص تتساوى تقريبا بين قطاعات الأشغال العمومية والإدارة والزراعة، وهذا في الحقيقة دلالة على مستوى التأخر، ويعكس صورة الجزائر كدولة نامية، والدليل على ذلك انخفاض نسبة اليد العاملة في القطاع الصناعي، إذ بلغت 8 % في حين يشهد قطاع الخدمات أيضا قلة كبيرة في عدد العاملين به وبنسبة 8,6 %، ويعد انخفاض نسبة اليد العاملة في هاذين القطاعين من عناصر ضعف التركيب الاقتصادي لسكان الولاية.

يعد ارتفاع نسبة القوى العاملة في الأشغال العمومية مؤشرا على زيادة الطلب على السكن وتهيئة الطرق والهياكل القاعدية، بينما يعمل في قطاع التجارة ما يقارب 6/1 سدس القوى العاملة في الولاية وهذا يعكس أهمية العمل الحرفي في الولاية ونقص الوظائف العمومية كما يفسر ارتفاع السوق الاستهلاكية في مواد البناء والأدوات المكتبية والإدارية، والزراعية.

ويبين الجدول رقم (05)، مدى مساهمة القطاع السياحي في الشغل.

جدول رقم (05) : مساهمة الخدمات السياحية في الشغل بولاية باتنة حسب تعداد السكن والسكان 2008

نوع المؤسسة	العدد	عدد العمال	النسبة % من الخدمات
فندق	14	144	0,54
وكالة سياحية	22	102	0,39
المجموع	36	246	0,93

المصدر: مديرية البرمجة وإعداد الميزانية لولاية باتنة

يتضح من الجدول رقم (05)، بأن قطاع السياحة يساهم بنسبة ضئيلة جدا في الشغل، حيث لم تتجاوز هذه النسبة 0,93 % من عدد العمال الذين يشتغلون في قطاع الخدمات، وهذا يفسر بأن قطاع السياحة في ولاية باتنة لم يشهد بعد تطورا في تكريس الوظائف ، وهو يقتصر فقط على الفنادق والوكالات السياحية ، كما أن مساهمة قطاع السياحة في الشغل دلالة على عدم وجود نشاط سياحي ولا خدمات غير العمل الفندقي ونشاط وكالات السياحة والسفر.

طبيعة وخصائص السكان:

تتأثر السياحة في أي منطقة بطبيعة سكانها وخصائص البيئات المحلية، فالسائح يشعر بالراحة ويتمتع بوقته عندما ينزل على مجتمع مضياف ومتنوع الطباع والخصال وخاصة الحميدة منها، وفي هذا الصدد نحاول عرض طبيعة سكان ولاية باتنة وخصائص بيئاتهم المحلية وربط ذلك بالسياحة في النقاط التالية:

سمات السكان:

ينتمي أغلب سكان منطقة الدراسة إلى الجنس البربري، ويُعرفون باسم الشاوية الذين عرفوا خلال المراحل التاريخية القديمة والوسيطة قدوم موجات بشرية من شعوب عديدة ومختلفة الأجناس مثل الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب، فكان

الاحتكاك والتعايش مع بعضهم، غير أن طبيعة سكان ولاية باتنة وتنظيمهم القبلي والأسري الصارم حملهم على العيش قريبا من الغزاة دون الانصهار والاختلاط الواسع مع هذه الشعوب، خاصة فيما تعلق بالنسب والمصاهرة، و إن أخذوا عنهم الكثير من القيم والعادات والثقافات، ويتكون سكان ولاية باتنة بدورهم من العديد من القبائل.

إن أهالي ولاية باتنة ، يعيشون منذ الأزل في منحدرات الجبال التي تحتضنهم كالأم الحنون، يحتمون بها من غضب الطبيعة، ويستمدون منها لون بشرتهم التي تعد بيضاء على العموم، ومن صخورها طبيعة مزاجهم المتمثلة في المتانة ومن شموخ جبالها عزتهم المتمثلة في الحرية، ومن ثم تميزوا عن غيرهم، فكانت طبيعة الأوراس الصائن على وحدة الأصالة للسكان فحافظت على خصائص الأهالي، وقاوم سكان المنطقة امتزاج الأجناس واشتهروا بصد الغزاة مهما كانت قوتهم وهكذا تمكنوا من الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم ولهجتهم ومعتقداتهم.

وإذا كان الإنسان ابن بيئته، فإن من أهم سمات الشاوية الشجاعة والمهابة التي تسيطر على اغلب تصرفاتهم وهذا راجع لطبيعة أرضهم التي ساهمت عبر تاريخهم العريق في بلورة سلوكهم ومعتقداتهم التي لم تنصهر إلا للإسلام لاحتضانهم له دينا ومعتقدا وسلوكا وكل ذلك لحبهم العظيم لهذا الدين الحنيف ، إنها سمات اكتسبها الشاوي حقا من بيئته على مر العصور التاريخية، وفوق ذلك كله يتمتع سكان ولاية باتنة والأوراس ككل بصفة الكرم والحياء الذي هو من الإيمان الصادق وهذه صفات تجعلهم محبوبين عند السياح وهذا ما يشجع التخطيط للسياحة الاجتماعية التي تهدف إلى التعرف على لغة وعادات وتقاليد المجتمع.

مستوى الدخل:

يعد مستوى الدخل أحد أهم العوامل البشرية المؤثرة في صناعة السياحة، لتأثيره المباشر في تحديد مستوى الطلب السياحي؛ إذ يعني ارتفاع مستوى الدخل تزايد الإقبال على السفر والسياحة ، وخاصة خلال الإجازات والعطل سعيا وراء الراحة والتنزه والتسلية إلى جانب دفع ثمن الخدمات التي تقدم للسياح، مما يدعو إلى القول بأن النشاط السياحي هو إمكانية تتاح للميسورين دون غيرهم في معظم الأحوال.

في هذا الصدد يمكن قياس مستوى الدخل الفردي في ولاية باتنة بمستوى الدخل للمواطن الجزائري، حيث أكد تقرير اقتصادي صدر عن معهد الإحصاءات التابع للبنك الدولي، أن معدل الدخل السنوي للمواطن الجزائري في سنة 2012 م يقدر بـ 4400 دولار أي ما يعادل 29670 دينار جزائري في الشهر، وترتب الجزائر ضمن شريحة الدول العربية، ذات الدخل الفردي السنوي المتوسط الذي يتراوح من 3,1 إلى 5,1 ألف دولار سنويا (م. مجيب، 2010).

وانتماء الجزائر إلى العالم النامي له عدة أبعاد في السياحة، أهمها أن هذا النشاط يعد من الأنشطة الاقتصادية التي توليها الدولة اهتماما خاصا، أو بعبارة أخرى تسعى إلى استغلال إمكانات الجذب السياحي في مختلف مناطقها، حيث قامت مديرية السياحة لولاية باتنة بإعداد دراسات لتهيئة ستة مناطق توسع سياحي، وهوما سيوسع قاعدة السياحة وحجم الحركة السياحية بولاية باتنة ، ويتمثل البعد الثاني في التجربة التي خاضتها في السنوات الأخيرة ، إذ هيأت عدة منتزهات للتسلية (parcs de loisir) ووضع أصحابها مبالغ معقولة للدخول إليها من طرف المتنزهين حيث يبلغ ثمن تذكرة الدخول 400 د.ج ، وهذا ما يعني تيسير السياحة لأصحاب الدخل المتوسط، لكن هذا لا يعني بأن ولاية

باتنة تتوفر على كل اليسيرات في الأسعار، بل تعتبر أسعار الفنادق مرتفعة نوعا ما إذ يقدر مبلغ المبيت لليلة في فندق شيليا نحو 5000 د.ج.

وفوق ذلك كله فإن متوسط دخل الفرد في ولاية باتنة قياسا بمتوسط الدخل الفردي للمواطن الجزائري يعتبر قليلا للقيام بزيارة بعض المناطق السياحية في ولاية باتنة وتغطية مصاريف الأكل والنقل والمبيت معا.

العادات والتقاليد:

لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية مجموعة من الخصائص والمميزات الاجتماعية والنفسية والتاريخية التي تعبر عن كيان ينصهر فيه جميع أفراد المجتمع، فسكان ولاية باتنة يتميزون بتراث ثقافي له خصوصيات تشكل هويتهم الذاتية و يسعون جاهدين للمحافظة عليها وصيانتها من الاندثار، رغم تغيير نمط الحياة والضفر بالحضارات الحديثة، ومن بين عادات وتقاليد سكان ولاية باتنة والتي لا تزال قائمة ما يلي:

الطبخ التقليدي:

إن الزائر لولاية باتنة، خصوصا في مناطقها الريفية قد يغريه الطبق التقليدي، وليس من أجل الأكل فحسب بل لمعرفة طرق تحضيره والأواني المستعملة في ذلك، فالمطبخ في ولاية باتنة بسيط في مكوناته الأساسية حيث يعتمد على الحبوب بخاصة الشعير والقمح والمصادر الحيوانية كاللحوم وحليب البقر والغنم والماعز، و أيضا السمن وزيت الزيتون وحتى العسل ذو الجودة والنكهة المميزتين، بسبب مصدره الجبلي والعشبي، أما المأكولات التي يمتاز بها سكان الأوراس في الطبخ الأوراسي فهي متنوعة، وتختلف من قرية إلى أخرى و من أشهاها: الكسكس (البربوشة) بلحم القديد، والعصيدة بالسمن (ثاحريرث)، والرفيس وزيراوي بسمن الغنم وتشهيره بالعسل وكذا المسمن، كل هذه الأنواع متواجدة لدى سكان ولاية باتنة والأوراس ككل.

الاحتفال براس السنة الأمازيغية :

من عادات وتقاليد سكان ولاية باتنة الاحتفال برأس السنة الأمازيغية وذلك بحلول يناير الموافق لـ 14 جانفي من كل عام، حيث تنهمك العائلات وعلى مدى ثلاثة أيام متتالية في استحضار عادات المناسبة المميزة تعبيرا عن تمسكها بتراثها المادي والروحي الأمازيغي على مر التاريخ، وتشكل المناسبة فرصة الاستقطاب السياحي لما تنطوي عليه روح التضامن الوطني من رمزيات وإبراز البعد الوطني في هذه المناسبة، وتقول الروايات التاريخية إن المناسبة تعود لانتصار الملك الأمازيغي ششناق على الفراعنة في معركة وقعت على ضفاف النيل سنة 950 قبل الميلاد.

فالاحتفالات بهذه المناسبة التي تعرف بالشاوية (أمنزو أنينار) ، أي الأيام الأولى من الشهر تمثل عادات ترمز للتضامن، ومن ضمن التقاليد التي تعرف بالمنطقة تحضير أكلات وأطباق خاصة، فضلا عن إقامة حفلات تعكس تراث المنطقة، وعرض التحف الحرفية التي تعكس حضارة المنطقة، خاصة الأواني الفخارية، وإجراء مباريات رياضية بين الشباب كانت تعرف بلعبة القوس.

حيث لا زالت العائلات في المناطق الريفية تحتفل بهذا العيد و لمدة ثلاثة أيام كاملة وهي أيام 14،15،16 جانفي، وكل ذلك بعادات وتقاليد لم تتمكن التغيرات العصرية الحاصلة في وقتنا الحالي، من هواتف نقالة وشبكة انترنيت، والهوائيات المقعرة من محوها من أذهان سكان الأوراس، لأنهم يعتبرون التشبث بالهوية الأمازيغية وتذكر بطولات وأمجاد عظيمة، قام بها الأجداد السابقون من شيشناق إلى يوغورطا، ثم

ماسينيسا، يوبا الأول ويوبا الثاني، و الكاهنة (الديهيا) وأبطال آخرون وصولا إلى مصطفى بن بولعيد ومليون ونصف المليون من الشهداء.

الاحتفال بعيد الربيع:

تقوم عائلات المناطق الريفية لولاية باتنة في 16 فيفري من كل سنة أمازيغية الموافق لليوم الأول من شهر مارس للسنة الميلادية، بالاحتفال بعيد الربيع المعروف بـ»ثافسوث»أو ثافسويث كما تسمى في بعض مناطق الولاية، ففي بلدية منعة مثلا تشرف جمعية «تاسريفث» على إحياء هذه المناسبة والتي تبرمج لهذا الغرض نشاطات متنوعة تقوم أساسا على إبراز عادات وتقاليد سكان الأوراس، حيث تقوم العائلات بتحضير مستلزمات المناسبة والمتمثلة في إعداد العصي المعقوفة والمصنوعة من شجرة البلوط والتي تستخدم للتحكم في الكرة المصنوعة من نفس الشجر عند الرجال ومن ضفائر الحلفاء عند النساء، وكل ذلك من أجل المشاركة في المهرجان الرياضي الذي يتم بالحقول والتجمعات السكنية، والذي يعرف مشاركة كبيرة للنساء. يطلق على هذه اللعبة إسم (ثاپورث) أو ثاكورث عند البعض وهذا حسب نطق الشاوية لحرف الكاف ومعناه الكرة . ويردد لاعبي هذه الكرة عبارات تدل على شهامة الرجل أو المرأة وأخرى يعتقدون بأنها تزيدهم قوة ومناعة لمجابهة ظروف الحياة الصعبة.

الى جانب هذا تلجأ بعض النسوة الى الغابة من أجل اقتلاع فسائل العرعار ليتم طحنه، وهي العملية التي تتم في جو يسوده الغناء والزغاريد وكلها تدخل في إطار إحياء التراث الأوراسي.

وعلى العموم، فإن إحياء مثل هذه الأعياد، تشجع على قيام السياحة الاجتماعية والثقافية أيضا.

الأعراس في ولاية باتنة:

في الحقيقة لم يبق من عادات الأعراس في ولاية باتنة إلا الغناء التقليدي المعروف بالرحابة، حيث يتبين للزائر خلال فصل الصيف وفي جل مناطق الولاية، أن عادات الأعراس المألوفة سابقا قد تغيرت كثيرا في السنوات الأخيرة، فبعد أن كانت التقاليد سمة بارزة وشرطا ضروريا لابد من تواجده، أصبح الإعتماد على البصمة التقليدية في الأعراس شرطا ثانويا وأحيانا كثيرة غير مرغوب فيه.

ويظهر ذلك جليا وبوضوح بدءا بمراسيم الحفل، مرورا بالشروط الكثيرة التي ترهق كاهل عائلتي العريسين، وصولا بالأطباق العصرية والحلويات المختلفة التي غزت موائد الأعراس، وانتهاء بمكان إجراء العرس، فبعد أن كان منزل العريس والعروس على حد سواء يعيش أجواء من الفرحة والبهجة أثناء حفل الزواج، أصبحت تلك الأخيرة حزينة وبائسة بعد أن هجرها أهلها مخيرين، واستبدلوها بأماكن أكثر رفاهية وإغراء، والمتمثلة في قاعات الأفراح وما أكثرها هذه السنوات الأخيرة بولاية باتنة وفي كل القطر الجزائري.

هذه القاعات غيّرت من طريقة إحياء حفلات الزواج و الختان، التي كانت حفلاتهما تقام بالمنازل، أين كان عبقها وشهرتها معروفة على المستوى الوطني، بل وأصبح المغتربون من سكان الأوراس الكبير يستغلون عطلهم للعودة إلى أرض الوطن لحضور تلك الأعراس، حتى نرى الأجانب الذين يصحبونهم لقضاء العطلة الصيفية في الأوراس يتفاعلون مع أجواء العرس، والتي تكون فيها الشخشوخة والبارود والخيالة والحنة جوهر العرس وملتقى الأحباب والخلان.

لكن مؤخرا نلاحظ قصورا في إحياء هذا التراث اللامادي، مما سيضعف من حركة السياحة في ولاية باتنة ، حيث أصبح في السنوات الأخيرة التأثر بما هو حاصل خارج الجزائر، مما جعل من الداعين إلى إقامة أعراس على طريقة المسلسلات المكسيكية والتركية، واقعا قلب كفة الموازين لصالح هؤلاء، فأصبح الآباء

يرضخون لطلبات الأبناء ''العرسان'' بإقامة أعراس في قاعات لا يستغرق بقاؤهم بها أكثر من 10 ساعات لا غير ومبلغ يفوق 100 ألف دينار جزائري ، ما يعادل مليون سنتيم للساعة وأحيانا أكثر.

الفلكلور الأوراسي:

ترتبط الأفراح في ولاية باتنة بالأغنية الشاوية، التي تنوعت بتنوع عادات وتقاليد أهاليها فهي تجمع بين الأغنية الثورية و الدينية، و تستهل كلماتها دائما بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أنها تؤدى جماعة أو فرادى.

فالغناء الأصيل بالنسبة للإنسان الشاوي كان دائما وسيلة تعبير عن الذات والتمسك بالأمل للتغلب على الألم الذي كان يعيشه جراء صعوبة تضاريس الأوراس ومواجهته الدائمة لأنواع الغزو. لذا بقي هذا النوع خالدا في ذاكرة الجيل الجديد الذي يرتاده في المناسبات إلى وقتنا هذا، وهذه المناسبات تتحول بدورها إلى لقاءات حميمية بين أفراد القرية والقبيلة في مظاهر فرحة عامة، تعبر عن ترابط المجتمع وصلابته.

هذا ما يشجع على نجاح السياحة الثقافية في منطقة الدراسة، لذا يجب التأكيد على استدامة التراث الحضاري لضمان استمرار الطلب السياحي، خاصة وأنه ظهر في الآونة الأخيرة عدة فنانين من ولاية باتنة والذين ساهموا في إعداد موسوعة فولكلورية أوراسية متميزة، بهدف حفظ وعرض مظاهر التراث الحضاري، من خلال وسائل التكنولوجيا الحديثة و بما يتناسب و نمط الحياة المعاصرة.

الصناعات التقليدية:

اصبح واضحا أنه إذا كان هناك قطاع يرتبط مصيره ارتباطا وثيقا بمصير السياحة، فهو قطاع الحرف التقليدية، ذلك أن الزائر ، ايا كان نوع السياحة التي يمارسها، قلما يغادر المنطقة المقصودة دون أن يحمل معه تذكارا من الصنع المحلي. وهذا ما لاحظناه عند زيارتنا لمدينة تيمقاد او شرفات غوفي أين نجد أدوات تقليدية متنوعة من حيث الشكل واللون، وذلك نظرا لتوفر المواد الأولية من صوف، طين وخشب ومن أهم هذه الصناعات ما يلي:

الزربية:

تتميز هذه الزربية بعراقتها إذ ارتبطت بالمنطقة منذ سنين طويلة، كما تزينها أشكال وألوان متنوعة ترمزإلى معان أو قيم سائدة ، حيث يلاحظ السائح فيها رموزا بربرية كالخلالة التي تستعملها المرأة الأوراسية في لباسها التقليدي، ورسومات للطيور التي تعيش في غابات الأوراس والخيل التي تعبر عن الأصالة الأمازيغية، كما هوالحال بزربية أريس، فم الطوب. أيضا نلاحظ رسومات في أنواع أخرى تعبر عن الفروسية ورسومات أبطال الثورة التحريرية وحمل البندقية، كما هو الحال بزربية بريكة، أما عن الألوان المستعملة فتمتزج بين الأحمر والأصفر والأخضر والأسود، التي تعبر عن الحرية ودم الشهداء والحزن عليهم والسعادة بالاستقلال في آن واحد، أي أن اختيار الأولوان في نسج زربية الأوراس ليس وليد صدفة، فرغم القيمة التراثية للزربية التقليدية الأوراسية والذي لايخلو بيت أوراسي قديما من هذه الصناعة، إلا أن صناعة الزربية الشاوية تبقى مهددة بالزوال في والوقت الحالي، مما سيحير قطاع السياحة بالمنطقة بسبب تراجع اهتمام شباب اليوم عن تعلم فن الصناعات التقليدية.

اللباس التقليدي:

لا يزال التعلق باللباس التقليدي في جل مناطق ولاية باتنة حاضرا، حيث يتوحد سكان منطقة الأوراس في اللباس خصوصا بالنسبة لزي الرجال والنساء المتقدمين

في السن و ذلك بخلاف الشباب الذين يتبعون في غالب الأحيان ما تجود به الأسواق من اللباس العصري، إذ نجد الرجل الأوراسي يرتدي لباسا مميزا يتكون من السروال الحوكي ، القندورة والبرنوس و القشابية، أما المرأة فترتدي الملحفة والغناسة.

لكن الزائر لولاية باتنة في وقتنا الحالي يلاحظ عزوفا كبيرا من قبل الأوراسيين في البستهم التقليدية، التي باتت في خانة الذكريات القديمة موازاة مع موجة التحضر التي مست الغالبية إضافة إلى النزوح الريفي الذي جعل الاهتمام بمثل هذه النشاطات التقليدية مقترنا بعدد قليل من الأسر التي تسعى إلى الاحتفاظ بهذا الموروث من الضياع والاندثار، وحسب الكثير ممن استجوبناهم من شباب وكبار السن، تبين بأن عامل الموضة كان له أثر كبير في تراجع المواطنين عن الإقبال سواء في ممارسة هذا النشاط أو اقتناء السلع المنتجة في هذا الإطار خصوصا بعد غزو الأسواق بمختلف السلع والمفروشات المحلية والمستوردة من الخارج بأقل الأثمان ما جعل الكثير يفضل اقتناءها مباشرة بدل أن يكلف عناء الجهد والأتعاب في سبيل تحقيق الغرض المنشود مؤكدين بأن تحسن المدخول اليومي له أثر آخر في هذا العزوف مقارنة بالسابق أين كان مصدر معيشتهم مستمدا من النشاط الفلاحي وتربية الأغنام والمواشي إضافة إلى ممارسة العديد من المهن الحرة والحرف التقليدية، وأكد البعض بأن غياب الحركة السياحية في منطقة الدراسة، جعل المجتمع الباتني لا يهتم بالماضي ولا يعرف قيمة التراث الثقافي سواء المادي أو غير المادي.

صناعة الحلي الفضية والذهبية:

تشتهر ولاية باتنة بصناعة الحلي الفضية والذهبية، التي تستمد أصالتها من أصالة الأوراس، وهي تنتشر بصفة كبيرة لدى حرفي المنطقة خاصة لكونها من لوازم زينة المرأة الشاوية في كل المناسبات وفي حياتها اليومية، تحمل هذه الحلي أحلى نقوش وتزينات ذات إيحاءات متنوعة ومن بينها: الجبين، الخلخال، الخلالة، المقياس، البلطة، القلادة والخواتم...

وتضم بلدية وادي الطاقة التي تقع شرق مدينة باتنة وحدها أكثر من 500 ورشة للصياغة، تشغل كلها شباب المنطقة الذين منهم من يفضل، بعد سنوات من اكتساب المهنة، التوجه لمختلف ولايات الوطن، لفتح ورشات مصغرة لهم، في ولايات وهران ومعسكر وتيارت، ما ولد بمرور عشرات السنين شبكة عنكبوتية لتجار صغار وكبار ينحدرون كلهم من هذه الولاية، ومن قبائل جبلية كانت كلها تعيش في بلديات آريس وبوزينة ووادي الطاقة، والنوادر.

تنوع البيئات المحلية:

تنوع البيئات المحلية في ولاية باتنة، ونعني بها البيئات البشرية التي تعكسها أنماط الحياة الاجتماعية التي تتمثل في البيئة الحضرية، والبيئة الريفية، وتجمع الأولى خليطا من السكان خاصة في المدن الكبيرة مثل باتنة ، تازولت وعين التوتة والتي تجمع جل عشائر الشاوية ولكل مجموعة تقاليدها وعاداتها الخاصة، نذكر هنا بأن مجموع العشائر الشاوية والتي تتوزع على تراب الولاية يتجاوز عددها 15 عرشا كبيرة وهي عرش أولاد سلطان، أولاد علي بن صابور، أولاد سيدي يحي، أولاد شليح، أولاد سي سليمان، أولاد عبدي، أولاد داود، أولاد سلام، أولاد ملول، أولاد سيدي علي، أولاد بوسليمان والغواسير، السراحنة والشرفة، هذا بالإضافة إلى عرش أولاد دراج الذي يقطن تراب البلديات المحاذية لمنطقة الحضنة وهو عرش عربي كبير.

على هذا تعتبر منطقة الدراسة مجمع العديد من العروش وهو ما ساعد على تشكيل مخزون تراثي وحضاري فسيفسائي فيه الكثير من التنوع والثراء وقد

تناقلت الأجيال المتعاقبة العديد من عادات وتقاليد هذه المجموعات البشرية على غرار الحرف التقليدية وعادات الملبس والأكل والبناء وسلوكيات ثقافية أخرى لا تزال إلى اليوم حاضرة بخصوصياتها ورونقها، وبالتالي نقول بأن السياحة الاجتماعية سيكون لها مدلول واسع على مستوى تراب الولاية، وهذا في ضل مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية ويقوم بأعمال متعددة ، ويسلك سلوكا مميزا في الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة.

كما يتسم المجتمع الريفي في ولاية باتنة ببساطة الحياة لديه متعايشا مع الجمال الطبيعي الذي أكسبه وداعة ريفية في جل مناطقه السهلية والجبلية، وكلها عوامل تساعد على الجذب السياحي، خاصة بالنسبة لمحبي سياحة المخيمات والسياحة الريفية والاجتماعية.

اللغة:

إن الزائر لولاية باتنة، يجد عائلات بأكملها ذات أصول أمازيغية وهي فخورة بذلك و هناك العجب عندما يجد السائح الكثير من العائلات الشاوية التي تعربت كلية خصوصا تلك التي تقطن في مدينة باتنة و لكنها لا تنكر أصلها الأمازيغي بل يجد من يحاول أن يجدد العهد مع لغتهم الأصلية، خصوصا و أن ولاية باتنة غنية باللهجات المحلية، حتى أن القادم إليها يمكنه أن يتعرف على عدة لهجات وهذا حسب كل عرش يقطن في الولاية، هذا وأن للسياحة الاجتماعية التي تحبذ الاطلاع على لغة الشعوب، يمكن أن تجذب سياحا كثيرة ، يمكن لهم فهم بعض الكلمات التي تخدمه في أية لهجة يستمع إليها. فسكان ولاية باتنة نجدهم متشبعون بالثقافة العربية والفرنسية أيضا ، حيث يستخدمون العديد من الكلمات العربية وخلطها في الشاوية خصوصا ما يتعلق بالعبادات و الدين وبعض المعاملات اليومية مثل القول «صباح الخير ،واش راك» في سياق كلام بالشاوية و كذا في المعاملات التجارية نجد منها «الشاري يربح» و هو تعبير عربي يستعمله الشاوية للدلالة على رفض الثمن المقترح في البيع والشراء مثلا، و في المعاملات العائلية مثل «جيناكم بالحسب و النسب» و هو القول الذي تفتتح به الخِطبة بين العائلات الأوراسية التي تتزاوج فيما بينها عربا و أمازيغ، يستعمله الشاوية رغم أنه بلسان عربي و نجده مفهوم و معروف و متداول بينهم. وبذلك يمكن لولاية باتنة تطوير شكل جديد من السياحة وهي السياحة اللغوية والثقافية لجذب آلاف الأجانب من دول مختلفة، ليس بالضرورة للتمتع بالطبيعة الأوراسية، وإنما لتعلم اللغة الأمازيغية من خلال الفلكلور والمهرجانات الثقافية الأخرى إما في إطار مهام دراسة اجتماعية أو بدافع شغف شخصي بعوالم الثقافة الأوراسية و أهداف رسمية، سياسية ودبلوماسية، وبالتالي يمكن فتح مراكز عدة لتعليم الأمازيغية بلهجاتها المحلية في وجه السياح الجدد الذين يرون في اللغة مدخلا هاما لتعميق فهمهم لقضايا ومشاكل اجتماعية، خاصة وأن مديرية التربية للولاية أدرجت اللغة الأمازيغية في مدارسها الابتدائية، بيد ان الإقبال عليها محدود.

وبخصوص السفر وتعريف لغة قوم، فإنه يمكن تحسين الصداقة وإرسائها وهذا في إطار السياحة الثقافية والاجتماعية يجسدهما توافد الأجانب أو سياح من داخل البلاد سواء كانوا لا يعرفون الأمازيغية أو يتكلمون لهجة أخرى مثل القبائلية و المزايبة والترقية، وهذا لتبادل الثقافات والتعرف على عادات الشاوية وأعرافهم الأصلية، لأنه ليس بالضرورة زيارة ولاية باتنة للتمتع بطبيعتها ومناخها، وإنما لتعلم لغة قومها .ولهذا يمكن أن تفتح مراكز ومدارس لتعليم الأمازيغية وحتى اللهجات المحلية التي تختلف في بعض الكلمات من منطقة إلى أخرى .

إن التفاعل والتناغم اللغوي بين العربية والأمازيغية يتضح بجلاء في منطقة الأوراس، فبعض

الأمازيغ تعربوا، وبعض العرب «تمزغوا»، إذ لا تكاد تفرق بين هذه الطائفة و الطائفة الأخرى إذا اعتمدت على اللسان خصوصا مع غياب الألقاب الأمازيغية، حيث وجد الباحث عائلات بأكملها ذات أصول عربية وهي من أولاد زيان و لكنها تتحدث الشاوية و هي فخورة بذلك و هنا العجب في حين أنه يبدو عاديا عندما وجدنا الكثير من العائلات الشاوية التي تعربت كلية خصوصا تلك التي تقطن في المدن و لكنها لا تنكر أصلها الأمازيغي كما في بلدية نقاوس على سبيل المثال لا الحصر. بل وجدنا من يحاول أن يجدد العهد مع تعدد اللغات خصوصا و أن الشارع الأوراسي غني باللهجات المحلية، حتى أن القادم إلى الأوراس يمكنه أن يتكلم باللغة العربية أو الأمازيغية أو حتى الفرنسية و لا يجد حرجا، و على الأقل يمكن للزائر أن يفهم بعض الكلمات التي تخدمه في أية لهجة يستمع إليها، فالأوراسي نجده متشبع بالثقافة العربية والفرنسية إضافة إلى الثقافة الإنجليزية.

وهنا نشير إلى نقطة مهمة جدا في هذا الجانب، وهي أن الإنسان الشاوي في ذهن كثير من الغرباء شخص متعصب، عنصري، وأنه لا يستقبل من لا يتكلم الشاوية، غير أن هذه الصورة لا تلبث أن تتبدد في سياق تفاعلهم مع شرائح المجتمع التي يكتشفون أنها لا تختلف عنهم في شيء، فهم أفراد مرحبون يعيشون زمانهم، لهم أحلامهم ومشاكلهم وتطلعهم إلى الأفضل، وهذا ما يجعل من التلاقح اللغوي جسرا استراتيجيا بين الحضارات.

الطب التقليدي:

يصور الطب التقليدي كعنصر هام من عناصر التراث الشعبي جانبا أساسيا تتحدد في ضوئه العادات والتقاليد والمعتقدات والممارسات وأساليب التفكير والخبرات المتوارثة عن الحياة والبيئة، فيكشف للسياح عن عمق الثقافة والتجربة المجتمعية بالنسبة للمستطلعين و العلاج بالنسبة للمرضى .

وسكان منطقة الدراسة جميعهم سواء تعلق الأمر بالبدو أو الحضر، الشاوية أو العرب مازالوا يعالجون بعض الأمراض و الإصابات باللجوء إلى الراقي، الطالب، الخوني، العزام ... لذلك نجد الحضرة و الزردة كاحتفال يستهدف العلاج عن طريق طرد الأرواح أو استرضائها و ذلك بإجراءات طقوسية خاصة تشتمل على تقديم القرابين وأداء بعض الرقصات سريعة الإيقاع على أنغام الزرنة و البندير تمارس في العديد من مناطق الأوراس، كما أن المعارف و المعتقدات التي يؤمن بها سكان منطقة الأوراس كالاعتقاد في أفعال و أشياء تجلب الحظ و أخرى ممنوعة أو مكروهة، و الاعتقاد بالعين و الإيمان بالأعمال السحرية، و الاعتقاد بالأحجبة لقضاء الحوائج و الشفاء و منع الأذى، و التبخير و زيارة القبور و بناء الأضرحة للأولياء، و الإيمان بالنذر، وكذا بوجود كائنات كالجن والعفاريت و الملائكة و أرواح الموتى، كلها تعتبر قاسم مشترك بين السكان، وليس هذا في الأوراس فقط ولكن في الجزائر ككل.

و عليه يمكننا القول بأن السياحة الاجتماعية سيكون لها شأن كبير بفضل تنوع ثقافة المجتمع الأوراسي و سكانه الناطقين بالشاوية أو العربية ، حيث اتضح أنها فعلا ثقافة متعددة المكونات و مشتركة بين سكان منطقة الأوراس إذ لا يمكن أن تفرق بين ثقافة العربي و الأمازيغي فالكل يمارس نفس الطقوس و يعتقد نفس المعتقدات و يقوم بنفس النشاط و يتكلم نفس اللغة.

خلاصة وتوصيات

تمتلك ولاية باتنة تراثا بشريا و ثقافيا متنوعا يمكن من خلاله تحقيق الاستدامة السياحية وذلك بتوفير احتياجات السائح من الخدمات، وتحقيق الاستدامة الاقتصادية للسكان بتوفير فرص عمل وتحقيق عائد

وأرباح من المشروع السياحي تعود فوائده على المجتمع المحلي، ويتم تحقيق استدامة سياحية مع أخذ بعين الاعتبار الدراسة السكانية كأساس في التخطيط السياحي محليا لتلبية حاجياتهم من هذا النشاط المهم لجميع فئات المجتمع لتحقيق الاستدامة الاجتماعية و الثقافية عن طريق إشراك المواطنين في عملية التنمية السياحية وحماية الثقافة المحلية، حيث لا توجد تنمية وحفاظ بمعزل عن السكان المحليين ، بشرط أن يكون الحفاظ أمين على تقاليد المجتمع و أن يقيم المنتجات بطريقة معقولة لتطوير السياحة الثقافية ، وهناك العادات والتقاليد الشعبية، القيم والقصص القديمة، والفنون الشعبية، إضافة إلى منتجات متنوعة للصناعة التقليدية، مثل صناعة الزرابي التي تشتهر بها كل البلديات، وصناعة الذهب التي تعرف بها الناحية الشرقية للولاية، خاصة بلديات وادي الطاقة، بوزينة وبلدية شير.

إن هذا الرصيد من الإمكانيات التاريخية والحضارية لولاية باتنة ذو أهمية بالغة، مما يجب المحافظة عليه واستغلاله وتثمينه، للنهوض وتطوير الأنماط السياحية المرتبطة بهذا المنتج السياحي، وجعله قادرا على المنافسة في سو ق السياحة الداخلية ورفع حصتها من السياحة الدولية.

المراجع:

1. إلياس شاهد و عبد النعيم دفرور، 2017، السياحة كمقوم للتنويع الاقتصادي في الجزائر في ظل تذبذبات أسعار النفط، مقال منشور في المجلة الجزائرية للتنمية الاقتصادية – عدد 06 جوان /2017 ، ص 114

2. تقرير الوكالة الوطنية للتنمية والاستثمار سنة 2013، ص 13

3. شريفة بنت هيازع عبد الله البارقي، 2011، السلوكيات الترويحية للسياح القادمين من منطقة عسير إلى محافظة جدة، ماجستير في الجغرافيا، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، ص 134

4. فتحي محمد أبو عيانة، 1993، جغرافية السكان، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ص 32

5. م.مجيب. – معدل الدخل السنوي للمواطن الجزائري ،نشر في صحيفة الجزائر نيوزيوم 12 – 09 – 2010

6. ماهر عبد الخالق السيسي،2006، مبادئ السياحة، مجموعة النيل العربية مصر، ص 31

7. محمد خميس الزوكة، 1991، التخطيط الإقليمي وأبعاده الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ص 220

8. محيا زيتون، 2002، السياحة ومستقبل مصر، بين إمكانات التنمية ومخاطر الهدر، مكتبة مصر، ص 11

9. مسعودان بشير، 2009، ولاية باتنة، دراسة في جغرافية السكان، أطروحة الدكتوراه، جامعة باتنة، ص 152

10. زينب توفيق السيد عليوة،2014 ، تقييم أثر النشاط السياحي في النمو الاقتصادي في مصر، مقال منشور في مجلة بحوث اقتصادية عربية، العدد.

إستراتيجية تهيئة المجال الحضري بالجزائر: الأسس والرهانات

د. بن قداح وسيلة
أستاذة محاضرة، قسم ب
المدرسة العليا للأساتذة –
بوزريعة-

Résumé :

Le Sujet développé consacré à la ville Algérienne s'inscrive dans le cheminement des idées élaborées et publiées, depuis une douzaine d'années.

Dans ce champ fécond de la recherche, il nous apparait utile de faire régulièrement le point sur l'évolution des tendances récentes des études urbaines. Au-delà de l'accumulation des connaissances, il s'agit surtout d'apporter une vue critique de la vie urbaine car tout aménagement, par essence de nature politique, ne se justifie que par l'existence de problèmes concrets qu'il faudrait résoudre et dont l'objectif vise naturellement à améliorer le cadre de vie des habitants.

Comme vous savez notre pays a connu plusieurs plans d'aménagements depuis l'époque coloniale sans oublier la période de l'indépendance jusqu'à présent, qui illustrent les opérations essentielles de l'aménagement qui visent à organiser le tissu urbain, assurant l'exploitation rationnelle des différentes composantes. Mais malheureusement ces études connaissent des ruptures en matière de leurs contenus soit de l'opération de préparation. A partir de là, nous pouvons problématiser notre champ de travail : Quelles sont les différentes études d'aménagement de l'espace urbain, et quelles sont les obstacles confrontées et quelle est l'influence qu'elles ont sur l'espace géographique et son environnement ?

En fait cette situation a aggravée la dégradation de l'espace urbain. Ceci nous a conduit à trouver les solutions adéquates basées sur une stratégie efficace de l'aménagement du territoire selon les principes de développement durable.

Mots-clés : Plans d'aménagement, l'espace urbain, Développement Durable, environnement Cadre de vie,…

مقدمة:

تعد المدينة مثالا نموذجيا عن موضوع متشعب الجوانب، وقد سبق وأن درست من عدة زوايا، وقد تطرق الدارسون إلى مسائل شائكة متعلقة بنسيجها العمراني، على أن بقائها يتوقف على إستراتيجية فعالة لتهيئة مجالها على الدوام، بتركيز الاهتمام على الوظائف التي يجب على المدينة الاضطلاع بها لتنافس بالتالي كل المدن المجاورة لها سواء الإقليمية منها أوالعالمية وكذا بتنظيم المساحات على أساس المسألة العقارية.

إن الاعتقاد بأن المدينة موضوع سهل المعالجة هو نسبيا خاطئا، في حين أنه في الأصل جد عويص. وبعدما كانت ذات جمال ورمز الحداثة والرقي والحضارة، فإنها فقدت اليوم طابعها لتصبح مصدر كل أنواع الاضطرابات، فبأي عملية سحرية إن صح التعبير تم تحويل هذه المساحات الحضرية بتمركز فيها عدد هائل من المعضلات، والتي باتت موضوع الساعة وتتحدى بالتالي الأطراف الفاعلة والتي من شأنها تنظيم مجالها ومراقبته.

وعليه أردت أن أناقش في هذا الموضوع، التناقض الموجود بين الطابع المتشدد والصارم لسياسة التعمير المنتهجة في الجزائر بكل آلياتها وأدواتها لاسيما بعد الاستقلال من جهة، وبين الطابع المتشتت للنسيج الحضري لمدننا وصعوبة تنميته من جهة أخرى.

1-طبيعة المشكلة

كما هو معروف أن تاريخ مدننا يعود إلى عهود قديمة، حيث كان لكل فترة مميزاتها وتأثيراتها على تخطيط وتسيير وتنظيم الفترة التي تليها، وهذا ما أنتج مدن تتمازج فيها المبادئ والنظريات، لاسيما خلال عهد الاستعمار الفرنسي الذي بدأت معه أولى السياسات التخطيطية التي اعتمدت على مخططات تسير وتخطط نمو هذه المدن وتجعلها مجاورة لنوع جديد من المدن الأوروبية، التي أضافت تنوع إلى المدينة الجزائرية.

ومنذ الاستقلال والجزائر تحاول وضع سياسة عمرانية واضحة لتسيير وتوجيه هذه المدن لذا نجد أنه بقدر ماتنتج الإدارة تصاميم وخطط للتهيئة، بقدر ما يزيد المجال الحضري تشتتا وتدهورا. فالمدينة الجزائرية مثلها مثل باقي المدن العربية أصبحت خليطا من الأشكال العمرانية المتعاكسة (أحياء الفيلات والعمارات، تجزئات يستمر فيها البناء على عقود من الزمن، أراضي شاغرة مجمدة بفعل المضاربة العقارية، مساحات خضراء غير معتنى بها، تشويه المحيط بمختلف النفايات الحضرية، انتشار واسع النطاق للمناطق العشوائية...إلخ.

للإدراك الجيد والفهم الصحيح لأبعاد هذه الإشكالية وتطورها عبر الزمان والمكان، يتعين علينا الرجوع إلى الفاصل الزمني والذي يحدد لنا طبيعة هذه الإستراتيجية قبل وبعد الاستقلال. لاسيما وأن هذا المسار التاريخي أضفى على المدن الجزائرية طابعا خاصا يعكس ويجسد الوضع الاقتصادي والاجتماعي الخاص بكل فترة، ويعطي نظرة على مختلف الفاعلين والوسائل المستعملة في التنظيم المجالي وفعاليتها على هذا الأخير.

كيف يمكن شرح هذه التحديات في الوقت الذي نجد فيه السلطات لديها جميع الأدوات القانونية للقضاء عليها ؟

ألا يوجد العيب في القوانين نفسها؟ ألا تؤدي المبالغة في الطموح والصرامة إلى عدم ملائمة السياسات المتبعة للواقع وتجاوزها ؟

من هم الفاعلون الحقيقيون الذين يعملون على تشتت وتفكك المجال الحضري؟

إن النسيج العمراني قد أصابه العديد من التحولات والتشوهات، فهل ستزداد تفاقما، أم يمكن تداركها؟ هل وصلت السياسات العمرانية الحالية إلى درجة من

النضج تمكنها من حل معضلات المدينة؟ وتجعلها مواكبة للتطور العمراني العالمي وخاصة الأوروبي، والذي يعتبر نموذج يقتدى به ؟

2-هدف البحث ومنهجه

يهدف هذا البحث إلى إبراز مدى أهمية السياسات الحضرية التي انتهجت قبل وبعد الاستقلال في الجزائر ودور كل الأطراف الفاعلة فيها في هيكلة وتنظيم المجال الحضري والتقليل من حدة الاختلالات التي يتخبط فيها هذا الوسط، وتحليل مضمون هذه الاستراتيجيات لاسيما على مستوى عاصمة البلاد، والتي تعتبر مرجع رئيسي يستدل به ومقارنة ذلك ببعض النماذج في الدول العربية كالمغرب وحتى الأوروبية كفرنسا. ونحاول بعد كل ذلك وضع بعض التوصيات المتعلقة بالمجال الحضري، والتي تؤكد بأن رهان التنمية الدائمة والمنسجمة يعد أمرا جوهريا.

ولقد اعتمدت في إنجاز هذا البحث على أسلوب التشخيص والتحليل للإستراتيجية الوطنية لتهيئة المجال الحضري ، حيث استند هذا الأسلوب على المنهج الكمي ، بتوظيف أحدث المعطيات والإحصاءات لاسيما السكانية والدراسات المتصلة بالموضوع ، وهذه المعطيات نجدها قد اقتبست من مصادر عديدة كالدراسات المكتبية والمتمثلة في مختلف الكتب، الأرشيف الوطني، دراسات مختلفة ، نشرات وتقارير خاصة، الجرائد الرسمية، ولاننسى تغطيتنا للجانب الميداني، حيث تم من خلاله الاتصال بالمديريات المعنية مع إجراء لقاءات مع بعض المسؤولين، وحتى استقراء آراء بعض العينات من المجتمع المدني للتأكد من صحة المعلومات.

1-تطور السياسة الحضرية في الجزائر

منذ القدم شهد التراب الوطني عدة تدخلات على المجال، والتي تركت بصماتها أكثر أثناء الحقبة الاستعمارية ومابعد الاستقلال، ترجمت في إستراتيجيات مختلفة شملت المراحل والفترات التالية على حسب تواريخ إصدارها أو حتى الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي لعبت دورا بارزا في بلورتها :

1-1-المرحلة الاستعمارية (1830-1962)

يعتبر الاحتلال مرحلة حاسمة في رسم الحدود المجالية، حيث وضعت مخططات وأعمال كبرى غيرت المجتمع، واعتمدت هذه المخططات على مبادئ الاستعمار والمتمثلة في استغلال الثروات وتوفير الطرق والهياكل لنقل هذه الخيرات المنهوبة إلى فرنسا، ومنه خلق مناطق أكثر تنظيم من باقي الإقليم، ونظرا لطول هذه الحقبة سنحاول اختصارها في الفترتين التاليتين:

1-1-1-فترة الإهمال العمراني والاهتمام بالسيطرة(1830-1958):

لم توضع سياسة تخطيطية واضحة بل كانت محاولات لتهيئة المجال بغرض التقليص من الفوارق الجهوية مع المحافظة على هدف السيطرة على الأراضي [1]* 1، الذي أدى إلى قيام الثورة والتي غيرت طريقة تفكير المستعمر في كل المجالات، هذه المحاولات هي:
*وضع قانون Warnier الذي شجع الملكية الفردية ومنه عمل على تفكيك الوحدة الاجتماعية،

* خلق تجمعات استعمارية في الشمال وخاصة في الساحل بين سنتي 1928 و1948، حيث وصلت نسبة التحضر إلى 14%سنة 1886 إلى غاية 1920، أين زادت نسبة سكان الحضر الجزائريين بسبب النزوح الريفي[2]، مما أدى إلى ظهور أولى الأحياء القصديرية سنة 1930، وبالتالي ظهور أولى محاولات

لتنظيم المجال الحضري وهي وضع مخططات التهيئة

للتوسيع والتجميل[3]. إلى استمرار زيادة السكان الحضر مما أدى إلى ظهور البلديات ذات الصلاحية الكاملة.

1-1-2-فترة التفطن(1958-1962): بعد اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954 حاول الفرنسيون دمج المجتمع الجزائري بالفرنسي فجاءوا بسياسات تخطيطية أهمها مخطط قسنطينة سنة 1958 من طرف الجنرال شارل ديغول [4]، والذي يعتبر مخطط للتهيئة العمرانية للتحسين من مستوى حياة الفرد الجزائري، حيث استمر العمل به حتى بعد الاستقلال، إلا أنه لم ينجح بسبب انعدام الاستقرار السياسي وعدم تقبل المستعمر لفكرة المساواة مع الجزائري وأخيرا الثورة أفشلته وأفشلت بذلك كل الكيان الاستعماري وجاءت بالاستقلال.

1-2-مرحلة الاستقلال

بعد الاستقلال خرجت فرنسا ومعها كل الوثائق والمخططات، وخربت العمران ومختلف المنشآت وحتى الاقتصاد كان مشلولا، مما وضع الدولة في مأزق كبير، وأدى بها إلى وضع سياسة إستراتيجية مستعجلة تلخصت خطوتها العريضة في بداية هذه المرحلة على مبدأ الخروج من التخلف الموروث عن الاستعمار واستغلال ثروات الدولة لصالح التنمية الاقتصادية فقط، ونظرا لتعدد السياسات في هذه المرحلة ، نقدمها حسب الفترات التالية:

1-2-1-فترة الإهمال العمراني والاهتمام بالجانب الاقتصادي(1962-1974):

أهمل الجانب العمراني في هذه الفترة من طرف الدولة بسبب الاهتمام بمعالجة القضايا السياسية، الاجتماعية وخاصة الاقتصادية التي خلفتها الحرب(تأميم المحروقات سنة 1971) [5]، على حساب قضايا التهيئة العمرانية، حيث لم تتوفر سياسة تعمير واضحة واستمر العمل ضمن القوانين الفرنسية الموروثة، والمتمثلة في القانون العام للتعمير رقم 1463/58، المؤرخ في 1958/12/31، والذي طبق في الجزائر سنة 1960 والذي مثل المصدر الأساسي لإستراتيجية التعمير في الجزائر إلى غاية سنة 1973 بسبب ظهور قوانين أخرى [6]، وموازاة مع ذلك أصدرت الدولة :

- قانون البلدية رقم 24/67، المؤرخ في 1967/1/18، والذي منح صلاحيات للجماعات المحلية في ميدان التهيئة والتعمير من تسيير وتخطيط المدن وأشركها في تصميم المخطط الوطني للتنمية [7] الذي برز من خلال مخططات تنمية البلدية **pcd** بهدف محو الفوارق الجهوية. كما خصصت الدولة خلال هذه الفترة استثمارات هامة (39 مدينة كبيرة ضمن مخططات التحديث الحضري **PMU**) .

- مخططات للتنمية والتهيئة مثل مخطط عمران المبادئ **PUP** سنة 1962 الذي يرمي إلى تأطير التنمية العمرانية للبلديات التي يقل عدد سكانها عن 1000نسمة [8]. ولاننسى المخططين الثلاثي (67-69) والرباعي (70-73) [9] ومنه فقد تم إهمال الجانب العمراني في هذه الفترة بسبب الاهتمام بالجوانب الأكثر أهمية وبسبب الاعتماد على ماتركته فرنسا من مخططات ظنا منهم أنها كافية لتخطيط وتسيير المجال، الذي يتطور وينمو باستمرار. أما المحاولات التنموية فلم تنجح لأنها تمثل تخطيط مركزي قصير المدى وقطاعي، وقد أثر الإهمال على تخطيط وتسيير المدن في الفترات الموالية لعدم تمكن الدولة من تداركه، إلا أنه وبالرغم من هذا فإن هذه الفترة كان لها إيجابياتها كتوفير التجهيزات الكبرى والبنى القاعدية وتطوير الصناعة.

1-2-2-فترة الإهمال العمراني والاهتمام بالجانب الاقتصادي(1974-1990): حيث تكفلت الدولة رسميا بمشاكل التخطيط العمراني والتنمية الحضرية ضمن إستراتيجية متكاملة رصدت فيها

استثمارات ضخمة في مخططات التنمية، التي تدخلت الدولة من خلالها مباشرة في تهيئة المدن عبر إجراءات تشريعية وتنظيمية ومالية غابت عنها الانشغالات البيئية نهائيا وتأثرت بالأزمة الاقتصادية نتيجة الانخفاض الحاد لأسعار النفط، تلخصت هذه الإجراءات في :

-وضع أدوات للتخطيط والتهيئة العمرانية سنة 1974، وهي :

♦مخطط التعمير الموجه PUD

لقد تأسس هذا المخطط بهدف تحقيق غايات أساسية مستوحاة من الواقع الذي يتميز بانطلاقة اقتصادية تعتمد على التصنيع، ولقد شمل كل المدن الرئيسية وهو مايفسر اهتمام السلطات المركزية بمحاولة التحكم في التوسع العمراني، ولكنه للأسف نجده كان يسعى إلى القيام بوظيفتين متناقضتين، فهو في آن واحد يعتبر أداة تخطيط عمراني ووسيلة لضبطه وفي حين آخر نجد أن الإمكانيات المتاحة لاتسمح بذلك، علاوة على إغفاله عملية تهيئة التراب الوطني ومسألة إدارة العقار[10].

♦المخطط البلدي للتنمية PCD

هو برنامج على المدى القصير، يحدد تدخلات الهيئات البلدية في إطار المخطط الخماسي الوطني، حيث أن كل البلديات لها مخطط تحديث حضري يجب عليها إعداد مشروع هذا المخطط، الذي تصادق عليه وزارة المخططات وتهيئة الإقليم والبلدية، حيث تكون تدخلاته متوافقة مع توجهات مخطط التعمير الموجه ومع التوجهات المأخوذة بعين الاعتبار عند تحديد محيط التحضر المؤقت، هذه التدخلات تتمثل في صيانة وتحسين الإطار المبني من جهة أخرى.

♦مخطط التحديث الحضري PMU

إن البلديات المدونة في قائمة وزارة المخططات والتهيئة العمرانية يجب عليها إعداد هذا المخطط بدل من المخطط البلدي للتنمية للبلديات الأخرى، حيث يختلف **PMU** عن **PCD** في طبيعة المشاريع المبرمجة من حيث الأهمية، نظرا لاهتمام مخطط التحديث الحضري بالمدن والتجمعات الكبرى.

يعمل **PMU** موازاة مع المخطط الخماسي الوطني، ويستخدم كوسيلة لإنجاز أعمال التهيئة [11].
إلا أن هذه المخططات في الواقع كانت تعاني من النقص في الإطارات الكفوءة ، نقص في وسائل التنفيذ وأجهزة المراقبة.

- تعديل قانون البلدية بالقانون المعدل والمتمم رقم 09/81، الصادر في 1981/7/04: وذلك لتدعيم دور الجماعات المحلية في تهيئة وتخطيط المدن[12]، حيث أصبحت البلدية المسؤولة مباشرة على كل العمليات القانونية والتقنية والمالية المنظمة للمجال الحضري، فقد نصت المادة 156 من هذا القانون « على أن المجلس الشعبي البلدي يضع في إطار المخطط البلدي للتنمية مخططا توجيهيا للعمران **PDU**

وإذا تعذر ذلك تحدد مساحة تعمير مؤقتة **PPU** لكل تجمع حضري بالبلدية، كما وفر هذا القانون الأدوات القانونية التي تسمح للبلدية بإنشاء مقاولات عمومية تقوم بإنجاز أعمال التهيئة ".

وبالرغم من هذا فإن مسعى الدولة نحو اللامركزية لم يتحقق لأن اللامركزية البلدية هي شكل من أشكال اللامركزية البيروقراطية (لأنها خاضعة لسلطة الوصاية من طرف الوالي والمديريات).

- قانون الاحتياطات العقارية رقم 26/74، الصادر في 1974/2/20: والذي بمقتضاه أصبحت البلدية مالكة لمجمل الأراضي الواقعة داخل محيط التعمير[13]، مما أعطى لها الحق في ممارسة الرقابة على أعمال البناء وإلغاء المبادلات الفردية بهدف امتصاص احتياجات هذه الفترة من حيث السكن والتجهيزات التي كانت تعاني من نقص كبير نتيجة النزوح الريفي

والنمو الديمغرافي. لكن من أهم سلبيات هذا القانون أن سعر الأراضي كان يقيم بطريقة رمزية دون اعتبار لقيمتها الاقتصادية الحقيقية.

وهذا مأدى إلى إعادة النظر في هذا القانون من خلال صدور عدة قوانين ، من أهمها نجد قانون رقم 18/83، المؤرخ في 1983/8/13، المتعلق بحق الامتلاك الفردي للعقار وتقليص حق الامتلاك الحصري للدولة [14].

-المناطق السكنية الحضرية الجديدة **ZHUN** المنشور رقم355 المؤرخ في 1975/12/19: التي أنشأت مع انطلاق المخطط الرباعي الثاني، حيث هدفت هذه المناطق الحضرية إلى امتصاص العجز الفادح في السكن من خلال التوجه إلى نمط السكنات الجماعية الجاهزة لرفع طاقة استيعاب المدن الجزائرية في ميدان السكن ، وتم إنشاء هذه التجمعات خلال الفترة الممتدة بين 1975 و1989، والأمثلة كثيرة كحي باب الزوار بالعاصمة، حي الكيفان بتلمسان وحي النصر بسعيدة،...[15].

ولقد تم التخلي على هذا النمط من التعمير بسبب السلبيات التي أضافتها للمدينة الجزائرية من أهمها: تميزها بمحيط عمراني موحد وتدهور حالة مبانيها لانعدام عمليات الصيانة وكذا انعدام الحياة الاجتماعية، فهي إن صح التعبير أحياء مراقد ومركزية لامتصاص تدفق السيل الريفي، إلى جانب تدهور نوعية إطار الحياة لسكانها بسبب انعدام المساحات الخارجية لها. فهذه المناطق كخلاصة القول بعيدة كل البعد عن منظور التنمية المجالية الحقيقية، فهي جاءت مكرسة لمبادئ العمران الوظيفي الذي يهتم بالكمية على حساب النوعية.

-الميثاق الوطني سنة 1986: الذي جاء بأول قانون للتهيئة العمرانية رقم 03/87، المؤرخ في 1987/10/27، والذي حدد آفاق الجزائر إلى غاية 2010، ووضع مخططات جديدة هي: **SNAT** على المستوى الوطني و **SRAT** على المستوى الجهوي و **PAW** على المستوى الولائي[16].

حيث يهدف هذا القانون إلى تحديد بدقة المحاور الكبرى للتهيئة العمرانية وإلى نقل التنمية من الساحل إلى الداخل.

وما ميز هذه الفترة أيضا هو خلق وزارة للتخطيط والتهيئة العمرانية مهمتها وضع خطة وطنية للتهيئة العمرانية وفي 1981 أنشأت المديريات التابعة لها على مستوى كل ولاية[17]. وأثناء هذه الفترة بدأ التفكير الجدي بميدان التهيئة والتخطيط العمراني حيث انتقلت سلطة التخطيط سنة 1986 من الدولة إلى الجهاز الإداري المتمثل في البلدية والولاية. ولكن التخطيط هنا فشل بسبب مداه القصير غير المجالي، إلى جانب عدم وجود إطار قانوني يلزم تطبيقه بسبب عجز ميزانية الدولة آنذاك.

ولكن هذه الفترة كانت لها إيجابياتها وأهمها امتصاص العجز الكمي من حيث التجهيزات والسكن وبالتالي زاد في سرعة تحضر المدن مما جعل تسييرها صعب.

1-2-3-تأثير التحولات الاقتصادية والسياسية على المجال الحضري (1990-2000):

بعد سنة 1989 تعرضت الجزائر إلى مشاكل متعددة، حيث تحولت سياستها إلى التعددية الحزبية واقتصادها إلى اقتصاد السوق والاعتراف بحق الملكية الفردية، مما أدى إلى إعادة النظر في القوانين و التشريعات، لاسيما تلك التي كرسها دستور 89، تتضمن مفاهيم تحدد كيفيات تدخل الدولة والجماعات المحلية والمتعاملين العموميين والخواص في تسيير المدن حيث تم:

- تعديل قانون البلدية بالقانون المعدل والمتمم رقم 08/90، الصادر في 1990/4/07: من أجل

دعم صلاحيات البلدية في ميدان تخطيط وتنظيم المجال الحضري[18] فأعطاها سلطة إنشاء وكالات للتسيير والتنظيم العقاري، كما أنه يمكن لها إعداد دراسات مهمة لمساعدة البلديات في إعداد المخططات العمرانية وتنفيذها بهدف تخفيف البلدية من وصاية الولاية ومكاتب الدراسات الوطنية، كما منح هذا القانون المواطن من حق المراقبة الشعبية بواسطة الجمعيات المهتمة بالبيئة والعمران والتراث.

– صدور قانون التوجيه العقاري رقم 25/90، المؤرخ في 1990/11/18: والذي ألغى قانون الاحتياطات العقارية [19]، حيث يرتكز على احترام حق الملكية الفردية والتعويض العادل عند نزع الملكية في حالة المنفعة العامة وألغى احتكار الدولة في ميدان التبادل العقاري من خلال فتح السوق العقارية لكل المتعاملين، مع بقاء تحكم الدولة في هذه السوق لأنها تهتم بالمصلحة العامة.

– صدور قانون التهيئة والتعمير90-29المؤرخ في الفاتح من ديسمبر 1990 [20]، كأول قانون في تاريخ الجزائر يضم الأحكام الخاصة بتخطيط المدن، حيث جاء بأداتي التهيئة والتعمير وهما المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير ومخطط شغل الأراضي والتي تعمل ضمن توجهات **SNAT** و **SRAT** ، وتهدف إلى تحديد التوجهات الأساسية لتهيئة الأراضي، الاستخدام العقلاني للأراضي على المدى القريب والمتوسط والبعيد وضبط قواعد التعمير. مايميز هذا المخطط عن المخطط العمراني الرئيسي(**PUD**)، هو أن هذا الأخير جاء عن طريق منشور وزاري في ظروف معينة، إلا أن المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير حدد بقانون ومراسيم تنفيذية تضبط محتواه وأهدافه، وهذا يعكس بوضوح الأهمية التي أولتها الدولة لهذا المخطط ومدى تأثيره على مستوى المجال الحضري.

إضافة إلى أهميته القانونية، فإن المخطط التوجيهي يشمل في دراسته كل تراب البلدية بما فيها من تجمعات ثانوية أو مناطق مبعثرة، عكس ماكان يتميز به المخطط العمراني الرئيسي الذي كان يهتم بالمركز فقط أو بالتجمع الرئيسي للبلدية. إضافة إلى شمولية دراسته لنطاق أوسع، فإن المخطط التوجيهي يغطي على العموم بلدية واحدة وفي بعض الحالات عدة بلديات، خاصة إذا كانت بلديات صغيرة أو ريفية

تتميز بعلاقات متشعبة فيما بينها. وبالرغم من دقة هذه الأدوات واهتمامها بكل صغير وكبير في ميدان تسيير المجال الحضري، لوحظ أن الاختلالات مازالت موجودة بل وزادت عمقا بسبب السلبيات التي رافقها ومن أهمها ضعف المهارات التقنية في البلدية، طول فترات الإنجاز مقارنة مع النمو الحضري السريع، مما يجعلها تفقد الكفاءة أمام الأهداف المسطرة، إضافة إلى غياب مبدأ المشاركة رغم أنها تنص عليها، وما يمكن إضافته هنا أن وزارة السكن والتعمير قررت مراجعة 50% من المخططات التوجيهية للتهيئة والتعمير بين سنتي 2007و2009 [21].

هذه السياسة القانونية التي تعتمد على البرمجة وعلى المخططات في تسيير النمو الحضري، والتي بالرغم من حداثتها إلا أنها لم تعالج نقائص التسيير الحضري فقد كانت مسلطة وغير مواكبة للنمو المتسارع للنسيج الحضري كما يبدو لنا.

كل هذا دفع الدولة إلى اتباع سياسة جديدة مصحوبة بمراجعة الأدوات المحلية (**PDAU** ، **POS**) والتي تحاول البحث عن وسائل أنجع لتسيير حضري ودمج كل فاعلي المدينة في إنتاج الفضاء الحضري، وعليه فقد تم تبني:

1-2-4-العمل على دمج مبدأ التنمية المستدامة في السياسات العمرانية (2000-2006):

بما أن المدينة هي المرآة العاكسة للقرارات التي تتخذها الدولة في كل الميادين، فتوجه الجزائر نحو اللامركزية في القرارات بما فيها الخاصة بالمجال الحضري، أدى إلى وضع أدوات جديدة وأطر حديثة للتحكم في تسيير المدينة ويعيد إليها الاعتبار كنظام ديناميكي، وبالرغم من هذا فإن مشاكل المدينة الجزائرية مازالت موجودة وزادت عمقا مما أدى إلى مراجعة السياسات الحضرية محاولة لتطبيق سياسة المدينة والعودة إلى النوعية الحضرية في إطار التنمية المستدامة.

فنظرا إلى التطورات العالمية التي شهدتها الألفية الجديدة في ميدان التنمية المستدامة، كان لابد على الجزائر أن تعمل على دمج هذا المفهوم الجديد بالنسبة إليها في سياساتها العمرانية، وذلك من خلال وضع إطار قانوني يكرس هذا المبدأ، ومن أهم القوانين المؤطرة لهذا الاتجاه الجديد:

– قانون تهيئة الإقليم وتنميته المستدامة رقم 01-20المؤرخ في 12 ديسمبر 2001، والذي يعمل على تأكيد أهداف قانون التهيئة والتعمير في إطار التنمية المستدامة، حيث عمل على تحديد التوجهات المتعلقة بتهيئة الإقليم وذلك من خلال الخروج من الساحل نحو تعمير الداخل لإعادة التوازن إلى المنظومة الحضرية وترقية الوظائف الجهوية، الوطنية والدولية للمدن الكبرى والمساهمة في إنشاء الوحدة الوطنية [22].

كما قام هذا القانون بتحديد أهداف السياسة الوطنية لتهيئة الإقليم وتنميته المستدامة والتي تتلخص في:

*خلق الظروف الملائمة لتنمية الثروة الوطنية والتشغيل،

*العمل على تخفيف الضغوط على الساحل والحواضر والمدن الكبرى من خلال ترقية المناطق الجبلية والهضاب العليا والصحراء،

*تثمين الموارد الطبيعية والتراثية والثقافية وحفظها للأجيال القادمة.

ومن إيجابياته أنه وضع في إطار مؤسساتي(المجلس الوطني لتهيئة الإقليم وتنميته المستدامة) وعملي (6 مخططات مختلفة المقاييس، المخطط التوجيهي لتهيئة السواحل، المخطط التوجيهي لحماية ومكافحة التصحر، المخططات الجهوية لتهيئة الإقليم، مخططات تهيئة الإقليم الولائي، المخططات التوجيهية لتهيئة فضاءات الحواضر الكبرى، بالإضافة إلى 14 مخطط توجيهي قطاعي) [23].

خريطة توضح خلق حركيات التوازن المجالية

المصدر:: Projet schéma national d'aménagement du territoire,Algérie 177

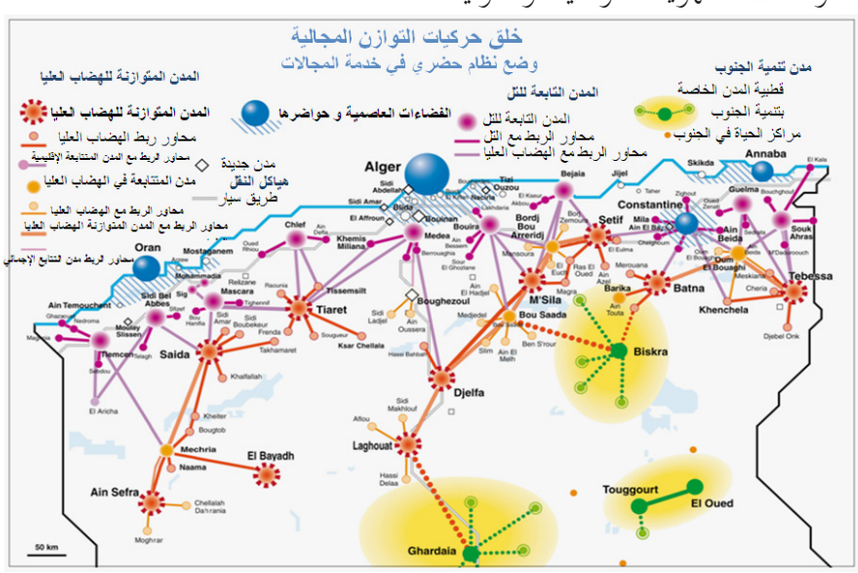

2025:Tome 2,MATE,Février 2007,P

ولقد أكدت الدولة مجددا في هذه الفترة توجهها الجديد في ميدان العمران وتسيير المدن بإنشائها لوزارة منتدبة مكلفة بالمدينة ووضع قانون خاص بالمدينة.

– القانون التوجيهي للمدينة رقم 06-06المؤرخ في 20 فيفري2006 [24]: يندرج هذا القانون في سياق استكمال المنظومة التشريعية المتعلقة بتهيئة الإقليم والتنمية المستدامة وحماية الفضاءات الحساسة وتثمينها وترقيتها، حيث يهدف إلى التعريف بعناصر سياسة المدينة في إطار سياسة تهيئة الإقليم والتي تعتمد على تحقيق التنمية المستدامة وبناء اقتصاد حضري قوي في إطار التنسيق بين مختلف القطاعات واللامركزية والتسيير الجواري، ولقد تم وضع هذا القانون من طرف المرصد الوطني للمدينة ومن أهم الأهداف التي نص عليها هذا القانون:

♠ تحقيق التنمية المستدامة في عدة مجالات(الاقتصاد الحضري، المجال الحضري والثقافي، المجال الاجتماعي، مجال التسيير و المؤسسات)،

♠ تقليص الفوارق مابين الأحياء وترقية التماسك الاجتماعي ومكافحة الآفات الاجتماعية،

♠ القضاء على السكنات الهشة،

♠ التحكم في حركات النقل والتنقل داخل المدينة،

♠ ضمان توفير الخدمات العمومية وحماية البيئة،

♠ ترقية الشراكة بين المدن، والعمل على دمج المدن الكبرى في الشبكات الجهوية والدولية، إلا أن هذا القانون والذي يمثل أول خطوة نحو تطبيق سياسة المدينة والاستدامة العمرانية، لم يرفق بمراسيم تنفيذية لتطبيقه رغم مرور سنوات من صدوره. وهذا ما يحتجز التنمية الحضرية المستدامة في الجزائر في الإطار النظري، إلا أنه بالرغم من ذلك فهو يعتبر من الخطوات الإيجابية التي تؤكد تفطن الدولة إلى ضرورة تجسيد آليات التخطيط الحضري في منظور التنمية المستدامة وضرورة تحيين التشريعات العمرانية مع المستجدات العالمية.

1-2-5-سياسة حضرية تعتمد لاإراديا على المشروع الحضري (2006- يومنا الحالي):

نتيجة لارتفاع أسعار النفط وتوفر بالتالي رؤوس الأموال، الأمر الذي أدى إلى انطلاق بعض المشاريع التي كانت متوقفة مثل مشروع مترو الجزائر وإلى انطلاق مشاريع مهيكلة ضخمة جديدة في إطار الحد من الاختلالات المجالية التي تعاني منها المدينة الجزائرية و المتمثلة في :

*ضواحي غير متجانسة ومراكز متدهورة،

*انتشار الأحياء القصديرية وسوء استغلال وصيانة الفضاء الحضري،

* مشاكل النقل والبيئة،

* تطوير طرق التحكم وتحسين نوعية الأدوات العملية لتنمية الفضاء الحضري.

2-أدوات التنمية الحضرية المستدامة في الجزائر

بالإضافة إلى أدوات التهيئة الإقليمية وأدوات التخطيط الحضري والأدوات التي تعمل على تجسيد سياسة المدينة الجزائرية، تم وضع:

2-1-برنامج دول حوض البحر المتوسط

تعاني هذه الدول من مضاعفات في المجال الحضري وذلك راجع إلى سببين : الأول وهو أن معدل التحضر فيها يفوق المعدل العالمي، حيث 3/2من السكان يعيشون في المدن، والسبب الثاني هو قدم النسيج الحضري المكون لهذه المدن. أما في ميدان المذكرة 21 المحلية، فقد تم وضع برنامج للتعاون المشترك في

سنوات التسعينات وهو برنامج المدن المستدامة، والذي يعمل على الدمج بين دولتين من دول جنوب المتوسط وهي تونس و المغرب من أجل مشاريع نموذجية لمدن مستدامة متوسطية [25] .

أما بالنسبة للجزائر فإن دمج مقاربة التنمية المستدامة في السياسات المحلية هو متأخر نوعا بالنسبة لباقي دول الحوض المتوسط وذلك ناجم عن العشرية الصعبة التي مرت بها الجزائر، والتي جعلتها تعاني من التخلف في كل الميادين، وبالرغم من تغير الأوضاع حاليا إلا أن تطبيق مبادئ التنمية المستدامة غائب على أرض الواقع بسبب احتجاز هذه المقاربة في الإطار النظري للقوانين التي جاءت بها، فلم تتبع بمراسيم تنفيذية.

2-2-المخطط الوطني من أجل البيئة والتنمية المستدامة PNAE-DD

تم إعداد هذا المخطط بين سنتي 2001 و2003 برعاية البنك العالمي ولقد جاء هذا المخطط بالعديد من برامج العمل المرتبطة بتحسين إطار ونوعية الحياة في المدينة [26]:

- البرنامج الوطني للتسيير المدمج للنفايات الذي سمح بانطلاق 65 مخطط توجيهي لمراكز دفن النفايات، تم حاليا تنفيذ أغلبها [27].

- برنامج لإعادة تأهيل شبكات التزويد بالماء الشروب**AEP**

- برنامج تحسين نوعية الهواء في الوسط الحضري، الذي يعمل بالاشتراك مع شبكة سماء صافية لمراقبة نوعية الهواء في المدن الكبرى [28].

- برنامج تحسين الإطار المبني.

- برنامج الحماية من المخاطر الصناعية الكبرى.

- برنامج الحد من إنبعاث الغازات الدفيئة.

- برنامج حماية الساحل، الذي يعمل بالاشتراك مع مخطط تهيئة المناطق الساحلية **PAC** [29].

- المخطط الوطني للتنمية الزراعية **PNDA**.

- برنامج التعليم البيئي في الوسط الدراسي (مثل دار دنيا في الجزائر العاصمة).

وبالتالي فإن معظم هذه البرامج هي برامج قطاعية ومنفصلة لا تأخذ بعين الاعتبار المدينة كنظام بيئي مترابط، فهي تحتاج إلى نوع من التنظيم تربط بينها وبين أهدافها وبدون هذا لا يمكن أن تندرج تحت مسمى التنمية المستدامة.

2-3-الميثاق البلدي البيئة والتنمية المستدامة

في إطار الحوار الوطني حول حالة ومستقبل البيئة في الجزائر الذي تبنته وزارة تهيئة الإقليم والبيئة

سنة 2001، تم إعداد الميثاق البلدي للبيئة والتنمية المستدامة في إطار برنامج الإنعاش الاقتصادي 2001-2004، وهي تأخذ بعين الاعتبار تحديات التنمية المستدامة، فهي على شكل عقد لالتزام البلديات بإعداد المذكرة 21 المحلية وبإنجاز الأعمال خاصة في الميادين التالية [30] :

-التسيير المستدام للمجالات الطبيعية والأنظمة البيئية،

- المحافظة على الأراضي الزراعية،

-التسيير المستدام للمخاطر الطبيعية والاصطناعية،

-مشاركة السكان في عملية اتخاذ القرار،

-التقييم المستمر لحالة البيئة.

2-4-المذكرة 21 المحلية (تجربة مدينة البليدة في ميدان التسيير البيئي)

وهي من أولى ممارسات تجسيد المذكرة 21 المحلية العالمية في الجزائر، وتم تجسيد هذه التجربة في إطار

تعاون جزائري ألماني سنة 2001، وهدفت إلى بناء مقاربة ترتكز على السياق التاريخي من أجل تحديد استراتيجية للتنمية المستدامة ومخطط بيئي للعمل، وهذه المقاربة تم تجسيدها على أرض الواقع من خلال وضع برنامج يضم [31]:

- مخطط تسيير النفايات الصلبة لمدينة البليدة.
- العمل على تنفيذ نظام لجمع النفايات الصلبة في حي بن بولعيد.
- العمل على إعادة تأهيل مفرغة بني مراد.
- التوجه نحو الفرز الانتقائي للنفايات من أجل إنتاج الأسمدة الزراعية وزيادة قدرة استيعاب مراكز الدفن التقني.

2-5-المشاريع الحضرية المستدامة

ويندرج في هذا السياق مشروع المدينة الجديدة لسيدي عبد الله، حيث تعتبر العاصمة أكبر ميتروبول في الجزائر، فهي تضم لأزيد من 2988145 نسمة عام 2008 [32] وهذا ما جعلها مكان تراكم المشاكل البيئية ومشاكل عديدة. ومحاولة للتوجه نحو فك الخناق عنها وعلى بعد 25كلم، تم اقتراح مدينة تابعة بمساحة 300هكتار وحجم 200000ساكن و50000 منصب عمل في آفاق 2025 [33].

وبالتالي فقد تم توجيه هذه المدينة الجديدة نحو استقبال السكان والتجهيزات والأنشطة بهدف إعادة هيكلة الفضاء الميتربولي العاصمي، كما تم تجهيزها من أجل استقبال الوظائف المتربولية الراقية خاصة في ميدان العلوم والتكنولوجيا (تضم حظيرة للابتكارات التكنولوجية ومنطقة للأنشطة الصناعية مرتبطة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال.

ولا ننسى المخطط الاستراتيجي لتهيئة العاصمة أو « المخطط الأبيض»، الذي تم الإعلان عنه سنة 2012، والذي يهدف إلى فتح المدينة على البحر وتحسين الواجهات وإعادة تهيئة الأحياء والشوارع وجعلها مدينة عالمية في آفاق 2029 وسيضعها ضمن المدن المتوسطية الراقية عبر العالم، انطلقت على شكل عملية تهيئة عمرانية للعاصمة عن طريق ترميم المباني، وإعادة تأهيل الأنسجة الحضرية والقضاء على كل ما من شأنه تشويه واجهة العمارات، إلى جانب توفير أكبر عدد من مساحات الاستجمام وتقليص المساحات المخصصة للسيارات وتوسيع الأرصفة على مستوى بعض الشوارع التي تعرف حركة كبيرة كشارع ديدوش مراد، مليكة قايد و العربي بن مهيدي،... واستحداث أخرى في شكل منتزهات تؤدي جميعها على البحر بالإضافة إلى الحفاظ على الهوية الحضرية للعاصمة باحتفاظها على الطابع المعماري التاريخي كالقصبة [34].

فهذه المشاريع تحد من الاختلالات في كل الميادين وتدمج كل الفاعلين في المدينة وترتكز على مبدأ المشاورة والمشاركة، أي أنها تؤكد صحة توجه الدولة نحو تطبيق سياسة المدينة.

3- نحو سياسة جديدة للمدينة الجزائرية

3-1-واقع سياسة المدينة في الجزائر

لقد عرفت المدن الجزائرية نموا سكانيا كبيرا نتيجة نموها الطبيعي من جهة وحتى النزوح الريفي من جهة أخرى، فهي تضم اليوم 70% من العدد الإجمالي للسكان وبالتالي فإن هذا التجمع للسكان أدى إلى توسع مفرط للمجال. ولأجل هذا سيتم وضع سياسة المدن انطلاقا من المدن التي تحتضن أكثر من 100.000 نسمة، حيث تمثل هذه السياسة إستراتيجية للتنمية الحضرية انطلاقا من نظرة طويلة الأمد للمدينة [35]، وتتجسد هذه الإستراتيجية لاحقا

من خلال مخطط عمل متعدد القطاعات على المدى القريب و المتوسط والطويل. وستدمج سياسة المدينة لامحالة البعد الاجتماعي للمدن من خلال :

-إزالة السكن الهش والحصول على التجهيزات الجماعية.

-تحسين الاندماج الحضري ومشاركة السكان في إعداد المشاريع الحضرية، حيث أن الرهان الأساسي لسياسة المدينة هو استعادتها لبعدها الوظيفي. وكما جاء في المخطط الوطني لتهيئة الإقليم أنه يتوجب مواجهة رهان التنمية الحضرية من خلال تطبيق برامج طموحة تتلخص في برامج سياسة المدينة ، والتي تدور حول :

■ **التحديث الحضري**: تعتمد هذه الإستراتيجية على وثائق التعمير، ويعد التجديد الحضري إشكالية مستعجلة بسبب وجود نسيج عمراني قديم في جميع المدن الجزائرية تقريبا لاسيما العاصمة و التي تضم لحوالي 201874 مسكن حسب إحصاء سنة 2008 [36] ، هذه الوضعيات أدت بالسلطات العمومية إلى تشخيص حالة المباني بمشاركة الفاعلين المعنيين وهم مديرية التعمير والبناء وحتى ديوان الترقية والتسيير العقاري والمجلس الشعبي البلدي والسكان قصد إنجاز أعمال التجديد.

شكل يبين حالة الحضيرة السكنية للعاصمة

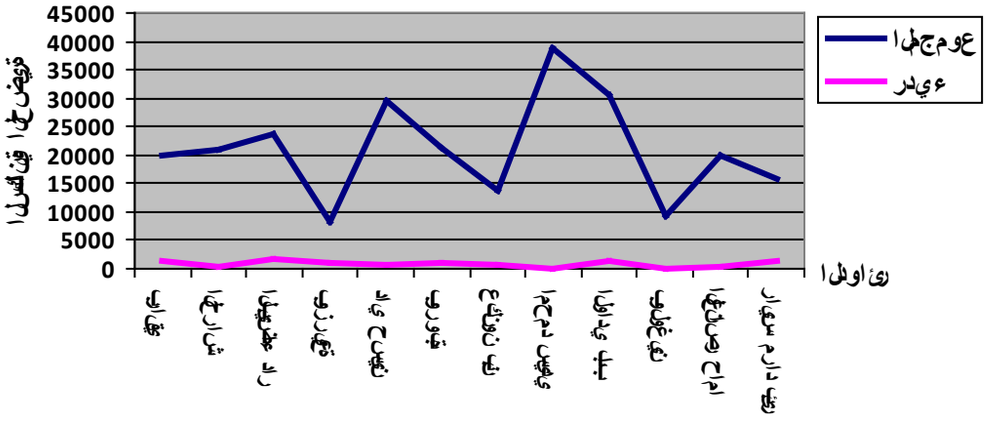

المصدر: من إنجاز الباحث بالاعتماد على المعطيات الديمغرافية والتقارير السنوية

■إدماج المناطق الحضرية ذات العوائق ZHU :

بهدف ضمان الانسجام والاندماج بين مختلف أحياء المدينة وقصد إعطاء أحسن رؤية لهذه الظاهرة، تم إعداد خريطة وطنية للتهميش الاجتماعي **CSU** سمحت بتحديد المناطق العمرانية الأقل تجهيز والتي تتطلب وضع برامج لتحسين شروط الحياة فيها [37].

■ **إصلاح التسيير في المدن** : إن تحسين أنماط تسيير مدننا يقتضي طرق جديدة للتدخل لتحسين قدرات الإدارة البلدية، تصميم آليات اتخاذ القرار فيما يتعلق بتطوير المدينة، اعتماد أدوات جديدة للتنظيم سيأتي الحديث عنها في العنصر الموالي.

3-2-الأدوات التطبيقية لتحقيق سياسة المدينة

إن في الواقع كل الأدوات المطروحة في ميدان التهيئة الحضرية تخدم سياسة المدينة الجزائرية بطريقة أو بأخرى، إلا أن أحدث هذه الأدوات وأهمها هي:

♦ **مخطط التناسق الحضري SCU**: يعتبر الأداة التنفيذية لسياسة المدينة حسب ماجاء به القانون التوجيهي للمدينة لسنة 2006، من أولى مهامه وضع

حد لتشتيت التدخلات في المجال الحضري ويعتبر وسيلة فعالة للتهيئة، فهو يهدف إلى [38]:

–التنسيق مابين مختلف سياسات الدولة والجماعات المحلية من أجل التنمية الحضرية.

– إيجاد حل للانقطاع الموجود بين المجال الحضري و المجال الريفي.

– إيجاد حل للفرق الموجود مابين المجال المبني وغير المبني.

بالإضافة إلى أن أحد أهم أسباب فشله هو عدم اتباعه بمخططات تفصيلية مثل (**PLU** في فرنسا) وهذا ما جعله غير قادر على تعويض المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير السابق ذكره، الذي يعمل بالموازاة مع مخطط شغل الأرض.

♦ **الخريطة الاجتماعية الحضرية CSU** : والتي تهدف إلى التعرف على التركيبة الاجتماعية للبلدية مهما كانت، فهي تسمح بإعطاء قراءة أحسن للمعطيات الديمغرافية وتساعد على فهم الممارسات الاجتماعية للسكان وتعطي نظرة مقربة للواقع الاجتماعي بعد ربطه بمختلف المعطيات. فهي تعمل على فتح حوار حول الحلول للمشاكل الاجتماعية، أي تسمح بتحديد مؤشرات التنمية المستدامة في بعدها الاجتماعي.

فهي إذن أداة للتسيير الحضري وتقوية التضامن والعلاقات الاجتماعية وتطوير روح المواطنة والمسؤولية، تساهم في رسم البرامج المستقبلية المتخذة ضمن سياسة المدينة والتنمية المستدامة تكون في يد المسيرين على مختلف المستويات.

♦ **الخريطة العقارية الحضرية CFU** : هي دراسة جغرافية لنمو المدينة، تهدف إلى تقسيم المحفظة العقارية واستعمالها في برامج التدخل على الأنسجة الحضرية كعملية التجديد الحضري، وإعادة الاعتبار وموقع التجهيزات المهيكلة،...

وهذه الدراسة يجب أن تحقق أهداف سياسة المدينة بوضع سياسة عقارية خاصة بكل مدينة، تقوم على التسيير الفعال لهذا المورد غير المتجدد، وتقوم على تخصيص الأراضي وتعيين الأراضي الفلاحية التي يجب حمايتها وكذا حماية التراث العقاري، هذا كله لا يتأتى إلا عن طريق خلق سياسة متناسقة بين كل الهيئات المسؤولة على الحد من التمدد العمراني الفوضوي والتسيير العقلاني للعقار والمجالات الحضرية.

من كل ما سبق، تبرز لنا مختلف مراحل التطور الحضري في الجزائر أن هناك رغبة أكيدة وحرص شديد من طرف الدولة من أجل التكفل بمشاكل المجال الحضري، حيث وضعت سياسات وقوانين جد متميزة نظريا ولكن أثناء الممارسة الميدانية لهذه السياسات اتضح أن هناك إشكالات عديدة منها:

–نقص التسيير والمراقبة.

–نقص الإطارات المختصة والكفاءات والتمويلات.

–قلة الكفاءة في مراقبة تنظيم وتسيير عمليات التدخل.

وهذا ما دفع بالدولة إلى التفكير في توجهات جديدة مواكبة للتطورات العالمية، هذا التوجه شمل اتباع سياسة المدينة والمشروع الحضري، لكن يجب عليها توفير المناخ المناسب من أدوات وهيئات لازمة وقوانين ومراسيم فعالة لضمان نجاح هذه السياسة.

ومن كل ما سبق نخلص إلى تقديم مقارنة بين التجارب في دول حوض المتوسط فيما يلي:

4–مقارنة بين التجربة الجزائرية والمغربية في تخطيط وتهيئة المجال الحضري

في الواقع حسب رأيي لا يمكن مقارنة وضعية بلد متقدم في دول حوض المتوسط كفرنسا مثلا مع دولة نامية كانت خاضعة للاستعمار مثل الجزائر،

لأن التحليل الحضري في الجزائر لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار مايحدث في فرنسا وهذا طبعا نتيجة التبعية الاستعمارية ، ففي نظري ليس من الممنوع الاستفادة من التجارب الأجنبية ولكن يجب محاولة استنباط الإيجابيات وتطبيقها والتفطن للسلبيات حتى لا نعيد تكرار أخطاء هذه السياسات، بالإضافة إلى ضرورة دمج الخصائص المحلية، لأن هذه الأدوات أخذت بعين الاعتبار عند إنجازها الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للمدينة الفرنسية مما جعلها فعالة في هذا المجال.

وعليه ارتأيت إجراء مقاربة بين المدن الجزائرية والمغربية لاشتراكهما في نفس التحديات العمرانية مع العلم أنني قمت بدراسة هناك أثناء تواجدي بهذا البلد، كما أن كلا الدولتين ماتزال تعاني من التبعية الاستعمارية الفرنسية ليس في المجال العمراني فقط وإنما في كل المجالات، لقد اتسم التخطيط في المغرب بالتنظيم المحكم للمدن العتيقة، التي لا تزال شاهدة على الأهمية التي أعطيت لتسيير المجال، حيث عملت السلطات في بداية الأمر على بناء المدن العتيقة بشكل يستجيب لمتطلبات الأمن والحياة الدينية واليومية للسكان، وهكذا فقد أحيطت المدن بالأسوار وتمحورت حول المسجد والسوق المركزي وتميزت بتواجد العديد من الأحياء الوظيفية المتخصصة وخاصة في الصناعات اليدوية والتجارة . فمن المعروف أن قوانين التعمير في المغرب ، وضعت من طرف الاستعمار الفرنسي مثل الجزائر والهدف هو ليس تنظيم المدن المغربية وإنما خلق مستوطنات للأوروبيين : مثل قانون 1914 المتعلق بالتصفيف ومخططات التهيئة وتوسع المدن، ولقد استفادت المدن المغربية الكبرى منه كوجدة وفاس والرباط، حيث تم إنجاز تصاميم لها وتم التطور العمراني على أساسها. ونجد أن المجال الحضري في نهاية الحقبة الاستعمارية كان قد تفكك إلى ثلاثة عناصر (المدينة الأوروبية،، التي تشكل الجزء المنظم، المدينة العتيقة التي تم إهمالها ومناطق الأحياء العشوائية)، وفي الوقت الذي ارتفعت فيه نسبة التمدن بقيت قوانين التعمير يطبعها نفس التشدد، الشيء الذي أدى إلى فقدانها إلى أية مشروعية لدى كثير من الفاعلين المحليين وحتى السكان ، فلقد تبين من خلال البحوث التي أجريت بأن أدوات التهيئة التي تم العمل بها أصبحت آنذاك عاجزة عن تأطير النمو الحضري المطرد لاسيما تلك التي وضعت في بداية السبعينيات[39]، حيث تم إنجاز العديد من مخططات توجيه التهيئة العمرانية للمدن الكبرى بالمملكة، وابتداء من سنة 1998 تم إعداد مشروع قانون لتأهيل العمران وقد مست التغييرات التي أدخلها جوهر أدوات التهيئة المعمول بها حاليا، ونشير أنه في العقدان الأخيران عرف التراب المغربي تكاثرا كبيرا للأجهزة الإدارية المكلفة بالتعمير، حيث نجد سلطات متعددة : الولاية، العمالة، القيادة، الوكالات الحضرية، المفتشيات الجهوية والمجالس البلدية والمؤسسات العمومية، وهذا المركب الإداري يطبعه التفكك وتداخل الصلاحيات، مما أدى إلى الصراع المستمر بين هذه الأجهزة فأدى بالتالي إلى سوء التسيير الحضري ومجال غير مراقب بالإضافة إلى المركزية في القرارات المتعلقة بالمجال الحضري، رغم توجه كلا الدولتين نحو تجسيد سياسة المدينة، بالإضافة إلى ذلك فالجزائر والمغرب تواجهان نفس المشكل في ميدان التهيئة الإقليمية، ففي المغرب يتمحور ذلك في عدم وجود إطار قانوني واضح يبين مكانة هذا التقسيم في التخطيط والتهيئة الحضرية.

وما تجدر الإشارة إليه أن المغرب سبق الجزائر في ميدان تبني المذكرة21 المحلية، والمغرب له برنامج وطني للمذكرة 21المحلية ، أما الجزائر تسبق المغرب في تنظيم الترسانة القانونية ووجود مدونة التعمير.

الخاتمة

إن معالجة موضوع تسيير مدننا لا يمكن فصله عن

سياسة التهيئة العمرانية، غير أن هذه السياسة لا تقتصر على مجرد التحكم في التعمير قصد توجيهه ، بل تقتضي أيضا الرجوع إلى مدن تتناسب ورغبات المواطن سواء في طرق تسييرها الناجعة أو في نوعية الوسط المعيشي. إن مسألة المدينة بحكم أهميتها لايمكنها أن تظل على هذا الحال (وكأنها قطع فسيفسائية منتشرة من غير انسجام).

إن أهم ما يميز السياسة العمرانية وتهيئة المجال الحضري بالجزائر هو الرغبة الأكيدة والحرص الشديد الذي أولته الدولة للتكفل بمشاكل هذا الأخير، وإذا كانت هذه السياسات من الناحية النظرية ومن حيث المبادئ والأهداف جد متميزة رغم بعض النقائص، فإن الممارسة أفرزت إشكالات عديدة قللت من فعالية هذه السياسات ميدانيا، لأن التهيئة الحضرية تعتمد على التجارب والخبرات المستمرة وعلى ممارسة عملية ميدانية وكفاءة في التسيير والمراقبة لعمليات التخطيط، ولكن للأسف كانت الأطراف الفاعلة تفتقد لأساليب التعامل معه.

تظهر جليا نقائص الجماعات المحلية جليا في عدم قدرتها إلى وضع تصور لمخططات التنظيم المجالي وعدم مسايرتها لمقتضيات تسيير المدن. إن الرهان الذي ستواجهه المدينة يكمن في قدرتها على إنتاج نوع مجتمع توفر له خصائصه، وفي نفس الوقت يتطلب هذا الرهان إنشاء المساحات الحضرية وتسييرها وهيكلتها طبقا للمقاييس العالمية.

ثم إن التجربة الجزائرية في ميدان التنمية المستدامة هي تجربة فتية لاتتجاوز العشر سنوات، لأن كل التجارب تحتاج إلى فترة من الزمن من أجل أن تتبلور وتنضج، حيث أن الترسانة القانونية التي تم وضعها ماتزال تعاني من صعوبات في ميدان التجسيد على أرض الواقع لعدم أخذها للخصائص المحلية للمجتمع، فهي في غالب الأحيان صورة طبق الأصل عن القوانين الأوروبية وخاصة الفرنسية منها.

لاجدوى من إعطاء المؤسسات الحيوية، وتحسين الأدوات القانونية وتحديد الصلاحيات وتصحيح أساليب العمل، إذا كان الرجال المكلفون بالسهر على تجسيد كل هذه العملية لايملكون الكفاءات اللازمة لممارسة مسؤولياتهم، وبالفعل تشكل التركيبة البشرية في كل مشروع حضري العنصر الحاسم لتحقيق أهداف النجاعة والمردودية، إن سياسة التسيير الجيد توصي بضرورة استبدال سلطة الإكراه بسلطة الإقناع وتفضل توزيع المسؤولية وإشراك جميع الأعوان وكذا مساهمة المواطنين في التكفل بمشاكلهم عوض طرحها على الإدارة.

إن المدينة بصفتها جهازا حيويا تعتبر مرآة المجتمع، حيث تنسخ مكونات الحضارة وتتبلور سياسة المدينة الحقيقية في إطار تكامل جهود كل الأطراف المعنية، أملنا أن يساهم هذا البحث في إيقاظ الوعي الجماعي .

الهوامش:

1-Abed Bendjelid, Réalités contemporaines de l'aménagement des villes algériennes, Villes d'Algérie, CRASC 2010.

2-التيجاني محمد بشير، التحضر والتهيئة العمرانية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر2000.

3-Kheladi Mahfoud, Urbanisme et systémes sociaux :la planification urbaine en Algérie, éditions OPU, Alger.

4-Baba Ahmed Mustapha, l'Algérie diagnostic d'un non développement, L'Harmattan 1999.

5-الانتعاش الاقتصادي، المصالحة الوطنية، التنمية المستدامة، فعاليات الملتقى الرابع عشر للرئيس الراحل هواري بومدين، ولاية الجلفة، ديسمبر 2004.

6-بهلول محمد بلقاسم، سياسة تخطيط التنمية وإعادة تنظيم مسارها في الجزائر، الجزء الثاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995.

7- وزارة الداخلية، قانون البلدية رقم 67-24، المؤرخ في 1967/1/18.

8-التيجاني محمد بشير، تهيئة التراب الوطني في أبعادها القطرية مع التركيز على التجربة الجزائرية ، دار الغرب للنشر والتوزيع 2004.

9-عبد اللطيف بن آشنهو، التجربة الجزائرية في التنمية والتخطيط، ديوان المطبوعات الجامعية 1982.

10-CNERU, Plan D'urbanisme D'Alger, Rapport de synthèse générale, options et schémas 1983.

11-عبد اللطيف بن آشنهو، مرجع سابق.

12- وزارة الداخلية، قانون البلدية رقم 81-09، المؤرخ في 1981/7/4.

13- وزارة الداخلية، قانون الاحتياطات العقارية رقم 74-26، المؤرخ في 1974/02/20.

14- وزارة الداخلية، قانون حق الامتلاك الفردي للعقار رقم 83-18، المؤرخ في 1983/8/13.

15-Aloui Amar, Foncier: propriété et régime foncier en Algérie, éditions Houma, Alger 2006.

16- قانون التهيئة العمرانية رقم87-03 المؤرخ في 1987/10/7.

17-لجنة التهيئة العمرانية والبيئة، مشروع التقرير التمهيدي حول المدينة الجزائرية.

18- وزارة الداخلية، قانون البلدية المعدل والمتمم رقم 08/90، المؤرخ في1990/4/7.

19- وزارة الداخلية، انون التوجيه العقاري رقم 25/90، المؤرخ في1990/11/18.

20- القانون رقم90-29، المؤرخ في 1990/12/1، المتعلق بأدوات التهيئة والتعمير.

21- تحقيق ميداني على مستوى وزارة تهيئة الإقليم والبيئة.

22- القانون رقم01-20، المؤرخ في 2001/12/12، المتعلق بتهيئة الإقليم وتنميته المستدامة.

23- نفس القانون.

24- القانون رقم06-06، المؤرخ في 2006/02/20، المتعلق بالقانون التوجيهي من أجل ترقية المدينة.

25-زيطوط أحمد، تمويل التنمية المستدامة في البلدان

النامية، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر 2008/2007

26-Commission méditerranéenne du développement durable, Second atelier de groupe de travail sur les indicateurs pour le développement durable : Plan d'action pour la méditerranée, plan bleu méditerranée, éditions Sophia Antropolis, Mai 1999.

27-MATE, Les problèmes urbains en Algérie et la manière de les résoudre, Février 2006.

28- Sama Safia, Réseau de surveillance de la qualité de l'air d'Alger, Bulletin annuel 2009.

29-MATE, Cadastre littoral Wilaya d'Alger, phase 1, Bilan diagnostic, Septembre 2004.

30-MATE, L'Algérie de 2020, Un Projet d'aménagement du territoire intégrant les enjeux d'un développement durable.

31- Direction de l'environnement de la Wilaya d'Alger, Etude du Schéma directeur de collecte et de traitement des déchets solides des 57 communes de l da wilaya d'Alger, Mission 2 : Orientations de développement , Août 2010.

32- ONS, Données statistiques, N° 315, migrations internes, inter_ censitaires (19871998/) et données préliminaires, RGPH 2008.

33-Les grands projets de l'Algérie, Revue Amenhis : Aménagement et histoire, publication bimestrielle, N°18, Mai-Juin 2008, Sarl Sopiref.

34- المخطط الإستراتيجي الضخم لعصرنة الجزائر العاصمة، حصة حوار الساعة للصحفية فريدة بلقسام بتاريخ 22ديسمبر 2013.

35-فؤاد بن غضبان، المدن المستدامة والمشروع الحضري، نحو تخطيط استراتيجي مستدام، دار صفاء للنشروالتوزيع، عمان 2014.

36- Benyoub Rachid, Algérie : état des lieux, Annuaire économique et social, Rahma Communication 2007-2008.

37-فؤاد بن غضبان، مرجع سابق.

38-فؤاد بن غضبان، نفس المرجع.

39-أبو الهاني عبد الغني، التخطيط الحضري في المغرب: بين تشدد القوانين وتشتت المجال، أشغال ندوة العمران في الوطن العربي بين التخطيط والتشريع والإدارة، أيام 10-11-12أبريل2001 بالرباط.

الجهود المبذولة في الجزائر لتطوير القطاع الفلاحي وتحقيق تنمية فلاحية مستدامة.
دراسة نموذجية:الشريط الساحلي لإقليم ولايات الوسط

(الجزائر، تيبازة، بومرداس، تيزي وزو)

أ.د نضيرة عطاءالله:
أستاذة محاضرة «ب»
المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة ، الجزائر العاصمة

Résumé

Dans cet article, nous essaierons de mettre en évidence les raisons de la faible couverture alimentaire de la production locale en Algérie et d›augmenter le recours aux importations alimentaires qui absorbent annuellement plus de 75% des exportations du pays, soit 9 milliards de dollars. Alors que la facture alimentaire importée n›est pas inférieure à trois milliards, le pays est incapable de prédire ou d›assurer la stabilité des revenus, étant donné la volatilité du marché mondial du pétrole: d›un côté, la nourriture est utilisée comme un jeu politique international Ce qui n›est pas forcément dans l›intérêt des pays du tiers monde, y compris l›Algérie. Ainsi, l›industrie de la faim est un moyen entre les mains des fonctionnaires du système international, en particulier des États-Unis d›Amérique. Restructurer l›économie algérienne par une réorientation des priorités et une allocation des ressources, toutes ces considérations rendent inévitable le pari sur le développement agricole durable. Surtout face aux défis et enjeux modernes, qui ont incité l›Algérie à reconsidérer ses plans de développement pour inclure le développement durable au sein de celle-ci à tous les niveaux nationaux, régionaux et locaux.

Mots-clés: politiques agricoles en Algérie, développement de la production agricole, réalité du développement agricole durable en Algérie.

الكلمات المفتاحية : السياسات الزراعية في الجزائر ، تطوير الإنتاج الزراعي ، واقع التنمية الفلاحية المستدامة في الجزائر.

مقدمة:

الجزائر من البلدان النامية اولت اهتمام كبير للقطاع الفلاحي، وهذا من خلال عدة تغيرات وتجارب في مجال التنمية الزراعية. اذ عرف القطاع الفلاحي منذ انطلاقته الأولى عدة تنظيمات فلاحية وقوانين تهدف الى استغلال الأمثل للموارد الطبيعية والبشرية، كما يمكن القول ان السياسات الفلاحية المنفذة اتسمت في العقود الثلاثة الماضية بعد الاستمرارية وعدم نجاحها في تحسين أداء القطاع، اما الالفية الجديدة فهي تشهد العديد من الإصلاحات ومن بينها المخطط الوطني للتنمية الفلاحية والريفية، والذي يندرج ضمن مسعى إعادة تأهيل المستثمرات الفلاحية لمواجهة التحديات الاقتصادية العالمية.

فبالرغم من كل هذه الإصلاحات الا ان القطاع الفلاحي مازال يتنبع التقليدي في استخدام الموارد والإنتاج والتخزين والتسويق فقد أصبح يعيش وضعا مختلفا بحيث انه لم يرقى الى ان اهداف المسطرة وتحقيق

الامن الغذائي للسكان، وهو ما صنف الجزائر ضمن مناطق العجز الغذائي التي تعتمد على الاستيراد لسد النقص في تلبية المتطلبات الاستهلاكية من السلع الغذائية الأساسية . حيث ان اختلال التوازن بين الطلب المتزايد للمواد الغذائية ونقص في العرض أدى الى توسع فجوة التبعية للخارج ، وامام هذه التحديات بدأت الجزائر تسعى الى تحقيق تنمية ريفية وزراعية مستدامة ترفع عنها عبء التبعية الغذائية، وتمكنها من النهوض باقتصادها الهش للمنافسة وتحقيق الميزة التنافسية والريادية في مجال الانتاج الفلاحي من جهة، والقضاء على الفقر والحرمان في الأوساط الريفية من جهة أخرى، وهذا لما تملكه من إمكانات طبيعية متجددة تؤهلها لذلك، لكن دون الوقوع في فخ استنزافها وعدم استخدامها بالطرق التي تمكنها من الحصول على أفل النتائج وبأقل التكاليف ،بحيث تسمح لها بتحقيق أكبر منفعة ممكنة للأجيال الحالية والمستقبلية لأن الأرض ملك لجميع الأفراد الذين سيعيشون عليها، ونعني هنا التنمية المستدامة.

ومما سبق سنقوم بطرح الإشكالية التالية: ماهي الجهود المبذولة للتطوير القطاع الفلاحي، ولتحقيق تنمية فلاحية مستدامة؟

- السياسات الفلاحية التي انتهجتها الجزائر ونتائجها الفترة 1963-1990:
- السياسة الفلاحية في ظل التسيير الذاتي:

لقد ورثت الجزائر عن الاستعمار قطاع فلاحي يتميز بالتقهقر والضعف ويتسم بالتبعية إلى الخارج والاختلال الجهوي نتيجة سياسة العنف والتدمير. فبعد مغادرة المعمر للبلاد في سنة 1962، وترك الأراضي الزراعية شاغرة والعتاد الفلاحي مهملا أصدرت الحكومة الجزائرية آنذاك قرارا 24 أوت 1963 الذي ينص على تكوين لجان التسيير الذاتي من العمال الذين كانوا يعملون في مزارع الأوروبيين، للإشراف على إدارة المزارع من أجل استمرار الإنتاج وحماية الأملاك الشاغرة ،وسد كل عمليات التهريب والتخريب للعتاد الفلاحي وطبقا لهذا القرار كونت لجان التسيير الذاتي، وعرفت بالمزارع المسيرة ذاتيا بعد تأميم الأراضي التي كان يملكها المستعمر وبقيت أراضي الخواص على حالها، ومن أهم أهداف التسيير الذاتي هي:

- حماية الأملاك الشاغرة.
- مواجهة النقص الذي يعاني منه القطاع في العتاد والمعدات.
- وضع حد للأملاك الكبيرة ومنه الملاك الكبار.
- تجميع الفلاحين الصغار في تعاونيات فلاحية

جماعية وفردية.

• توفير الحاجيات الغذائية للمواطنين.

وتم تسيير المزارع الشاغرة عن طريق الديوان الوطني للإصلاح الزراعي.

1 – 2 السياسة الفلاحية في ظل الثورة الزراعية:

جاءت الثور الزراعية لوضع حد للمعاناة والحرمان اللذان عاشهما الفلاح المحروم من ملكية الأرض فحوالي 72 % هم صغار الفلاحين ولا يملكون سوى 22% من المساحة الزراعية، ومساحة أراضيهم لا تتجاوز 10 هكتارات في حين نجد البرجوازيين الفلاحين يمثلون نسبة 2,6 % من المالكين يملكون حوالي 26 % من الأراضي الزراعية مساحة أراضيهم لا تتجاوز 50 هكتار. أما الفلاحون المتوسطون المالكون من 10 إلى 50 هكتارا فيملكون أكثر من 50 % من الأراضي الزراعية وهذه السياسة ناتجة عن الاستعمار حين اشترى الجزائريون البرجوازيون منهم الأراضي غداة الاستقلال، وعند رحيل المعمرين من الجزائر. ونظرا لهذه الفوارق أعلنت الدولة سياسة الثورة الزراعية في 8 نوفمبر1971، تحت شعار الأرض لمن يخدمها « ولا يملك الحق إلا من يفلحها ويستثمرها، ولقد تم تشكيل لجنة وطنية منذ شه أوت 1966 لتحظى نصوص الثورة الزراعية. بهدف تحسين المستوى المعيشي لسكان الريف ودمج العالم الفلاحي والريفي في مسار التنمية. بإعادة تنظيم توزيع الأراضي الزراعية ووسائل الإنتاج واستخدام طاقة العمل المتوفرة في المناطق الريفية، وتم من خلالها ضم الأراضي العمومية (أراضي العرش، البايلك الأراضي دون مالك) إلى الصندوق الوطني للثورة الزراعية والأراضي الخاصة تبقى للخواص.

1-2-1 أهداف الثورة الزراعية:

وكانت تسعى الثورة الزراعية الى تحقيق عده اهداف من الناحية الاقتصادية والاجتماعية أهمها:

1-2-1-1 تأميم الممتلكات الكبيرة:

وتمت وفق الأسس التالية:

• نزع الملكية للفلاح الذي لا يستغل أرضه.

• تحديد المساحة التي يمكن ان يمتلكها حسب طبيعة الأرض في حالة انه يشغل جزءا من الأرض ويترك جزءا منها غير مستغل.

• ضم كل الأراضي العمومية والشاغرة إلى صندوق الثورة الزراعية لكي تخضع لنفس النظام الذي تخضع له الأراضي المؤممة.

1-2-1-2 توزيع الأراضي المؤممة:

توزع الأراضي المؤممة على الفلاحين الذين لا يملكون أراضي ويستغلونها إجباريا تحت نظام التعاونيات حسب قدرتهم المادية والجسدية، وهذه التعاونيات تستفيد حسب حاجياتهم من المساعدات المالية والتقنية لخدمة الأرض وتحقيق أكبر كمية من الإنتاج، ولتسهيل هذه العملية تم إنشاء تعاونيات خدماتية للمالكين الخواص وصغار الفلاحين بالإضافة إلى انه المستفيدين مرغمين على التخلي عن منتوجاتهم للتعاونيات الفلاحية البلدية.

1-2-1-3 أسس الثورة الزراعية:

كانت الثورة الزراعية تسعى إلى إحداث تغيير جذري في الأرياف الوطنية وتحسين مستوى معيشة سكانه، وتغيير نظام الملكية العقارية الواسعة، وإدماج الفلاحين في نشاطات تساهم في تحقيق التنمية الاقتصادية، والعمل على القضاء على اثأر الاستعمار، وكل أشكال الاستغلال، وخلق علاقات عمل مباشرة في الزراعة على أساس الأرض لمن يخدمها عن طريق:

• تعويض 25% من الفلاحين المؤممة أراضيهم ويتم التسديد خلال 15 سنة، وتحدد الحصة الممنوحة بطريقة تمكنه من الحصول على دخل يساوى دخل عمال المزارع المسيرة ذاتيا لمدة 250 يوم عمل.

-تستغل الأراضي جماعيا أو في شكل تعاونيات آو تجمعات شبه تعاونيات يشكلها المستفيدون وينبغي على كل مستفيد أن يعمل شخصيا ومباشرة يسجل عمله في المخطط الوطني.

1-2-3 الملكية العقارية في ظل الثورة الزراعية:

الثورة الزراعية لم تلغي الملكية الخاصة وإنما ترفض عدم استغلالها، وترفض الملكيات الكبيرة التي تؤدي إلى عدم الاستغلال فيتم جمعها في تعاونيات للحد من تجزئتها، والتي تضر بالعمل الفلاحي، وتم إلغاء كل الإجراءات المتعلقة بتقسيم الأراضي بعد الاستقلال، وهذا تم وفق ثلاثة مراحل:

-المرحلة الأولى:

تم فيها توزيع أراضي الدولة على الفلاحين غير المالكين الأرض، ويتم تجميع هؤلاء في قرى نموذجية والتي قررت الحكومة بناء ألف منها في الريف في كل قرية 120 إلى 150 ساكن مع توفير شروط الحياة فيها، ولقد بلغ عدد هذه القرى 147 قرية سنة 1981.

-المرحلة الثانية:

بدأت سنة 1973 حيث تم إعادة توزيع أكثر من 650 ألف هكتار من القطاع الخاص على 60 ألف عائلة فلاحية بدون ارض، وتم توزيع حوالي مليون هكتارا، وعلى 100 ألف عائلة تم تجميعها في 6 ألف تعاونية فلاحية.

-المرحلة الثالثة:

بدأت منذ 1975 لتنمية القطاع الرعوي في الهضاب وفي شمال الصحراء وهذا لتمكين البدو الرحل من الاستقرار بتحسن ظروفهم، ولقد تم تنظيم حملة توعية لترشيد الفلاحين وتعريفهم بحقوق ووجباتهم في التعاونيات والقرى الاشتراكية ولقد توقف الإحصاء في عام 1979 زراعية بعد سبعة سنوات من إعلان الثورة الزراعية.

1-3 السياسة الفلاحية في ظل إعادة الهيكلة 1981:

جاءت إعادة الهيكلة الزراعية بناء على صدور منشور رئاسي رقم 14 الصادر في 14 مارس 1981 المتعلق بالتسيير الذاتي وتعاونيات قدماء المجاهدين، نتيجة تلك التناقضات البارزة في القطاع الفلاحي من جهة، ومن جهة أخرى فان اهتمام الدولة بالزراعة صادر عن تقييم تجارب التخطيط السابقة، وهذا الشيء طبيعي في ديناميكية الاستثمارات والتنمية واتضح أن حاجات المجتمع إلى الاستهلاك خاصة المواد الزراعية تنمو بشكل سريع جدا تحت تأثير النمو السريع للدخل النقدي للعائلات المتولد عن تدفق استثمارات الدولة المتزايدة ،و تهدف إعادة الهيكلة إلى :

• تطهير القطاع الفلاحي من السلبيات المسجلة.

• إعادة تنظيم الملكيات العقارية للأراضي الفلاحية.

• استصلاح الموارد الفلاحية الوطنية وتهيئة المحيط الريفي في القطاع الاشتراكي، وكذلك تشجيع مبادرة الفلاحين.

• رفع الحواجز البيروقراطية التي تعرقل نقل وتداول السلع، وإعادة تقويم الدخل الزراعي.

• وضع سياسة لتكثيف الإنتاج بالاهتمام بجودة البذور وتحسين طرق والري.

هذا المنشور حاول وضع الأطر والأدوات والكيفيات قصد تنظيم المزارع على أسس اقتصادية، وخاصة كيفية استغلال الأرض والعقار الزراعي، والمستثمرات الزراعية التي نشأت بموجب نظام التسيير الذاتي بعد الاستقلال مباشرة، كانت تعتبر كبيرة من حيث المساحة بحيث بلغ متوسط مساحة المزارع نحو1140 هكتار، وهذا الحجم الكبير كان سببا في بروز الكثير من الصعوبات والمشاكل في إدارة تسيير هذه المزارع وهي تعيش في عجز مالي دائم. كما أنها تعاني كذلك من نقص الإطارات الزراعية العمال المتخصصين وشيخوخة العمال وبروز التداخل في التسيير أدت هذه العوامل الى ضرورة التفكير في معالجة وتنظيم القطاع الفلاحي، واتخاذ إجراءات وتمت إعادة هيكلة أخرى سنة 1983.

1-4 إعادة الهيكلة سنة 1983:

تم من خلالها:

• تنظيم المزارع الفلاحية الاشتراكية DAS:

يهدف إلى إنشاء وحدات فلاحية يسهل استثمارها وتسييرها، ومن ثم التحكم في مواردها المالية، وتنظيم عناصرها الإنتاجية. فقامت الدولة الجزائرية سنة 1982 بتنظيم الأراضي التابعة للقطاع الاشتراكي، وذلك بإنشاء حوالي 3429 مزرعة اشتراكية في مساحة تمتد على ما يقارب 3.830000 هكتار، وهي وحدات منبثقة عن إعادة هيكلة مزارع التسيير الذاتي، وتعاونيات الثورة الزراعية .

• إعادة تنظيم القطاع المسير ذاتيا:

لا يكون مجديا إلا إذا كان مدعما بهيآت تضمن حسن تسييره، وتشرف على عملية الإنتاج وتوزيع المنتجات، وكذلك تنظيم استخدام الآلات الفلاحية، وتوفير ما ينقص منها، ولذلك فقد تم إنشاء مختلف الدواوين والتعاونيات الفلاحية يشرف عليها مهندسون وفنيون زراعيون، تتوزع على المستوى الولائي. بحيث أصبحت تمثل قطاعات تنمية فلاحية SDA يتشكل كل قطاع من 30إلى40 مزرعة اشتراكية، أما مؤسسات الدعم فإنها أصبحت تتكون من:

• الديوان الوطني للتموين والخدمات الفلاحية.

• الديوان الجهوي لتربية الدواجن التي أنشأت في الشرق والغرب والوسط .

• الديوان الوطني للعتاد الفلاحي.

بالإضافة إلى هذه المؤسسات فقد نشأت عدة تعاونيات زراعية متخصصة في تربية الأبقار والمشاتل وتربية النحل .

1-5 قانون 87-19المؤرخ في 02 ديسمبر 1987:

جاء هذا القانون ليضبط كيفيات إستغلال الأراضي العمومية، وتحديد حقوق وواجبات المنتجين، فالأراضي الزراعية التي كانت تابعة لنظام التسيير الذاتي الذي جرى تنظيمها بمقتضى القانون المذكور أعلاه، وذلك في شكل مستثمرات فلاحية سواء كانت جماعية آو فردية، وبمقتضى هذا القانون فان العمال الزراعيين الذين كانوا يشتغلون فيها، وكذلك الأشخاص الذين لهم علاقة بالفلاحة يستطيعون تشكيل وتكوين مستثمرات فلاحية.

-تكوين المستثمرات الفلاحية:

بمقتضى القانون المذكور أعلاه فان المستثمرات الزراعية الجماعية تتكون من ثلاث أشخاص فأكثر أي أن الفلاحون يستطيعون ضمن المزرعة الواحدة إنشاء عدة مستثمرات فلاحية جماعية. ووفقا للمادة السادسة من القانون السالف الذكر فان الدولة تمنح الفلاحين

المنتجين حق الانتفاع الدائم على الأراضي الزراعية وعلى هذا الأساس فان قانون المستثمرات الفلاحية قد أبقى على الملكية العقارية للأراضي الزراعية في يد الدولة وبالتالي غير خاضعة للمعاملات التجارية، أما بالنسبة للمستودعات والبنايات فان القانون سمح بإمكانية التنازل للمستفيدين الفلاحين، ويشترط عدم تغيير نشاطها الفلاحي، وعدم التصرف فيها بحرية تامة.

1-6 إصلاحات 1990:

و نتيجة للمشاكل التي عانا منها القطاع الفلاحي في ظل قانون المستثمرات الفلاحية جاء الإصلاح الثاني عام 1990، والذي يمنح مرونة اكبر للإجراءات التشريعية لكل الوعاء العقاري، يتضمن أحكاما مرتبطة بكل النزاعات حول الأراضي المؤممة في إطار الثورة الزراعية ،والتي تم إعادتها إلى ملاكها الأصليين ،ومنح ملكية المستثمرات الفلاحية لأعضائها مع منح الحرية التامة في التعامل الزراعي وتسويق المنتجات ،وضرورة التكفل بتوفير التجهيزات، وخلق محيط يهتم بالبحث الفلاحي، وتحسين التموين والتخزين والتسويق وتحقيق اللامركزية ، تجعل الفلاح يشارك في تحديد السياسة الفلاحية ،ويساهم بشكل فعال في تحسين هياكل ومحيط القطاع الفلاحي، وجعل المنتج مسؤول عن وسائل الإنتاج الفلاحي ، والعمل على تكثيف القدرات الطبيعية المحدودة .

2 -نتائج السياسات الزراعية المطبقة في الفترة 1963-1990 وأثرها على الإنتاج الزراعي:

إن السياسات الزراعية التي تبنتها الجزائر آلت كلها إلى الفشل، نجحت على المستوى السياسي والاجتماعي و لم تنجح على المستوى الاقتصادي. فبعد إعادة الهيكلة 1981، والتي تهدف إلى إعادة تنظيم القطاع الاشتراكي وقطاع الثورة الزراعية، إنشاء المزارع النموذجية لتتخلى في الأخير عن هذه الإصلاحات، وتبدأ في الانسحاب تدريجيا عن متابعة وتسيير القطاع العام، وبقيت نقطة مشتركة بين الدولة والفلاح هي ملكية الأرض مع الاحتفاظ بالمزارع النموذجية كهيكل فلاحي يمثلها، ولعل السبب الرئيسي هو التعديل الاقتصادي الجديد والاتجاه نحو اقتصاد السوق الذي تبعته خوصصه المستثمرات الفلاحية وكانت نتائجها هي:

- عدم وجود ضمانات وإمكانيات كافية للمستفيدين لإستغلال الأراضي وهياكل لدعم التموين (البذور، الأسمدة) التمويل (البنوك)، مما أدى إلى نتيجة حتمية وهي ظهور نشاطات غير قانونية (كراء الأراضي، استعمالها للرعي)
- غياب مراقبة الدولة لأراضيها ومتابعتها، تبعه انحراف الفلاحين عن ممارسة الدورات الزراعية وإتباع المسار التقني في نشاطهم الزراعي، مما نتج عنه ضعف الإنتاج آو عدم تطويره.
- غياب التامين الفلاحي وعدم الاحتياط المسبق، بإنشاء هياكل الإسناد للفلاحين لإدارة المخاطر التي تتعرض لها المحاصيل الزراعية والإنتاج الحيواني بسبب التغيرات المناخية، وعدم انتظام تساقط الأمطار.
- ضعف هياكل الري.
- قصور خدمات دعم المستثمرات الفلاحية (القطاع العام، والخاص) كما وكيفا.
- عدم وجود علاقة بين خدمات تنظيم المستثمرات الفلاحية والإرشاد الزراعي ونتائج البحوث العلمية.
- فوضى في تسيير الأسواق، وعدم ملائمة التنظيمات المهنية الأساسية عبر شبكة الغرف الفلاحية وجمعيات الفلاحين، والفروع المهنية المشتركة.

• عدم مطابقة النصوص التشريعية، مع حركية الإصلاحات وإعادة الهيكلة (النصوص التي تحكم الوضع القانوني للأراضي الفلاحية والأملاك الخاصة للدولة.

3 –أثر السياسات السابقة على الإنتاج:

• في الفترة 1962 – 1970:

في هذه الفترة ركدت مستويات إنتاج القطاع الفلاحي بحيث بلغت نسبة نمو الإنتاج الزراعي 0.6%، في حين استعادت الدولة ملكية الأراضي، وأقامت نظام التسيير الذاتي على ما يعادل 8,2 مليون هكتار من بين أخصب الأراضي.

• في الفترة 1971 – 1980:

وهي مرحلة الثورة الزراعية تميزت بنمو مؤشر الإنتاج الفلاحي بنسبة 2%، وكانت تهدف إلى تحويل العالم الفلاحي والريفي وإدماجه في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، مع جهود التصنيع القائم في البلاد وبموازاة ذلك تم القيام بمحاولات إعادة الهيكلة سنة 1975 التي تهدف الى تامين استقلالية تسيير الأراضي المسيرة ذاتيا.

• في الفترة 1981–1990:

خلال هذه المرحلة انطلقت إجراءات جديدة للسياسة الاقتصادية مع تحرير سوق الخضر والفواكه، وشرع في تنفيذ عملية تحول كان يجب أن تفضي إلى تحرير تدريجي للقطاع في ظل الإصلاحات الاقتصادية 1987، وعرف الإنتاج الفلاحي خلال هذه المرحلة زيادة متوسطة تقدر بـ 2.23 %.

• في الفترة 1990–2000:

في هذه الفترة كانت بداية تنفيذ المخطط الوطني للتنمية الفلاحية ونهاية السياسات المطبقة سابقا، وجاء برنامج هيكلي مدعم من طرف صندوق النقد الدولي، وتم الشروع في إزالة القيود الكمية على استيراد المواد والخدمات، وتفكيك الإجراءات الإدارية لمنح العملات الصعبة، وتحرير الأسعار، وتخفيض الإعانات وقيمة الدينار، والانتقال إلى نظام صرف مرن تدريجيا، وقد سمح برنامج التعديل الهيكلي 1995-1997 بمتابعة وتعميق الجهود في مختلف القطاعات، وكانت نتائج هذا التعديل بالنسبة لقطاع الفلاحة تتمثل في:

• نمو معتبر لمعدل الإنتاج الفلاحي بلغ 4 %.

• محاولة إنهاء تشتت الهياكل وتبعثر الوسائل، والجهود المخصصة للتنمية الفلاحية.

3 –السياسات المطبقة حاليا للتنمية الفلاحية 2000-2013:

3 1-- المخطط الوطني للتنمية الفلاحية والريفية PNDA:

هو استراتيجية كلية تهدف إلى تطوير وزيادة فعالية القطاع الفلاحي، وهو مبني على سلسلة من البرامج المتخصصة، والمكيفة مع المناخ الفلاحي الجزائري.

3–1–1 اهداف المخطط الوطني للتنمية الفلاحية والريفية:

ويهدف المخطط الوطني للتنمية الفلاحية إلى:

• تحسين مستوى الأمن الغذائي الذي يصبو إلى تمكين السكان من اقتناء المواد الغذائية حسب المعايير المتفق عليها دوليا، وتحسين مستوى تغطية الاستهلاك بالإنتاج الوطني.

• تنمية قدرات الإنتاج للمدخلات الفلاحية من بذور وشتائل.

• الاستعمال العقلاني للموارد الطبيعية، بهدف تنمية مستدامة.

• ترقية المنتجات ذات المزايا النسبية المؤكدة.

3-1-2 ركائز المخطط الوطني للتنمية الفلاحية:

ويتمحور المخطط الوطني للتنمية الفلاحية حول تحفيز وتدعيم المستثمرين الفلاحيين من أجل: تنمية المنتجات الملائمة للمناطق الطبيعية، بهدف تكثيف وإدماج الصناعات الغذائية حسب الفروع.

• تكييف أنظمة استغلال الأراضي في المناطق الجافة وشبه الجافة تلك المهددة بالجفاف بتحويلها لصالح زراعة الأشجار المثمرة وزراعة الكروم وتربية المواشي، وأنشطة أخرى ملائمة مع التركيز على إنتاج الحبوب في المناطق المعروفة بقدراتها العالية.

• تطوير الإنتاج الزراعي والحيواني كافة، وكذا المنتوجات ذات الاستهلاك الواسع والمنتجات ذات المزايا النسبية والموجهة للتصدير.

• الحفاظ على العمالة الزراعية وزيادة طاقة الإنتاج الفلاحي بزيادة حجم العمالة مع تشجيع الاستثمار الفلاحي.

• تحسين شروط الحياة والمداخيل الفلاحية، والاستقرار السكاني.

• تحسين الميزان التجاري الفلاحي، والتحضير لإدماج الفلاحة الجزائرية في المحيط العالمي (الوحدة الأوروبية.

• زيادة معدل نمو الزراعة الصناعية الزراعية.

• تحسين مساحة الأراضي الفلاحية المستغلة والمسقية.

• مكافحة التصحر.

• إعادة الاعتبار للأصل الطبيعي لمختلف مناطق البلاد.

• توسيع هذه المساحة عبر استصلاح الأراضي الفلاحية عن طريق الامتياز، الذي يسمح في نفس الوقت بتثمين الموارد الطبيعية والمحافظة عليها، وتطوير الاستثمار والتشغيل لصالح القطاع الفلاحي، وتوسيع الواحات بالجنوب، وتقدر مساحة المرحلة الأولى الجاري إنجازها من هذا البرنامج بـ 600000 هكتار.

3-2-سياسة التجديد الفلاحي والريفي:

وكما ذكرنا سابقا ان الاستراتيجية لا توضع على المدى القصير، والجزائر واصلت مساعيها لتحقيق امنها الغذائي، خاصة بعد حلول الازمة الغذائية العالمية (2007-2008) والتي ابرزت الآتي:

• هشاشة وتبعية الاقتصاديات والريفية في كثير من البلدان السائرة في طريق النمو:

• محدودية المنظومة العالمية لضبط وتسويق المواد الفلاحية الأساسية. وعزوف بعض الدول الاسيوية مع بيع مادة الأرز، رغم انضمامهم للمنظمة العالمية للتجارة، بمعنى ان كل القوانين أصبحت هشة وتؤخذ القرارات حسب مصلحة كل دولة، ولذلك أصبح على الجزائر اخذ هذه المعطيات في سياستها

• نقص في التعاون الدولي.

• تحطم أنظمة الإنتاج المعيشية الصغيرة في الكثير من البلدان هذا ما دفع جملة من المجموعات الدولية للسعي نحو زيادة الوعي العالمي لهذه الازمة، وكانت المجموعات تنادي من اجل:

• تفعيل وإعادة تصويب السياسات الفلاحية والريفية.

• منح الاسبقية للسياسات الفلاحية والريفية ضمن استراتيجيات التنمية، وقد كانت إجابة الجزائر سنة 2009 خلال قانون التوجيه الفلاحي الذي صادق عليه البرلمان، وأعلن عليه رئيس الجمهورية في 29 فيفري 2009 ببسكرة .

3--2-1أهداف هذه السياسة وأبعادها:

رفعت الجزائر في ظل سياسة التجديد الفلاحي والريفي تحديات عديدة نذكر منها:

- ترقية التقنيات والصناعات الملائمة مع التحولات المناخية
- تحسين مستوى الأمن الغذائي انطلاقا من الإنتاج الوطني.
- تحسين الميزان التجاري الغذائي.
- حماية وتثمين المنتجات المعيشية.
- إرساء تنمية منسجمة ومتوازنة للأقاليم الريفية، وكان لهذه السياسة أبعادا اقتصادية واجتماعية، وإقليمية حيث ظهر البعد الاقتصادي ضمن تجديد الاقتصاد الفلاحي، والبعد الإقليمي الذي ينفذ من خلال التجديد الريفي، والبعد الاجتماعي الذي يعتبر الأساس الذي بنيت عليه سياسة التجديد الفلاحي والريفي.

3-2-2 البرامج المسطرة ضمن هذه السياسة:

انبثق عن هذه السياسة عدة برامج نذكر من أهمها:

- برنامج التجديد الفلاحي: وتنبثق عنه برامج منها:
  - التكثيف والعصرنة.
  - تدعيم القدرة الإنتاجية في محيط محفز ومؤمن
  - سياسة ضبط للمنتوجات.
- برنامج التجديد الريفي: والذي تضمن ما يلي:
  - برنامج دعم التجديد الريفي 2009-2013 الذي يهدف الى:
  - عصرنة وإعادة الاعتبار للقرى والقصور.
  - تنويع النشاطات الاقتصادية في الوسط الريفي.
  - حماية وتثمين الموارد الطبيعية (مكافحة التصحر).
  - حماية وتثمين التراث الريفي المادي وغير المادي.

4 -واقع تطبيق الاستراتيجية الوطنية في الشريط الساحلي لإقليم ولايات الوسط:

4-1 تحديد منطقة البحث:

تغطي منطقة الدراسة الجزء الشمالي الأوسط من الإقليم الساحلي الذي يضم على التوالي ولايات تيزي وزو، بومرداس ،الجزائر، تيبازة، وتعد الجزائر عاصمة الدولة الجزائرية، يحد منطقة البحث من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق ولاية بجاية، ومن الجنوب ولاية البويرة، والبليدة، وعين الدفلى، ومن الغرب ولاية الشلف.

وجغرافيا تمتد من كتلة القبائل الكبرى شرقا إلى وادي الداموس غربا، والبحر الأبيض المتوسط شمالا إلى سهل متيجة جنوبا، بالنسبة إلى ولاية الجزائر والى جبال زكار وجبال الظهرة جنوبا، وغربا بالنسبة إلى ولاية تيبازة وإلى جبال بوزقزة وكتلة الثنية جنوبا، وجنوب شرق بالنسبة إلى ولاية بومرداس، وإلى جبال جرجرة شرقا وجنوبا وغربا بالنسبة إلى ولاية تيزي وزو.

فلكيا تقع بين خطي طول‹45 ,°1و°4 شرق خط غرينيتش، وبين دائرتي عرض»10 ,°36 و» 45, °36 شمال خط الاستواء (انظر الخريطة رقم (01).

تبلغ مساحة منطقة البحث 693314 هكتار، والأراضي الزراعية 353121 هكتار. أي ما يعادل 50 % من المساحة الإجمالية، بلغ عدد سكانها حوالي 5506403 نسمة عام 2008 بكثافة تقدر بـ 794,44 نسمة / كيلومتر مربع.، تتوفر منطقة الدراسة على إمكانات فلاحية طبيعية وبشرية هامة، تلائم زراعة مختلف المحاصيل، الا انها تشهد نموا حضريا

متسارعا أدى الى تراجع مساحات كبيرة من أراضيها الزراعية التي تندرج ضمن سهل متيجة الخصب.

نسبة كبيرة من مساحة الأراضي الزراعية بالإقليم ت شارك بها الولاية، الا انها تتجه نحو التحضر، واستفادت

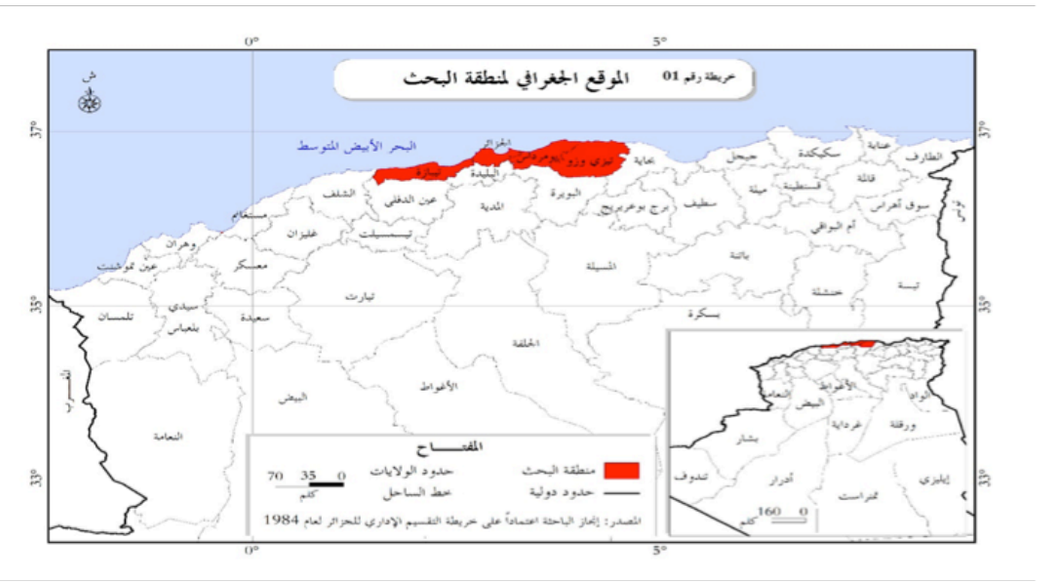

4- 2 واقع تطبيق سياسة التجديد الفلاحي والريفي في الإقليم:

ان واقع سياسة التجديد الفلاحي والريفي في الشريط الساحلي لإقليم الوسط وحسب الدراسة الميدانية التي اجريناها مع محافظي الغابات لبعض المناطق ،تشير الى ان هناك نتائج إيجابية لها ، وتواجه صعوبات لإنجازها في بعض المناطق ،ففي ولاية الجزائر لم تطبق بشكل كبير لأنها تتجه نحو التحضر الذي تسبب في تراجع مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية ،وحسب مصالح الغابات فان المناطق التي اهتمت بهذا النوع من المشاريع ،ولا زالت محافظة ولو بشكل نسبي على طابعها الريفي نجدها في الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية مثل اولاد شبل ، خرايسية ، تسالة المرجة ، الدويرة فاهتمت كثيرا بغراسة الاشجار المثمرة وهناك بعض المشاريع وقفت لأسباب إدارية .

وولاية تيبازة إستفادت في إطار برامج سياسة التجديد الريفي والفلاحي من غراسة الأشجار المثمرة والحمضيات والكروم. وولاية بومرداس بالرغم من ان

في هذا الإطار من بعض المشاريع تمثلت في فتح بعض المسالك، وغراسة الأشجار المثمرة اغلبها في المناطق الجبلية في بلديات خميس الخشنة، قدارة، الاربعطاش، بغلية، تاورقة، كاب جنات، سيدي داود، برج منايل، الثنية لكنها عانت العزلة والفقر والتهميش في العشرية السوداء.

أما في ولاية تيزي وزو عملت المصالح الفلاحية بالتنسيق مع الفلاحين على تطبيق البرامج التنموية التي سطرتها الدولة لإنعاش القطاع الفلاحي في الوقت الراهن في خطوة نحو الاستغلال الأمثل لكل الثروات، و الإمكانات الطبيعية التي تتوفر عليها المنطقة ،ومن السياسات التنموية المطروحة في المجال الفلاحي نجد الإعانات المقدمة من طرف الصندوق الوطني لتنمية الاستثمار الفلاحي إضافة للصندوق الوطني لتنظيم الإنتاج الفلاحي حيث تم خلق والاستثمار في العديد من المجالات التي يعد القطاع الفلاحي بحاجة اليها تماشيا والمحاصيل المنتجة بتيزي وزو، على غرار إنجاز معاصر الزيتون وغيرها كما تسعى المصالح الفلاحية لإعادة

بعث القطاع الفلاحي بولاية تيزي وزو، وذلك بدعم الفلاحين وممارسي هذه المهنة منذ سنوات وتشجيع الفلاحين على البقاء في الأرياف بتوفير جميع متطلبات الحياة بالمناطق الريفية وللحد من ظاهرة النزوح الريفي. تبنت محافظة الغابات بولاية تيزي وزو البرنامج الجواري للتنمية الريفية المدمجة هذا المخطط التنموي والذي تسلم خلاله مساعدات لتربية الحيوانات كالأبقار المواشي ، الارانب الدجاج المنتج للبيض وغيرها من هذه الأنشطة الريفية التي تمارسها المرأة بالقرى ، حيث تسعى الدولة لخلق العائلة المنتجة واشراك الجميع في مشروع التنمية الشاملة .سطرت مديرية الري بالولاية بالتنسيق مع المصالح الفلاحية برنامجا يقضي بالاستغلال الأمثل للموارد المائية التي تتوفر عليها الولاية وتم انجاز العديد من السدود والاحواض لجمع المياه التي وان لم تصلح للشرب وجهت مياهها لاستعمالات الفلاحية .

وتم في إطار التنمية الفلاحية في الإقليم زراعة الأشجار المثمرة 7919.9 هكتار الكروم، الزيتون 1820 هكتار، تحسين العقار137 هكتار، وتم فتح حوالي 339 كم، وتهيئة حوالي 910 هكتار من المسالك، وبناء حوالي 23 سد صغير، وهذه المشاريع كانت الانطلاقة لإعادة بعث الحياة في المناطق الريفية التي تعاني من العزلة.

4-3 مؤشرات التنمية في منطقة البحث:

4-3 -1 نصيب الفرد من انتاج الخضر:

لا يمكن التكلم عن نجاح التنمية الفلاحية الا إذا حققت الكفاية في الإنتاج، وكما لاحظنا ان الطلب عن محاصيل الخضر يتزايد يوم بعد يوم مع التطور السكاني في الإقليم، وتطور نصيب الفرد من الخضر في ولايات الإقليم موضح في الجدول رقم (01) والشكل المرافق له، يلاحظ ان نصيب الفرد من المنتوج في الإقليم خلال الفترة الممتدة بين سنة 1998-2008 قفز من 106 كلغ للفرد /السنة إلى 213 كلغ للفرد /السنة تجاوز المتوسط العالمي الذي يبلغ 192 كلغ /السنة للفرد، وهو يدل على تغطية الطلب المحلي للمنتوج.

الجدول رقم (01): تطور نصيب الفرد من انتاج الخضر سنة 1998-2008

سنة 2008			سنة 1998		
نصيب الفرد (كلغ/ الساكن / السنة)	انتاج الخضر (ق)	عدد السكان(ن)	نصيب الفرد (كلغ/ الساكن / السنة)	انتاج الخضر(ق)	عدد السكان (ن)	
72	2160700	2987160	48	1230563	2542430	الجزائر
348	2056913	591009	193	980397	506053	تيبازة
683	5476000	801068	333	2159873	647389	بومرداس
182	2059654	1127166	96	758964	786047	تيزي وزو
213	11753267	5506403	106	4234797	4804580	الإقليم

المصدر : مديرية المصالح الفلاحية لولاية الجزائر ، تيبازة ، بومرداس ، تيزي وزو

4-3-2نصيب الفرد من انتاج الأشجار المثمرة والحمضيات والكروم

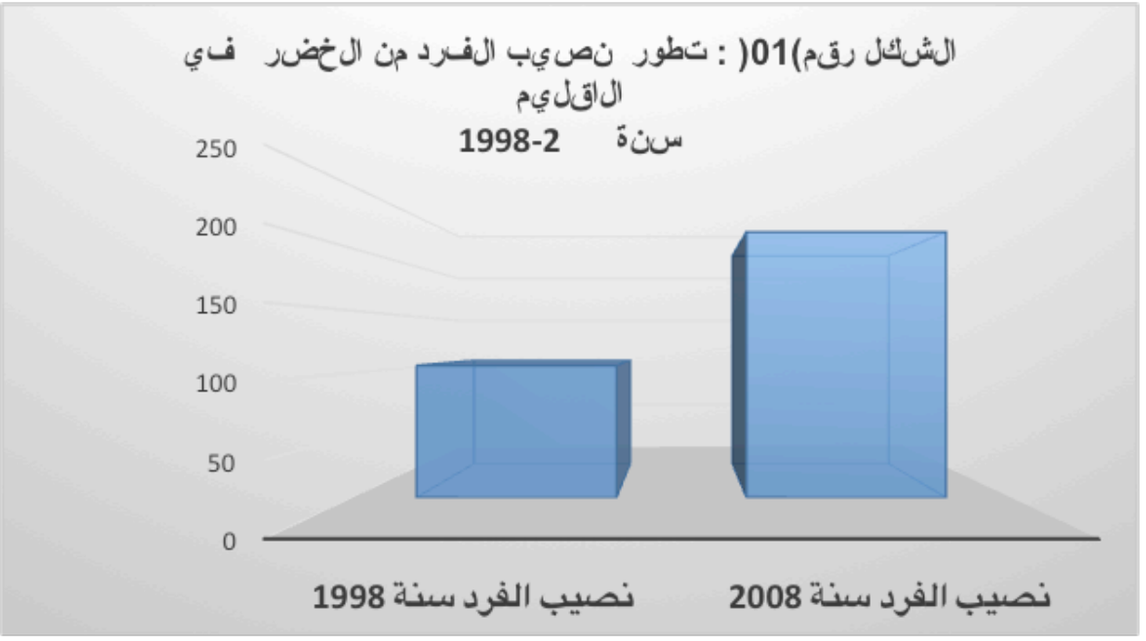

تعرضت المحاصيل الدائمة في العشرية السوداء في منطقة البحث الى اتلاف كبير تسبب في تراجع مساحتها، وانخفاض انتاجها، لكن في السنوات الأخيرة عرف تطورا كبيرا وقفزة نوعية ، يتضح من خلال تقدير نصيب الفرد سنة 1998 و2008 في ولايات الإقليم الموضح في الجدول رقم (02) والاشكال المرافقة له حيث وصل الى 103.73 كلغ /الساكن / السنة عام 2008 ، فرغم تطور الإنتاج الا ان نصيب الفرد من هذه المنتوجات لا يزال بعيد المنال في ولاية الجزائر التي يتزايد فيها الطلب على هذه المنتوجات بلغ نصيب الفرد فيها 9.86 كلغ /الساكن /السنة سنة 1998 وارتفع الى 35.33 كلغ / الساكن في السنة وهو اقل بكثير من المستوى العالمي 80.3 كلغ / الساكن /السنة.

ففي سنة 1998 ولاية تيزي وزو حققت انتاجا تجاوز الاستهلاك والمتوسط العالمي 90 كلغ / الساكن / السنة، ثم تأتي بعدها ولاية بومرداس وتيبازة مكنها من تغطية النقص المسجل في الجزائر.

وفي سنة 2008 ارتفع نصيب الفرد في الولايات الأربعة، نجد نصيب الفرد في ولاية بومرداس تضاعف ثلاثة مرات وصل الى 260 كلغ / الساكن في السنة، ثم تأتي ولاية تيبازة نصيب الساكن فيها من هذه المنتوجات هو الاخر تضاعف ووصل الى 184.70 كلغ/الساكن / السنة، وكذا ولاية تيزي وزو إرتفع نصيب الفرد فيها ووصل الى 129 كلغ / الساكن / السنة، ويمكن لهذه الولايات تلبية احتياجات الجزائر التي وكما ذكرنا سابقا ولاية الجزائر لا تزال عاجزة على تغطية إحتياجات سكانها.

أما بالنسبة لإنتاج الزيتون والتين رغم تطوره الا أنه لا يزال عاجزا عن تلبية الطلب المتزايد عن هذه المنتوجات التي لها قيمة صحية ،حيث كان نصيب الفرد في الإقليم سنة 1998 سوى 4.54 كلغ / الفرد/ السنة ، وهو ضعيف جدا يعود لحالة التلف التي تعرضت لها الأشجار بسبب الحالة الأمنية ،وانتقل نصيب الفرد

بعد رجوع الامن وعودة الحياة الى المناطق الجبلية إلى 12,51 كلغ / الفرد / السنة سنة 2008 والنقص الكبير لهذا المنتوج وانعدامه كان في ولاية الجزائر وتيبازة يغطيان احتياجات سكانهما من ولاية تيزي وزو الذي بلغ نصيب الساكن / السنة من المنتوج 17,25 كلغ / الساكن/ السنة في سنة 1998 وارتفع الى 45,25 كلغ / الساكن / السنة، ومن ولاية بومرداس التي بلغ نصيب الفرد من المنتوج 12,58 كلغ / الساكن / السنة في سنة 1998 ،و15,25 كلغ / الساكن / السنة في سنة 2008.

الجدول رقم (02): تطور نصيب الفرد من انتاج الأشجار المثمرة والحمضيات والكروم والزيتون والتين في ولايات الإقليم سنة 1998-2008

المصدر : الباحثة بالاعتماد على معطيات مديريات المصالح الفلاحية لمنطقة البحث سنة 2000 ،2011 .

	الأشجار المثمرة، الحمضيات، الكروم					
	1998			2008		
	عدد السكان (ن)	**انتاج الخضر(ق)**	**نصيب الفرد (كلغ/ الساكن / السنة)**	**عدد السكان(ن)**	**انتاج الخضر (ق)**	**نصيب الفرد (كلغ/ الساكن / السنة)**
الجزائر	**2542430**	250899	09.86	2987160	1075095	35.99
تيبازة	506053	335870	66.37	591009	1091640	184.70
بومرداس	647389	486861	75.20	801068	2085513	260.34
تيزي وزو	786047	728655	92	1127166	1459783	129.50
الإقليم	4804580	1801991	37.52	5506403	5712031	103.73

	الزيتون والتين					
الجزائر	2542430	/	/		/	/
تيبازة	506053	1260	0.24	591009	47695	8.07
بومرداس	647389	81500	12.58	801068	125631	15.68
تيزي وزو	786047	135600	17.25	1127166	515648	45.74
الإقليم	4804580	218360	4.54	5506403	688974	12.51

الشكل رقم 03 : نصيب الفرد من انتاج الزيتون والتين في الاقليم سنة 1998 - 2008

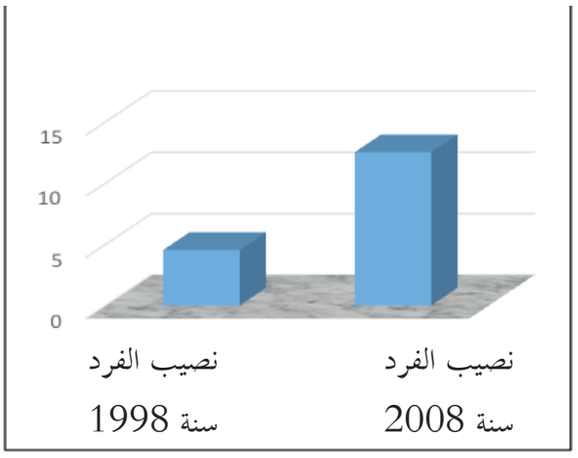

الشكل رقم 02 : نصيب الفرد من الأشجار المثمرة، الحمضيات، الكروم في الاقليم سنة 1998 - 2008

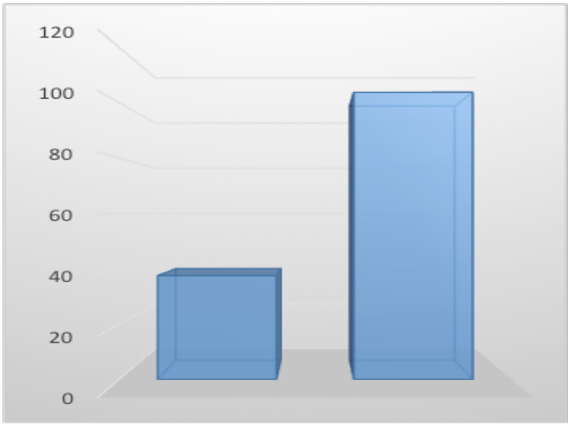

3-3-4 نصيب الفرد من الحبوب:

ان نصيب الفرد من الحبوب في الإقليم ضعيف جدا وبعيد المنال لتذبذب انتاجها فهي على العموم غير كافية لتلبية متطلبات السكان المتزايدة على هذا المنتوج الاستراتيجي، وهو يعكس صورة الوضع الخطير الذي يعيشه سكان إقليم يحوي أكبر تجمع سكاني في الجزائر، والذي لم يتجاوز 4 كلغ /ساكن / السنة لحد الان، وهو اقل بكثير بل بعيد عن المتوسط العالمي الذي وصل الى 329 كلغ /ساكن، وقد وجدنا أكبر حصة من الحبوب هي لسكان تيبازة فنصيب الفرد فيها بلغ 24 كلغ /ساكن / السنة سنة 1998، وانخفض الى 17,24 كلغ / ساكن / السنة للأسباب طبيعية وبشرية ، ثم سكان ولاية بومرداس بلغ نصيب الفرد فيها من الحبوب 3,2 كلغ / ساكن /السنة وارتفع سوى الى 7.60 كلغ / ساكن / السنة .

الجدول رقم (03): تطور نصيب الفرد من الحبوب في الإقليم سنة 1998-2008

الولاية	سنة 1998		سنة 2008		
	عدد السكان (نسمة)	انتاج الحبوب (قنطار)	نصيب الفرد (كلغ/ الساكن / السنة)	عدد السكان (نسمة)	انتاج الحبوب (قنطار)	نصيب الفرد (كلغ/ الساكن / السنة)
الجزائر	2542430	9591	0.37	2987160	12536	0.41
تيبازة	506053	121678	24.0	591009	101946	17.24
بومرداس	647389	50334	3.2	801068	60948	7.60
تيزي وزو	786047	5687	0.72	1127166	7321	0.64
الإقليم	4804580	187290	3.89	5506403	182751	3.31

المصدر : مديريات المصالح الفلاحية لمنطقة البحث

الشكل رقم 04 : نصيب الفرد من الحبوب سنة 1998

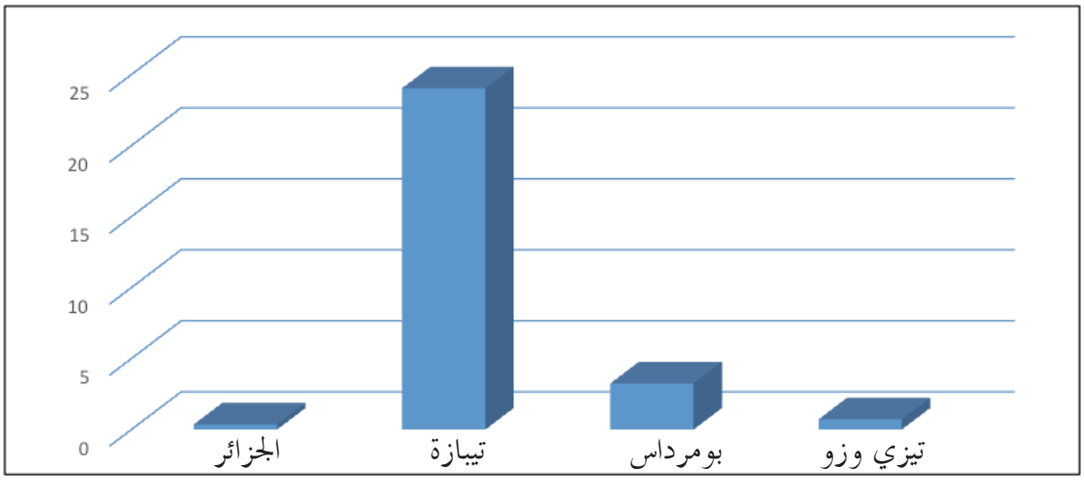

4-4 الإنتاج الحيواني:

ان الإنتاج الحيواني المتمثل في اللحوم الحمراء والبيضاء والحليب والبيض والعسل في الإقليم متذبذب خلال الفترة 2000-2010، يعكس صورة الأوضاع المزرية التي يتخبط فيها مربو الماشية من غلاء أسعار الاعلاف الحيوانية، والامراض التي تتعرض لها الحيوانات (أنفلونزا الطيور، الحمى القلاعية)، مما أدى الى تناقص حصة الفرد من المنتوجات الحيوانية، ولا تزال بعيدة عن المستوى العالمي، وتلبية احتياجات السكان المتزايدة.

الخلاصة :

وأخيرا إضافة الى كل ما ذكر يشهد القطاع الفلاحي مشاكل أخرى تتعلق بضعف التسيير نقص الكفاءات الفنية وهشاشة التأطير (94 ٪ من المشتغلين بالزراعة سنة 1980 كانوا دون مستوى التأهيل يمكنهم من ممارسة مهنتهم على احسن وجه ،والأراضي الفلاحية مقسمة بين قطاعين : قطاع خاص لم يعن بالرعاية اللازمة، وقطاع عمومي لم يستقر منذ الاستقلال بل حدثت فيه تغيرات جذرية ،ونقلة كبيرة من مزارع كبيرة الى مزارع المستوطنين الى مزارع التسيير الذاتي، ثم المستثمرات الفلاحية ، ورغم المجهودات التي بذلتها الدولة لتطوير القطاع الفلاحي منذ سنة 2000 ضمن المخطط الوطني للتنمية الفلاحية PNDA ،والمخطط الوطني للتنمية الفلاحية والريفية 2002 و سياسة التجديد الريفي التي انبثقت من الاستراتيجية الوطنية للتنمية الريفية المستدامة ،وسياسة التجديد الريفي والفلاحي 2008. والتي استهدفت دعم الإنتاج النباتي و الحيواني ،وتكوين الإطارات الفلاحية، ومع ذلك كانت هذه الجهود غير كافية في ظل سوء التسيير وغياب التنسيق مع القطاعات الأخرى، وعدم معالجة مشكل الملكية العقارية ،وتقلص المساحة الزراعية نتيجة التوسع العمراني ، كل هذه النقائص التي شهدها القطاع الفلاحي الجزائر وتكملة لمسارها وضعت المخطط الخماسي لسياسة التجديد الفلاحي والريفي 2010-2014 كمحاولة للوصول الى استدامة الغذاء تعتمد على التقنيات الحديثة المتجددة وباقل تكلفة لإخراج قطاع الفلاحة من حيز التخلف ، و تقليص الفجوة الغذائية ، وتحقيق الامن الغذائي ونحن متأكدين بان الأرض الجزائرية لا زالت لحد الان لم تقدم كل ما تملك من إمكانيات.

المصادر والمراجع:

1. بوعافية رشيد، عزاز سارة؛ دور القطاع الفلاحي في تحقيق التنمية الاقتصادية في الجزائر خلال الفترة 1990-2013.

2. بلعباس مسعود: التحولات الريفية في ولاية البويرة؛ رسالة الدكتوراه في الجغرافيا، جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا، باب الزوار، الجزائر 2001.

3. عمر صدوق: تطور التنظيم القانوني للقطاع الفلاحي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1988 ص 65.

4. وزارة الفلاحة والتنمية الريفية قانون رقم 87-19المؤرخ في 02 ديسمبر 1987.

5. وزارة الفلاحة والتنمية الريفية: دليل استراتيجية التنمية الريفية المستدامة 2006 ص 25.

6. رشيد بن عيسى رشيد بن عيسى، السياسات في إشكالية الأمن الغذائي، مداخلة منشورة ضمن أشغال اليوم البرلماني تحت عنوان: استراتيجية وطنية لتحقيق الأمن الغذائي 05 ماي 2010، كتاب صادر عن لجنة الفلاحة والصيد البحري بالمجلس الشعبي. الوطني، ص. 27.

7. رشيد بن عيسى، مرجع سبق ذكره ص 29.

8. رزاز محمد عبد الصمد، التنمية السياحية المستدامة في ولايتي الجزائر وتيبازة: أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه كلية علوم الأرض والجغرافية والتهيئة القطرية جامعة هواري بومدين، باب الزوار، الجزائر 2011. ص09.

9. معطيات وزارة الفلاحة والتنمية الريفية 2008.

10. بلقاسم بلال: أثر التوسع العمراني على الأراضي الزراعية في الجزء الشرقي من سهل متيجة ؛ حالة دائرة الدار البيضاء، رسالة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة. ص 270.